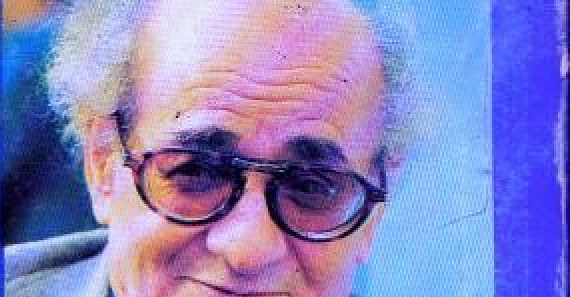
الأعمال الكاملة:
خيري شلبي



الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى
سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث اجزاء

— وثانينا الكومى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة أعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى

أيام الأسبوع سبعة:

الأولة ـ هلت ليالى القمر

نجحت أمى ذات ليلة فى أن تتصيدنى فى حالة رائقة، إذ أن الأمر الذى ودّت أن تحدثنى فيه قد يسعدنى فاطير فى الهواء فرحا، وقد يصدمنى فاشكمها فى وجهها بقبضة يدى. لكنها أمى يا بوى ولا كل الامهات، حويطة أشد من حوط المشير ولد أبو عامر يا بوى، تصيدت روقان مزاجى وضحكى على الفاضية والمليانة فصارت تحكى نوادر وأخبارا ونكتا تمثل خلالها أدوار الهتماوات والأطفال والمخنثين وسباع الليل ـ أى الكلاب، حتى ضحكت وصفّيت الغم كله، وقلت:«كفاك يا أمّ لقد أوجعت بطنى من الضحك». فسرعان ما أمرت إخوتى البنات بأن يفضضنها سيرة ويقمن لتلصيق (الجلة) وتبييت الفراخ والتتميم على الأرانب وسد هواء الباب الكبير وخروم العشة حتى لا تجد العرسة منفذا تنفذ منه للدجاج، والحذر من الثعبان الساكن بجوار العشة فى أمان لا يؤذى إلا من حاول إيذاءه، إلى أن يأذن الله باستقدام أحد الرفاعية للقبض عليه يدًا بيد فى صنعة لطافة.

داخلنى الاطمئنان يا بوى وحدثت بقلبى «نغمشة» مفرحة فى انتظار لخبر طيب، وقبل أن أتهيأ لاستماعه يا خال كانت أمى قد

رمت به في جملة واحدة كأنها لاتزال تحكي النوادر والأخبار والنكت. التهيت برهة ثم انتبهت فجأة فصحت فيها: «ماذا قلت يا أمّ؟» قالت كأنها تخشى من ترديد الخبر مرة أخرى «ألم تسمع؟»قلت:«أحب أن أتأكد»، قالت بكثير من الحرج وقليل من الفرح المضمر، مشوحة:«يو..و..ه .. قلت: إن خرابة يدوّر على أختك سعدية!».

رجعت بدماغي إلى الوراء يا بوي، اعتدلت في قعدتي عدة مرات، شوك في كل موضع صار يشكني في قلبي، صارت كل الدماء في عروقي أسنان شوك تسعى في عروقي تشعل النار في حلقي في رأسي في عيني. ربنا ما يوقعك في ضيقة كهذه يا خال، تحلف اليمين إنها ولا ضيقة القبر!..

«خرابة»؟! «خرابة» بذات نفسه يا بوي؟! يدّور على أختي «سعدية» يريد أن يخطبها ويتزوجها، وهو الذي يستطيع بإشارة أصبع أن يخطفها ويستحلها كخليلة، كجارية دون أن يجرؤ على اعتراض طريقه نفر واحد لا من الناس ولا من الحكومة من التخين للجعيص فيها. أما أنا فلست سوى قشة. ريشة إذا تمطع ونفخها طيرها الريح بددًا. الحكومة بجلالة قدرها لم تجرؤ على اعتراضه يا بوي ولم تفلح في الإمساك به يا بوي، فهل أقدر أنا يا غلبان يا مسكين أن أعترضه أو حتى أعترض عليه؟! هذه والله محنة جديدة منيت بها ياحسن يا ولد أبي ضب فهل لم تجد المحن في الدنيا هدفا تستضعفه سواك؟! لولا تأكدي من حب أمي لوثقت أنها دعت علي بألاّ يجبرني الله ويجعلني أبد الدهر في قلق ووجع دماغ!..

- ٦ -

هي برهة واحدة يا بوي، سرعان ما رأيت نفسي بعدها قد تحسنت وصرت في آخر روقان، اختلست البصر نحو أمي فوجدتها مطرقة إلى الأرض وجهها ملفوف برداء أحمر وليس أسود كالعادة ـ توحي لي به أنه من علامات الفرح والموافقة عندها، فقلت لنفسي ولماذا لا توافق يا ولد أبي ضب؟ لقد كان بإمكان «خرابة» أن يفعل ما يحلو له لكنه استرجلك واعتبرك وعمل لك حسابا ووقارًا فجاء يدخل البيوت من أبوابها، رغم أن دخول البيوت محرم عليه منذ سنوات وسنوات باعتباره أحد ستة مطاريد يحكمون الجبل يتسلطنون عليه. قل يا بوي: إنني شعرت بالعزة مقدما، انتفخت في قعدتي وانتويت الحديث في المهمات على أرض الموافقة. لكن خاطرا ملعونا جرى كحشرة البرص في رُكن من دماغي، فاقشعر جسدي من نعومته وزفلطته واختراقه نخاعي: كيف تأتّى لخرابة أن يرى أختك «سعدية» يا ولد وهو الذي لا ينزل البلدة قط إلا بتدبير يتم على مدى أيام، ومراقبة مستمرة على طول ليال وفي لحظة لا يعرفها أحد، حتى من رجاله المرصوصين على امتداد الطريق الذي سيرتقيه رائحا غاديامن

الجبل إلى داره ومن داره إلى الجبل والبنادق والمدافع الرشاشة مخبأة فى أعشاشها داخل الثياب كالدجاج الراقد على بيض يتكسر، والقذائف العمياء على أهبة الانطلاق بدون تفاهم مع الصدور أو الأكتاف أو الأدمغة أو القلوب فإن نفد الرصاص فالخناجر والسكاكين والسيوف مربوطة على السيقان والزنود والسواعد غير بائنة، هكذا هو كلما نوى رؤية أولاده فى يوم موسم أو يوم عيد أو ليلة مفترجة وهكذا زوجته هى الأخرى كلما نوت أن تأتيه فى مربضه السري بالجبل تحت نفس الحراسة المشددة!..

فـ «خرابة» يا خال مطرود منذ ما يربو على عشرين عاماً، ومحكوم عليه بمائة وخمسة وسبعين عاما من السجن المؤبد والأشغال الشاقة المؤبدة مع أن عمره كله لم يبلغ الأربعين بعد، حيث إنه قتل أرواحا لا حصر لها، فى معارك مع أولاد عمه ومع الحكومة، نجح خلالها فى ترحيل أبناء عمومته إلى بلدة أخرى، مكتفين شره بالبعاد، ونجحت الحكومة فى أن تسكنه الجبل إلى الأبد كبديل عن السجن. لكنها ـ لزناخة مخها، لم تفطن إلى أنها عينته إمبراطورًا على الجبل وعلى البلدة كلها. فمن يتحكم فى الجبل يتحكم فى البلدة. على الدوام: حاكم الجبل هو حاكم البلدة، وإن كان لها عمدية وخفراء يسندهم عسكر ومآمير وحكمداريون ومخاليق لا حصر لهم، البلدة، والبلاد المجاورة كلها تحب «خرابة» لأنه حماها من لصوص ومن عائلات متجبرة كثيرة كبيرة فطارد

اللصوص حتى محاهم، واستبقى أرجلهم، فتوبهم وضمهم لرجاله، فصاروا من خلصائه، أما العائلات المتجبرة فكسر أنفها، يفرض عليها الفرضة تدفعها عن يد وهى صاغرة: تقول سبحان الله والحمد لله. اسمه «خرابة» لكنه سخى جواد على رجاله يخطب لهم أجمل الفتيات وأغنى السنايير يكلف لهم ولهن أعراسا داوية حافلة يرقص فيها الخيل ويرتع القوم على المزمار والطبل البلدى ليالى بطولها حتى الصباح، لهذا تمنى كل شبان البلدة أن يكونوا من رجاله يا بوى، ولو جئت للحقيقة لقلت إن شبان البلدة كلها بالفعل من رجاله، يخدمون تحت إمرته أو إمرة زوجته، أولاده صحابه، حتى من يشاع عنهم أنهم من رجاله، لهم فى صدور الناس مراتع وفى قلوبهم مدافئ وفى رحابهم خيرات. ويل لمرشح الدائرة، إذا لم يتصل بـ «خرابة» وينسق معه كل شئ؛ على المرشح أن يتنكر حتى فى زى امرأة خلبوصة ويسلم نفسه لرجال «خرابة» ليجد نفسه بين يوم أو أكثر قد التقى بامرأة مثلها أو كهلا طيب القلب أو شحاذا غلبانا أو درويشًا أبله يتكلم معه باسم «خرابة» كلاما لا ترد فيه سيرة «خرابة» على الإطلاق ولا شيء يتعلق بأمره. إنما هو كلام عن الانتخابات والعائلات والأحزاب مما يتكلمه عموم الناس في كل مكان دون أن يثيروا شبهة ولا قيلة، ولكن المرشح يعرف بعد لحظة الانفضاض والانصراف أن هؤلاء الذين قابلهم كانوا«خرابة» بذات نفسه، والمرشح مهما كان شريرا لن يكون غبيا أبدا فيبلغ عسكر الشرطة والمباحث ليقيموا كمينا للقبض على «خرابة»، لأنه لو فقد عقله، ففعل ذلك، فإن مذبحة

سيعلو أوارها فى الحال، يكون هو أول ضحاياها من أول بادرة شك تُشتمّ ريحتها فى المحيط الجبلى كله. ولماذا يفعل المرشح ذلك وهو يمنى نفسه برضاء «خرابة» ليفوز بالتزكية، فلو فاز ـ ولابد أن يفوز ما فى ذلك ريب ـ فـآه ثم آه على النعيم الذى يحل على كليهما ويفيض على أهل الدائرة، النائب يتعهد بينه وبين نفسه بالعهد الذى قطعه على نفسه تلميحا أو تصريحا مع «خرابة» بأن يظل يحمى أهل الدائرة، فكيف يحميها يا بوى؟ يعنى أن يظل يحاجى عليها ويمنع أرجل الحكومة من النزول إليها أو إقامة نقط ومراكز فيها، ومهما كثرت القرى وتغولت المدن يظل كل مركز شرطة يحتوى على مجموعة كبيرة من البلاد يحار فى حكمها الفرس والروم يا بوى، وتظل المدارس مقصورة على المدن البعيدة، حتى لا تصيب القرى بكثير من المتلامضين المتفلحسين جلأبى المشاكل ووجع الدماغ، هذا هو عين ما كان يطلبه المرشح لكى تبقى دائرته مجرد ضيعة يتملك ثلاثة أرباعها على الأقل. فمعظم الناس عنده إذن أجراء، وكان «خرابة» يعرف دائما أن المرشح يخدعه بطلاء القول فكان يلف عليه من وراء لوراء ويطلب وساطته لإدخال أبناء الناس الموسرين سلك المدارس، وثمة شبان كثيرون فى الدائرة يدينون لـ «خرابة» بفضل إلحاقهم بكلية المحامين وكلية الدكاترة وكلية المهندسين وبالوظائف:

تومرجية فى المستشفيات وكتبة فى التفاتيش وملاحظى أنفار فى الوسايا، هذا كله لخرابة وحده فما بالك بخمسة مطاريد آخرين عتلأت من حكام الجبل؟!..

«خرابة» هذا كله يا بوى، جاء يخطب أختى «سعدية» فيا لها من أملة كبرى، ولكن كيف بالله يا مسلمين عرف «خرابة» أن لى أختا واسمها «سعدية» بالذات، وأنها جميلة لدرجة تستحق أن يتزوجها على زوجته أمّ أولاده المجدع التى لم تفرط فى عرضه قط، ولم تكن أقل شهامة منه! دعنا من هذا، ولكن لا تدعنا من هذه النقطة التى ربما كانت ثقبا غائرا يا بوى: كيف تعرّف«خرابة» على أختى؟!..

وهنا غاضت الدماء فى وجهى وارتفع دق الطبول فى قلبى، لكن أمى كانت أسرع من دقات قلبى، إذ قالت:«كان خرابة نازلا فى العيد الفائت فى دُغَيشة الفجر متنكرا فى زى درويش عبيط، فرآها خارجة من الدار إلى الترعة تملأ البلاص وهى تتدلع فى المشى على راحتها ظنا منها أن الطريق خالية، فرآها، فسحرته، فسأل عنها، فدلوه، فبعث يطلب منا عنوانك فى مصر ليفاتحك فى أمرها، فاستمهلناه بعض الوقت زاعمين أنك عائد فى القريب العاجل!».

الصدق كان واضحا فى نبرة الولية يا بوى، فلم أشأ أن أصدقها أو أكذبها، لكننى قلت على سبيل الاختبار وإطالة مهلة التفكير: «وهل توافقين يا أم على أن تزوجى ابنتك على ضرة!» . شوحت بيدها قائلة: «يا خويه! النبى عليه الصلاة والسلام أتجوز أربعة، واحنا فى ديك الساعة! لما نبقى من عيلة خرابة! وفى عزوته!» وجدت نفسى أقول لها: «على بركة الله يا أمّ مادمت

تريدين هذا فلا يحق لى أن أمانع! مبروك على سعدية هذا العريس التخين! ولكننى يا أمّ لن أكون من رجاله فى يوم من الأيام! فما أظن أن لى لقمة عيش فى الجبل بعد أن شفت بعينى حلاوة الدنيا فى البندر. قالت الولية بفروغ بال أفزعنى والله يا بوى: «ياعالم! يا ترى من يعيش!» لكننى صحت من ورائها فى ورع «على رأيك! يا ترى من يعيش!» ووالله كنت فى قرارة نفسى قد بدأت بهذا النسب التخين.

الثانية ـ عُرْس القمر

تحلف اليمين يا بوى أن مخى يتبرجل كلما تذكرت أن «خرابة» سيصبح زوجا لأختى «سعدية». الخوف كان يجرى فى مفاصلى، فهذا رجل من عتاة المطاريد، فكيف يتهيأ له أن يقيم فرحا لنفسه كعريس لابد أن يحضر زفته بنفسه أمام القوم كلهم، أنا طبعا لست أقبل أن يدخل على أختى بدون فرح حتى لو وافقت الولية، دخول العروس بدون فرح يحضره الجميع هو سبى واغتصاب وعار، ستكون الفضيحة بجلاجل وشخاليل، ستقول ألسنة السوء إن فى الأمر سرا آخر، ولسوف يؤلفون من عندهم ويتلمسون الأعذار لـ «خرابة»، ولكنهم فى نفوسهم، لن يصدقوا أعذارهم. لا، لا، لا، يا خال، كل شىء فى بلدنا مقبول ويمكن تبريره إلا العرس بدون فرح تلعلع فيه الزغاريد وتنقش الطبول صفحة السماء بالنقر ودوائر الأنغام..

لكنه «خرابة» يا بوى والأجر على الله، فالرجل الذى دوخ الحكومة وهزمها لن يعجز بالطبع عن إقامة عرس له. صدق أو لا تصدق يا بوى أن عرس «خرابة» على أختى «سعدية»، لم يكن له

ضريب فى البر كله، لقد رأيت من الاعراس كثيرا، فلم أجد لهذا العرس أخا. إذ خرجت الوفود من لدن «خرابة»فى السر إلى كل أصدقائه ومعارفه وعملائه وكل من يفرض عليهم حمايته وإتاوته، فأبلغوهم خبر الزفاف وموعده بالساعة والدقيقة: ولم يكن من بين كافة المدعوين وغيرهم من يجرؤ - أو يقبل - أن ينبئ الحكومة حتى يبقى العرس فى نظر رائيه مجرد عرس كبير والسلام..

يوم العرس اصطحب رجال «خرابة» من أول الجبل حتى قلب البلد فأحاطوا بدارنا ودار «خرابة» وساحة العرس إحاطة الاسورة للمعصم وأحيط دوار العمدة وداره من غير أن يشعر هو بشيء، وقطعت أسلاك التليفون على الطرقات ليصبح التليفون فى دوار العمدة جثة هامدة لا نفع فيها، واتخذ رجال آخرون مواقعهم على كل السكك ومداخل البلدة من جميع الجهات، كل هذا حدث فى أول النهار فما كاد العصر ينطق حتى وافانا أهل المزمار والطبل البلدى، ثم أهل الفراشة، فنصبوا السرادق الكبير المهول، وأقاموا منصة لرقص الغوازى بعيدا عن ساحة رقص الخيل، عند خروج الناس من صلاة العصر فوجئوا بزيطة وزمبليطة فى الوسعاية أمام دار«خرابة» وأمام دارنا، الطبل يصدح والمزمار يزأر والخيول الاصيلة ترقص تحت الرجال تفعل الاعاجيب. أما دارنا فقد امتلات لتمتها بالنساء، وكانت الماشطة قد جلت أختى «سعدية» وجعلت منها عروسا بحق وحقيق، زادتها جمالا حتى خيل لى أنها :

اخرى قادمة من البندر، ولحظتذاك استخسرتها فى «خرابة»، ثم عدت فقلت لنفسى: إنه رجل وهى تستاهل!..

راحت طلقات الرصاص تدوى محلقة فى سماء البلدة كأسراب العصافير المضيئة، وكان العريس ذاهبا يستحم فى دار خاله قبلى البلد وطلقات الرصاص تزغرد له طوال الطريق بعد صلاة العشاء، انطلق موكب الزفة من دار الخال فلف البلدة كلها ساير داير، تتقدمه المزيكة، وتتقدم المزيكة طلقات الرصاص، «خرابة» فى قلب الزفة كالبلية لا يكاد يبين، إذ هو قصير القامة، نحيف الجسد كنصف فرع يابس ورأسه كرأس الهدهد مستطيل مدبب، والعمامة الكبيرة حول اللبدة فى عرض كتفيه، ووجهه يطل من تحتها مجرد عينين صقريتين تطلقان رصاصات مشتعلات، ومن تحتها أنف صغير دقيق كبز متكلس فوق راحة يد، والجلابية الكشمير تحتها القطنية، فالصديرى، فالفانلة ذات الأكمام، والعطر يفوح من صدره. فإذا رفع يده بالتحية وجدتها صغيرة كيد طفل صغير تكاد لا تبين فى فراغ كمه الواسع، تنسدل ثيابه حتى الأرض فتخفى قدميه الصغيرتين..

كانت هذه ثانى مرة أرى فيها «خرابة». أما الأولى فكانت قبل ذلك ببضعة أسابيع، يوم جاء إلى دارنا بليل كى يخطب «سعدية» منى ومن أولاد أعمامى الفقهاء، ويقبضنا مهرها: مائة وخمسين جنيها أخضر من أهيف القد ممشوق القوام. وفوق ذلك، يأمر واحدا من رجاله بتشغيلى حارسا لواحد من معارفه القبط فى

بلدة «أبو حجر»، فنفذ أمره ثانى يوم، واستلمت الشغل والعربون، فكان ذلك شيئا جميلا من «خرابة»، جعلنى أحبه وأعرف أن الرجال كرامات وعقول وليست أجسادًا وأموالا..

خرجت «سعدية» من دارنا فى زفة كبيرة تتقدمها الدربكة والمغنية، وهذه تتقدمها الزغاريد منافسة لعلعة طلقات الرصاص، حتى وصلنا بها إلى دار العريس التى ابتناها خصيصا فى بضعة أيام، أجلسنا العروس فى الحوش فوق كرسى عال وبجوارها شقيقتها «هندية»، التى بدت أخطر منها. وبجوارها، من الناحية الأخرى، شقيقتها التالية، وبجوارها ابنة خالتها «فوقية»، وسط حشد من النسوة ترش عليه الملح فلا تسقط منه حبة واحدة على الأرض. والمغنية شغالة والنقوط يرف عليها من كل امرأة وصبى. فى نصف الليل وصل العريس فدخل على عروسه والفرح شغال فى السرادق رقصا ومغنى ونمرا متوالية من كل صنف ولون. أولاد عمى والبنات يقفون تحت شباك العريس، وأيديهم على قلوبهم، يتعجلون خروج الماشطة بالمحرمة البيضاء، وقد تبقعت بدم الشرف الغالى. صار أولاد عمى الأشقياء يغنون ساخرين «إن كنت غشيم أطلع بره» فما كادوا يتمون غنوة استحثاثه، حتى دوت صرخة سريعة مفاجئة مقطوعة، دوت فى أعقابها الزغاريد، وانفتح الباب، وخرجت الماشطة فاردة المحرمة بين يديها كالعلم، فانبرى النسوة يغنين: قولوا لابوها الدم بلّ الفرشة! قولوا لابوها يروح بقى يتعشى!».. بعدها خرج العريس لتحية المعازيم وحصر

النقوط، وكان القادمون من صلاة الفجر العائدون من العرس فيسلمون على بعضهم البعض فى فرح.

عدّت الليلة على خير يا بوى، وفى اليوم التالى وضعنا أيدينا على قلوبنا وبقيت موضوعة هكذا شهرا كاملا يا بوى و «خرابة» مختف فى داره الجديد يعتصر نفسه داخل عروسه ويعلمها نفسه على حقيقتها، وكلما ارتفع صياح فى أى مكان فى البلدة، جرينا نستطلع الخبر، وفى يقيننا أن الحكومة وصلت وقبضت على «خرابة»، من حضن عروسه فلما أصبحنا ذات يوم، ذهبنا كالعادة للصباحية على العروس وجدنا «خرابة» قد رحل. فدخل الاطمئنان قلوبنا وأيقنا فى ستر الله.

الثالثة ـ زمن الولاد

جرى القرش فى يمينى يا خال وطابت لى الحياة فى الصعيد حيث الرجل الذى أخدمه يكرمنى أشد الكرم. ولست أعرف إن كان إكرامه لى انبساطا منى أم خوفا من «خرابة». لكننى مشيت فى البلدة مرفوع الرأس منفوخ الصدر يا خال. الناس يشيرون نحوى من طرف خفى قائلين: هذا صهر «خرابة».. فيعتدل السامعون فى الحال يغيرون نظرتهم لى، يختلف تعاملهم معى، سعى إلى مصاحبتى خلق كثيرون، أصبحت أنعزم على الغداء، والعشاء، والأفراح كل يوم فى كل مكان، لا أدخل إلا بعد صلاة الفجر..

من بين من صاحبونى على حس «خرابة» ولد مجدع اسمه «هليِّل» وأبوه فلاح من ذوى الأملاك يدعى «يوسف النجار» حلو التقاطيع كابنه مسمسم الملامح، عشرى اللسان رقيق الكلام. الولد كأبيه، ولا خلاف بين الإثنين حتى فى مظهر العمر؛إذ أنّ الأب يبدو فى سن ابنه مع أن الولد فى العشرين من عمره باليوم والساعة والدقيقة ـ كلاهما يرتدى ثياب الآخر، ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما سواء فى الصوت أو فى الشكل أو فى طريقة الكلام،

الوالد يضع يده على مساحات كبيرة من أراضى طرح النهر فى أزمنة الفيضان، يسهر على زراعتها ليل نهار، وما على الولدإلا السعى فى بيع المحاصيل وطلوع الأسواق للمتاجرة فيها وفى المواشى الصغيرة السن نتاج زريبة كبيرة أنشأها الوالد من شطارته. ولد: ولا كل الولدان يابوى، كريم، سخى، جواد، يكسب كثيرا مع أنه زاهد فى الدنيا، قليل النفقات على نفسه وملذاته، إلا حين أكون معه، فحينئذ يصرف بلا حساب، وهو فى غاية الاستمتاع لرؤية الصحاب مسرورين بسببه، كان مؤمنا يؤدى الفرض بفرضه، يفكر فى طلوع الحجاز غير أنه يؤجل السفر إليه حتى يشون الأوان، كما يقول، والأوان فى نظره، أن يكون هو نفسه قد أصبح يثق فى أنه قادر على احتمال مسئولية الحج، التى هى ليست لعبة يشتريها كل من معه المال: تعلمت الصلاة تقليدا له لا خوفا من الله، وواظبت عليها حبا فى أن يربطنى الناس بصاحبى «هليِّل» حين يمتدحونه، وما أكثر ما يفعلون.. فكانوا يروننى معه كلما ذهب إلى المسجد لأداء الفريضة، ويرونه معى كلما ذهبت للسهر فى مكان بعيد أشرب فيه الحشيش، غير أنه كان لا يشرب إلا خطفا لأنفاس سطحية لا تستمر فى الدماغ..

بفضله ـ هليِّل يا بوى ـ انتقلت دارنا من حال إلى حال، حيث أصبحت طواجن الحليب تعرف طريقها إلى دارنا صباح كل يوم، تحمل سخونة الضروع، حتى صرنا كالفلاحين أصحاب المواشى: ندخر الحليب ليروب، فنحصل على قشدة، وزبد، وسمن، وجبن قريش وكذلك نصنع الفطير المشلتت. قل يا بوى إن صحوبيتى لـ

«هليّل» ولد «يوسف النجار» صارت حديث الناس كلهم، وغطت على خبر زواج «خرابة» من أختى «سعدية»..

من طيبة قلبى يا بوى لم أفهم إلا مؤخرا، كنت كالأطرش فى الزفة أندهش من اندهاش الناس فهذه الصحوبية إذ كانوا يفتشون عما يكون وراءها من غرض، أما أنا فأسخر من زناخة مخهم، وأقول فى كل مناسبة إن الحب نفسه غرض، حب الإنسان لآخر هو فى حد ذاته شىء يقوم فى النفس من غير أن تعرف النفس لماذا قام..

إلى أن جاء يوم ظهرت فيه الحقيقة يا بوى، إذ فوجئت بصاحبى «هلّيل» يعزم نفسه ـ وأباه ـ على العشاء عندنا فى يوم أختاره أنا قلت مندفعا بكل حماسة: «ولماذا لا يكون ذلك الآن يابو العم؟ تظن أننا نعطى نفسنا مهلة نستعد فيها لضيافتك! واه ياخال! طلاق بالثلاثة من ذراعى لتجيئن اليوم أنت وأبوك وكل من تهواه مرافقا من العائلة!»: قال «انتظرنا ليلة الخميس القادم بعد يومين»: قلت:«وماله! يا تلتميت مرحبا!» أنبأت الولية أمى بالخبر فاشترت جديا صغيرا نحرته وشوته، واشترت قفصا من الفاكهة من سقط الجناين، وبعد صلاة المغرب يوم الخميس طرق بابنا، ودخل صاحبى «هليّل» ساحبا أباه «يوسف النجار» خلفه، فلم نعرف من فيهم الأب ومن الابن. كنا قد فرشنا وسط الدار كله بالحصير والمساند، فجلسنا جميعا نتحدث فى أمور الدنيا وأحوالها. جاءت الطبلية فتوسطتنا، من فوقها الصينية النحاسية الكبيرة ـ صينية العشاء ـ وتوالت أطباق الشوربة، والثريد،

وأكوام اللحوم المسلوقة والمشوية والمقلية فى السمن، فأكلنا حتى بشمنا من التخمة، وجىء بالطست والإبريق، اللذين استعارتهما أمى من دار عمى الشيخ الكبير فى آخر الحارة، فاغتسلنا وحمدنا الله، وقبلنا أيدينا ظهرا لبطن شكرا لله على نعمته، وجىء بالوابور وبعده الشاى، وجعلنا نفرقع السجائر، ونشرب الشاى، ونقول النكت والنوادر نضحك على الفارغة والملآنة، ومحسوبك، يلهو وفى الباطن، لا حد لانشغالى وقلقى من سر هذه الزيارة فى الظاهر وكانت الولية أمى، لذكائها، تروح وتجىء من بعيد لبعيد، تتسقط الأخبار، تتعجلها، كلما أحست أننا رأيناها، وقفت وتكلمت بعض الكلام عن الستر، وأولاد الأصول، وحسن التربية، ففهمت أن أمى فقست الفولة، وفسرت هذه الزيارة بأن «يوسف النجار» جاء بولده «هليّل» للحديث فى أمر ترفع له الزغاريد مدوية. عندئذ، بدأ الموضوع ينور فى دماغى يا بوى، قلت لنفسى: أقطع ذراعى إن ما كان «يوسف النجار» قد جاء يخطب أختى «هندية» لابنه الوحيد «هليّل» صاحبى العزيز، وتذكرت أننى فى حضور سابق للصعيد زوجت اثنتين من إخوتى دفعة واحدة، زغرودة فى ذيل زغرودة، فتيقن قلبى فى الحال أن هذه الفرحة ستتكرر اليوم أيضا، وأننى فى هذه الحضرة سأستمع إلى الزغرودة الرابعة فى حوش دارنا، ولن يبقى فى الانتظار لأمى سوى زغرودة لى بعد وقت يعلمه الله، حسب شروط القسمة والنصيب يابوى..

رقص قلبى والله من الفرح. لأننى رأيت الولد والبنية لائقين على بعضهما آخر تمام. ثم زعلت بينى وبين نفسى يا خال: الولد

إذن كان يصاحبني من أجل «هندية» وليس حبا في شخصيي.. كاد الغضب يعصف برأسي، فجاءني خاطر خبيث يوزني على رفض طلبه ـ إن طلب ـ احتجاجا على عدم اعتباره لي، حيث كان يجب أن يكلمني من الأول ليعرف رأيي قبل المجيء ليخطب. غير أنني لم أقدر يا بوي، فأنا أحب الولد، وما صدقت أن عثرت على صاحب مثله يعزني ويودني ولا يبخل على بشيء..

ـ وأخيرا تكلم يا بوي فإذا به صامت من فرط الخجل..

واعتدل في قعدته، وأطرق برأسه إلى الارض، فبدت عليه الحيرة الكبيرة، وفي كل مرة: يشرع في الكلام، ثم يسكت، ويختلق موضوعا آخر يهرب إليه. فلم أطق صبرا يا بوي، وإذا بي أبادره قائلا مع ابتسامة مرتعشة: «نفسك في كلام تود قوله؟» فإذا به يرفع رأسه صائحًا:«نعم والله! عندي كلام مهم جئت من أجله!».

صحت فيه بدوري:«قله يا بو العم وإلا فقعت مرارتي!» فاعتدل قائلا في خجل:«أصل! صراحة! أنا مكسوف!». رقص قلبي من الفرح، والشك. فشوحت قائلا:«إذن دع والدك يتكلم نيابة عنك يابو العم!لماذا جئت به إذن! أليس ليتكلم نيابة عنك يابو العم!»..

إذا بالولد «هليّل» يكتم ضحكة في صدره، وإذا بأبيه يبدو عليه الخجل كالفتاة، قال صاحبي:«شف يا أبو علي يا صحبي!الآن تنعكس الآية! افهم قولي! يعني أنا الذي جئت لأتكلم بالنيابة عن أبي»تحجرت الابتسامة على شفتي، ونشف ريقي، قلت: «كيف يا

خال!» قال صاحبي بشجاعة سريعة:«صراحة يابو العم! أصل الحكاية أن أبي يطلب القرب منك في أختك هندية!». تنفست قائلاً: «أهلاوسهلا! يا مرحب بيه! نوديها لحد الدار!». فانتفض الرجل يا بوي كالملسوع من عقرب، كاد يتنطط كالأطفال، يملأ الدنيا زئيطا، ثم قال: «إذن أسمعونا الفاتحة!».

قلت:«إهدأ قليلاً! فالعريس نفسه ليس فرحا هكذا مثلك!» فإذا بالرجل ينهد حيله في الحال وتنقبض ملامحه، وإذا بصاحبي«هليل» يشوح في وجهي بجدية كبيرة: «افهم يا صاحبي! إن العريس هو أبي»..

تخشب قلبي يا بوي، قلت: «أبوك! بذات نفسه! إذن! هو الذي يريد أن يتزوج من أختي هندية!». رد بكل بساطة وقد ازداد جرأة: «وماذا فيها؟ سيدفع المهر الذي تطلبون بدون مساومة!». أخذت، والله، أنظر فيهما معا، نظرة عليه، وأخرى على أبيه، فلا أكاد أميز فرقا بين الوجهين، اللهم إلا بعض تجاعيد بسيطة لا يراها إلا من يدقق في وجه الأب، فصرت من شدة اللخمة والحرج أضحك بصوت زاعق، فلما رأيتهما ينظران لي في كثير من الغضب، خفت أن أخسر صاحبي، فصرت أردد: «وماله! دحنا يزيدنا شرف! عن إذنكم خمسة!»..

قفزت داخلا على أمي المتقرفصة خلف باب القاعة تسمع الحديث. فلما انفردت بها، انفجرت أضحك في عبي، حتى كادت روحي تخرج من الضحك. فزغدتني الولية، وقالت بفحيح غاضب:

«بتضحك على إيه يا ولد؟!». قلت: «إنك لم تعرفى الخبر يا أم!» قالت مشوحة: «عرفت كل شيء وسمعت كل شئ!». مسحت دموع الضحك وقلت: «فما رأيك إذن يا أم!». تحلف اليمين يا بوى أن الولية كادت تطيّر برجا من دماغى، إذا بها تقول بكل بساطة: «خير وبركة! هل نطول يا ولد! رجل غنى وملء هدومه كهذا لا نرضى به؟! فبمن نرضى إذن؟!». فكرت قليلا وقلت: «يا ولية إنه كبير فى السن، وابنه رجل كبير!» قالت الولية: «النبى محمد عليه الصلاة والسلام تزوج ستنا عائشة وكانت سنها تسع سنوات وهو فى بحر الخمسين! هذا الرجل لن يزيد عن الخامسة والثلاثين! لقد تزوج وهو صغير فانجب وهو صغير إنه الآن فى عز شبابه ورجولته! تعرف يا ولد! لو كان الذى سيخطب ابنتى هو صاحبك هليّل ما فرحت كما فرحت الآن بأن يخطبها أبوه لنفسه! صاحبك طائش مهما صلى وصام! قد يتزوج عليها بعد حين، أما أبوه فعاقل وحكيم يفهم قيمة البنت! سيضعها فى عينيه ولن يتزوج عليها أبدًا! افهم كلامى ولا تجعله يخرج من هنا إلا مجبور الخاطر!».

طب ما رأيك يا خال أننى قلبت كلامها فى دماغى بسرعة فوجدته حكيما موزونا مقنعا؟ أى والله يا بوى، هذا ما شعرت به فى كلام الولية، فقلت لها: «صدقت والله يا أم». وطلعت على الضيوف أبتسم بصدق هذه المرة قائلا: «مبروك عليك يا عم! عشنا وشفنا الأولاد يخطبون لآبائهم!»، وصعرت خدى نحو صاحبى راميا إليه بنظرة غدارة ماكرة وقلت: «أنت إذن كنت تصاحبنى من

أجل هذا الغرض يابو العم! تشكر على كل حال! ميلتنى لكى ينط أبوك على ظهرى فيدخل دارنا يتزوج أعز بناتنا! طب يا أخى كنت تعال دوغرى من الأول! ما كان هناك داع لأن تلف على وتصاحبنى فأتوهم فى نفسى أننى واحد جدير بالصحوبية». فهرب صاحبى من نظرى وغرق فى بحار من الخجل، والعرق، والاحمرار صارت الابتسامة الخجولة ترتفع وتنخفض على ثغره كصور التليفزيون على أيامكم هذه حين يصيبها الرعاش، وصار يقول: «أبدا، والله، يابو العم! أنت أعز صاحب لى! العكس ما حصل، والله، يا خوى! أبى هو الذى ميلنى ونط فوق ظهرى من لحظة ما علم أننى صاحبتك، صار يشجعنى ويغرينى ويمدح لى فيك وفى أعمامك الفقهاء الكبار حتى صورك لى ملاكا نازلا من السماء فأحببتك كل هذا الحب يا حسن! هذه كل المسألة والله على ما أقول شهيد!».. فانبسط قلبى من هذا الكلام يا خال، وانفتح للولد أكثر وأكثر، كدت أنهنه باكيا، إذ إننى لم أكن صادقت فى حياتى من يحبنى لله مثل هذا الولد. ولما شعرت بسخونة الدمع تنحدر على خدى مسحتها بكم جلبابى مبتسما أقول: «خلاص يا عم! براءة! براءة. براءة.». انبسط الرجل هو الآخر آخر انبساط، صار ابتسامة كبيرة تبك الدم وقال: «أتراك وافقت إكراما لى أم للولد الذى جاء معى!؟».

أعتقتنى أمى من الرد، إذ بانت قائلة: «من أجلك طبعا يا زين الرجال! يا أصيل! يا سيد الناس!». أسرع الرجل قائلا كأنما

يخشى أن نرجع فى كلامنا: «أسمعونا الفاتحة من أجل النبى!»..
فرفعنا أكفنا جميعا، واندمجنا فى قراءة الفاتحة بفرحة صادقة..
صدق الله العظيم. حينئذ مال «يوسف النجار» نحوى هامسا:
«شف يا ولدى سأدفع مهرا ضعف ما دفعه خرابة مرتين! افهم
كلامى! لست أتحدى خرابة فهو حبيبى! إنما أنا أحب العروس
وأعرف قدرها!». قلت مع أمى فى نفس واحد: «يكفينا شخصك يا
رجل! نحن لا نتاجر ببناتنا!»..

وكان عرس «هندية» أشد من عرس «سعدية» بكثير يا بوى،
حضره كل من يمشى على الطريق. وبقى هذا الزواج حديث البلدة
شهوراً طويلة يا بوى، وحياتك جاءت أختى «سعدية» لتحضر
عرس شقيقتها «هندية» كانت حاملا وبطنها كبيرة، وحينما ذهبت
أختى «هندية» لتحضر ولادة شقيقتها «سعدية» كانت حاملا
وبطنها كبيرة. أما أنا فقد بت أمشى فى سبهللة بكامل حريتى،
أضرب عصاى، وأجرى وراءها، شاعرا بأننى، أخيرا قد تخلصت
من جبل من الهموم كان يكتم أنفاسى، وبأننى قد آن لى أوان
النعيم.

الرابعة ـ يوم الهول

قلت إننى لن أكون من رجال «خرابة» ذات يوم، وقد شهد الله
على قولتى يا بوى، فبقيت مصمما عليها، فأنا أحب الحرية يابوى،
وأتعشقها كالعصافير تتعشق البراح، تذوب فى هواه، أنا غير
«خرابة» يا بوى «خرابة»، فى الأصل، يعشق الجبل عشقا، ومنذ
كان طفلا صغيرا وهو يهرب من أهله إلى الجبل، فى الجبل يجد
متسعا لمضاجعة النساء والفتيات الساقطات وإخفاء المسروقات
وكل شىء. كان يخدم المطاريد خدمات كبيرة، فيكون لهم مرسالا
إلى نسائهم، أو عشيقاتهم، أو رجالهم المحبوسين فى دوار العمدة،
يشترى لهم الطلبات فلا يطلب أجرا على أى خدمة، فأحبوه
ونشروا عليه حمايتهم. قل إن «خرابة» نشأ وتربى فى الجبل، فلما
كتب عليه الحظ الأغبر أن يكون منفيا مطروداً من الحكومة فى
الجبل لم يكن فى ذلك أى عقاب له، بل إنه لو سجن لهرب من
السجن إلى الجبل، بل لو تركوه حرا فى البلاد لهرب من الحرية
وجاء يسكن الجبل، نعم يا بوى، فالجبل غرامه الأوحد، وهو
يعرف كل شبر فيه. يعرف كيف يدخل من هنا، ليخرج من هناك،
دون أن يدرى أحد من المراقبين، يعرف كيف يتّوه مطارديه توهانا

لا فوقان منه ولا اهتداء إلى الأبد.بعض مطارديه من المخبرين السريين وضباط المباحث المغامرين ظل يغريهم بمطاردته، مسهلاً لهم أمر القبض عليه بعد خطوات قليلة حتى دحلبهم إلى عمق سحيق فى الجبل يبدو كأنه المغارة وهو مجرد طريق إليها طوله أفدنة، وتتخلله صخور كثيرة من كل حجم وأتربة، فصخرة لابد من صعودها، وكومة أتربة لابد من خوضها وصخرة أخرى تسد الطريق تاركة منفذا كالبرزخ لا يعبره إلا من كان جسمه كجسم العرسة. لكن «خرابة» يسلك فيها كلمح البصر، أما مطاردوه فقد اعتراهم الصرع والصراخ والحمى والخوف فرجعوا يتخبطون شهوراً، يتعذبون فى السراديب، حتى ماتوا، وتعفنت جثثهم، وأكلتها ذئاب الجبل وطيوره الجارحة..

ذمة ودين يابوى، لقد ماتت الحكومة كمداً، وسلمت أمرها لله، وحرمت ارتكابها لهذه الفعلة الحمقاء مرة ثانية كل هذا و «خرابة» أيامها مجرد شاب صغير السن لم يقو فى الإجرام بعد، كان لا يزال مجرد واحد يعشق حياة الجبل بين المطاريد الذين يخلبونه ويأسرون قلبه بشجاعتهم وتحديهم للحكومة وللعائلات الكبيرة العفية. لم يكن محتاجا يابوى. وهذا هو العجب. ذمة ودين يابوى، أن أهله ناس مبسوطين كل الانبساط. والعمدة كان منهم ذات يوم. العمدة كان عمه لزم، وكان «خرابة» مرشحا للعمودية إذا مات عمه. تشاء الصدف أن يموت العم ميتة ربانية و «خرابة» سارح فى الجبل لا يعلم: فلما وصله الخبر بعد يومين، كانت لعبة العمودية قد طبخت فى المديرية لتأكلها عائلة شيخ البلد الكبيرة

العدد والأطيان والدواب.. فما كان من «خرابة» إلا أن ركب حصانه الذى يسميه الأدهم ـ على اسم حصان «عنتر بن شداد» ـ وتمنطق بسيفه وخنجره وبندقيته التى هى فى العادة من آخر طراز وصل إلى الجيش المصرى، إذ أن سماسرة السلاح وجلابه لا يهدأ لهم نشاط ما بقى فى الجيش دُفع من المجندين أيديهم قريبة من مخازن الأسلحة. نزل «خرابة»، يومها من الجبل يتبختر فوق ظهر الأدهم، وخلفه أربعة رجال شباب على أربعة أفراس شداد، كل رجل بفرسه جاء من طرف أحد المطاريد الكبار مجاملة «لخرابة» ومساعدة له على استرداد حقه فى العمدية ـ كان قد سبقهم ولد من الأشقياء، قام بقطع أسلاك التليفون من مكان بعيد. الوقت بعد صلاة العشاء، وقد كمن الناس فى دورهم منكمشين فى الدفء وكان العمدة الجديد ـ شيخ البلدة سابقا ـ قد نقل التليفون الأم من دوار عم «خرابة» إلى دواره، وجلس بين رهط من أصحابه وأبناء عمومته يشربون الشاى ويتحدثون فى أمر جوهرى بالنسبة لهم كعائلة، إذ إنهم عائلة ثقيلة الدم يا بوى، لو جلس واحد منهم على جبل لتفتت غيظا ونكالا، وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم حق المعرفة يا بوى، وهم أول من يدركون أن خلق الله، كلهم يتمنون زوالهم من الوجود، غير أنهم لا يبينون ذلك، ولهذا كان حديثهم تلك الليلة ينصب على هذه النقطة وحدها، يوصون العمدة الجديد بأن يستقوى ويجمد قلبه وإلا هزأت البلدة به وبهم وضاعت منهم العمدية هدرًا وكان العمدة الجديد يجيب على ذلك

في تلويح واضح بأن الله يفعل ما يريد. إلا وصهيل الأفراس يجلجل في الخلاء أمام الدوار، فتزعزعت القعدة وتكومت فوق بعضها تتشاور، وقفز منها من يرى الخبر. ثم عاد، وقال إنه «خرابة» يطلب مقابلة العمدة الجديد ليبارك له. فلما سمع العمدة ذلك استقام عوده من جديد، ومشى الدم في عروقه، فنهض واقفا مظهراً علامات الترحيب والسعادة، ونهض من خلفه بقية الرجال ومضوا وراءه نحو باب الدوار، فاجتازوا الحوش الواسع إلى باب الشارع حيث يقف «خرابة» ورجاله بأفراسهم راكبين. ربك والحق استاء العمدة وانكزر في نفسه من أن «خرابة» لا ينزل عن الحصان في مواجهته لكنه ابتلع غصته وقال:«أهلا وسهلا اتفضل يا رجل واشرب الشاي أو تناول العشاء». فقال «خرابة»: «أما الأكل والشرب فقد ملأت به بطنك في غيبتي! وظننت أن الطبخة في المديرية وشرفها الحكمدار بتخريط البصل وغسل اللحم وعصر الطماطم يمكن أن يجعل الأكلة شهية! أو أن ينجيك الله من صاحب الحق الذي أكلت لحمه! لكنني، وحق سكناي في الجبل، لن أدعك تهضم هذه الأكلة الدسمة! فأنا البقية الحية من اللحمة التي أكلتها اليوم مطبوخة! ولو لم تكن غدرا لعفوت عنك وباركت لك حقا! لكنك أثبت غدرك ولؤمك فلم تصبر على جثة عمي حتى تترطب من سخونة الموت في قبرها! فنقلت التليفون إلى دارك، وهو الآن جثة هامدة! وإنني لأعرف أنك تعرف أنني رجل ولا كل الرجال! فكيف إذن تجرأت على خيانة الميت وتتجرأ على خيانتي وأنا حي؟!»..

ومع العمدة من طوله يا خال، صار ينظر حواليه يستنجد بأي واحد، ارتفع صوت برطمة وهلضمة وصوت زعيق وتهديد من داخل الدار، ورأى «خرابة» شبح بندقية ترتفع ماسورتها من منطقة مظلمة في حوش الدار تستعد للتنشين عليه بعد برهة قصيرة فسحب في الحال مدفعه الرشاش ونشن على ماسورة البندقية بطلقة طيرتها في الهواء بددًا، وطيَّرت خلفها صراخا هائلا، ثم حول وجهة المدفع نحو صدر العمدة فأفرغ فيه، وإلى صدور الذين حوله فأفرغ فيهم. صارت الجثث تتساقط وهو يخوض بفرسه فوق الجميع رائحًا غاديا والمدفع الرشاش يصب النار في كل اتجاه، ومن خلفه الفرسان الأربعة يصولون ويجولون في كل من يأتي من عائلة العمدة. فلما نفد منهم الرصاص، جردوا سيوفهم، وانهالوا فوق الرقاب تقطيعا وتمزيقا. كانوا يفعلون ذلك وهم يلوون أعناق الأفراس لتمضي بهم في اتجاه الجبل، حتى إذا ما تملكوا الخلاء، انفردت أرجل الأفراس عن آخرها تسابق الريح طائرة، حتى اختفت تماما في الجبل، وفي تلك الليلة حصرت عائلة العمدة خسائرها فكان عدد الموتى عشرة رجال أشداء من بينهم اثنان من أولاده وثلاثة من أولاد أخيه والباقي من مؤيديه وخفرائه، أما الجرحى وفاقدو الأطراف وذوو العاهات المستديمة فكثير عددهم، وكلهم من عائلة العمدة شيخ البلد سابقا.

خلّ بالك: «خرابة» كان يعلم ويثق أن البلدة كلها ستكون في صفه كرها في هذه العائلة وحبا في شجاعته وهيبة أهل عائلته. وكان واثقا لذلك أن شيئا لن يحدث له في هذه المعركة..

خذ عندك أياما وأصبحت الجثث متكومة تنتظر مجيء النيابة والحكومة. بعد دفن الجثث والتحقيق مع بعض الخلق ممن شهدوا الواقعة، انطلقت مجموعة من سيارات عالية يسمونها الجب تزعق بشدة وتتسلق صخور الجبل كالقطط المفترسة وأهل البلاد من فوق أسطح الدور يتفرجون على السيارات وهي تغوص في أحشائه فتختفي في سفوحه وتظهر ثانية على صخوره ومنحنياته يوما كاملا من الصباح إلى المساء دون طائل. فبعضها عاد إلى البلدة لاهثا وبعضها لم يعد نهائيا وقد شهد معظم أصحاب السطوح العالية أن ست عربات دخلت الجبل من كل الاتجاهات فلم يعد منها سوى أربع. وبقيت الحكومة شهورًا تطلق عصابات من الراجلين والراكبين والكلاب الشمامة تلف الجبل تدخله شقا شقا وفي النهاية عادت كلها بخسران كبير مبين مؤكدة ـ ويا للعجب ـ أن الجبل ليس يسكنه أحد، لا من البشر ولا من الحيوانات، كيف يا بوي؟ حقيقة الأمر يا بوي أنهم حكموا على الجبل من مظهره الجواني أقصد من طرقاته السالكة الواضحة أما سفوحه وشعابه وبحاره الجافة وشقوقه ومغاراته السحرية وقلاعه المنحوتة فيه من أيام الفراعين فليس يفطن أحد إلى مواقعها وإن فطن بالصدفة فليس يجرؤ على الاقتراب منها، وإذا كان معهم كلاب شمامة ففي أعماق الصخور المضمومة كلاب آباؤها ذئاب لا تعرف ربنا، أما إذا هيأ لهم جنونهم إطلاق الرصاص فسينهال عليهم وابل من النيران من أماكن خفية في قلب الصخور..

ذمة ودين يا خال أن العربات الجب التي لم تعد من الجبل يومذاك بحثت عنها عصابات الأهالي المتصلين بحياة الجبل فعرفوا أن المطاريد قد اعترضوها وأسروها وخبئوها في أماكن سرية ليستخدموها في أغراضهم الخاصة تنفع في جلب المخدرات وتوصيل الطلبات والحرب مع الحكومة.

قل إن الأوضاع استمرت على ذلك حوالي الحول يا بوي. وكانت عمدية البلدة قد انتقلت إلى «هريدي» ولد عم العمدة القتيل، فبدأ يسايس الناس، يأخذهم باللين، يقضي لهم مصالحهم، بدون مقابل، لكن أهل البلدة، مع ذلك، كانوا يتحسبون للنذالة المتأصلة في نسله، فلا يصدقونه، ولا يقتنعون به. ولقد ذهب المرسال إلى «خرابة» في الجبل بأن العمدة الشاب يسايس الناس في الظاهر، ويدعي الأمانة أما في الباطن فإنه لشر متأصل فيه ينوي الإيقاع بالبلد كلها في قبضة الحكومة، يجعل الحكومة هي اليد التي ينتقم بها، إذ هو يستقبل كل يوم ضيفا أفنديا يقوم هو بإطلاقه على الناس متكلما كلاما غامضا عن «المال» والمكوس» و «السخرة» و«الجهادية»، وعن أشياء تنوي الحكومة أن تحفرها وتبنيها، أو تشقها، ويلزمها، تبعا لذلك، أعداد وفيرة من الرجال، ومبالغ طائلة من الأموال.. فيرتعد الخلق ويدفعون تبرعات ويبرطلون دفاعا عن أولادهم وممتلكاتهم، ودرءا لتهم غامضة قد يتعرضون لها.. والعمدة الشاب ـ حامل ابتدائية الأزهر ـ فرح بهذه المناظر تحدث أمام دواره، وبمناظر الخلق يقعون من طولهم أمامه رعبا ورهبا، يتحولون إلى عبيد، يتوسلون ويستجدون الرحمة والرأفة من هذه

الطرابيش المعووجة على ناحية والمستعدة دائما للحكم عليهم بأربع سنين فى الزنازين يا خال.

لم تمض ثلاثة أيام على وصول هذا المرسال إلى «خرابة» فى الجبل، حتى تهيأ للنزول فى اليوم الرابع، فملأ جيوبه كلها بالطلقات النارية، وحمل بدلأمن السيف سيفين وخنجرين وربط كل ذلك فى ثيابه المحكمة حول جسده رباطا وثيقا لكل شيء جرابه المخصوص. ومثله فعل الفرسان الأربعة الذين باتوا من رجاله بعد أن تنازل عنهم أصحابهم كهدية منهم لـ «خرابة»، الذى سبق له أن خدمهم جميعا خدمات كبيرة يا بوى، ونفذ لصالحهم عمليات لم يكن سواه يستطيع تنفيذها مهما كان جبروته نفذها «خرابة» بقلبه الجامد كأنه يمر على قارعة الطريق للتخلص من ضرورة. الفرسان الأربعة أحبوا «خرابة» حبا شديدا وسهروا على حياته وملذاته بإخلاص، ودربوا له عشرات من الولدان لا حصر لهم جيء لهم بخيول مسروقة فور ولادتها ومرباة على الغالى فى اسطبلات الجبل العريضة بلا حدود، أما هو فقد أسكن الولدان فى دور فى البلدة وفى قصور منحوتة فى الجبل حسب درجاتهم فى القوة وفى الصفاء والإخلاص المتين، بفضلهم كان «خرابة» يتعالن النزول أحيانا إلى البلدة كل سوق ليمشى راكبا فرسه الأدهم مخترقا جمهور الباعة فى صلافة وكبرياء لا يهمه أن يخوض الفرس فى سبوبة بائع لحمة أو يدفع لكعبا متطاوسا فيرميه على الأرض مفلقسا، ولو قام وشتم فإن عشرات من أولاد الحلال المشفقين عليه سوف يسارعون بإغلاق فمه وتنبيهه بصنعة لطافة إلى الدواهى الخطرين السائرين خلف «خرابة» على الدوام على

شكل باعة سريحة وناس عاديين طيبين لكن آه لو احتكوا بك أو احتككت بهم يا بوى: قرصتهم والقبر والعياذ بالله يا خال - بفضلهم كذلك يا بوى كان يذهب مسافرا إلى مصر المحروسة فى مولد الحسين بن على سيد الشهداء وإلى طنطا فى مولد البدوى شيء لله يابو عرب وإلى دسوق فى مولد الدسوقى شيء لله يا أبا العينين. يمكث فى المولد أسبوعه كله على هيئة واحد من الدراويش الصالحين لا يساورك الشك فى منظر وجهه البريء المشع وذقنه النظيفة والمسبحة المتدلية بين يديه كأسلاك الاتصال بينه وبين الذات العلية، شيخ ومن حوله دراويشه يرتعون فى معيته، رجل هو - أحيانا - من المجاذيب السابحين فى الملكوت لا بأس. إن المطاريد لا تنقصهم الحيل يا بوى، وحيلهم كلها خطيرة، ولهم فى تجمد قلوبهم وبرود أعصابهم بلاط ثابت يمشون فوقه بعزم شديد، دون أن يطرف لهم جفن يا خال.. اسألنى أنا عنهم يابوى.

كان «خرابة» قد ركب فرسه الأدهم وتلبسته شخصية عنترة بن شداد، فأخذ يصيح ويجعر ويتحسس الحصان فيبرطع فى المدى المتاح من الجبل ثم يرتد عائدا ويتنطط بحصانه كلاعب الكرة يسخّن قبل نزوله الملعب. أما الفرسان الأربعة فقد ركبوا هم الآخرين وأخذوا يصيحون فى الولدان الذين سيمشون فى الطليعة راجلين أن يسرعوا فالوقت قد حان، والشمس لحظتئذ كانت تلهث فى محاولة لانتزاع قرصها الأحمر الواقع بين سنامين متجاورين على ظهر الجبل متعاليين متحديين والقرص يصرخ بأعلى ألسنة اللهب، والأفق برمته يكاد يتفحم بالسحب

السوداء، ومع ذلك فشرخة الهلال كانت كأصبع الموز واقفة على مبعدة قليلة فى بطن الأفق البعيد وكان يتحرك فيبدو مثل الكتكوت يبزغ شيئا فشيئا وقشر البيضة كتل من السحب المبيضة المغبرة المتكسرة. لحظتها صاح «خرابة» قائلا: «قدامى يا رجال». فهبط فريق من الولدان المسلحين بالمطاوى والسنج والقضبان الحديدية مهمتهم فتح الطريق واستكشاف غوامضه وأسراره للمسارعة بإبلاغ القادمين وراءهم ليسرعوا بدورهم فى الارتداد، هؤلاء الولدان مدربون على اكتشاف المؤامرت والكمائن والخيانات يا بوى، ولد زوانى يابوى أجارك الله منهم، يقدرون على التصرف النهائى عند اللزوم، إنهاء حياة رجل أو رجلين مصدر شك أهون عليهم من الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء.

أن هى إلا برهة وجيزة وهبط فريق من الولدان راكبى الحمير والبغال الحمولة والخيول السريعة العدو مهمتهم حمل الذخيرة الاحتياطية وحمل الرسائل الفورية عند تلقيها فى منتصف الطريق من الراجلين المتقدمين، فيكون سهلا على الخيول أن ترتد مسرعة لكى تعطل «خرابة» عن النزول، تحيط به، تسربه من مكان خفى إلى مكان أخفى، دقائق معدودة وهبط «خرابة» يحوطه الفرسان الأربعة، اثنان على يمينه ويساره، وواحد أمامه والآخر خلفه مباشرة يتلقى عنه أى غدر محتمل. دقائق أخرى معدودة وهبطت فرقة من الخيالة بالكرابيج المخفية أما الطريق من مهبط الجبل إلى المكان المقصود فمحفوف بالعرس المسلح فى مظهر خفى. وصل «خرابة» إلى دوار العمدة فوجده قاعدا بين بعض الطرابيش

المعووجة على ناحية وبينهم ثلاثة من الفلاحين، لم يكن «خرابة» يعرف أن هؤلاء الذين يجلس العمدة معهم هم المحضر التابع للمحكمة جاء يحجز على أحد الفلاحين وفاءً لضريبة أو أظنها غرامة من غرامات الحكومة التى لا تفرغ على الدوام تكبل خلق الله بالقيود تحرمهم نسمة الدنيا ياخال. أما الطربوش الثانى فإنه مهندس الرى الذى جاء يعاقب بعض الناس على اعتداءات وهمية على أراضى الحكومة. وأما الطربوش الثالث فإنه لواحد مجهول من عباد الله تعرف به المحضر على مقهى مجاور للمحكمة فى المدينة فاصطحبه فى هذا المشوار الرسمى، إذ إن وجود أفندى آخر معه يقوى موقفه فى نظر الناس ويجعل البرطيل مضاعفا لقسمته على اثنين، باختصار جاء به المحضر لينصب به على الناس لكن سوء الحظ جمع بينهم فى تلك اللحظة من أجل قدرهم.

دوار العمدة كانت شبابيكه مفتوحة على البحرى، لذا فقد كان «خرابة» وهو مقبل نحوهم ينظر إلى وجوههم ورقابهم. وعلى مبعدة قليلة أعطى الأمر لرجاله بالتوقف، وبأمر آخر توزعوا على الشبابيك بسرعة، ومن خلل قضبانها الحديدية المتشكلة على هيئة مربعات ودوائر ومستطيلات متداخلة، نشنت أرواح البنادق على أرواح الجالسين من رقابهم وانطلقت الأعيرة النارية متتالية متضاعفة كالمطر ينصب نيرانا متلاحقة كبرق الرعد المخيف، فسقطوا جميعا جثثا هامدة: العمدة والثلاثة الطرابيش وخفيران وتملى غلبان ونفر أجير، قبل أن تفيق سماء البلدة من دوى الانفجارات النارية كانت الخيول ارتدت مسرعة تكاد حوافرها لا تلمس الأرض، ومن خلفها يلتئم الطريق شيئا فشيئاً فيتدفق فيه

العوام ويتعرف الحرس على بعضهم البعض يدفعون عن بعضهم البعض ما قد يلحق بهم من عدوان متوقع، ثم إنهم صاروا يذوبون فى الطريق، بدأ الطريق يصفو من عكارتهم وتأهبت عائلة العمدة للطم الخدود والصراخ وإرسال المراسيل هنا وهناك.

مثلما حدث فى القتلة الأولى حدث هذه المرة: حضر طاقم من العربات الجب والخيول والرجال والكلاب طافوا بأطراف الجبل وبعض أحشائه المتاخمة للعمران شهورا طويلة دون أن يكشفوا عن شىء دون أن يطرأ على خيالهم أن فى قلب الجبل سوقا شعبية كاملة كبيرة وثابتة تباع فيها جميع السلع والمطالب من المآكل والمشارب والملابس والنساء الفاتنات فإنها سوق اللهوى والمتع وكل ما لا يوجد فى أى سوق فى أى بلد من بلاد القطر يا خال.. إسمع ما أقوله لك وصدقنى بدون كلام! احذر أن تنبس بحرف، أوصيك والزمان يوصيك أن تمنع نفسك من الدهشة عن الدهشة حتى لا يصيبك الخبل. إعلم يا بوى أننى رأيت كل ذلك بعينى رأسى ولمسته بيدى وجنبى وبطنى وظهرى ودماغى وكل عرق فىّ والله على ما أقول شهيد.

الله وكيل يا بوى، لم يعد من هذه الفرقة المهاجمة سوى نفر قليل. بعدها كفت الحكومة وهمدت، وجاءت الأخبار بأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة وبالإعدام فبقيت مجرد حبر على ورق سوف تأكله الفيران حقا فى دواليب الحكومة فى البدرونات الرطيبة التى تندفن فيها بعون ربك كل القوانين التى تصدر فى مصر المحروسة، نعم يا بوى، فليس يسرى القانون فى ديارنا إلا

على الغلابة والمساكين وأبناء السبيل، هى هكذا ديارنا منذ عهد آدم وحواء: حاميها حراميها.

عائلة العمدة يئست من العمدية كرهتها حيث لم يعد فى رجالها من يصلح لحماية العمدية طلقة لطلقة ورجلا لرجل وجيلا لجيل، فإذا بهم يتقاعسون عن السعى وراء العمدية.. فقفزت عائلة «خرابة»، فاستردتها بفضل جهود من «خرابة» بذلها فى اختيار واحد من عائلة أخواله فى بلدة «دير الجنادلة»، وهى عائلة غنية مرهوبة الجانب، لكنها والحق يقال فى حالها دائما، ولا تتدخل فى شئون أحد، اختار «خرابة» خاله «عبدالكريم أبو هميلة» وضغط عليه حتى أرغمه على ترشيح نفسه فى البرلمان عن دائرة البلدة، وكان الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» مستنيرا وورعا وفيه تقوى حتى لقب بالشيخ مع أنه لم يتعمم فى حياته ولم يدخل الأزهر وإن قرأ القرآن وخطب فى المسجد مثل فطاحل الشيوخ والخطباء، وكان الرجل يأنس فى نفسه القدرة على النجاح فى الانتخابات لحسن سمعته وجانب عائلته المرهوب لكنه كان عازفا عن الدخول فى معارك من أى نوع، ويعمل حسابا لوصية تركها جدهم القديم ـ الذى قيل إنه كان من مماليك السلطان الغورى ـ يوصيهم فيها بأن يبتعدوا عن سوق السياسية فلا ينزلوه طوال عمرهم، لكن الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» تحت ضغط «خرابة» المتواصل قرر ترشيح نفسه بالفعل، بالفعل فاز بالدائرة بجولة انتخابية واحدة قام بها رجال «خرابة»، وصبيانه برسائل شفوية لرءوس العائلات، وكل رأس من هذه الرءوس يعلم علم اليقين أنه معرض للخطف ذات يوم، ولهتك الحرمة حتى يدفع الفدية، ولذا ما إن يلتقيه رسول «خرابة» حتى

يلتقيه الفزع والمتعة في نفس الوقت، إذ إنه سيكون سعيدا غاية السعادة بتلقي رجاء «خرابة» وسيكون أكثر سعادة بتنفيذه.

بين يوم وليلة صار الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» نائبا عن الدائرة وارتمت العمدية تحت أقدام «خرابة» فشاطها بقدمه إلى أعلى كالكرة ثم تلقفها بيديه وسلمها لابن عمه في حفل كبير، فلقد حضر بنفسه حفل تنصيب ابن عمه «عبيدة» على العمدية، والعلم يا بوى، هذا الحفل شرفه بالحضور طرابيش تخينة من طرابيش الحكومة لم يفطن أحد منهم ـ أو لعله لم يعلم أصلا ـ بأن هذا الولد المجدع الجالس بينهم ملء هدومه وقعدته رغم نحافته هو «خرابة» صاحب أكبر صيت بين مطاريد الجبل. ولم يكن أحد منهم ـ فضلا عن ذلك يابوى ـ يعرف أو يخطر على باله أن «خرابة» هذا الولد المفعوص هو الذي سيدير العمدية والدائرة الانتخابية من الجبل ولسوف يصل صوته إلى البرلمان وربما إلى «أبو عبد الناصر» نفسه فهكذا الحكام دائما يا بوى يحاربون اللصوص الكفرة الفجرة، لكنهم في داخلياتهم في ذوات أنفسهم يحبونهم ويتمنون أن يصيروا من رجالهم، ألم تسمع بذلك اللص الظريف الذي أحبه السلطان وحاربه فلما لم يقدر على هزيمته أتى به وعينه رئيس شرطته؟ جاء السلطان بلص يحارب به اللصوص، والسلطان يحسبها لنفسه قائلا: ليسرق رجل واحد هو رئيس الشرطة خير من الاف السارقين، وغاية الأمر يابوى أن كل سلطان يريد أن يؤمن ظهره بقوة وهو لن يجد هذه القوة وهذه الحماسة إلا عند عتاة اللصوص والمجرمين ممن يقدرونْ على سفك الدم دون أن يطرف لهم جفن يابوى. هذه هي الحقيقة يابوى فدعك من أي كلام آخر.

الخامسة ـ يوم الفزع الاكبر

ها هو ذا «خرابة» قد صار في عز مجده يا بوى، وفي مقدوره أن يتزوج ابنة أحد الباشوات المصاحبين لخاله «عبد الكريم أبو هميلة». لكنه ـ وياللعجب ـ تقدم ليخطب شقيقتي «سعدية»، ولقد اتضح لي وياللعجب أيضا ـ أنه خطبها إكراما لنسل أعمامي الفقهاء أولا، ولجمالها الفريد ثانيا، حيث إنها كانت ذات بشرتين على وجهها يابوى فتحت بشرتها الخمرية القمحية بشرة أخرى حمراء كلون الورد تنضح على البشرة القمحية على الدوام. وقال لنا «خرابة» بالحرف الواحد يوم الخطوبة إنه خطب «سعدية» لأنها تجمع بين كرم الأصل وجمال الخلقة وحسن الخلق، والسلوك والسمعة وهذا ما يضمن أصلا كريما لنسله القادم.

وبالفعل يا خال، أكرم الله شقيقتي «سعدية»، فأنجبت له ولدا وبنتا جميلين تبارك الخلاق فيما خلق. كما أكرم شقيقتي «هندية»، فأنجبت لزوجها ولداً فرح به صاحبي «هليّل» كأنه ابنه هو.

وقد بات من الواضح لنا وللبلدة كلها يا خال أن الحياة في حضن شقيقتي «سعدية» قد طابت لـ «خرابة»، فركن إليها

واستحلاها إلى آخر الحدود، فبات لا يغادر حضنها إلا فى أوقات معينة تستلزم وجوده فى الجبل، أو حين يبلغه البريد أن فى الجو غيامة.

إلى أن كان يوم لا رده الله ولا أرانا وجهه ثانية أبدا..

كنا فى ساعة القيالة و «خرابة» راقد فى حضن زوجه القديمة مدخرا الليل كالعادة لحضن زوجه «سعدية»، إذ جاءه البريد بأن أقداما غريبة وطأت أرض البلدة متوجهة إلى دوار شيخ البلد وهومن عائلة أخرى بعيدة.. فلماذا لم يتوجهوا لبيت العمدة؟ الأمر إذن فيه سر غامض وعلى «خرابة» أن يتخذ كامل احتياطاته. فما كان من «خرابة» إلا أن سحب نفسه من حضن زوجه واغتسل بسرعة ولبس ثيابه وأرسل فى الحال نفرا من الخفراء النظاميين يتسقط الأخبار خلسة من دوار شيخ البلد.. فعاد رسولهم لاهثا يبلغ «خرابة» أن خبر استقراره فى البلدة قد وصل إلى الحكومة وأن المباحث جاءت تسأل فقط عن حقيقة الأمر لكن من الواضح انهم جاءوا للقبض عليه بدليل وصول عربة سوداء محملة بالجنود المدججين بالسلاح!!..

كان «خرابة» يتلقى هذا الخبر وهو راكب فرسه وراء باب الحوش ومن حوله الفرسان الأربعة راكبين، فما إن سمع الخبر حتى أزاح الباب وغمز الحصان فانفلت به خارجا وانفلتت وراءه خيول مرافقيه فتملكوا الطريق المتجه إلى خارج البلدة..

وا..ه يا خال! واه..

أدركته عربة الشرطة السوداء يا خال، التى اتضح أنها غير الواقفة عند دوار شيخ البلد وأنها كانت كامنة فى مكانها هذا تحسبا لخروجه . الجنود كانوا خائفين فأطلقوا على الخيول وابلا من الرصاص، فسقطت بعض الخيول على الأرض ومن بينها الأدهم حصان «خرابة»، فنزل «خرابة» على الأرض يجرى متخفيا من حلاوة الروح، فظل يجرى وبعض الجنود وراءه وهو يضللهم ويزوغ منهم فى الحوارى الضيقة وبين النخيل حتى وجد أمامه قمينة مبنية حديثا وطوابق الطوب لا تزال خضراء لم تشتعل تحتها النيران بعد..

شاهده الجنود المطاردون وهو ينحرف مستترا بهذه القمينة، فلما لاحقوه، وجدوا ثلاث قمائن متجاورة، تفصل بينها طرق ضيقة، لا تتسع لمرور شخص بينها. وكان من الصعب عليهم أن يعرفوا أى طريق سلك، فلابد إذن أن يكون قد ذاب فى الهواء، أو ابتلعته الأرض هكذا صاروا يقولون يابوى، وهم يصفقون كفا على كف..

انشغلوا به فلم يتمكنوا من القبض على أحد من صحابه إذ هربوا جميعا يا بوى. لكن أمر «خرابة» كان مثيرا للغيظ يا بوى وكانوا جميعا كأنهم حيكوا من الخلف، فصاروا نسوانا، وهكذا انتشرت فرق من العسكر راحت تفتش القنوات والترع وجذوع النخيل، ويقف على كل قمينة طوب نفر من العسكر، وراح نفر آخر يفتش دور البلدة كلها داراً داراً وخُنا خناً وصندوقا صندوقاً حتى غطيان الحلل المقلوبة على الأرض رفعوها ونظروا تحتها مفتشين

عن «خرابة»، أى والله يابوى فالحكومة حين تخيب تصبح أعمى
من الخواجة «بنى»، الذى جاء يوما ليبيع الماء للصعايدة فى
زجاجات، لم يسلم صاحب دار أو أحد المارين فى الشوارع من
ضربهم، كانت مجزرة والله يابوى، ضرب فى ضرب فى ضرب،
بدباشك البنادق وبالكرابيج والسواق والجزم الميرى، ضرب غبى
أعمى لا يرحم عجوزا ولا يشفق على مريض، والسؤال يتكرر مع
كل ضربة: خرابة فين يا ولد؟ والجواب أيضا يتكرر: ما اعرفش!..
ما اعرفش! ما اعرفش انضربت البلدة كلها ضربا مبرحا لم ينج
منه النساء ولا الفتيات ولا الأطفال..

عند قمائن الطوب أمسك العسكر بأحد أصحابها وظلوا يضربونه وهو يقول: ما اعرفش، حتى تعبوا من الضرب، فكتفوه وانهالوا جميعا عليه حتى لفظ أنفاسه، فانتقلوا إلى رجل آخر من أصحاب القمائن وانهالوا عليه بالكرابيج السودانى وهو يقول: ما اعرفش، فلما أوشك يلفظ أنفاسه هو الآخر جاء طفله الصغير يصرخ ويلطم خديه قائلا للضارب: «اترك أبى وأنا أريك مكان خرابة». فتركه وتقدم الطفل فأشار إلى قمينة الرجل الميت وقال: هنا فصار العسكر ينظرون إلى قمينة الطوب من كل ناحية فإذا هى مجرد بناء مسدود بالطين من كل ناحية، فتعجبوا من إشارة الطفل، وظنوه محتالا صغيرا يسرح بعقولهم شخط فيه أفندى متقمط بالأحزمة: «فين يا ولد؟». فأشار الطفل مرتعشا إلى طاقة صغيرة مسدودة بالطين وقال: «هنا!». أخذ الضابط يتحسس الطاقة فوجد طينها طريا، فأشار إلى بعض الرجال أن يزيلوا هذا

الطين، فتقدم نفر من العسكر ونخروه فانفتح فى القمينة ثقب كبير يتسع لجسد كجسد «خرابة»، وتبين لهم أن «خرابة» لحظة أن كان يجرى لحق به الرجل الميت فأمسكه وسرب جسده كالثعلب من الخلف فإذا هو فى سرداب طويل معد لحطب النيران التى ستشتعل تحت هذا الطوب، ثم إن الرجل الميت أغلق عليه بالطين فى لمح البصر تاركا ثقوبا خفية يدخل منها الهواء.

نظروا جميعا فى ثقب السرداب فرأوا جسد «خرابة» ممددا كالثعبان، فجروه حتى أخرجوه، وفى الحال كتفوه، وهم يزغردون كالنساء، فى مقابل صراخ منتحب يرتفع أواره فى سماء البلدة ـ شحنوه فى عربة الشرطة وجروا به إلى دوار شيخ البلدة الذى كان منذ شهور قليلة قد نجح فى أن يركب لنفسه تليفونا خاصا من حر ماله ـ البلدة كلها من خلف العربة تلطم الخدود وتصرخ وتقذف العسكر بالطوب والحجارة وأقراص الجلة الطرية والشتائم المقذعة، والعسكر يهددونهم بإطلاق الرصاص فى الهواء فيزداد روع الناس وينهالون عليهم بالطوب حتى نفدت ذخيرة العسكر فاستعملوا العصى الغليظة والكرابيج.

فى دوار شيخ البلدة وقف الحكمدار كالزعزوع الأجرودى يروح ويجئ فى فرح شديد، وجهه أصفر كالليمونة وعلى شفتيه الدقيقتين شارب تركى غشيم، العسكر وضعوا «خرابة» أمامه مكتوف اليدين والقدمين فبدا صغير الحجم بشكل لم يتوقعه أحد، بدا صبيا صغيرا غرا. نظر إليه الحكمدار بغيظ قائلا فى سخرية: «إنت بقى خرابة؟! إنت؟!». فرد عليه «خرابة» قائلا: «ولسه خرابة!

وسأبقى خـرابة!». فما كـان من الحكمدار إلا أن بصق فى وجـهه يابوى، وقال بغيظ: «ماتردش على يالوطى يا ابن القحبة!». فإذا بـ «خرابة» يرد عليه البـصقة بأشد منها حتى مـلات وجه الحكمدار، وقال: «اللوطى هو أنت والقحبة هى أمك!». الحكمدار صار ينتفض كالجدى المذبوح يقول فى شعـور بالخوف: «تشتمنى وتبصق فى وجهى يالوطى؟» ـ رد «خرابة» على الفور: «ما لوطى إلا أنت».

ثمة غفير نظامى كان يقف بجوار «خرابة» حاملا بندقيته ذاهلا لا يعرف ماذا يفعل، وإذا بالحكمدار يصرخ فيه قائلا: «أفـرغ فيه الرصاص ياخـفير!» فوقف الخفـير ذاهلا يابوى، فتح فـمه مردداً كالأبله: «هه!»، فى حين يـنتفض الحكمدار مواصلا الصـراخ فيه: «إنى آمرك أن تفرغ فـيه الرصاص». تلجلج الخفـير المسكين، ماذا يفعل يابوى؟ صار كالفأر فى المصيدة يلتفت حواليه يستغيث بالله فى صمت، وأخيرا خلع البندقية من كتفه وتقدم بها نحو الحكمدار قائلا:

«لا أقدر ياسعـادة البيه! هذه بندقيتكم، فـخذوها! وهذه لبدتكم أيضا.فخذوها!» ووضعهما على الترابيزة ومضى، فصار الحكمدار يضـرب فى «خـرابة» ببوز حـذائه قـائلا: «تشـتـمنى يا كلب!»، و «خـرابة» يرد عليـه قـائلا «مـاكلب إلا أنت وأبوك» طاش صـواب الحكمـدار يا خال، نزع مـسدسـه من خـاصرته، وأفـرغ فى قلب «خرابة»ست رصاصات كومته على الأرض قتيلا.

واه يابوى علـى منظرك يا خـرابة وأنـت تنتـفض فى قـيدك كالذبيّحة من حلاوة الروح والدم ينزف منك على الأرض..

الجنون أصـاب الناس كلـهم يا خـال، فـاندفـعـوا صـارخـين مولـولين، واندفع شيخ البلدة فـأمسك بالتلـيفون وصـاح فى كل ذعـر: «يامديرية! أنا قـبـضت على الشقـى المعروف خـرابة ولكن سيادة الحكمـدار قتله الآن بست رصاصات! إلحـقى بى يا مديرية قبل أن تقوم المذبحة!»، فقفز الحكـمدار وانتزع منه السماعة وصار يجعـر فيهـا: «أنا الحكمدار! أنقذونا حـالا! أرسلوا لنا قوة كبـيرة! البلدة كلها هائجـة علينا تضرب فينا بالرصاص! حتى اسـمعوا!»، وصار يضرب الرصاص بمسدسه فى الهواء.

هاج الناس يا بوى هيجانا كبيرا وكانوا يلتمون أمام الدوار فى قوة متزايدة. من بين هذا الموران والفوران لفظت الجموع من بينها رجلا رفيع القوام ملثما يضع يده فى فتحـة سيالته، اقتحم حجرة الدوار ونزع من جنبه من تحت ثيابه مدفعا رشاشا صوبه بسرعة مذهلة فى صدر الحكمدار وصب عليه النار فأرداه قتيلا فى الحال يتخبط فى دمائه، ثم اندفع يجرى داخل الدار ليـوهم أنه سيختفى فى قـاعاتهـا الداخلية وهو فى حـقيـقة الأمـر سيـهرب من بابهـا الخلفى المطل على جرن موصول بالحقول البعيدة المتاخمة للجبل.

العسكر هاجـوا وماجوا وتدفقوا جـميعا على الحـجرة ينظرون فى أمر حكمدارهم ووابل من الرصاص ينهـال عليهم من كل فتحة فى الحائط حتى تكومت جـثثهم فوق بعضها بما فـيهم شيخ البلد الخائن. أما نحن أهل «خرابة» ونسبـه فقد جرينا هنا وهناك نبحث عن ذلك الرجل العظـيم الرفـيع القـوام الملثم الذى أوقع بحكـمدار الحكومـة وشـيخ بلدها وبـعض الضـبـاط والعـسكر فى مـقـابل «خرابة». لفـفنا حول الدار، فـفوجئنا بفـارس يمتطى ظهـر جواده

يقف قرب الباب كأنه ينتظر أحدا ثم فوجئت بعد برهة ـ ويا للعجب ـ بامرأة تخرج من الباب الخلفى منكوشة الشعر مصفرة الوجه تكاد من فرط الاضطراب تنكفئ على الأرض يا بوى، بل إنها انكفأت بالفعل ونهضت بسرعة تجرى نحو الفارس الواقف بعيدا بحصانه. شئ إلهى جذبنى إليها يا خال، فجريت نحوها كاشفا وجهها فإذا هى أختى «سعدية»!! واه يابوى، أختى «سعدية» كانت هى الرجل الملثم الذى أوقع بالحكمدار؟! واه يابوى كيف أصدق هذا؟ أفيك هذه الشجاعة كلها وهذه المرجلية كلها يا سعدية؟! الله يخرب عقلك يابنت! هل ورثت ذلك من أهلنا أم أن خرابة عصر فيك رجولته عن حق؟!..

لحقت بها ياخال وأنا من شدة إعجابى بها وشدة خفقان قلبى خوفا عليها أكاد أقبل الأرض التى تجرى عليها. حين وصلت إليها عند الحصان استصغرت نفسى جنبها والله يا بوى ووجدتنى أتلجلج ولا أعرف كيف أتكلم معها. وحق النبى أشرف خليقة الله لقد غاب صوتى كما يغيب لحظة أتكلم مع رجل واعر كبير المقام. وكانت هى ـ شأن كبار المقام ـ قد أسلمت يديها للفارس الذى أركبها خلفه. وقد ظهر لى أنها ستتجاهلنى وتمضى غير عابئة بى، فصرخت بكل عزمى: «سعدية! رايحه فين!» قالت: «الجبل ياروحى! لم يعد لى مكان سواه! سوف أحتل مكان خرابة حتى آخذ بثاره كاملا ممن وشوا به! لا تخشوا على من شئ فأنا رجل كما تعرف والآن صرت أرجل مما تعرفون!»، ثم هزت ساقيها تستحث الحصان على المشى فحركه الفارس فانطلق يسبق الريح فى اتجاه الجبل.

السادسة ـ يوم الطوفان

كالنسوان هرولت جزعا مولولا أشق الثياب أصوصو فى الشوارع المبذورة كلها بخلق الله، المنذهل الصارخ المولول، فما يدرى أحد علام يصرخ جاره وعلى من يولول: تقول قامت القيامة يا بوى وتحقق قول عمى الفقيه، إذ انذهلت كل مرضع عما أرضعت. أطفال صغار يزحفون على الأرض يصرخون لله ما يغيثهم يا خال، أقدام الذاهلين تدوسهم تعجنهم وتمضى متعثرة فيضيع صراخ اللحم المدهوس فى صراخ عمومى آت من عموم النواحى فيه النواح والصوات والعراك والضرب والرصاص. خلق كثيرون يروحون ويجيئون فى كل مكان من كل مكان إلى كل مكان ولا أحد يعرف ماذا يفعل ماذا يحدث ماذا تخبئ الأقدار. لو رأيتهم ظننتهم جماعة كثيرة وهم كل واحد منهم فى واد يصطدم بأخيه بالحائط بالساتر يدوس فوق ابنه وفراخه وهو لا يدرى ماذا يفعل. من حين لحين يدب فيهم ذعر مفاجئ وكبير فإذا هم طوب يجرى يتقاذف يتصادم. إذا بعربات الكميون والكافورى تدخل البلدة مشحونة بالعسكر المسلحين بالعصى والدروع والقنابل والبنادق. وحيث أنت ذاهل فى طريقك ناسيا ماذا أنت

وماذا كنت فيدهمك وقوف العربة وتقافز العسكر منها كالقرود المتوحشة تتجمع فى سرعة الطيور تهجم عليك صفا واحدا بالعصى والقنابل والرصاص، كل واحد من الخلق وحظه يا خال. منهم من مات برصاصة، ومن لم يمت بعشر رصاصات، ومن مات بزغدة بوكس فى الجنب، ومن مات من الخضة.

هاجت النساء يابوى وازدحمت السماء بالاصوات يا بوى، بدوى الزلازل يا بوى، نبحت الكلاب فى عواء صارخ يا بوى، انذعر الحمام واليمام والغربان والحدآت. لعلعت طلقات المدافع الرشاشة تحلف اليمين يا بوى أنها صبغت السماء بلون جهنم وارتفعت ألسنة اللهب فى كل الأركان البائنة من خيمة السماء وكانت أسراب الحمام الملتاث ـ بنفس النبالة المعروفة عنه يابوى ـ تتكفل بنقل بريد اللهب على جناحيه إلى أحمال القش والحطب، وأقراص الجلة فوق أسطح الدور، وفى الأجران، وعلى شواشى النخيل الجاف، والأشجار اليابسة.. وكان صوت طقطقة النيران يبتلع كافة الأصوات يعزل البلدة عن رحمة السماء حتى صرنا داخل كرة من النيران الحمراء تنتظر وصول معجزة إلهية يا خال، والواحد منا ماشى يطوح وجهه يمينا وشمالا كالفقيه عندما يقرأ تحاشيا لألسنة النار الصغيرة التى كانت تتطاير فى الهواء بسرعة مذهلة كالريش الملون كحلوى غزل البنات إن تفاديتها بوجهك علقت بخلقاتك التى تلبسها يابوى.

الله وكيل يابوى، الخلق أفاقت مرة واحدة، كيف يابوى؟ أشهد يابوى والله وكيل أننى ما كنت أراهم يفيقون إلا حينما يتمكن

واحد من خناق عسكرى، واه يا بوى مما يجرى لحظتها تقول كلب أمسك بقطعة عظم وقبض عليها فصارت هى وعمره سواء؟ هذ وحق الله ما رأيته ياخال، كل الذاهلين ما إن يروا عسكريا فى قبضة الأهالى حتى يفيقوا فجاة ويرتموا فوقه نهشا وتمزيقا، يظهر يا خال أن الأهالى حين ذاقوا طعم لحم الحكومة وجدوه لذيذا فاصابهم السعار وركبهم جنون الفوقان أو قل فوقان الجنون وقالت أنيابهم هات يا حكومة لحمك الطرى المعلوف من دمنا لنأكله ونمرمشه، هات لحمك يا حكومة هات فجحا أولى بلحم ثوره.

تحلف اليمين يا خال، أن جميع ما كان فى أيدى العسكر من سلاح خطفته الأهالى ـ أما جثث العسكر فواه عليها وعلى ماجرى لها، يعز على الفائت أن يرى جثة بثياب صفراء دون أن يمزقها، ولم يعد يميز جثث الأهالى من جثث الحكومة سوى الجزمة الميرى فى الأرجل، فكل من وجد الأهالى فى قدميه جزمة ميرى حملوه وألقوا بجثته فى الحرائق التى صارت متجاورة مندلعة لا أمل فى مقاومتها.

الله وكيل يا بوى، لو كنت مكانى فى قلب هذا الأتون لأيقنت أن البلدة فانية حيث الكل فى غيبوبة يائسة. ولابد أن ملائكة من السماء اخترقت خيمة الجحيم ونزلت بخراطيم المياه والبلاليص حتى أطفأت النيران كلها، لكننا عدنا من تشردنا الطويل فى البلاد والغيطان المجاورة لنبحث تحت أنقاضنا عن بقايا متاع، فلا نجد إلا بقايا لهب مشتعل وركام سواد متفحم.

السابعة ـ يوم الطلوع من الهديم

الناس أصبحوا يعثرون على ذويهم بالصدفة والله يا بوى. يتصادف أن يكون العجوز ماشيا فى ذهوله منذ بضعة أيام، لا يعرف أين يذهب بل لا يعرف نفسه فإذا بابنه أو أحد أقاربه يلتقيه على الطريق فى بلدة بعيدة فيأتى به، أما أنا فحينما أفقت وانسحت من رأسى ومن عينى خيمة الجحيم الحمراء المغبرة بدخان أسود، وبدأ الهاتف يجيئنى ويقول لى إننى لى دار وأهل يجب أن أسأل عنهم وأعرف المصير الذى آلوا إليه. كنت لحظتها كمشانا فى حضن الجبل السفلى بين عشرات من العرايا المجروحين المليئة أجسادهم بالقروح واللهاليب. وكنت أتذكر أننى شاركت فى إطفاء الحرائق التى لابد أنها نشبت فى دارنا هى الأخرى، زعلت من نفسى آخر زعل والله يابوى، جاءنى وازع يوزنى على قتل نفسى فى التو واللحظة قبل أن أعرف أى خبر، تذكرت أن العسكر حين طاردونا جريت مع الذاهلين حتى وصلنا إلى أطراف البلدة فقطعت علينا الحرائق طريقنا من كل ناحية، فطردت هذا الهاتف وقلت لنفسى إذا كانت أختى «سعدية» هجمت بمفردها على الحكومة وجندلت حكمدارها بمدفع رشاش فإننى يجب أن أختشى على

دمى وأكون رجلا يستطيع الوقوف أمام الحرائق والأخبار المؤسفة. كنت أجرى نحو الدار والطريق يلخبطنى ويلخبط اللخبطان فأعود إلى الوراء فأتلخبط أكثر فأعود ثانية لأدخل حارة يتضح بعد برهة أنها ليست حارتنا..

مكثت على ذلك من الضحى حتى أذان العصر أخبط فى البلدة تخبيطا دون أن أعثر لحارتنا على أثر. منظر البلدة قد تغير يا خال إذ أن دوراً احترقت بكاملها على الجانبين وغيرت وجه الشارع، ودوراً انهدمت فوق دور فسدت الشارع، حوارى انسدت من ناحية وتم فتحها من نواح أخرى فنشأت حارات جديدة لم نكن نعرفها، حوارى أخرى كان بينها وبين بعضها مسافات كبيرة نمشيها فى ثلث ساعة أصبحت داخلة فى بعضها. التقانى صاحبى «هليّل» أجر خلقاتى معفرا ذاهلا وكان هو يجر بعض الجمال المحملة بالطوب، فتركها تمضى إلى وجهتها المعلومة وجرى نحوى يأخذنى بالحضن يقول: «دوختنا يابو العم الآهى ربنا يدوخك! يومان ونحن نسأل عنك فى كل مكان! خفنا أن تكون ضعت فى النيران مع الذين التهمتهم الحرائق! أو دفنت تحت الهديم! وقلنا لعله هرب مع الذين هربوا من مدافع العسكر وقنابلهم إلى بلاد بعيدة!»..

قلت وأنا أبكى من كل عين حفان: «مضى على الحريق إذن يومان ياخوى!». قال: «سلامة عقلك! مضى يومان وليلتان! تعال! تعال!». قلت ذاهلا وأنا أمضى معه كطفل عثر على أبيه فى غربة

موحشة:«ألا تعرف أين ذهبت دارنا يا هليل يا خوى!» ضحك بعين دامعة وأشار نحو كومة هديم على بعد حارتين بين بضع جدران تقف وحدها عريانة وقال: «هذه داركم فلا تأمل فيها الآن! خللى عوضك على الله! لابد أنه سيعوضك! فكن صادق الإيمان ولا تحزن على ما حدث!». وقعت من طولى يا خال، رميت نفسى على الأرض، صرت أمرمغ رأسى فى التراب وأصرخ بعزم ما فى من ألم: «أمى! أخى! أمى! أخى». قبض «هليّل» على كتفى ورفعنى صائحا: «امسك نفسك يا جدع فأمك بخير وأخوك أيضا بخير وهما عندنا الآن فى دارنا! كان أبى عند الحريق قرب دار حماته فحود ليختبئ من النيران! فلما شبكت النيران فى داركم كان هو أكبر المطفئين وكنت وحدى أطفئ النار التى شبكت فى دارنا من الناحية البحرية ولم ينفعنى سوى الطلمبة فى حوش الدار! هندية بالطشوت والحلل! فى ظرف ساعات تمكنا من إزالة أحمال القش والحطب على سطح دارنا ودور الجيران التى لم تلحقها النيران! ولولا أننا هدمنا الجدران فوق الخشب والحطب المحترق ما نجونا! ولقد عاد أبى بحماته وأخيك إلى دارنا! وأنا الآن ذاهب بهذا الطوب لترميم الجدران المتهدمة ترميما مؤقتا!»..

تلقف قلبى هذه الكلمات يا بوى، كما تتلقف الأرض الشراقى قطرات الغيث، فاستكن قلبى فى صدرى قليلا، لكننى بقيت أولول وأشد خلقاتى أكاد أمزق ما بقى فيها، فلكزنى «هليّل» قائلا: «لماذا تبكى يا جدع مادام الله نجاك ونجى أمك وإخوتك!» قلت

باكيا:«الدار يا هليّل! كيف أبنيها من جديد بعدما انهد حيلنا!». قال «هليّل» بكل بساطة: «مثلما بنيتموها فى الأول تبنيها ثانية بإذن الله!». جعرت من جوف بطنى: «كيف يا هليّل كيف! من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار!» قال «هليّل» وهو يغمزنى فى كتفى: «الحكومة سوف تساعد الخلق يا جدع! أتظن أنها تتركهم هكذا بعد أن بهدلتهم كل هذه البهدلة! الحكومة يجب أن تدفع الطاق عشرا!». شوحت فى وجهه بغيظ: «حكومة ماذا يابو العم! الحكومة التى تحرقنا لا تساعدنا على القيام ثانية!». قال: «الحكومة لم تحرقنا يا جدع! أقصد أقول لك أن الحكومة لم تحرقنا وحدها! الذى أحرقنا بحق وحقيقى هم أهل المشير!». تسمرت فى الأرض مرتعشا يا خال! أهناك مشيراً غيره!» ووضع يده على كتفى يستحثنى على المسير قبل أن تتفرق الجمال وتضيع من النظر..

لكننى ـ تحلف اليمين يا بوى ـ تسمرت فى الأرض وشعرت أن شواكيش غليظة تدق فوق رأسى تريد ألا تكف عن الدق إلا بعد أن تغطس رأسى كلها فى الأرض كالمسمار فى الخشب. قلت لصاحبى بفحيح مرتعش ينتفض بالخوف والذعر: «ما دخل أهل المشير فى هذه المسألة يابو العم! هل داست لهم بلدتنا على طرف!» قال صاحبى: «اتضح يا جدع أن الحكمدار المقتول أصله من بلدة المشير وعلى صلة قربى متينة به! ولهذا كان الحكمدار منفوخا وفعل ما فعل فى خرابة وفينا!»..

يوه يوه يوه! المسألة هكذا إذن يابوى!.. قلت وقد اقشعر بدنى من الرعب «المسألة مادامت هكذا فإننا بعون الله مقضى علينا قل علينا يا رحمن يا رحيم! وهل نحن على مقاس المشير يابوى؟ إن مامورا فى مركز يستطيع أن ينيمنا من المغرب لو أراد ويعدمنا العافية! فاين نروح من المشير يا بوى ومع أهله الذين طلعوا من المنيا وضموا الصعيد كله تحت يمينهم؟»..

اردت أن أمشى مع صاحبى لكننى لم أستطع نزع قدم واحدة من الأرض، فصحت فى صاحبى بشئ من القوة كأننى اكتشفت أمرا خطيرا غاب عن بال صاحبى: «كيف يا خوى تقول هذا الكلام! ألسنا نحن الأسايطة تبع الريس أبو عبد الناصر يا خوى! هل يتجرأ المشير على أهل الرئيس! كيف يابو خاله!» إن المشير له عائلة كبيرة فى المنيا وفى كل مكان فى الصعيد! أما الرئيس فليس له عائلة! لا فى أسيوط ولا فى أى مكان غير إخوته الذين يعيشون على مقربة منه!». قلت مشوحا فى وجهه أنا الاخر: «كيف يابو خاله! إننا كلنا أهل الريس وعائلته! مصر كلها أهله وعائلته! وهو لا يرضى أن يحصل ما حصل لنا!». شدنى صاحبى من ذراعى فى استحقار واستصغار لشأنى: «رد هذا كلام الجرانين ياجدع! فضك منه! فأبو عبد الناصر مسكين مثلنا كان الله فى عونه! ألم تسمع ما يقوله بعض الناس فى نواحينا أن المشير هو الذى يسند الريس! ويستطيع نزع المريسة منه وقتما يشاء! لكنه لن يفعل لأنه والريس أصدقاء عمر طويل وبين أولادهما حب وغرام!».

قلت: «نعم أسمع! لكن الذى يقول هذا الكلام يقوله من تحت لسانه ولا يجرؤ على التصريح به! نحن لا نعرف غير الريس وحده يا أبو خاله! نشكو إليه حالنا وما حل بنا من خراب!». شدنى «هليّل» صاحبى بقوة قائلا: اشتكى لله فلن يغيثك أحد سواه! لو كانت الشكوى لغيره تفيد لتغطت جثث ووجوه الحكام كلهم بورق الشكاوى!إمش ياجدع إمش وخليّك عاقلا! فأيام الملك والإنجليز لم تذهب ولكن اسمها هو الذى تغير! الأمر لله من قبل ومن بعد!»

قلت وأنا انخلع من الارض بسهولة: «عيب الشكوى لله أنها لا تاتى بنتيجه يا ابو خاله! إن الله عادل وعظيم أى نعم ولكن المصيبة انه يؤجل كل الحسابات إلى يوم القيامة! فالواجب أن ناخذ حقنا بأيدينا يا أبو خاله! هل نعصى الله! إشمعنى هم عصوه! أقول لك! فلنفعل أفاعيلهم! وحينما نمثل يوم القيامة أمام الله نقول له يامولانا هم فعلوا بنا كذا وكذا فكان لابد أن نرد عدوانهم بمثله على الاقل وهم أقوياء عنا يامولانا ومهما فعلنا بهم لا نفعل ربع مافعلوه بنا! فإذا لم يصدقنا حلفنا له بالله العظيم وبالقرآن المجيد أننا لم نكذب عليه!»

غمزنى فى ذراعى غمزة مفاجئة وقال يستحثنى على المشى أهم شئ الآن هو أن تراك أمك وتطمئن عليك أختك هندية!».

مضيت معه ياخال! وجاءنى الهاتف فصحت بسرعة : «أولاد خرابة! ماذا حل بهم!» . انفجر صاحبى «هليّل» فى الضحك كمن

يرى أمامه مسخة. قلت مغتاظا: «علام تضحك يا بو العم!» قال وهو يطبطب على ظهرى بحنو وفى صوته شفقة كبيرة على حالى: «لا حول الله يارب! حدث لعقلك شئ يا حسن! جسمك سليم فهل شبكت النار فى صندوق دماغك الجوانى! » قلت فاغرا فاهى من الدهشة: «كيف يابوى!» قال بجدية تقدر تقول لى أين كنت طول هذا الزمن! قل لى من الذى كان يحكيلك فى الجبل أو فى مكان بعيد كل هذا الوقت! كيف تنسى الأمانة التى أوصتك بها أختك سعدية ساعة نحسها وحين قالت لك خَلِّ بالك من العيال!».

حرقنى الكلام يابوى فى قلبى عينى تكب الدمع مدراراً على صدرى، ولسانى العاجز عن النطق يتلوى فى حنكى قائلا ـ أقصد محاولا أن أقول: «معك الحق ياهليِّل! معك الحقَ وحق هذه الليلة ومساها أننى لا أعرف أين كنت ذهبت! ماذا فعلت! كل ما فى دماغى الآن أننى كنت فى قلب حريق يزحف بى من مكان لمكان! عقلى الآن يكاد يكون مشى من دماغى! ألا تعرف أين ذهب ياهليِّل يا خوى! أيكون قد وقع منى فى قلب الهول الكبير ياهليل! قلبى يحدثنى أن القيامة قامت ياهليِّل وأننا من أهل الجنة الحمراء! قلبى يحدثنى أننا ناس طيبون ولهذا نجونا من الهول ونذهب الآن إلى موضع الموازين ليعرفوا ماذا بقى علينا لله من ديون فندفعها أو نأخذها مصاريف حبس فى أحد السجون الواقعة فى المنطقة الفاصلة بين جهنم والجنة الفيحاء!».

قال هليِّل ببساطة وثقة : «عقلك الآن مدفون تحت هديم داركم!»، ومصمص بشفتيه متصعبا ثم سحبنى فمضينا صامتين لبرهة طويلة ثم دهمنا الهول المفاجئ: عربات مصفحة وعربات إسعاف وزمامير وأجراس تصلصل وخيول يركبها عسكر بطرابيش وبرانيط وطاسات نحاسية. أراد «هليِّل» أن يطمئننى فسحبنى قائلا: «الحكومة تنقل الجثث من تحت الأنقاض ورماد الحرائق تذهب بها إلى كردون نصبوه خارج البلدة لفرز الجثث! فالجثث التى تفحمت وتمزقت يكومونها على جنب! والجثث التى بقى فيها شئ يدل عليها على جنب! هكذا يفعلون من صبيحة ربنا وهذه الإسعاف طلبوها من البارحة من أجل ناس كانت لا تزال فيها الروح! زمانها الآن قد فارقتهم! ولن ينوب أصحابها من عربة الإسعاف إلا البهدلة والغربة! وقانا الله شر فظاعة غربة الجثة! فهى أشد والله من غربة الروح يا جدع!» وتصعَّب «هليل» ومصمص بشفتيه قائلا: «ولكن بالله يا جدع! مع من ستحقق الحكومة الشاطرة هذه! الحكومة أم الطرابيش والأقمطة الصفراء! مع من ستحقق هذه الحكومة التى تعوج الطرابيش على ناحية وتحكم بأربع سنين! أخذوا جثة حكمدارهم وجثث عسكرهم كلها البارحة ولن يتعرفوا على باقى جثث العسكر التى أكلتها النيران!».

الدموع رجعت تهطل من جديد يا خال فيما صرت أردد: «ما قلت لى أولاد خرابة أين ذهبوا ودارهم ماذا دهاها» . مسح دموعه بكمه الواسع وحضننى قائلا: «إهدأ وسأقول لك كل شئ!» ثم تحدرت كلماته تحكى لى العجاب: «النار ـ تخيل يا جدع ـ ماجرؤت على الاقتراب من دار خرابة ولابد أنها هى الأخرى

تخاف ولهذا خشيت بأس خرابة! فاحترمت دياره! وألقت بنفسها بعيدا عن الجدران الواطئة! التى كانت شواشى القش على رأسها تصطدم بطلقات الرصاص! والحمائم المشتعلة تهوى فوقها موهوجة! وديار خرابة كما تعلم يحميها ظهر الجبل! إذ هى تقع خلفه بين صحبة من الدور بناها أصحابها من عائلة خرابة على مشارف أراضيهم الزراعية فكان الجبل يصد اللهب بصدره! وحين همدت النيران تماما صباح ذلك اليوم! وبدأت السماء تغسل نفسها من بطع الجحيم! وسحب الغبار والدخان المحترق! حيث ساعدت الأشجار العالية التى لا نهاية لها! والزروع الكثيرة على استنشاق أنفاسها وصار من الممكن أن يمشى الناس فى الطرقات! كان القلق قد وصل بأمك إلى منتهاه فراحت تصوت وتلطم وتجعر طالبة خبرا عنك وعن أولاد خرابة إذ أن الحريق فى نظرها شب من لحظة ما وصلها خبر القبض على خرابة أما لحظة أن وصلها خبر مصرعه فكانت لحظة الموت للعالم أجمع! ولقد ماتت بالفعل مرات عديدة! وردت فيها الروح طالبة أولاد خرابة! فذهبت بصحبة أبى إلى ديار خرابة وصباح اليوم عن الشروق فالتقتنا زوجة خرابة الأولى فى احتفال كبير وأكرمتنا آخر كرم وغادرت جميع النساء المعزيات خارجة إلينا متعصبة بالشاش الأسود غارقة فى السواد إلا وجهها الكبير الأبيض كالرغيف الفلاحى المرحرح! بعينين واسعتين زرقاوين فى قلبهما كرتان ضئيلتان من سواد الثوب والشاش والليالى التى قضاها خرابة بعيدا عنها فى أعماق الجبل! كانت جميلة كالبدر ليلة تمامه! قوية كثور معلوف! مسترجلة

كشيخ قبيلة! قالت لأمك بكل هدوء واتزان ـ ناسية أنها أم ضرتها ـ ورطوبة الدمع فى عينيها وشفتيها كأوراق الورد تشربت قطرات الندى لتوها : «إن سعدية قد أصبحت اليوم فى مركز خرابة بالنسبة لأهله والعائلة كلها! إنها هى التى سبقت كل رجال العائلة وفتياتها لتمسح عن العائلة عارا لم تكن لتمحوه السنوات وإن طالت! وكتب على هذه العائلة أن تبقى إلى نهاية العمر مسموعة حاضرة فى الكبيرة والصغيرة! سعدية حققت عيالنا كلهم بحقنة الرجولية والشهامة والفداء ستظل فى دم العيال تصرخ فى العروق إذا كانت امرأة جدكم خرابة قد ثارت له من الحكومة نفسها فى عقر دارها فى أجعص جعيص فيها فماذا ينتظر منا نحن يا رجال ويا شباب ! هى قد فاجأت العائلة كلها بهذا الفعل العظيم وإنى لموقنة أن زوجى خرابة حين أحبها وتزوجها فوقى إنما كان ذلك بوحى إلهى!إن خرابة ليس يختار أى أحد! من يتزوجها خرابة لابد أن تكون داهية من أعظم الدواهى! إن سعدية لم تحدثكم عن شروط عقد الزواج الذى تم بينها وبين خرابة وهو عقد آخر غير الذى قرىء عليكم ليلة العرس! فمن بين شروطه الاتفاق على تنفيذ الثأر فى حموتها فى الحال وأن من تواتيها فرصة المبادرة بالعملية عليها أن تلبس ثياب خرابة وشخصيته أبد العمر ولها أن تحتل مركزه تحمل مكانته تحل محله فى الجبل!إننى ضعفت لبرهة قصيرة باعتبارى أم تعز أولادها وإنى لنادمة عليها الآن كل الندم! إنى لأحسد سعدية قدر ما أحببتها! لقد سرقت مجدى الذى قضيت العمر أحلم به! أن

أكون أول امرأة تمتطى صهـوة الجبل تسكنه بين المطاريد الرجال! سعدية الآن هى الرجل وعيالهـا فى عهدتى أنا! هى أمانة لن أفرط فيها لأى سبب من الأسـباب! إنهم لابد أن يكون عيال خرابة بحق وحقـيقى ولن يكونوا كـذلك إلا إن تربوا فى عهدتـى تحت رعايتى أسقيهم أباهم! وأهلا وسهلا بك أنت الأخرى يا أم الغالية! والله لو أكرمـتنى يا أم الغالية وأكـرمت زوج ابنتك تحت ثراه لبقـيت معنا فى هذه الدار أنت وابنك إلى آخر الأيام!».

فلمـا سمع «هليِّل» وأبوه هذا الكلام الطيب انـصرفا علـى وعد بإحضار جدة الأولاد لكى تراهم وتطمئن بنفسها.

ثم قال «هليِّل» وهو يحود بى وراء الجمال إلى الكوعة التى هى دارهم الكبيرة:

ـ «وعلى كل حـال فالحـمد لله أنك ظهـرت لتذهب مـعنا لرؤية أولاد أختك!».

وكان واضـحا أن دارهم هى الأخرى قد تغيرت.

أبواب الجنة ثمانية

الأولة ـ قِيَام العجَل

استـقبلتنا «بهـانة» زوجة «خـرابة» الأولى ففتـحت لنا المندرة الكبيـرة وتربعت أمامنا تسـتقبل وفـودًا من الرجال والشـبان من العـائلة والعائلات المجـاورة. جئ بالغـداء خروفـا مـذبوحا لتـوه، فصـرنا نأكل ونتفـرج على أولاد أختى يمرحـون فى الدار لاهين، غير عابئين حـتى بوجودنا فاستعجبت والله يا خـال، واستعجبت أمى، كمـا استعجب «هليِّل» وأبوه مـن الولاد الذين قتل أبوهم منذ أيام ونفيت أمهم طريدة إلى الجبل، ومع ذلك يمرحون، مع الأولاد يلعبـون يغنون، وأمى ترى ذلك فتـزداد إشفاقا عـليهم، وتسح من عينيهـا الدموع، لكنها فى النهـاية مسحت دموعهـا وصارت تتكلم مع «بهانة» فى أمور الدنيا والدين، وأفاعيل الزمان، ونذالة الأقدار، وغدر الأيام، وعندمـا أذنت العشاء قـامت لتصلى، فقـامت «بهانة» لتصلى خلفها، وقمنا نحن لننـصرف فحلفت «بهانة» بطربة العزيز الغالى، أن أمى لا ترجع مـعنا وأنها تظل مقيـمة فى ديار «خرابة» حتى ننتهى من بناء دارنا على الأقل من مهلنا.

«بهانة» شخصية ليس من السهل تـضييع حلفانها يا بوى، كما أنه ليس من الصواب تضيـيعه وليس من العقل مجادلتـها فى أمر

قفلت دماغها دونه. فسلمت عليها ومضيت فسلمت على أمي وشعرت وأنا أطيل السلام عليها أننى أودعها لغيبة طويلة لا أعرف عنها شيئا بعد لكنى سوف أغيب، قلت لها باكيا : «ادع لى يا أم». فانبرت تدعو وهى تقيم الصلاة فى نفس اللحظة وتخلط كلام الدعاء بكلام الإقامة.

فى طريق العودة، ونحن نلف حول جذع الجبل فى سفحه السحيق كان القمر يشجع نفسه على الظهور شيئا فشيئا، ويتسحب من فوق شواشى السحاب، لينظر متلصصا، ويعود فيتخفى وراء موجات من الدخان الشبيهة بالجبال الرمادية، فلما لم يجد القمر أخطارا فى سماء البلدة، أظهر جزءاً كبيرا من كتفه، فصرنا نرى القنيان الرفيعة، والصخور المتخفية، والحفر المتنكرة. والد «هليّل» استنظف صخرة كبيرة كأنها أصبع فى قدم الجبل، وجلس فوقها، فجلسنا جواره ووزع سجايره، وجعلنا ندخن فى صمت. وقتها كنت أشعر أن الدنيا تجر أنينى وتدخل معى فى هزار ماسخ ثقيل الدم وأن أياما من النحوس تريد أن تتحالف معى على العيش والملح، وكانت الشرخة المتقوسة من كتف القمر تريد أن تواسينى وتكلمنى طالعة نازلة مع أمواج السحاب، تخيلتها والله تقول لى: عيشك مقطوع ها هنا يا حسن يا ولد أبى ضب فارحل فأيام النحوس لن تنى تطاردك فى هذا البلد وليس أمامك سوى الجبل وأنت يا حلو لست فى مقاسه أما مصر المحروسة فهى واسعة لك فيها مخارز وفسح للشقاء فارحل إليها وفلج بنفسك.

ميلت على صاحبى «هليّل» وقلت له إننى نويت السفر فى أول قطار يقف على محطة «صدفة». شهق صاحبى واندهش أبوه وشوح بيده فى وجهى غاضبا : «أجننت يا ولدى! خلّيك معى يا ابن الناس ! تشتغل مع أخيك هليّل! إنه يحتاج لك فى شغله ورزقك ورزقه على الله! بدلا من الغربة فى بلاد الله». رفعت ذراعى قائلا بصوت قاطع: «والله والله ! لن أبقى فى هذه البلدة الخراب ساعة زمن واحدة! وإن كان ولدك ياصاحبى حقا فليسلفنى أجرة السكة أردها إليه بعد أيام! وإذا لم يفعل فإننى سأركب القطار بدون تذكرة فوق سطحه!». فقام هليّل وحضننى وبكى. كان يعرف أن مخى ناشف كالزلطة، وأنه سيتعب من الكلام معى، فقال : «خلاص يا عم !لكن أتسافر هكذا!» وأشار إلى خلقاتى البالية المصبوغة بالفحم والوسخ. قلت : «لقد انهدمت دارنا فوق حوائجنا!». قال: «وثيابك أليست ثيابى! فثيابى إذن ثيابك!» قلت: «طبعا! طبعا» قال: «قم معى لحد الدار!» ذهبنا معا إلى الدار فأعطانى ثوبين وقميصين وسروالين وبلغة صفراء عتيقة ولبدة جديدة وخمسة جنيهات بحالها وأوصانى بعدم قطع الجوابات فعاهدته على ذلك وحضنته ثم حضنت والده وأختى «هندية» ومضيت فمضى خلفى «هليل» عازما ألا يتركنى وحدى فى هذه الساعة المقطوعة .. وكان شبح ذراعه المرفوع بالتلويح يتراجع فى ظلام الرصيف المنسحب تحت شباك القطار.

الثانية ـ الحضور المباغت

صـدق من قال إن الأرض كـروية يابوى ، وأن الدنيـا دواررة. فمن الذى جاء بالواد «بربش»رفـيق القمار فى «مصر عتـيقة» أيام كنت صاحب مقهى إلى قطار الصعيد فى محطة «صدفة»؟! ماكدت أجلس والقطار ينسلخ من بيـوت البلدة ويرتع فى مـزارعهـا حتى سمـعته ينادى علىّ من الكرســى الملاصق للشباك المقـابل. يخرب مطنك يا بربش من الذى جاء بك هنا يا ولد ياشقى؟ تعال أقعد هنا جـوارى. لم أكن أتوقع أن يجىء لكنه جـاء ترك كرسـيه المجـاور للشباك وجاء ينحشر بجوارى. كنت أظنه سيتكبر بحكم هذه البذلة الفخـيمة التى يلبـسها أو على الأقل سـيستـاء من قولتى «يا ولد» أمام الخلق من الركاب، بدون أن أحترم بذلته ورباط عنقه المحبوك وشعره المصفف الناعم اللامع كحذائه الذى لابد أنه لاشغلة له غير تلميعه. سرى فى عروقى شـعور متأسف يقول لى إننى كان يجب علىّ احترامه أمام الخلق فاكلمه مثلما كنت أكلمه فى «مصر عتيقة» قائلا له يا وحيد بيك ـ (الاسم الذى دخل به علىّ أول يوم ويناديه به الرفاق دائما)، لكننى عدت فـشعرت بالخوف يابوى، شئ إلهى فى نفسى قال لى: خل بالك منك ياحسن.

فربما مراده يلعب عليك لعبته بهذا الود وهذه النعومة لينشل ما معك أو ينصـب عليك نصبة، خـصوصـا أن قرصتـه والقبـر فأنا أعرفـه ولدا يلعب بالبيض والحـجر وكـان هو الذى يتحـدث دائما باسـم رفاقه ويرسم لهم ما يفـعلون وفى النهاية يسرقهم فى لعب القمار بخفة يد فيهـا ألف حاو شاطر، وكان يزعم لى أنه صعيدى الأصل. غـير أننى لم أكن أصـدقه أبدا، لأن وجـهه نحـيل، أبيض، طويل الأنف، ثقيل الحاجبين، أزرق العـينين، مهيب الطلعة، لسانه طرى ناعم، وصوته رنان مـرن، كابن مدينة مـن ألف جيل، فكيف يابوى أصدق أنه صـعيدى، وليس فيـه من المرجلية قلامـة ظفر؟! خذ منه كـلاما حلوا من هنا لحد الصـبح يملأ دماغك فتـصدق أنه «بيك» فعلا، وهو فى حقيقة أمره لم يفطر بعد، ولم يذق طعم الزاد من أيام عـديدة، ولحظة أن تصدقـه يكون على الله العـوض فيـما معك من نقود وجـواهر وأشياء ثمينة تسـتحق البيع أو الرهن، إذ أنه سـوف يقودك إلى دارك تـخلعهـا له عن طيب خـاطر بل ربما استأذنته برهة تذهب خلالها إلى دارك لكى تحضر له نقودا كبيرة قد يحـتاجـها. ذلك هو «بربش» الجـبار المسجل خطـرا فى دفاتر الشرطة.

ورغم أنى عرفت حقيقة أمره بعـد ثلاث قعدات فى مقهاى تلك المزعومة بـ «مصر عتيقة»، وجـئت بداغه، إذ عرفت اسمه الحقيقى، وحارة درب عجـور التى ولد وتربى فيها، لأب مـاسح أحذية، وأم تعـمل بَلأنة. فـإنه مع ذلك، كـان كثـيرا ما يحـاول أن يبـيع لى

البكوية، وأن يلبسنى الطرطور، يقرطسنى، لكى أعطيه وضعه أمام الخلق، حتى يتمكن من النصب عليهم على راحته.

ذلك يا بوى كان أول شلة «مصر عتيقة» التى بسببها أغلقت المقهى أما «غزولى» ـ ثانى واحد فى هذه الشلة ـ فإنه من الصعيد فعلا والصعيدية واضحة عليه وفيه، برغم أنه أوجه من بربش، وأجمل وأأنق، يتصوره المرء مثلا من أهل السينما، يغير ملابسه باستمرار، فيجئ كل يوم ببذلة جديدة نظيفة. بعكس «بربش» الذى لديه بذلة واحدة يعتنى بها جيدا، ويحافظ على نظافتها. و «غزولى» كبير الدماغ يابوى، غليظ الملامح، واسع العينين كبيرهما كانهما لوزتى قطن، تطل منهما نظرات صعيدية، تتلصص، تلبد فى حقول الذرة، تهجم عليك أثناء الكلام معك، يطق منها الشرر. إذا تكلم فبصوت عال رنان، يطلب منك أن تجعل بالله معه لحظة واحدة فإن ملته بعد لحظات تعارك معك. فإن تعارج هاج، وأرغى وأزبد، وبرطم وهلضم، وبوظ دور اللعب، وربما دفع الورق فبعثره، أو الترابيزة فقلبها، ولسانه الصعيدى المعووج المطوط لا يكف عن البرطمة والجعجعة، تحلف اليمين أنه فلاح صعيدى يتعارك عند الساقية، لكن سريعا ما يهدأ يا بوى أما إذا عرفت خلته، فصرخت فيه بعنف وأظهرت زعلك، فحينئذ يعتذر بنفس الصوت العالى ويطيب خاطرك مرددا: «خلاص يا بوى! خلاص يا بوى! حقك علينا!». وكان الظن عندى، أنه ربما يكون من عائلة صعيدية غنية ترسل له النقود بغير حساب، يلعب بها القمار، يشترى ناخر الثياب، يفتطز كل هذه الفنطزة. مخى أنا صعيدى

أكثر منه يا بوى، ويقع فى المطبات بسرعة، لكننى أعرف كيف أخلع قدمى فى الحال يا بوى، قبل أن تنغرز فى الوحل أو أنكفئ على وجهى. قعدتان ثلاثة جمعت فى دماغى بعض كلام معا يتبادلونه مع بعضهم بطريقة السيم المكشوف، فهمت منها أنه ولد مخربش هو الآخر. والمخربش يأتى بالنقود من جميع الأبواب، غير أننى لم أكن عرفت بالضبط ماهى هذه الأبواب يا بوى، إنما عرفت أنها كثيرة أمام الولدان المخربشين الذين لا يتقون الله فى أنفسهم أو فى دينهم.

الدور والباقى على «بسبوسة»، ثالث واحد فى هذه الشلة إنه اسم على مسمى والله يا بوى، أقصرهم قامة، طوله مثل عرضه، مرغدد، ملظلظ، كبير الوجه، يمتلئ وجهه بالدم، إلى حد اختفاء الخدود بين الملامح، إذ تزحف خدوده على عينيه، ويضيع أنفه الدقيق فى حنك واسع، غليظ الشفتين، عارى الرأس، شعره قصير واقف، لكنه مصفف، مدهون بالزيت، ومعووج قليلا على الجنب اليمين. هو الوحيد فيهم الذى يلبس جلبابا، وجلبابه دائما نظيف وتطبيقة المكواة مرسومة عليه، تفوح منه رائحة خزائن الثياب، مزيج من الطيب والنفتالين، ياقة الجلباب كبيرة وواقفة حول رقبته التخينة الغليظة، للجلباب جيب على الصدر، فيه على الدوام نقود كثيرة مطبقة فوق بعضها، فوقها علبة سجائر هليود لارج، وفى بنصره الأيمن خاتم ذهبى كبير بفص فيروز أزرق، وفتحة الجلباب طويلة واصلة إلى ما فوق الصرة بقليل، فانلته البيضاء

ظاهرة من فتحة الجلباب، نظيفة، يظهر من قطنها الشفاف ثديان كبيران كثديى امرأة نتاية، لدرجة أن القناة الفاصلة بين الثديين كانت تتوهنى أحيانا فأظنه امرأة. وكان هو بطراوة صوته، ونعومة حركاته، وذبول نظراته، يؤكد لى من طرف خفى أنه بسكويته، وأن هؤلاء الولدِ يأكلونه يا بوى. عن شغلته يقول إنه «معلم»، معلم ماذا، فى سوق الخضار مثلا، صاحب محل؟ هو معلم والسلام، معلم معلم، كن عشرين معلما فى بعض، مالى أنا؟ المهم أن تدفع لى ما يصير من حقى طرفك. فى هذه الناحية لم يكن يعيبه شئ بصراحة يا بوى، هو الوحيد الذى لم يكن يجادلنى فى الحساب، إذا قلت إننى أطلب كذا، وكنت أستطيبه، لكننى كنت نافرا من طيبته هذه، وكان الشيطان يصور لى أن هذا الولد يقف فى صفى لغرض فى نفسه.

الوحيد فيهم الذى كنت أحبه بحق وأراه محترما بحق هو الولد «هندى». كان أرجلهم يابوى، وبوادر الرجولة تظهر فى صمته الدائم الذى بلا نهاية، حيث ينام شاربه الخنفساء على شفتين رفيعتين خلقتا للانطباق على بعضهما، كفتحة الكيس، ولولا الشارب الأسود الثقيل ما ظهر له فم، من كثرة انطباق الشفتين يتمدد ذقنه داخل الفكين. من فوق الشارب، يستقيم أنف رفيع مدبب، ملتحق بجبهة ضيقة، يكاد شعر رأسه يغطيها من أعلاها ومن جنبيها فلا يبقى منها إلا مساحة عارية. كقطعة الجبن السمبوكسة التى يسمونها الفلمنك. إن ضغطت عليها يغوص

أصبعك فيها يلمؤها بالتجاعيد. كانت هذه الجبهة تبقلل تكاد ترسل بقابيق الرغوة الملونة حين يغضب، أو يتوتر من اللعب، أو من كثرة الكلام الفاضى معه، إذ تتزاح هذه الجبهة إلى الوراء مسطوحة، لتصعد من تحتها عينان ذكيتان، ليستا فى حاجة إلى لسان يتكلم، إذ هما تقولان كل شئ، بغير لتّ ولا عجن. كنت أعرف أنه ماء من تحت تبن يا بوى، وداهية من دواهى الزمن، هو أصغرهم سنا، لكن دماغى حكم حال رؤيته أول مرة بأنه أكبرهم عقلا، أشدها نصاحة، أكثرهم فصاحة لهذا يا بوى كنت أحترمه أكثر منهم جميعا وأراعى شعوره عند الكلام معه، وأراعى كذلك الحد والمصلحة، وقلبى يحدثنى أن هذا الولد ربما يكون لى معه شأن ذات يوم، وربما اتخذته صاحبا وفيا لى فى هذه الغربة البعيدة، والذى يزيدنى احتراما له يا بوى أنه كان الوحيد بينهم صاحب عمل واضح، يمكن لك أن تزوره فيه، وتراه وهو يعرق مثل خلق الله العاملين، شغلته فحام، له فى الفسطاط ورشة يصنع فيها الفحم على يديه، لكى يبيعه للمقاهى ومحلات الكباب، بأسعار مريحة على قد فحمها الجيد، الذى يشيعون أنه يشتعل بعود الكبريت وهو يكسب كثيرا من هذه الورشة، ويتحول طول النهار إلى عبد متفحم الوجه، لا يساوى خردلة، لكنه فى المساء يخرج من الحمام أفنديا معتبرا، تهفهف الثياب الثمينة على جسده، ليصرف كل ما كسبه طول النهار فى قعدة القمار.

■ ■ ■

الثالثة ـ التقا. الزبانية

علبة سجائر بلمونت كبيرة مبططة زغدتنى فى صدرى برفق، فانتبهت إليها، فرقص قلبى لمرآها، وسكرت رأسى من رائحتها المعطرة. كانت يد «بربش» ـ أو سعادة البيه ـ ممدودة بالعلبة، فلمحت فى أصابعه الخواتم الذهبية، فتفاءلت خيرا يابوى، وقلت الحمد لله لن يورطنى فى أى نصبة، إذ أن حالته متيسرة. سحبت سيجارة ومددت يدى لإخراج علبة الكبريت، فأسرع هو مشعلا ولاعة ذهبية، خضنى صوتها، وسحرتنى تكتها واتساق شعلتها، كورقة ورد مستطيلة. أشعلت السيجارة، واستوعبت دخانها فى نخاشيشى بلذة كبيرة، وقد بدأ الخوف يتسرب مع الدخان. شئ إلهى فى نفسى يوعز لى أن مثل هذا الشخص كلما ازداد كرمه كان ذلك مؤشرا على أنه يحكم حولك شباكه الخطيرة. لكن صوتا يشبه صوت أبى صاح فى دماغى ساخرا إيش تاخد الريح من البلاط! قلت فى نفسى صدقت والله يا من قلت هذا، فإن كان «بربش» ريحا كانسة فأنا البلاط ولن ينوبه منى شئ. ركنت إلى هذا الصوت، فوضعت ساقا على ساق، وصرت أدخن فى لذة، ثم تذكرت، فابتدرته: «قلت لى ما الذى جاء بك فى القطار الصعيد!»

قال باسماً: «لكى أجعلك تصدق أننى من الصعيد الجوانى!» قلت بلهجة ذات معنى غطيته بالطيبة: «كنت فى زيارة أم فى مهمة!» لكزنى بكوعه فى جنبى لكزة موجعة وقال: «ذى! وذى»، وكانت لهجته كأنه يقول لى: «إسكت ساكت!»..

سكت بالفعل يا بوى. فلما فات بائع السميط اشتريت سميطة وقطعة جبن رومى، وبيضة مسلوقة، وعزمت على صاحبى فقال إنه شبعان ولكن لا مانع من لقمة صغيرة يغير بها ريقه، ثم طوح بثلاثة أرباع السميطة فى فمه، وبقطعة الجبن الرومى كلها، فأطبقت بيدى على البيضة، حتى طويت اللقمة فى فمى، وطوحت بالبيضة كلها وراءها، وقلت الحمد لله على ذلك، وأشعلت سيجارة لف من علبتى، ومن شدة غيظى على الحركة التى فعلها لم أعزم عليه بسيجارة، فأخرج علبته وأشعل واحدة. وفجأة مر بائع سريح يبيع الخوخ فى سلة، فاستوقفه «بربش» واشترى منه ملء كيس من الخوخ، وضعه فى حجرى قائلا: «كل يا أبو على»، ثم حاسب البائع وصار ينتقى ويقضم بشراهة ويستحثنى على القضم، فصرت أفعل مثله وأنا نادم على حركتى الناقصة تلك..

جاءت محطة فوقف ناس وذهبوا نحو الأبواب، فخلت معظم الكراسى من حولنا، فانتقل «بربيش» إلى الكرسى المواجه لى دقيقة واحدة مرت وفوجئت بالولد «غزولى» يجلس جوارى مطبق على كتفى قائلا «إزيك يابو على! والله زمان!» ماذا أقول يا خال فرفرت فى الأرض من الدهشة: «غزولى» هو الآخر هنا فى قطار

الصـعـيـد؟ كيف يابوى! هو صـعـيـدى الماركة نعم لكن رؤيتـه هو الآخر الآن أمر لم يجئ على بالـى أبدا. صرت أقول هذا ناظرا إلى «بريش» وإليه فأراهما يبتسمان لبعضهما، لم يكن أحدهما قد سلم على الآخر يابوى، فـلابد إذن أنهما مع بعضهـما من الأول يابوى. أنا مثلهـما ولد مخـربش ومتلطم وناصح. صـوت فى رأسى قال: ولكن غزولى ركب من هذه المحطة! صوت آخر رد قـائلا: هما معا فى مشوار واحد يلزم أن يركب كل واحد من مـحطة. نظرت فيهما من جديد وقلت: «عـال! عال! الحالة رائجة كمـا يبين لى!». لطمنى الولد «غزولى» بكفه فوق قناعـية رأسى بمزاح قائلا: «طول عمرها رائجة معنا ياصعيدى يـاقفل!». تلقيت اللطمة ضاحكا وقلت: «على خيرة الله! ربنا يوفقكم». صارا يبتـسمان،فأحسست أن وراء هذه البسمة شراً لم ينكشف لى بعد من ولد الفرطوس هؤلاء.

محطة أخرى جـاءت فغربلت القطار ممن فيه وألقت فـيه بحفنة أخـــرى من الخلق. وإن هى إلا برهــة، حـتى فـوجـئـت بكل من «بسبـوسة»و «هندى» مـقبلين نحـونا، صائحين فـى نفس واحد: «أهلا أهلا أبو على! والله مـامعـقـول!». وقفت على حـيلى رافعـا ذراعى صائحـا وقد ركبنى فرح مـفاجئ: «والله ما معـقول صُح! والله صح ما معقول! إيه ياولد الابالسة! أين كنتم تفعلون فى بلاد الصعيد! ألا تعرفون أننى عمـدة الصعيد! وكان الواجب أن تأخذوا الإذن منى قـبل أن تفعلوا».أخـذت الولدين بالحضن وأجلسـتهـما جوارى، فصرنا جمعا، وصرت فى قلـب «مصر عتيقة» فى الدكانة التى كنت افتتـحها مقهى، وهؤلاء الولد يلعبـون القمار عندى، وأنا

أراقبهم لقبض الكـرتة على كل دور يلعبونه. انمحى الزمن يابوى، واختفت اللحظة التى كنت فيهـا، وحضرالماضى كله، لكننى طويته بمسحة من يدى على رأسى، وبهرشة عابرة فظننت إلى أن أربعتهم كانوا فى مـشوار يسـترزقون مـنه، وسرح خيـالى بعيـدا، صار يتـخبط فى نواح كـثيـرة، وفى النهايـة اغتظت من نفسـى ومنهم يابوى، قلت لنفـسى هذه: نحن فى قلب الصعـيد لانعـرف نكسب مليمـا! وسكان مصر القـاهرة يجيئـون للتكسب من الصعـيد؟ ألا لعنة الله علىَّ وعلى حظى الـنتن، هؤلاء الولد لابد أنهم أشطر منى يابوى، وأنا معترف بهـذا، ولهذا تمنيت بينى وبين نفسى أن أكون فى رفقتهم علنى أعرف كيف أسرق من مصر القاهرة، فمن جاور السعيد يسعد.

جاءنى صوت الولد «هندى» من آخر الكرسى يقول: «إيشحالك يابو على؟ مـاذا تشتغل الـيوم؟» انشرح صـدرى والله يابوى من هذا السـؤال وأجـبت «هندى» إذ يسـأله، وقلت: «واللـه ياهندى ياخوى أنا الآن أمـر والعيـاذ بالله بأيام نحوس كثـيبـة الخلقة! لا داعى لذكرهـا فالشكوى لغيـر الله مذلة!». قـال «بسبـوسة» وهو يتحسس ثدييه الكبيرين برخاوة وطراوة صوت: «فإلى أين تسافر اليوم ياترى! وراءك مـشوار معـين؟». قلت: «لا والله يابسبـوسة! إننى قاصـد وجه الكريم ومن يقـصد وجه الكريم لا يضـام!» قال «غـزولى»: عندك مكان سـتـتـوجـه إليـه؟». قلت: «مـاعندى والله ياغزولى سـوى الستر». قـال «بربش»: «عندك مكان تبيت فـيه؟». قلت: من أين يابربش ياخوى؟ لقد تركت الغـرفة التى سكنتها فى

اصطبل عنتر منذ بضع سنين! ظننت أن الله لن يكتب لى عيشا فى مصر القاهرة ثانية! لكن العبد فى تفكير والرب فى تدبير! وها أنذا عائد إليها رغم أنفى!».

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض وقال «بربش» فى ثقة حاسمة: «خلاص! خليّك معنا ورزقك ورزقنا على الله!». قلت: «أنا معكم من شوشة راسى لحد أظافرى!». قال «بربش» وهو يلوح بيديه فى نزق كبير «يلزمنا أولا أن نعرفك على رجل مثل السكرة! يعجبك هو ويملأ دماغك!». قلت مشوحا بيدى: «عرفنى على الجن الأحمر! الجن الأزرق لو أحببت!». قال: «هو جن أى نعم مافى ذلك شك! أحمر على أخضر! الأحمر له والأخضر لنا!». ثم ضحك فضحكوا كأنهم فهموا، أما أنا فإن الكلمة لعبكت مخى يابوى وعجزت عن فهم مقصده بالفلهوة، فقلت حانقا: وما الأخضر! وما الدنيا وما الدين! قال «بربش» اللعين «ما الأحمر هو هذا» ـ وأخرج من جيب صدره ورقة بعشرة جنيهات حمراء الوجه قانية ـ ثم أضاف: «والأخضر هو هذا» ـ ونزع من جيب البنطلون ورقة من فئة الجنيه خضراء مزرقة مبهجة يا بوى.

رقص قلبى ورفرف كالعصفور بجناحين كبيرين، فشوحت قائلا فى طرب ونشوة: «أنا مع الأحمر والأخضر والأزرق وكل الألوان الحلوة بالصلاة على حضرة النبى!».. فضحكوا جميعا. وكان القطار يدخل بناء محطة الجيزة، والمدينة تتلبسنا شيئا فشيئا، فلما نزلنا على الرصيف سرت فى أثرهم لاهثا، أخشى أن يضيعوا منى فى الزحام فتضيع الفرصة من يدى. لم أكن قد

صدقت بعد كل ما قالوه وظننته فك مجالس فجعلت كعبى فى كعبهم حتى غادرنا الرصيف وصرنا فى الشارع الموازى له، فإذا هم يتجهون نحو عربة كبيرة كانت راكنة بجوار الرصيف، فتحوا أبوابها وركبوا فاندسست بجوارهم متوقعا أن يضحكوا فجاة من سذاجتى ويأمرونى بالنزول، بعد برهة جاء سائق عجوز من مكان ما، فركب وأدار المحرك فنطقت العربة وسارت، وقال «بربش» بلهجة آمرة «مصر عتيقة يا اسطى»، لكن شيئا إلهيا حدثنى بأن السائق يشتغل معهم وأنه كان فى انتظارهم حسب موعد هذا القطار، لكن «بربش» لا يزال يعتبرنى غريبا عليهم فيلبسنى العمامة، يقرطسنى. لحظتها اعترفت لنفسى أن «بربش»ولد حويط بالفعل ويجب أن أحسب له حسابا، كى لا يوقعنى فى شر أعمالى...

صارت العربة الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض تخبط يمينا وشمالا، والسائق كالبهلوان يتلوى بها وبنا يتعوج، ينخطف يخطف، ولا يستعمل زمارة التنبيه، كأنه يخشى من لفت النظر إلى العربة. شئ إلهى أرعشنى وقبض على قلبى بكلابات من حديد، وقد وقر فى ذهنى أن العربة لابد يكون فيها ممنوعات خطيرة، أى ممنوعات، وهذه الممنوعات لابد أن يكون هؤلاء الولد قد جاءوا بها معهم من بلاد الصعيد. ظنى يقول لى إنها مخدرات، ومخى الصعيدى يقول إنها أسلحة وذخيرة جاءوا بها أو بثمنها من بلاد الصعيد. الكذب خيبة يابوى، فأنا لم أر معهم شيئا يمسك باليد، غير أننى لم أفتش ثيابهم يابوى،ولم ألحظ فيها جعبة أو انتفاخا،

فلما انتبهت إلى ذلك صرت أتحكك فيمن يلتصق بى، فايقنت أن جنوبهم صلبة يا بوى وفيها دخائل كبيرة، قلت: ربنا يستر، ورميت عن نفسى كل قلق، نفخت صدرى وأشعلت سيجارة. وكانت «مصر عتيقة» تدخل فى خياشيمى وتزحف على صدرى بقراطيس من الضوء المغمض العينين، مراده بعث النكد فى روحى غير أنى لما نظرت من شباك العربة ورأيت الخلق يسيرون كالقرود مهانين متشعلقين فى أبواب الأتوبيسات قلت لنفسى: حظك من السماء ياولد أبى ضب، مكتوب لك عيش فى «مصر عتيقة» رغم انفك وأنفها، آه يامصر عتيقة، دخلتك بالأمس مهيض الجناح أمشى على قدمين دائختين واليوم، أدخلك راكبا سيارة بعيدة عن شوارب عمدة بلدتنا، وفى عزوة من الصحاب، وغداً أحيكك فى مؤخرتك يا بلدة كلها قرع وطبيخ من كل لون.

الرابعة ـ الباب المنهوب

على مشارف الفسطاط، هدأت السيارة، ثم ركنت على الرصيف، بجوار شادر كبير يمتد على مساحة لا تقل عن ثلاثة أربعة أفدنة بالراحة يا بوى.

نزل السائق، ونزل الصحاب، فنزلت معهم ومضيت خلفهم بجوار تيل السرداق المفرود على عواميد من الخشب. فلما وصلنا إلى نهايته دخلنا، لأفاجأ بغابة هائلة، جدرانها وسقفها من قماش الخيم، ومملوءة لتمها بضروب من أنواع البراميل، بأشكالها وأحجامها، والحديد الخردة بأنواعه، وحديد التسليح بكميات كبيرة، ومراتب عالية، من رصات شكائر الأسمنت كهرم سقارة المدرج، ورصات أخرى من شكائر الدقيق، وغيرها من أجولة الأرز والسكر، ورصات كالعمائر الشاهقة من صفائح السمن والزيت والجبنة والزيتون، وأشياء أخرى كثيرة ليس عندى دماغ لحصرها، يستغرب المرء كيف توجد كلها، مع كل هذه المنقولات، فى شادر كهذا يابوى. وكل ذلك مغطى بأحمال القش والخيش والمشمع، لكنه نوع من التغطية يظهر المغطى أكثر مما يخفية. حين هاعت عيونى وضاع قلبى فى هذه الغابة المملوءة بكل هذا الخير

الوفيـر، رن فى صدرى صوت يقول إن صـاحب هذا الشادر لابد أن يكون الحكومة نفسها، أو أحد مشايخ المنسر الكبار ولا غير ذلك يا بوى، إذ كيف يمكن لرجل بعينه أن يمتلك مخزنا شديد الوعورة كهذا المخزن يا بوى؟، وعلى عينك يا تاجر هكذا يابوى؟..

على أن الولد «هندى» ما أحلاه من رجل، غمزنى فى جنبى غمزة فهمت مقصدها ومشيت بجواره وقد لمت عينى عن البحلقة، ومضيت أعتقل الرعشة فى ساقى، إذ أيقنت يا بوى أننى موشك على مقابلة داهية من دواهى الزمن وآفة من افاوية الكبرى: ظللنا ماضين مسافة داخل الشادر، ضعف المسافة التى مشيناها بجواره، فإذا بى أرى باب دار على غاية من الرشاقة والأبهة، مطرزا بالمشغولات والمعشقات والمقرنصات والدوائر والمثلثات. الباب يفتح على الشادر،وسقف الشادر ملتصق بسقف أول تراسينة فى الطابق الثانى. لما وصلنا إلى هذا الباب صفق «بريش» على يديه صائحا: «يا حاج!» .. فجاءنا من الأعلى صوت رقيق، رفيع ناعم،ملىء بالورع، تعود على التسبيح والتهجد، قال:«خشوا يا أولاد». نظرت إلى فوق، فإذا فى الترسينة رجل يتسربل بجلباب أبيض نظيف جدا، وطاقية بيضاء من نفس قماش الثوب، الذى بدا أنه من الحرير يهفهف يتطاير حوله، ذقنه طويلة واصلة إلى آخر صدره، لونها ضارب إلى الصفرة ،البياض والرمادى تشبه بقايا شاطىء من حلفاء محترقة، وجهه سُفَيِّف، ضئيل القسمات كرقعة من جلد غير مدبوغ، ملىء بالتجاعيد، والشعر المهوش، المتشعث، القادم من خلف صلعته وفوق حواجبه، ضيق

العينين جدا، لكن شعاعا وامضا على الدوام ينطلق منهما، ليثقبنى فى كل بقعة فى جسدى، أما فمه فلا يكف عن البسملة والبسبسة، من خلال ابتسامة ذابلة، تلمع تحتها أسنان ذهبية وبلاتينية. كرر فى سماحة، مع هزات من رأسه: «ادخلوا يا أولاد! ادخلوا».

دخلنا يا بوى، فإذا نحن فى دهليز دار من الدور الاثرية العتيقة، كنت أرى مثلها فى مقابر الفراعنة،ملئ بالمصاطب الحجرية البازلتية، وينفتح فى قلبه منور مخروطى، يشدك للنظر إلى أعلى، فإذا طيرت بصرك شاهدت شبابيك ومشربيات الطوابق العليا كلها ولقد فعلت، فخيل لى أن عيونا من وراء هذه المشربيات ترقبنا. دخلنا بابا واطئا فى آخر الدهليز فإذا به باب سلم جميل غاية الجمال يابوى، يهون عليك أن تفرش وتنام على درجاته الرخامية النظيفة اللامعة كانهم يغسلونها كل يوم باللبن والعطور. ما هذا العز كله يا بوى؟ ما الذى يفعله ساكن هذه الجنان لله كى ينعم عليه بكل هذا النعيم يابوى؟..

صعدنا بضع درجات، حودنا على بسطة عريضة مربعة، يحفها درابزين من الخشب المشغول بالمخرطة على هيئة سيقان وخصور مبرومة، لكن بدون نساء. وقفنا على هذه البسطة قليلا، حتى انزاح باب قصير القامة عريض من الخشب الثقيل، عليه مستطيلات ومربعات تشبه شكل صفحة المصاحف بالضبط يابوى، الخالق الناطق، حتى الذى يشبه الفوانيس على هوامش الصفحات كان مرسومًا أيضا على الباب، ونفس التكورات

المرقومة، التى تفصل بين آيات المصحف. فلما دققت النظر يابوى، وجدت أن سورة يس كلها مكتوبة على ضلفة الباب، من أوله إلى آخره، من أولها إلى آخرها، وعلى سلخ الهامش مكتوب ـ بالحفر كذلك ـ أسماء الله الحسنى. أعمامى فقهاء يابوى ، وأنا مع ذلك تعلمت فك الخط من الولد وكيل النيابة الذى كان مسجونا معى فى زنزانة واحدة فى سجن مصر القلعة، وبينى وبين صفحات المصاحف سابق معرفة. ارتعش قلبى فى الحال، رقص، وقع فى حبائل شبكة من المشاعر الغامضة، لست بالله أعرف إن كانت هذه الرعشة التى سربلتنى أساسها سورة يس والقرآن الحكيم وأسماء الله الحسنى، أم أساسها ذلك الرجل الذى انزاح عنه الباب فظهر مقبلا نحونا يغوص شبشبه الزنوبة فى وبر السجاجيد الكثيف الشعر، ويخطر حاملا مسبحته اليسر الطويلة السوداء بين بوفيهات وشوفنيرات وبوريهات وترابيزات من كل شكل وكل جسم وكل لون، مبذور فوقها تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والعاج والحجر والنحاس، لأشباه رمسيس ونفرتيتى وشيخ البلد، وأخرى لسباع وثعالب وذئاب وطاويط ونسور وجعارين، وميداليات وأساور، وعلب صغيرة كالتحف، كل ذلك مفرودة على الترابيزة والمسطحات. أما الحوائط كلها فمغلفة بالمرايا البلچيكية التى تعكس كل ذلك. ومن السقف تتدلى تعاليق كثيرة، بسلاسل رفيعة، فيها زخارف ولمبات على شكل بلحات، ومنجايات وكمثريات، وعناقيد عنب..

ركبنى الرعاش ثانية يا خال، فوقفت متسمرا فى مكانى، وصحابى يدخلون بجرأة قائلين: «ادخل يا راجل!». فبدون أن أشعر خلعت البلغة وطويتها تحت إبطى مثلما أفعل عند دخول المسجد، فضحك الصحاب وضحك الرجل حتى اهتز جسده وكاد ينكب على الأرض، ثم سحب من صدره نفسا وقال:«كويس! كويس! عملت الواجب!». استدار ومضى أمامنا ونحن من خلفه نتعثر فى وبر السجاجيد الناعم ونخوض فى رسوماتها المزركشة، فوق ميادين ومآذن وإيوانات ودوائر، وقد عجبت والله يا خال كيف يهون على المرء منا أن يدوس فوق هذه النعمة بأقدامه!؟ وقلت لنفسى: ما الذى بقى من الجنة لم يستحضره هذا الرجل إلى هذا المنزل العامر!؟ ماذا أبقى هذا الرجل للجنة يا ترى!؟ والجنة علام تكون إذن بعد كل هذا؟! هناك إذن خلق من عباد الله أمثالنا أولاد تسعة أشهر، يختصبون الجنة من الله، ويركنونها على الأرض فى السر، مثل هذا الرجل العجيب الشأن.. هكذا قلت لنفسى وأنا ماض فى ذيلهم، ونظرى معلق على مصحف كبير جدا، مفتوح، ومركون فوق بوريه كبير بعرض الحائط فوقه مرآة، وفيها يمتد المصحف بمصحف شقيق وصفحاته ذات الهامش الوردى المشغول بالزخرفة ومتنه الكريمى اللون بأحرف سوداء منقوشة فوقه كالمصابيح، ما إن لامسته، تبركا به، حتى تكشفت أنه من الخشب لمصحف مفتوح على آية الكرسى، وبجواره برواز كبير يلف صورة الرجل سمح الوجه بلحية طويلة، بيضاء متسقة، جميلة الشكل، وزبيبة الصلاة على جبينه تحت حافة الطربوش

القصير الغامق تخطف البصر من لمعانها، والابتسامة على الشفتين تكاد تناديك لتكلمك، لدرجة أنني ظللت عاوجا رقبتي نحوها، في انتظار أن تكلمني حتى نبهني الولد «هندي» إلى أنني لو كسرت شيئا هنا ولو صغيرا فعمري كله لن يساوي ثمنها، فاعتدلت وجعلت عيني في وسط راسي ومشيت في ذيلهم، نخرج من صالة إلى غرفة، ومن غرفة إلى ممر، ومن ممر إلى سلم ضيق نصعده إلى صالة أخرى، نقطعهما إلى ممر، فسلم آخر، نهبطه إلى بهو طويل، نعبره إلى باب تحيط به الستائر طبقات فوق بعضها، يزيحها الرجل بحركة من أصبعه فتجري للوراء: ز.. ز..ز .. ى .. ز . نجد أنفسنا في باحة مطلة على السماء المليئة بالمآذن والقباب والأبراج وأشباح الأشجار، وبسيف عريض النصل يلمع في مدى البصر يترجرج لمعانه تكاد صفحة النصل تتدهور تحت هبوب الرياح لكنها ما تلبث حتى تستقيم حادة، كعلم من الحرير يتراقص بنشوة فوق وفود الرياح.. فتلذذت من هذا المنظر يابوى، تمنته منسحرا يابوى، فعرفت أنه نهر النيل، فتلذذت أكثر يابوى وقلت لنفسي: هذه هي الجنة من غير إحم أو دستور يابوى، وما علينا الآن سوى انتظار بنات الحور والولدان المخلدين، وأباريق الخمر والعسل المصفى.. وإذا نحن في برج فوق سطح المنزل يا خال، مربع محندق كالعلبة، له سقف جملون، وحيطانه من الداخل من الخشب السميك، مزركشة بالزخارف بالألوان الساحرة، كل حائط نصفه شباك مفتوح فأنت ترى أربعة أركان الدنيا، من هنا نخيل، ومن ها هنا مآذن، ومن هنا أبراج، ومن ها هنا موكب

النهر، الآتي من الشلال البعيد يسكب عرق جبينه على كل الأراضي لتنبت خيرًا ينعم به الخلق، أمثال صاحبنا هذا الذي يحفر على جبينه زبيبة الصلاة، هذا الذي صلى من أجل أن يطبع السجود هذه الزبيبة على جبينه، حتى خفت أن يصيرني هزأة أمام الرجل، فانكمشت على روحي،والضحك يَزُرُّ علي لا يريد أن يتركني في حالي يا خال، لكنهم جميعا انفجروا ضاحكين فقلت: ضحك بضحك، فصرت أقذف الضحكات الصاعقة، وهم يرددونها خلفي كالمغناطيس، حتى انهد حيلنا جميعا، وصرنا من فرط الجهد والانبساط نتمايل على بعضنا نتساند، بما فينا لحية الرجل، التي صارت في متناول يدي عدة مرات، أعبث بها كيف أشاء لو أردت لولا أن جسمي كان يقشعر منها، إذ هي تذكرني بفلقة عمي الفقيه وخيزرانته اللاسعة، كما تذكرني بملمس الزواحف الخشنة..

دهورنا التعب يابوى، فرمينا جثثنا فوق شلت منجدة بريش النعام مشغولة بالحرير المزركش بالزخرفة. شيء يتوه العقل يا بوى، شيء لاينسى العطار خرجه بل ينسى الخرج عطاره. الرجل تماسك نفسه، ومسح عينيه بمنديل حرير هفاف، ونسى فجأة أنه منذ برهة كان ذلك الطفل العكروت الشقي، الذي لا أمان لمقالبه، فنظر فينا بجدية شيخ في الثمانين من عمره، وقال: «تتعشوا يا أولاد؟» ثم نهض في الحال كأنه لا ينتظر منا أي رد، كأنه سيغير رأيه، إذ التفت نحونا بعد أن لبس الشبشب الزنوبة وقال من جديد كأنه يقرر هذه المرة: «تتعشوا طبعا.. وجب!»، ومضى ظهره

النحيل المحدودب قليلا عند القفا ـ من فرط الخشوع له فقط! ـ وساقاه الرفيعان من خلل الجلباب يخطوان فى نزق متعقل، متوازن، وأساور الكلسون القطنى تحبك على رسغى القدمين الطويلتين.. فلما غاب عن نظرنا سمعنا أبوابا تفتح وتنغلق، ووقع خطوات تهبط ثم تصعد، ثم تهبط على السلالم خشبية جعجاعة، يتداخل وافد طنينها فى أصداء سالفه. حينئذ قام كل واحد منا فانعطف على شباك ركن إليه، وبعثر نفسه فى الريح فى الخلاء الفسيح. زاحمنى الولد«هندى» على شباكى، لأنه فيما قال يحب نهر النيل مثلى ولا يمل من النظر إليه ويتمنى لو يقضى عمره فيه ولو غريقا.. فلكزته بكوعى فى عشم وقلت فى حسد حقيقى:«نيل إيه وبتاع إيه يابو العم!؟».. قال «هندى» إن دوام الحال من المحال كما قال أهل زمان، فانزغد قلبى زغدا نفذ من صدرى إلى الخلاء، وسألته ما هذا الرجل النادر المثال فى هذا العصر والأوان من طقطق لسلامو عليكم.

فى فحيح يتخلله حروف واضحة كتكتكة التلغراف تفهمها فهامة مجهولة فى دماغى، قال لى إن هذا الرجل إن لم أكن أعرفه هو «الحاج أحمد نورالدين السنى»، تاجر خردة فى الأصل والأساس، لكنه فى العرف ابن سوق بشكل عمومى، يتاجر فى المواد الغذائية لا بأس، فى العملة نفسها لا مانع، فى البنى آدم لا يضر، كله ماشى عنده، وربنا ـ يقول هندى ـ رضى عنه آخر رضا، إذ ملكه ثروة لا حدود لها، من بينها هذا المنزل الأثرى، عن أبيه الذى كان من الأعيان الكبار، عن جده الذى كان قاضيا

للقضاة، عن جده الأكبر الذى كان هو الآخر قاضيا للقضاة فى الفسطاط القديمة أيام لا أدرى مَنْ منَ السلاطين والملوك، على أن «الحاج أحمد نور الدين السنى» وهبه الله قبولا حسنا عند كافة الخلق، يمسك الحديد والصفيح بيديه، فيحوله إلى ذهب، قلبه جامد، يشترى خرج البيوت، ومخلفات الأسر الكبيرة، التى أذلها الزمن النذل وأجلى عنها الحظ. بحكم أن «الحاج السنى» فى الأصل من هؤلاء القوم يابوى، فإنه يفهم قيمة هذه المخلفات التى يتخلى عنها أهلها، لكنه يشتريها بتراب الفلوس. هو يعرف يا خال أن هذه الممتلكات الثمينة الأبهة، إن لم يحمها رصيد كبير من البنكوت الأحمر، تقل قيمتها، وتصبح كعدمها، فيسهل التخلى عنها أمام احتياجات الجسد والبطون، كما وأن «الحاج أحمد نور الدين السنى»، رغم أنه من علية القوم قبل أن يصبح تاجر خردة وتاجر التجار، فإنه قد نزل عن حياة طبقته ظاهريا، ليعيش بين الرعاع والزعر والحرافيش والجعيدية من الصياع والجرابيع وأبناء السبيل، والمخربشين، وحقيقة الأمر يابو العم، أنه بات يعيش حياتين، يعرف أحلى ما فى علية القوم من النظام، والأخلاق وترتيب الحياة وتدبير أمورها، وأمور الفنطزة فيها، ويتعيل عليها، وعندما يدخل المزاد ليشترى مخلفاتهم الثمينة، فى حالة عوزهم، فإنه يدخل فى هيئة معلم جاهل خشن الطباع لا يفقه فى أمور التحف الثمينة شيئا لا يعى من أمور الفن ولوحاته ومشغولاته أى شىء، لكى تريح نفسك من أى كلام تقوله بشأن قيمة هذه الأشياء وجوهر أصالتها.. سيقول لك بصريح العبارة، أنه لا صالح له فى

هذا الكلام، ولا قدرة له على فهمه، إنما هو يشترى منك الأشياء باعتبارها أشياء من المخلفات المستعملة، وكل مخلف مستعمل فهو خردة، بدون زيادة أو نقصان، وأنه فى الأصل طهقان ضيق النفس مما أنت فيه من عوز، ربنا يستر علينا وعلى ولايانا، خذ ما أنت فى حاجة إليه بدون بيع ولا شراء عندما يكرمك الله رد لى ما أخذت. وأنت تجد أنه قد شفع القول بالفعل، إذ دس يده فى سيالته الكبيرة وأخرجها برزمة كبيرة مطوية من ورق البنكنوت الأحمر القانى، يأخذ فى فرها بسرعة، ليتوقف عند عدد معين ينزعه من الرزمة هو على التحديد المبلغ الذى قدره ثمنا لأشيائك، يطويه على بعضه، يخفيه فى راحة يده، يقدم لك كفه مقلوبة، قائلا:«بركة بالصلاة على النبى!». لا تحاول أن تفتح ما أعطيت لتعده، وإلا جلبت على مظهرك المهانة، ثم إنك لن تفلح فى تعتعته عن هذا المبلغ شعرة واحدة، حتى لو مدحت بنت برى، سيقسم لك بالأيمان المغلظة وبحق صلاته وصومه وفجره وابنته الوحيدة التى يتمناها من الله أنه مكارمك ومعطيك فوق ما تستحقه البيعة بكثير، وإنها ليست بيعة ولا حاجة إنما هى بركة منك وهذا المبلغ بركة منه، وهو ونصيبه فقصده، وحق جلال الله، شريف، إذ هو يريد ـ فقط! ـ أن يفك عسرا، جعلنا الله ممن يفكون عسر الناس، العسر عذر ومن فك عذر الناس فك الله عذره، قل يا رب، رح إلهى ربنا يفتحها فى وجهك ويرزقك برزق أولادك، لا تغرنك الأزمة فهى مؤقتة، وهى امتحان من الله يا رجل.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها .. فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وهكذا يأخذك فى عشرة دروشة، أونطة، فى غنوة، فى حدوتة، فى كانى فى مانى، تكون عرباته قد حملت الأشياء وربطتها ووقف السائق فى انتظاره، زمارة والأخرى من السائق يكون هو قد مد يده مستدرًا بها يدك غصبا عنك، ليسلم عليك ويشد على يدك بقوة صلبة كقوة فارس صنديد على المعاش، وبيده الأخرى يربت على ظهرك مطيبا خاطرك، متمنيا لك صحة وعافية راجيا أن يراك ليطمئن عليك، وعلى أحوالك، وما يهمكش، أى خدمة فى أى وقت أنت تأمر، ورقبتى سدادة، لا يغرنك تمسكى فى مسائل البيع والشراء فذى نقرة وذى نقرة!..

افقت يابوى لبرهة، فانذعرت، إذ وجدت أن الصحاب كلهم ملتمين فوقنا يتبادلون معنا الحديث فى نفس الشباك.. فما عرفت والله يا خال متى جاءوا ولا كيف عرفوا أننا نتكلم عن صاحبنا «السنى» ولا كيف اشتركوا فى الحديث، إذ كل ما أذكره لحظتها أننى و«هندى» كنا نتهامس فى سيرة الرجل، فمتى صرنا نتكلم عنه كلنا هكذا بصوت عال؟ هذا ما يكاد يلحس مخى والله يابوى. «بربش» وزع علينا دورا من سجاير البلمونت وأشعلها لنا قائلا فى صوت خفيض:«على فكرة! الحاج السنى من الإخوان المسلمين! ولهذا فأهل المدينة كلهم يحبونه! إذ هو رجل يعطف على الغلابة والمساكين! يوزع الزكاة بالهبل! ويشاع أنه من زعماء الوفد الكبار! وهو لا ينفى ذلك بل يتفاخر به كثيرا إذا ما سأله أحد! أما الآن فهو عضو فى الاتحاد الاشتراكى على مستوى المحافظة! وعضو

كذلك فى مصائب ودواهى كبيرة كثيرة! إنما هو محبوب يا أخى ومشهور كفريد شوقى والمليجى وزكى رستم! مشهور كالخط كريا وسكينة! فى الصبح قد يجلس فى غرزة الحشيش بين السوابق من اللصوص والنشالين والهجامين يبادلهم بوصة الجوزة نفسا لنفس! لكنه مع ذلك لا يتحرج! فهو معروف لكل الناس! ولن يقبض عليه الضابط إذا هاجم الغرزة! وفى الظهر قد يجلس مع المحافظ على سفرة الغداء يتباحثون فى أمور البلد وسلع تموينها وشوارعها ومجاريها ومساكن إيوائها ومستوطنى مساجدها والمعجونين فى أوتوبيساتها الخربة! وفى المساء قد تراه فى حفل أم كلثوم أو فى دارها وربما فى داره هو! إن عبدالحليم حافظ صديقه وقد زرناه كثيرا معه وزارنا هناك وكنا نخدم عليه وقد غنى فى عيد ميلاد شيماء ابنة الحاج! أنا مرة رأيت عنده الكاتب الصحافى المرحوم كامل الشناوى وكان يسهر عند الحاج كثيرا يلعب الكوتشينة ويقول الشعر ويمسخر فى خلق الله! مرة رأيت عنده - فى هذه القمرة التى تقف فيها الآن - مصطفى أمين وهند رستم وحسن الإمام وجليل البندارى! ومرة أخرى إحسان عبدالقدوس ونادية لطفى! إنه رجل جامد! وكل هؤلاء يقصدونه فى خدمات يؤديها لهم! أن اتصالاته كبيرة وجامدة! أنا مرة أرسلنى إلى المطار لإحضار هدية جاءت له من الملك فيصل! والملك الحسن ملك المغرب يبعث له السلام فى جوابات وكروت المعايدة! وله أصدقاء فى أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وسفند القرود! والسياح يجيئون للسؤال عنه فيسألهم عن صحة أولادهم

وأصهارهم وأهلهم! كنت أظنهم يجيئون للفرجة عليه وعلى شكله التحفة لكننى فهمت بعد ذلك أنه متكلم حريف يسحر السامعين! وهو عفريت يا جدع! أسمعه يتكلم فى التاريخ فأنسحر مثلهم من وفرة المعرفة إشى فرعونى واشى قبطى واشى رومانى وإشى إسلامى! ساعات يظهر أمامى كالمجنون المخرف حين يتكلم عن الحميرى والمسمارى والبابلى والآشورى والبلاء الأزرقى! ففهمت أن السياح يتعشقون كلامه خصوصا وهو يمشى بين الممرات التى مشيت فيها منذ قليل يا صعيدى يا قحف! لقد دست على سجاجيد يقول الحاج أن السلطان الغورى هو الذى اشتراها ولم يسعده الحظ بأن يعيش حتى يدوس عليها!»..

وهنا قاطعه «بسبوسة» قائلا بصوت طرى من خلل ضحكات متقطعة مصوصوة، لا نعرف إن كانت ضحكات أم تأوهات صارخة: «ألا تعلمون أنه من عائلة المشير؟!» ضحكت رغما عنى قائلا فى انفعال:«كيف يابو العم؟ ما الذى جاء بعائلة عامر الصعيدية إلى عائلة السنى المصراوية». قال «بسبوسة» مستدركا:«أقصد أنه صهر لعائلة المشير! فابن بنت خالته متزوج من عائلة المشير! والله أعلم كلها إشاعات فى إذاعات ولكن الغريب أن الحاج لا يكذب ما يسمعه أبدًا». شوح«غزولى» فى وجوهنا بأصبعيه اللذين يستندان السيجارة وقال بثقة تامة: وحق من جمعنا من غير ميعاد أنكم جميعا أقفال ترابيس! لا تفهمون شيئا! الحاج السنى يا هبل ليس اسمه السنى! إنما السنى هذه فوق اسمه

تدارى لقب جده!». تقرفص «هندى» هامسا: «ليكن الجن الأزرق! إنها دنيا ملآنة بالعجب! المهم أننا أقل خلق الله عجبا! إننا بالنسبة لهم ملائكة أطهار!». وقال «بسبوسة»وهو يتحسس بطنه وثدييه: «سمعته مرة يقول إنه من أصل مغربى!». فقال «غزولى» متعجبا:«كان قبل ذلك من أصل يمنى!» شوح «هندى» قائلا بلهجة فلفوس كبير: «الحاج السنى لو سرح بك فى سرحة مزاج متجلية سيثبت لك انه يمت بصلة قربى إلى ربنا شخصيا! ولو انشرح صدره قليلا فسيجىء لك بشجرة العائلة العتيقة المبروزة بإطار من الذهب المشغول! يريك صورة منها بحبر حديث مضافا إليها بخط يده خطوط تشبه أوراق الشجر فيها أسماء مكتوبة حديثا يعقبها لقب البيك والباشا والعالم العلامة والإمام! يريك كيف أن هذا الفرع تزوج من العائلة الفلانية، فخلّف هذه الأوراق وهذه الأوراق كونت هذه الفروع! يسمعك أسماء فى الوريقات تسمعها فى الراديو وتقرؤها فى الجرانين، يوضح لك أن فلان هذا يقول لأبيه يا ابن عمتى، وأمه ـ أم الحاج السنى ـ تقول لأم عدلى يكن يا ابنة خالتى!»..

تحلف اليمين يابوى أن دماغى صارت كالكرة التى كانت من قبل فارعة من الهواء فجاء من نفخ فيها بمنفاخ آلى حتى تحجرت وصارت على وشك أن تتفرتك من بعضها. أمسكته بيدى حتى لا ينفرط. تنهدت من قعر بطنى الدفين، قلت:«أهم من كل هذا يا أبو العم! ماذا يربطكم بهذا الرجل؟!»..

تبسموا جميعا يابوى، ثم ضحكوا يابوى، وانتهى ضحكهم بشخر وغنج يابوى.. فكأن صفائح مياه ساقعة انهمرت فوق جسمى. قلت باسما كالأهبل فى الزفة:«علام تضحكون يا ولْد!». قال«بريش» فى لهجة غير مريحة فيها غمز ولمز:«هذا الرجل صاحبنا! حبيبنا!يحب قعدتنا ونحب قعدته!». قلت:«عال! عال! كسبنا صلاة النبى!». قال «بسبوسة» مقلدا لهجة الأفلام:«إنه أبونا الروحى يا جدع!»، ثم قطع ضحكته المائعة فصارت ترن فى صدره فيهتز وتتدفق أثداؤه. شعرت أن الشك يثقب كرة رأسى بسن الدبوس، ولم أفهم معنى غمزة «بسبوسة» فاغتظت من نفسى والله يابوى، لكننى قلت: «كسبنا صلاة النبى! نحن نهارنا فل بإذن الله!». وقال «غزولى» وهو يشعل سيجارة: «يقصد بسبوسة أن يقول لك أن الرجل أخ كبير لنا! يوجهنا! ويعاوننا! ويساعدنا على المعايش!»قلت:«ربنا يساعدنا جميعا! من قدم خير بيديه التقاه». غير أن «هندى» تربع قائلا فى غمز كغمز السنانير فى المياه:« الله يكرمه! إنه يروق بالنا ويبل ريقنا!ولكن بعد أن يكفرنا من الشغل والتلطيم فى المشاوير!»..

ضحك الصحاب وضحكت أنا الآخر يابوى، فعاودتنا كريزة الضحك من جديد يابوى، صرنا ننشال ونتخبط كالمجانين السائبين والله يابوى، إلى أن سمعنا وقع أقدام، فكفكفنا دموع الضحك ورحنا نفرغ أصواتها فى صدورنا نهتز بعنف شديد. فلما اقترب وقع الخطى، جلسنا محترمين متزمتين كل فى مكانه فوق

شلتته كما التماثيل، وكـانت الخطى كثيرة ومتواصلة، تنقطع برهة لتتصل من جـديد فتتزايد وتتزايد. ثم انفـتح الباب يابوى، ليدخل خادم يرتدى جلبابا أبيض كجلبـاب الحانوتى ويتلفع بحزام أحمر ويلبس طربوشـا على رأسـه ويحمل طبليـة مـهولة الحـجم لم أر مثلهـا فى حياتى عند أوسع العائـلات. فوسعنا لها مـا أمكن فلما وضعها صرنا كالفراخ حـولها لا تظهر سوى رقابنا بأكتافنا. تبع الخادم خادم آخـر يحمل صينية نحاسـية أوسع من دائرة الطبلية فوقها نقوش ورسوم بالألوان مطعمـة بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والمـرجان وعين القط، وضعهـا فوق الطبلية. تبـعه سيل من الخدم والولدان يحـملون أطباقا وقوارب وسلطانـيات وأكواب وأباريق ومـلاعق وشوكـات مع سكاكين كـثيـرة لامعة بمقـابض مطعمة بالعاج فعرفت أنها جميعا من الفضة وأن معلقة واحدة من هذه تساوى الـشىء الفلانى، منظرها تحـفة يابوى تحب الفـرجة عليهـا وهى طول الأصبع. طست وإبريق من النحاس استـقر عند العتبـة. ثم توافدت الروائح يابوى، مشويات ومقليـات وتخديعات ومحـشيات. الولدان كـالفرارير، فى لمح البصـر زحموا الصـينية بوليمة تاهت عقولنا فيهـا يا خال. فى أعقابهم وصل الحاج «أحمد نور الدين السنى»، فأقعى بجوار الباب برهة نزع فيها الأغطية عن بعض الأطباق هاتفـا فينا:«بسم الله يا أولاد!».. فإذا بخـيرات الله كلها مرمية أمامنا يابوى، ومـتاحة، ما عليك إلا أن تمد يدك وتشيع إلى فيك تحـشر فى بطنك، وأين هى البطن التى ستـتسع لكل هذا النعيم؟ حـمام ودجاج وبط وكفتـة وكباب وشرائح لحم مـحمرة،

ومهرجانات من سلاطات الخضار والباذنجان والطحينة ناهيك عن الأرز والمكرونة بأنواعها. كُلْ يا ولد أنت وهو بغير كسوف فالدار داركم كما تعملون، هب للنبى، نزلنا على الأكل حتتك بتتك حشرنا البطون كـالزنابيل كـالتـلاليس، والحاج «السـنى» لا ينى ينتـقى ويقتطع ويرمى أمام ملاعـقنا وأيدينا وأحيانا فى فمنا، رغم ذلك لا ينقص الخيـر فى الأطباق، فيالهـا من بركة كبيـرة. ثم أخذ ضرب الملاعق فى ترسانة الأكل يخفت، وقلاعه تسلم واحدة وراء أخرى، إلى أن سمـعنا قولة الحمـد لله تطن من حولنا فـتذكرناها فـرمينا الملاعق ورددناها متـراجعـين إلى الخلف بظهورنا، وأيدينا مكتـفة بجنوبنا لامـعة الأصابع بإدام الـطعام الدسم. نهض الحـاج قائلا: تفضلوا فنهضنا جـميعا ومضينا خلفه إلى خـلاء السطح، فوجدنا حفنة مـن الولدان واقفين بالـطست والإبريق، راحوا يصـبون الماء على أيدينا ورحنا نغسلها، نمسحها نجففها بالفوط، نتكرع بصوت عال فنقول: الحمد لله..

فى لمح البصر كـانت الأطباق قد رفعت والطبليـة قد أجليت عن المكان، وتمددت الشلت على راحتها من جديد فتمددت سيقاننا لكن الباب انفتح من تلقـاء نفسه، وزحفت ترابيزة زجاجيـة جميلة على عجل، يدفعها ولد حلو التقاطيع، بـهرتنا وبهرنا ، فنظرنا فيها فإذا عليـهـا براريض الشـاى والأكـواب والسكريات جـعلهـا الولد فى وسطنا تماما وتركها وانصرف.. ليـدخل فى أعقابه ولد آخر يحمل قطعة مـشمع مطوية، سـرعان مـا فرشهـا بجوار البـاب وخرج.. ليدخل ثانية بعد برهة حاملا طبلية صغـيرة محندقة، يضعها فوق

المشمع، يلحق به ولد ثالث فى يده وجاق نحاسى كبير فيه فحم مشتعل مصهلل، وضعه فوق الطبلية وخرج، ليعود بجوزة عبارة عن جوزة هند كبيرة لها بخش وبوصة من أعواد الورد المجوفة من الداخل، وضعها مغموسة فى قلب دلو كبير ملئ بقطع الثلج. ثم دخل ولد آخر يحمل صينية صغيرة عليها أكوام من الموز والبرتقال والتفاح والعنب، وضعها فى الطابق الثانى من الترابيزة الفضية أم عجل، ووضع فوقها حزمة من الشوكات والسكاكين أغرانى منظرها بإخفاء ثلاث منها، لولا الرقابة الشديدة علىّ من زملائى، ذلك أننا جميعا كنا نراقب بعضنا البعض بكثير من الشك والريبة، وكل منا يريد أن يدفع الشك عن نفسه بأى شكل، تعلقت نظراتى بالفاكهة برهة طويلة أخاير نفسى بأى تفاحة أبدأ تذوق النعيم، فلما انتبهت وجدت بجوارى مباشرة دلوا آخر ، بحجارة الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل..

ما كدت أمسك بالتفاحة حتى كانت بوصة الجوزة قد أكملت دورتها لحد عندى. وكان «الحاج السنى» قد رمى أمام «بربش» بقطعة حشيش فى حجم كف اليد قائلا: «قطع»، فصار «بربش» المفترى يقتطع إمضاءات كالملاليم الحمراء الكبيرة يفرشها على الحجر يغطيه، يرص حوله النار كالحمص، إن كان فيك حيل فاشفط وأرنا كيف تسفح هذا الحجر، إن فعلت فسيضيف لك «زمبة»، كحبة الحمص فوق نار الحجر المشتعلة. إنه مفتر فى الشرب كما أعرفه لكن اتضح لى الآن أن «الحاج السنى» أكثر

افتراء، إنه ليس يشرب بحماسة شهوانية يابوى، بل إنه يغالط فى الدور أيضا يابوى، ويزعم بشقاوة أن دورًا فاته لم يولع فيه حجرا كما ينبغى، ويتصادف أن يكون لحظتها قد أسلم البوصة لجاره لتوه، مع ذلك يثير جدلا كبيرا وربما يتعارك ولا يهدأ إلا إن ولع حجرا زيادة، ولربما زعم أن الحجر كان مكتوما، أو مخنفسا، أو مطفأ النيران، حتى يقول له الولد الساقى بسماحة نفس زائدة: «خذ غيره يا حاج»، فيربت على ظهر الولد فى امتنان شديد ورقة زائدة قائلا وهو يتلقف البوصة باليد الأخرى: «أيوه يا ابنى الله يكرمك ويعمر بيتك! روح إلاهى يكفيك شر المرض!»، وينفث الدخان من فمه ومنخاريه فى تباطؤ ولذة مكملا: «روح إلاهى يفتحها فى وشك دنيا وآخره!».

بعد حجارة لا حصر لها، وأصابع موز انسلخت بلا عدد وبرتقالات وتفاحات، وعنبات، ووريت فى البطون بغير وعى، وأكواب شاى اندلقت فى الحلوق الصادية.. بعد كل ذلك اعتدل «الحاج السنى» مرتكنا بظهره للحائط ممدًا ساقيه مطرقعا عروقهما قائلا: «يعنى ما عرفتونيش بالرجل الطيب ده!»، وأشار بكفه نحوى، فهتف «بربش» مشيرا بكفه نحوى: «هذا هو حسن أبوضب! صاحب المقهى التى كنا نلعب عليها القمار أيام كانت تمسكنا الحكومة عنده!». صاح «الحاج السنى» فى غبطة صبيانية طريفة كأنه يعرفنى معرفة الأخ لأخيه: «يه.. يه.. يه.. إزيك يا ولد يابو على! يا تلتميت ألف مرحبا! كنت فين يا ولد من زمان!».

حكيت له أمرى من طقطق لسلامو عليكم، فاستمع لى كما القاضى يستمع للأبوكاتو فى هدوء، ثم ابتسم قائلا: «على كل حال أنت حظك من السما! أنت الآن بين إخوتك! غدا تصير الأشياء معدن والحال عال!». ونزع من سيالته بضع ورقات من الأحمر القانى وقال:«خذ! خل هذا المبلغ معك حتى تتيسر لك الأحوال!». تلكأت قليلا وانكمشت على نفسى كما العلق، صرت أقول:«تشكر! تشكر يا حاج! ربنا ما يحرمناش!». فشخط فى بشدة:«خذ!»، ولكزنى الصحاب كلهم من كل ناحية:«خذ يابو على! إسمع كلام الحاج!» .وقال الحاج:«صرنا الآن إخوة! ألم نأكل من طبق واحد! لابد أن نصون العيش والملح!». قلت:«طبعا!طبعا!» ومددت يدى فأخذت النقود، ودسستها فى المحفظة، فى جيب الصديرى، غير مصدق أن الدنيا ترمى بنفسها فى حجرى، هكذا مرة واحدة يا خال. غير أن صوت «الحاج السنى» زحف متلويا كالثعبان يقرصنى فى أذنى بكلمات تقول:«أكلنا عيشا وملحا معا يا حسن! فهل تعرف عقاب الله لمن يخون العيش والملح!». قلت:«هو عقاب كبير يابو العم!». قال: عودنى المولى الكريم أن يعجل بعقاب كل من يخون العيش والملح معى! فليس من أحد خان عيشى وملحى أو فكر أن يخون إلا وكان عقابه فوريا بفضل المولى العزيز الجبار عز وجل!»..

لعب الفأر فى عبى يابوى، شىء إلهى فى نفسى قال لى إن الرجل العكروت يهددك من وراء ضلفة الباب، فماذا، ياترى ينوى

أن يفعل بك، وكيف لى أن أخون عيشه وملحه؟ يعنى ماذا! كيف تكون هذه الخيانة ياترى ومع من ؟ ذهب الشتات بعقلى يابوى، فشعرت أننى سأسقط من الجنة إلى النار مرة واحدة تحلف اليمين يابوى أن بطنى كركبت وسمعت لها دويا كالرعد القاصف، وزغولة تشبه سيفون دورة المياه حينما يشدون سلكه فيهدر الماء فى فتحة الكنيف، كما تهدر بطنى الآن. رن فى أذنى صوت أمي:«ماحلاوة بغير نار»، فنظرت إلى «الحاج السنى» وقلت له:«اطمئن من جهتى يا حاج! فأنا ولد أعجبك! أصون العيش والملح! أحفظ السر! لا أنجس الماعون الذى آكل فيه! ولا العتبة التى أطؤها! كما أنى لا أعض اليد التى تطعمنى!». وكنت أراقب وجه «الحاج السنى» وهو يستمع إلى هذا الكلام، فأجده مرتخى الملامح مبتسم الفم والنظرات، والسرور باد عليه من كلامى، ثم إنه قال:«أنت على كل حال فى مقام ابنى! وأنا أحببتك وشعرت أنك أهل للثقة! أحب أن تعرض علىّ كل مشكلة تصادفك! لأساعدك بعون الله على حلها! وأوصيك بالصدق والصراحة معى قدر ما تستطيع! فبالصدق والصراحة تكسبنى غير أنك بدونها تخسر نفسك كلها!»..

ارتعبت مرة أخرى يابوى وتمغمص بالى وقلت لنفسى ما الذى يريده هذا الرجل منك يا ولد أبى ضب؟ هل يشغلك عنده فى هذا الشادر؟ هل يرسلك فى تنفيذ مهمات؟.. انتظرت أن يبوح الرجل بشىء يريح بالى فلم يفعل يابوى، فكركبت بطنى من جديد وصار

الطعام كحجر الرحى فوق صدرى، فخفت أن أتكلم حتى لا أخطرف، فسكت تاركا دماغى يستريح على عنقى، وليس يدور فيه غير صورة أمى، وأخى الصغير، وأختى «سعدية»، و«خرابة» و «هليّل» و«بهانة»، يدخلون كلهم فى بعضهم كالعجينة، ويخرجون من بعضهم واحدا وراء الآخر. أفقت على الضحك من حوالى و«هندى» يلكزنى فى جنبى صائحا:«ياجدع بطل شخر! الرجل يكلمك وأنت نازل فى الشخر! فضحتنا يا جدع!». فرفعت وجهى كالأبلة محملقا فيهم، وهم يتقافزون فى الهواء من شدة الضحك. عندئذ نهض«الحاج السنى» واقفا يقول: «النوم وجب من بدرى!». فقمنا جميعا ومضينا وراءه والولد«هندى» محدق بى يسندنى ويسند نفسه من الضحك الخفى، الذى يرجه رجا، فمازلنا فى خطو، وصعود فهبوط، وهبوط فصعود، ودخول وخروج، حتى وجدت أننا صرنا فى قلب الشادر، فبدأت أتذكر الطريق الذى جئنا منه، وبدأ وجهى من جديد، يصافح لفح الجحيم.

الخامسة ـ الباب المضمون

لما خرجنا من فتحة الشادر إلى الشارع العمومى الكبير لفحنى الهواء فانسطلت فوق انسطال، وتذكرت العربة الأجرة التى كانت قد جاءت بنا من المحطة فلم أجدها. تحلف اليمين يا بوى أننى انخطف قلبى من صدرى من أول ما مشيت فى الشارع. جاءنى هاتف يقول إننى خرجت لتوى من الجنة إلى جهنم خبط لزق. وجاءنى هاتف آخر بعده يقول إننى لم أكن منذ دقيقة فى قلب الجنة بنفسها كما وصفها الله فى كتابه العزيز وأن ما كنت فيه هو حلم الفرخة الجائعة بسوق الغلال. سألوا الأعمى بماذا تحلم؟ قال: بقفة عيون، وأنا قد حلمت الليلة بالجنة حتى دخلتها لكننى طردت منها بغير أسباب وصاحب الجنة لم يقل لى ما هى الشجرة المحرمة، وها أنذا ياخال قد عدت أمشى شريدا فى شوارع «مصر عتيقة». سألت نفسى: أين تبيت بقية ليلك يا ولد أبى ضب؟ أتذهب إلى صاحبك «ميمى» ماسح الصرم؟ أم تذهب إلى المعلم «شندويلى» وتتركه يغلق عليك المقهى؟ لكن المعلم «شندويلى» زمانه الآن فى سابع نومه.

يدى كانت فى جيبى رغم أن الدنيا حر، وسألت نفسى لماذا وضعتها فى جيبى؟ ثم أخرجتها فإذا هى لاتزال قابضة على الأوراق الحمراء، تحسستها فاقشعر بدنى وتأكدت أن الجنة لم تضع من يدى بعد، وأننى يمكن أن أرجع إليها وقتما أشاء إذا أنا دهنت نفسى عسلا أمام هذا الرجل وتركته يذوقنى بلسانه الأريب، إن كان هذا الرجل هو بواب الجنة فإنى إن لم آكل بعقله حلاوة أكون مغفلا كبيرًا يا بوى، إنه لن يكون فزورة أعصر دماغى فى فك عقدتها، سوف أعرف كل ما يرضيه لأفعله وكل ما يغضبه لأمنعه وأعرف مواضع الأكلان التى يستحلى الهرش فيها من جسده فأهرش له فيها بأظافر حنون رقيقة حتى يغيب من النشوة، ذلك لن يكلفنى شيئا يا خال، فليس على الكلام جمرك يدفعه المتكلم وإلا يولد الرجال خرسا من الأصل، وليس على أفعال الإنسان من رقيب سواه هو نفسه يفعل ما يشاء.

دهمنا صوت «بربش» صائحا فى خلاء الشارع العريض: «وحدو.. و.. و.. ه». هدرنا جميعا فى صوت واحد يهزه الخوف والخشوع: «لا إله إلا الله». وضغط «بربش» على كتفى قائلا: «حتبات فين يا بو على؟». قلت: «والله ما أعرف يا خال». لطمنى على كتفى:«تعال معى». فقال «هندى»: «خليّه لى فانا أعزب وأقيم وحدى أما أنت فأمك وإخوتك ليس ينقصهم من يزاحمهم فى الجحر الذى تسكنونه فى حى السيدة زينب!». قال «بربش» «حين نصل يكونون قد أخذوا كفايتهم من النوم! فننام أنا وهو!». قال

«هندى»: «دع الناس فى حالهم» قال «بربش»: «وبالمرة ساكلم حسن فى الأمر!». انشدّ قلبى نحوه بخطاف، وطار النوم من عينى، صرت ملهوفا على معرفة هذا الأمر واستحسنت فكرة الذهاب معه رغم أن نفسى تفضّل الذهاب مع «هندى» قال مشيرا لى: «ساكلمه أنا فى كل شىء أحسن منك! غر فى داهية ومع السلامة!» وشوح للجميع وهو يضع يده على كتفى:«مع السلامة يا أولاد! نتقابل فى الميعاد بكرة على القهوة!» وسحبنى ومضى بى نحو مجرى العيون، فدخلنا فى إحدى العيون بين أكوام متراكمة من الدور ذات الطابق الواحد والطابقين، يستطيع المرء أن يسلم - وهو فى الشارع - على من يقف فى شباك الطابق الثانى، أما الجدران فمائلة وغائصة فى الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالحفر والمجارى الضاربة (أبحرا وقنوات وبركا) تلتحق بعتبات البيوت.أكوام الدور يقسمها شريط مترو حلوان إلى ضفتين من الهديم والركام تتضح فيها شبابيك وأبواب، من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم، فكلها متشابهة متضافرة يتساند بعضها على بعض ويخفى بعضها على البعض، ويختفى معظمها فى أكوام الزبالة المالئة المكان ريحا نجسة خبيثة.

مشينا كثيرا بجوار شريط المترو ودخلنا فى حارة من الحوارى الضيقة التى لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط وربما شخصين. لحظتها كان لون الصباح يتسلق أكوام الزبالة ويختلط بألوانها وينشر فى الحوارى رائحة الفول المدمس الطائب مع رائحة دخان

مخزون فى هذه الكهوف. قلت لـ«هندى» مستغربا: «تسكن فى هذه البلدة يا هندى؟». قال: «يا ريت!». إنفرط قلبى، قلت: «يا ريت!! تقول يا ريت!!». التفت نحوى مؤكدا: «طبعا يا جدع! من يسكن هنا يعتبر فى قلب مصر ويستغنى عن الانتحار فى الاتوبيسات والقطارات يروح أى مشوار على رجليه! وكل الأسواق من حوله قريبة!».

تصدع دماغى يا خال كان «هندى» خبطه بدبشه، والذى غطى ووطى أنه قال: «الخلوات جاءت إلى هنا يا حسن! فلا تستهزىء بهذه البيوت! لو كنت رجلا تعال اسكن هنا فى أى عشة بدون أن تدفع ألفا والفين وثلاثة! أنا اجرت ورشتى فى الحارة الجائية بخلو رجل قدره ألفين! وكانت كبيرة وعالية فقسمتها نصفين بالطول جعلت نصفها للورشة والآخر للمعيشة والبيات! ومن يوم أن سكنتها فتح الله علىّ! بعد أن كنت أضيع النهار كله فى تنطيط من أتوبيس لآخر دون أن الحق بشىء!». ثم إنه توقف عند دار من طابقين خفيفة الدم يابوى كامرأة سمراء بنت بلد بغمازات فى خديها، واجهتها مدهونة بالجير ومكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولها بابان رفيعان من الخشب، أحدهما بضلفتين مقفولتين وفوقهما درفيل من الحديد بقفل كبير، والآخر بضلفة واحدة، وكلاهما مدهون بالزيت الأزرق. أشار «هندى» إلى هذه الدار وقال: «ما رأيك فى هذه العروسة؟». قلت: «آخر تمام!». أخرج مفتاحا طويلا من جيب بنطلونه ففتح به الباب ذا الضلفة الواحدة ودفعه، فظهر فى مواجهتنا سلم واقف مبنى من الاسمنت. مد يده فى صدغ الباب من الداخل وأضاء النور وقال: ادخل. فدخلت صاعدا الدرج، ودخل هو ورائى وأغلق الباب وراءه بترباس سميك متين، وصعد خلفى حتى لحق بى على البسطة، وأخرج مفتاحا آخر فتح به بابا خشبيا ودفعه. فإذا بنا فى حجرة كبيرة مدهونة بالجير السماوى ومزدانة حوائطها بصور نساء عارية بالالوان وصور للراقصات والممثلات والمطربات وكل نجوم السينما..

فى الحجرة سرير سفرى نظيف فوقه ملاءة مربعات كالمناديل المحلاوى، بجواره دولاب طويل بضلفتين من دواليب اللوكاندات وترابيزة مستديرة من الجريد، وثلاثة كراسى من الخيزران، على الحائط المواجه للسرير تسريحة كبيرة على شكل البيضة. على الأرض كليم مصنوع من بواقى قصاصات الخياطين مما يباع بثلاثين قرشا للواحد بالتقسيط المريح. فوقه وابور (وبراض) وبضعه أكواب وحلة من الألمونيوم وطبقين من الصاج ومعلقتين ومغرفة، وعلى درج التسريحة راديو من البلاستيك الأخضر ماركة صوت العرب. أول شىء فعله «هندى» حين دخولنا فتحه فصار يوش إلى أن وفدت من بلاد بعيدة جدا موسيقا تشبه موسيقانا، فتركها ومضى يترقص فى الغرفة على واحدة ونص وبدون مبرر، فصرت أصفق له وأضحك لكنه بعد برهة شهق وتوقف مستنكرا يقول: «بس! بس! أحسن الجيران فى عز النوم».

ثم سحب كرسيا فجلس بجوارى وأشعل سيجارة ورمى بالعلبة نحوى فأشعلت أنا الآخر واحدة.

أنجعص «هندى» ممدا ساقيه على كرسى آخر، ونفث الدخان بلذة الخرمان الكبير، وقال: «شف يا حسن يا خوى! أنت وافقت على أن تشتغل معنا! ونحن رحبنا بك لتاكل عيشا معنا! «ثم صمت ليشد نفسا من السيجارة، فسحبت أنا الآخر نفسا وقلت: «طبعا يا هندى يا خوى! ربنا يوفقكم جزاء جميلكم فىّ! اللهم أن يكون الحاج السنى قد انبسط منى!». شوح بالسيجارة بجوار رأسه، وظهر عليه الاستغراب وهو يقول: «الحاج السنى ماله ومال شغلنا؟! أنت تشتغل معنا لا مع الحاج السنى!» قلت منذهلا: «كيف يا بوى! أنتم قلتم لى من المبتدأ أنكم ستعرفوننى على هذا الرجل فى الأول قبل أن أشتغل أى شغل!». شد «هندى» نفسا عميقا ضيق له ما بين حاجبيه فى خبث واعر، وقال: «نعرفك به لأنه رجل طيب وناصح! ويعرف الناس من وجوههم! ولو قال لنا إنك لست محل ثقة لما شغلناك معنا!»..

كلام موارب يا بوى أليس كذلك؟ هذا ما شعرت به على كل حال، فأحسست أن الصقيع يطبق فى خناقى، صرت أطوح أصبعى يمينا وشمالا بحركة نفى واعتراض مع تأتأة متتالية، و«هندى» نظر فى مندهشا يقول: «ما تقصد بهذا؟». قلت :«إن رباطكم بالحاج السنى أمتن من هذا يابو العم! إننى ولد لافف ودائر كما تعرف يا هندى! أفهمها وهى طايرة!». قال هندى: «فعلا

يا جدع! وهل تقول فيها!إن الحاج السنى بكل صراحة يعاوننا على المعايش! إن احتجنا نقودا يسلفنا ونردها له بعد ميسرة! وإن توفر معنا شىء يصعب التخلص منه باعه لنا بواسطته أو اشتراه! اللهم إنه يفرج عسرنا والسلام! هو كما قلت لك رجل طيب وجده كان قاضى قضاة أحد السلاطين! ومن هنا فإنه يفهم فى المنازعات وفضها وفى أمور المحاكم وقعدات الحساب والمصالحات! إنه خبير فى توقيع الجزاءات وإرضاء كافة الخصوم على الوجه الذى يريحهم جميعا! إنه يفصل بيننا فى كل نزاع يقوم بيننا وبين الناس وبيننا وبين بعضنا! باختصار هو يحمينا من أشياء كثيرة! ويسعى للإفراج عنا إذا حكم علينا بالمبيت فى الأقسام! ويضمننا عند الحاجة إلى الضمان».

تحلف اليمين يابوى أننى أغمضت عينى وفتحتها فى دماغى فلم أر لهذا الكلام قدمين يمشى عليهما، إنه فى الظاهر كلام زين، لكنه يذكرنى بشرائح الخشب التى يلصقها النجار فى بعضها بالغراء صانعا منها لوحا عريضا لايظهر موضع اللحام فيه، لكنك لو ضغطت عليه ينكسر.. هذا كلام ملتصق فى بعضه بالغراء يا بوى، لكننى مضطر لتصديقه، وإنى لمتأكد من أنهم جميعا يعملون عند الحاج «أحمد نور الدين السنى» من الباب للباب. فقلت:«خلاص يا هندى خلاص! هذا كلام مليح وإننى موافق على ما تقول!». قال «هندى» وهو يطفئ السيجارة فى غطاء علبة ورنيش معدة لهذا الغرض: «ربنا يخبز لنا العيش جميعا! قم لننام

حتى نقوى على العمل!». تعجبت والله يا خال وتبرجل مخى وتلعبك، وظننت أنهم ينوون الذهاب بى إلى الموريستان، شوحت قائلا: «يا هندى ياخوى! أنت للآن لم تقل لى ما العمل الذى سأشتغله معكم!». قفز عن السرير منبها، مشوحا بيديه: «صدّق من سماك صعيدى قفل! تظن أننا سوف نجلسك إلى مكتب بفنجان قهوة وجريدة صباحية وساع تتامر عليه طول النهار! يا بنى أدم أنت الآن تعتبر فى الشغل! نحن الآن نشتغل! وأجرك محسوب! قالوا يا خبر بفلوس! قل غدا يصير بالمجان! فاصبر قليلا ترى نفسك فى قلب الشغل دون أن تدرى!» قلت: «ها أنى صابر يا خوى!». قال: «قم فنم لك ساعتين!». قلت «سأنام على الأرض ها هنا!». شوح متمددا: «نم والسلام فى أى جورة تعجبك!»..

لقيت صرة خلقاتى بجوارى، فتعجبت والله يابوى كيف افتكرتها وجئت بها معى رغم أننى كنت ناسيها، تبسمت راضيا عن نفسى ورميت صرة الخلقات فوق الكليم وهبطت وراءها فجعلتها مخدة ركنت فوقها رأسى وانبريت اقرأ الفاتحة طلبا للنوم ينجينى من ظلام الاعتكار الذى غير مزاجى مرة واحدة وصدع رأسى. ظل النوم يحاورنى وأحاوره ولو كنت احفظ القرآن لتلوته كله عليه، لكننى ظللت ساعات طويلة أتقلب على جمر النار، حتى فتحت عينى فرأيت «هندى» يحلق ذقنه أمام المرآة واقفا بالفانلة والسروال ـ سروال المنامة، فتكورت جالسا، فأشار لى

خياله فى المرآة إلى كوعة فى آخر الغرفة لم أكن تنبهت لها ساعة دخلنا، فقمت ذاهبا إليها فإذا هى فتحة باب، يليها على الجنب باب قطوع، تطل منه فتحة الكنيف، ثمة حوض من الأسمنت مبنى فى الحائط تحت صنبور، دخلت الكنيف، فصفيت بطنى من ولائم الأمس واستعدلت ثم قمت فطسست وجهى بالماء من صنبور الحوض، فحينما لامسنى الماء وتفكرت فى أننى متوكل على الله خطر لى أن أتوضأ. شىء إلهى فى نفسى قال: توضأ يا ولد وصل ركعتين لله يوفقك فى طريقك ويرجعك مجبور الخاطر..

أنهيت الوضوء وعدت إلى «هندى» فوجدته قد ارتدى كامل ثيابه النظيفة وحذاءه فظهر أفنديا ولا البكوات. سألته: «ألا يوجد عندك حصيرة صلاة؟!». وضع كفه تحت أذنه صائحا فى اهتمام شديد «ماذا قلت؟!». كررت قولى: «حصيرة صلاة!» قال: «لمن؟!» قلت: «لى». قال فى استنكار بالغ:«أتصلى؟!» قلت «لا! ولكننى أريد الآن أن أصلى!». قال بنغمة الشخر:«الآن فحسب؟!قلت نعم! لعله تعالى يوفقنا!». انفجر «هندى» فى الضحك والشخر حتى صار كالمجنون وصار يغنى: «صلى وصام لأمر كان يطلبه! فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما!» ثم سحبنى من ذراعى كالمقبوض على قائلا: «يا جدع لا تكن عبيطا! أتظن أن الله تدخل عليه هذه الألاعيب! أتظن أنك تضحك عليه وتأكل بعقله حلاوة! يا لك من بارع! يالك من ولد مفتح! إمش يا جدع ولا تجعله يعاقبك بالعنية!» ودفعنى من فتحة الباب، فنزلت أكر على السلم. بعد دقيقة كنا فى الشارع. نظرت فى باب الورشة فوجدت أرضه

نظيفة، فتيقنت أن بابها ذاك لم يفتح منذ شهور طويلة، وأنها مجرد مكان يستتر به الولد نفسه أمام الخلق حين يقول إنه فحام صاحب ورشة..

وكانت الشوارع الضيقة الملتوية مضاءة بمصابيح الجاز المعلقة على أصداغ الدور على النواصي والحواديات - حاذينا شريط المترو، خرجنا من العين، كسرنا الخطو ماشين بحذاء مجرى العيون، ثم كسرنا إلى شارع الجبارة، ومضينا إلى مقهى المعلم «سحتوت»، لنشرب لنا حجرين لزوم الأصطباحية. وقال «هندى»: «الساعة الآن الثامنة بعد العشاء! موعدنا مع الصحبة فى العاشرة!». قلت: «ألا نشق ريقنا بلقمة صغيرة نشرب عليها؟». قال إن مطعم الفول والطعمية مجاور للمقهى

وصلنا إلى المقهى، فأوصى «هندى» صاحب المطعم بأن يرسل لنا صينية فول عليها طلبان، فما كدنا نستقر على الكراسى القش فى الحارة حتى جاءت الصينية وفوقها طبقان من الفول وطبقان من الطعمية وأربعة أرغفة وطبق سلاطة خضار وطبق ريحة الطحينة. تاوينا كل ذلك فى دقائق، وطلبنا الشاى. وكان «بسبوسة» أول القادمين بجلبابه المكوى، ما إن جلس حتى طلب الدخان فجئ به وبالجوزة والنار والولد الذى سيسقينا. صار «بسبوسة» يرص الحشيش من قطعة فى راحة يده مخفية. وصرنا نشرب إلى أن جاء «غزولى» من بعيد يأكل فى رغيف محشو بالكبدة ذات الرائحة النفاذة ويتبادل الشتائم القبيحة مع

كل من يصادفه فى الشارع من رجال يعرفهم ويعرفونه، حتى بعض النساء كن يدخلن معه فى قافية للتنكيت.. ثم جلس بجوارنا يلعن صبيان المقهى وأمهاتهم البغايا، وهم يحتملونه فى الظاهر ثم ما يلبثون أن يردوا له الصاع صاعين. بعد ذلك مباشرة جاء «بربش» وقد تغير شكله من بيك محترم إلى مجرد رجل يلبس قميصا وبنطلونا، بمجيئه اتسعت القعدة، فنزلت حجارة المعسل ترف بالعشرات حتى نسفت رءوسنا نسفا. ونظر «بربش» فى ساعة يده القديمة الصدئة، وقال «الساعة الآن منتصف الليل!».. فخيم على القعدة دخان القلق وسمعنا صوت مزمار عربة تشبه زمارة الخطر.. فنهضوا كلهم ونهضت معهم، وقال «بربش»: «لقد وصل!». وذهب «بسبوسة» يحاسب صاحب المقهى، ومضينا إلى الشارع العمومى فى اتجاه عربة كميون كبيرة واقفة تسد فتحة الحارة. نظرت فيها فرأيت على أبوابها وصندوقها من كل ناحية كتابة ميزت فيها رقم العربة وحرفين هما: ق ع فلم أعرف ما معناهما يا بوى لكن «بربش» قال: اركبوا، فركبنا، هو و«بسبوسة» بجوار السائق وأنا و«هندى» فى قلب الصندوق المستطيل...

انطلقت العربة يا بوى، حودت واستوت على طريق الكورنيش، فملت على «هندى» وسألته إلى أين نذهب الآن يا هندى يا خوى؟ قال «نتوكل على الله لنشتغل!». قلت «أى شغل يا جدع؟» شوح قائلا فى فروغ بال: «ستعرف حالا».

■ ■

السادسة ـ ليلة قاف عين

خرّمت العربة على بر الجيزة، وصارت تضرب فى طرق بعيدة حتى اقتربت من عواميد خرسانية تقف فى العراء وحولها أكوام كبيرة من حديد التسليح والطوب الأحمر. دخلت العربة بحذاء الحديد وحضّنت عليه ثم توقفت. فنزل «بربش» و«بسبوسة»، والسائق، فنزلنا معهم، فجاة هجم كل من «بربش» و«بسبوسة»، على خفير عجوز ينام على شكائر الأسمنت وفى حضنه نبوت. كتفاه بالحبال ولثماه بلاسته، ونزع «بربش» من حزامه مسدسا رماه لى قائلا: «هذه مهنتك يا بلدينا! قف أمام هذا الخفير! إذا أظهر أى حركة أو كلمة أوصيحة اقتله فى الحال!»..

ارتعت يا خال، لكننى نفذت يا خال. أمسكت المسدس بيدى فرحا به، وزأرت فى الخفير أن يكتم أنفاسه، بينما انصرف كل من «بربش» و«بسبوسة» و«هندى» والسائق يرفعون أسياخ الحديد حزمة حزمة، ويعبئون صندوق العربة الكميون حتى امتلأ عن آخره بحوالى عشرة أطنان، وركبوا. فلففت حول العربة وشبطت فى جدار الصندوق الخشبى فلحق بى «بربش» وشدنى من ثوبى

قائلا ببساطة: «ستبقى أنت هنا! فسوف نجىء مرة ثانية وثالثة ورابعة!». تطلسمت عينى يا بوى، وداست قدم غليظة فوق قلبى، فجاءنى إحساس بأنه سينقطع من عروقه فصحت من غيظ ومن وجع: «كيف يا بوى أبقى هنا؟ أهو الملعوب إذن!». فلطشنى بظاهر كفه فى نرفزة وضيق هامسا: «هندى» سيبقى معك فى حراسة الخفير لحد عودتنا». خفت القدم الثقيلة ثقلها على قلبى فاسترحت بعض الشىء إذ إنهم لن يضحوا بحبيبهم «هندى» من أجل ملعوب يلفقونه لى. مخى صعيدى يا بوى ولابد أن يتعبنى قبل أن يفتح لى أبوابه ومخازنه، هو يفتح لى أبوابه حسب مزاجه الخاص يا بوى، وقسما بالله العلى العظيم يا بوى إننى ما حاولت فتحة مرة وانفتح، بل إنه ليحيرنى ويتفنن فى تطليع دينى يهزّأنى بين الخلق، وحينما يتجمع خلق كثيرون لفتحه، لا تنفع طفاشات ولا مفاتيح كأنه شغل بره يا بوى، لا يمكن فشه بسهولة بحيل اللصوص لصوص المدائن، لكن المضروب ما يلبث حتى ينفتح وحده ذات لحظة فيبين لى الحق من الباطل، وذلك عندما أكون رائق البال، ولا أكون رائق البال إلا عندما أكون رائق المزاج، بعد أن أشرب لى حجرين من حشيشة نظيفة طيبة الأصل..

شعرت أن مخى سينقفل مع «بربش» وهو إذا انقفل يهدد بمصيبة قد تذهب كلنا فى رجيلها.. فلحقت بشجاعتى قبل أن تهرب منى وصالحت نفسى عليها ووليت ظهرى للعربة عائدا إلى الخفير. فلما رأيت «هندى» مرابطا بجوار الخفير واثقا من نفسه

يروح ويجئ حول الخفير واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ضاربا الدنيا صرمة كأنه يتنزه، اقتربت منه وسحبته إلى بعيد وهمست فى أذنه «بتاع مين الحديد ده يابو العم؟». همس فى أذنى بهزة من كتفيه: «مش عارف والله يا حسن! لكن الظاهر إنه قاف عين!».
قلت فى غيظ «قاف عين يعنى أيه يا بو العم؟ تتكلمون معى بالسيم والفوازير ينقفل مخى ويزرجن! كتم الولد العكروت ضحكة وهمس فى أذنى: «يا بنى آدم قاف عين بتاع الحكومة! بدال ما يقولون قطاع عام اختصروا وسموها قاف عين!».

تلعبك مخى أكثر والله يا بوى، صار مثل الكنافة يستحيل تسليك خيوطه من بعضها. لكن عجلة مخى أسرعت تدور وتدور مفكرة وتقول: «كيف يابو العم! عربة قاف عين تسرق متاع قاف عين!». الولد العكروت أخذ يضحك ضحكا مكتوما ويشخر بصوت عال، وفى النهاية شوح بيده نحو رأسه مرسلا لى نظرة فيها نفاد صبر وتهديد وضيق: «شف يا بلدينا! إذا كان مخك الصعيدى النير سينفتح على هذا النحو! فالأفضل أن تقفله قفلة مسوجرة! إن شغلنا يحب الستر يا صاحبى ويحب تفتيح المخ! والصعيدى حين يفتح مخه يجيء لأهله بمصيبة ثقيلة! إذا كنت تريد أن تشتغل معنا يا صاحبى فالواجب أن تقفل مخك وحنكك هذا تخيطه بالدوبارة! ولسانك تقطع منه ثلاثة أرباعه! ما يجرى علينا يجرى عليك! وحقك تأخذه بالرضا والتسليم دون أن تفتح فمك وإلا ضعت! إسمع كلامى فانا أحب مصلحتك وأعرف طيبتك وسلامة نيتك!

لكن الشغل معنا كالحمّام دخوله ليس كالخروج منه! إن بقيت معنا على الوضع الذى قلته لك الآن تخرج من الحمّام مستحما نظيفا لابسا ثيابك النظيفة منتعشا! وإن فتحت مخك الصعيدى التخين على هذه الطريقة الصعيدية التخينة ستطرد من الحمّام عاريا مسلوخا من جلدك تتمنى الموت فى كل لحظة! وعلى كل حال يا صاحبى أنت مازلت على البر لم تدخل فى الغويط فإن كنت غير واثق من أنك تفعل ما طلبته منك فإننى يمكننى أن أعاونك على أن يذهب كل منا إلى حال سبيله دون أن يصيبك أذى! وتستطيع أن ترد للحاج السنى فلوسه التى سلفها لك!»..

تلخبط غزلى يا خال، لم أعرف كيف أرد على الولد «هندى» وقد شعرت أن مزيكة الصدق فى صوته، قلت له : «نشكر يا هندى يا خوى! والله عداك العيب وسافر حتى الشلال! أنت الآن نورتنى وأنا ح أبقى معكم أو انصرف لحال سبيلى». ولحظتها كنت أجمع فى دماغى الكلام الذى سأقول له به إننى سأختار الانصراف إلى حال سبيلى وليوفقكم الله ويوفقنى كل فى طريق... لكن لا أعرف يا بوى من الذى صحى صورة أختى «سعدية» لحظتئذ فى دماغى فصار قلبى ينتفض راقصا من الطرب أم من الاضطراب لا أدرى ، لكن «سعدية» مشيت فى دماغى لحظتها حاملة المدفع الرشاش تردى به الحكومة قتيلة فى لمح البصر تنط كالفارس على ظهر حصان «خرابة» لتنطلق مثله إلى الجبل طريدة تصبح مثلما كان شوكة فى جنب الحكومة

دامية.. ففى الحال صحت فى الولد «هندى وقد جمد قلبى: «أنا معكم يا هندى يا خوى حتى نهاية العمر بإذن الله! ولن أفرط فى صحبتكم أبدا!» فسحبنى الولد تحت إبطه وطبطب على كتفى وقال: «ربنا معاك ومعانا!»، ثم حاصرنا الخفير من كل ناحية.

دقائق وبرقت فى حلكة الليل أنوار مقبلة فسحبنى الولد «هندى» برفق وتسللنا على أطراف أصابع أقدامنا كى لا يشعر الخفير بانصرافنا فيصيح. دارينا أنفسنا خلف العواميد منبطحين بين شكائر الأسمنت نستلقط الاخبار، ويدى على الزناد مستعدة للضرب فى المليان فلما اشتد النور فجاة، انطفأ فجأة، وكف هدير العربة، وجاءنا صوت بابها وهو يفتح ويغلق، وصوت «بربش» يتنحنح. فنهضنا وجرينا إليهم، لأقف بجوار الخفير واضعا فوهة المسدس فى ظهره وينصرف «هندى» للمشاركة فى التحميل، حتى امتلأت العربة لتمها، وكان لابد أن أبقى ثانية، وفى هذه المرة كنت أكثر شجاعة. وفى المرة الثالثة كنت أتنزه رائحا غاديا كأننى الخفير الحقيقى. وفى المرة السادسة كنت أنا الذى يصبّر «هندى» ويهدئ أعصابه القلقة إذ أن الفجر كان على وشك أن يشد خيوط النهار وكانت أعصاب «هندى» تنفرط كلما ابيض وجه الصباح. فى هذه المرة يا خال وسعت العربة آخر ما تبقى من أسياخ الحديد فى قعر صندوقها، وفوقه رصات من شكائر الأسمنت تعلو فوق كابينة السائق بأمتار. وكان علىّ أنا و«هندى» أن نتمدد فوق رصات الأسمنت، فأخذنا نترفق بالعربة من التسلق خوفا أن تميل

وتسقط فى ناحية. وقف السائق ليفعل مثلما تفعل الناس بجوار الخفير المتمدد فوق بعض الشكائر الفارغة مكتفا ملثما، سرت عدوى البول فينا جميعا، فتجمعنا بجواره صفا واحدا وأخذنا نبول فى ثقة واطمئنان، وقال «بربش» مشيرا برأسه إلى الخفير: «الراجل ده ما صيّحش ولاعمل أى حاجة؟!»، قلت متذكرا: «تصور يابو العم أنه لم يفتح فمه!» . قال «هندى» مؤمّنا على كلامى: «ولم يتحرك من الخوف!» قال السائق وهو ينفض قضيبه لينثر عنه آخر قطرات البول: «رجل طيب ويستحق أن نعطيه حسنة وعلبة سجائر!». قال «بربش» فى كرم ظاهر: «يا ريت». ثم مد يده فتناول مسدسه منى فشعرت كأننى قد صرت فى الريح عريانا، ونويت أن يكون معى واحد على طول الخط إذ موضة المطاوى بطلت هذه الأيام.

انحنى «بربش» على الخفير وزغده ببوز المسدس فى كتفه قائلا: «إنت ياحاج!» فصار الخفير يهتز تحت زغد المسدس. فمد السائق يده وأمسك برسغ الخفير وتحسسها ثم أخذ يدمدم: «يا خبر أسود! الرجل مات!»..

انبرينا نتحسسه من كل ناحية، ونضع أيدينا على فمه وقلبه ونبضه وندعك فى قضيبه حتى ينكسف إن كان يمثل الموت ولكن لا حياة لمن تنادى. راح السائق يفك عنه الحبال شيئا فشيئا ويتوقف عند فك كل عقدة لينظر ما إذا كان الخفير يخدعنا،

و«بريش» شاهرا مسدسه فى وجه الجثة ليردعها به فى الحال إذا ما تخادعت. لكن الحبال كلها انفكت ورمى بها السائق على سطح العربة والخفير جثة هامدة لا حراك فيها. فنزعنا عنه اللاسة ومددناه وفردناها عليه كما كان فى وضع نومه قبل مجيئنا، ثم تسلقنا العربة. وفى أسرع من البرق كانت العربة تنطلق بنا فى الطريق، وأنا و«هندى» مسطوحان كل منا غائب فى ملكوته. إلى أن توقفت العربة، ونزلوا، فنزلنا، ففوجئت بأننا أمام شادر الحاج «أحمد نور الدين السنى»، وثمة رجال من ولد عمومتنا يكتفون بالخيش، قد هرعوا لتعتيق هذه الحمولة، وكان عرق تعتيق الحمولات السابقة يغمر أجسادهم ويتناثر مع الندى على أسفلت الطريق.

العملية طلعت آخر أنس يا بوى، وآخر فرفشة، نظاكة ما بعدها نظاكة، ولم يكن قبلها بطبيعة الحال. الولاد ـ ربك والحق ـ عاملونى بالحد والمصلحة لم يطمعوا فى عرقى وشقاى. نادوا على أمام الحاج السنى ليرينى ـ مادمت أفك الخط ـ حسبة الموازين التى أجراها لهذه «البضاعة» التى اشتراها منا. فلما قال كلمة «البضاعة» التى قيل إنه سيشتريها منا لحساب جمعية خيرية تبنى فى سبيل الله مساجد ومعاهد نظرت فى وجهه جاعلا من عينى مخرازين يخرمان عينيه، لعلنى أجد خلف هذه البسمة الشقية شيئًا يدلنى على الحقيقة الكامنة وراء إنسانى عينيه هاتين، وعيناه يا بوى تقول بلوزتين صغيرتين لا يمكن النفاذ منهما ولا يمكن سحقهما بل والله ياخال كنت أحس أن بصرى ينزلق على

رصتين صلبتين ولست أشك يا بوى أنه قد شعر بتعبى من جراء وضعه فصرف عينيه متعمدا ووضعهما فى الورقة التى أمامه، وخط بالقلم الكوبيا خطا تحت المجموع التلج عن حمولات ست جاءت بها العربة، وتحتها مجموع وزن شكائر الأسمنت. ثم غرز القلم الكوبيا تحت طاقيته الشبيكة وطوى الورقة قائلا:

ـ «شوفوا يا أولاد! أنا ما عندى مانع فى التعامل معكم بسعر السوق السوداء! لكن ذا يبقى كثيرا عليكم! يجوز أن أظلمكم! ويجوز أن تظلمونى! السوق السوداء كما تعرفون مجنونة بطبيعتها! يفوز بجنونها قلة من التجار الجشعين! ويضار منها التجار الشرفاء! من أجل هذا يا أولادى لا أجد طريقة أتعامل بها معكم أنسب من طريقة الشراء بالعرق! يعنى نتعاهد بقراءة الفاتحة أن تقولوا لى عن السعر الحقيقى الذى اشتريتم به بضاعتكم! وفى المقابل أعطيكم عشرة جنيهات عن كل طن جزاء تعبكم وعرقكم فى تسويق البضاعة وجلبها! فماذا تقولون!»..

تحلف اليمين يا بوى أننى سابت ركبتى كالواقف أمام ثعبان ساقط عليه من السقف. لم أكن أعرف أن الولد «غزولى» حويط يا بوى لهذه الدرجة، وفهلوى كبير يا بوى، تقدم من «الحاج السنى» وعلى هيئته سمة التاجر الشريف الشقيان الأمين على بتاع الناس وقال:

ـ «وكيلك ربنا يا حاج! نحن والله واسطة خير بينك وبين صاحب البضاعة! نحن ناس غلابة على الله! لا نطلب أكثر من لقمة

العيش الشريفة بعرق الجبين! أما أنت وصاحب البضاعة فناس مقتدرين! يزيدكم الله من نعيمه! ولكن ارفقوا بحالنا ولا تتشطروا علينا! وصاحب البضاعة قد ائتمننا على بضاعته ولم يقيد علينا أى ورقة سوى ورقة وزنها فقط ليحاسبنا بها! هو رجل طيب ما يتخير عنك يا حاج! لذا فنحن لا نقدر أن نفرط فى مليم واحد من أمانته! أنت تقول إنك تعطينا عشرة جنيهات عن كل طن! وتعرف أننا خمسة رجال! وعربة لها مصاريف ضعف مصاريفنا وعرق أغزر من عرقنا! فلو قسمنا هذا المبلغ علينا فماذا يصيب كل واحد منا!؟ لو بعنا الترمس والفول الحراتى نجمع فى ساعتين اثنتين أضعاف هذا المبلغ! وأنت تعرف أننا نعطيك بضاعة شحيحة نادرة فى السوق والطرناطة منها فى حنك سبع وأنت أيضا تعرف أننا ضحينا بحياتنا من أجل لقمة لا من أجل سُفرة!»..

«الحاج السنى» تابعه بنفس البسمة الشقية فى العينين وعلى الشفتين لا تنقص ولا تزيد. وتابعتهما كلاهما وقد انفرط قلبى وانفرطت أعصابى ولم يعد فىّ حيل والله يا بوى، لم يبق فىّ مخ ينفتح، ولم أعد أصدق شيئا مما يحدث أمامى. فى نفس الوقت يا بوى لم أعرف أن أكذب شيئا مما يحدث أمامى، فهل نكون فى مسرحية تمثيلية كل واحد فيها يمثل على مزاجه الدور الذى يعجبه؟ العجب العجاب يا خال أننى وقدشاركت «غزولى» وصحبه فى سلب هذه الحمولات بعربة قاف عين من مخازن قاف عين، وشاركت فى تكتيف الخفير وإرعابه حتى الموت، رأيت أننى

أصدقه كل التصديق وهو يحكى للحاج«السنى» ما حكى، كان ما حكاه حقيقة واقعة، كأننى شاركته فى فعل كل ما حكاه مع أن ما حكاه لم يحدث، شىء يمخول العقل يا بوى، حاجة تهوس والله.

لما رأى «بربش» لحظة الصمت قد طالت وأن خطبة «غزولى» ستفقد حرارتها، تدخل قائلا وهو يشوح بيديه ورأسه وكتفيه ورقبته:

ـ «على كل حال شوية عليك وشوية علينا يا حاج! أنت مهما كان خيرك علينا! ومصلحتك أولى عندنا من مصلحة صاحب البضاعة! ولكن خل عليك قليلا وراع مصلحتنا والتعب الذى تعبناه يا حاج! لقد حملنا النار بأيدينا يا حاج! إنها أشد من حكم المخدرات ياحاج! وهى كلها خير وبركة يا حاج! وربنا يزيدها بركة يا حاج ويجعل سوقها أحلى منها! ولكن نحن أبناؤك وما عندنا لا يضيع يا حاج!»..

البسمة الشقية ارتعشت على شفتى الحاج وترقرقت فى زلطتى عينيه العسليتين، وشوح قائلا لـ«بربش»:

ـ «خلاص يا بربش! عشان خاطرك جعلنا العرق اثنى عشر جنيها فى الطرناطة! يبقى لكل واحد منكم جنيهان بما فيكم العربة!»..

«غزولى» رفع ذراعه الغليظة زامًّا شفتيه وراح يهزها علامة «ما ينفعش»، فتزحزح «بسبوسة»، وتحسس ثدييه من فتحة الجلباب مجففا عرقه وقال باسما بسمة أنثوية بغمازتين:

- «على كل حال يا حاج! خذ لك عظة من تمسكنا بالمبلغ الذى سنأخذه عرقا لنا! فهذا التمسك دليل على أننا سنصدق معك فى قول السعر الحقيقى الذى حملنا البضاعة على أساسه من مكانها!»..

شوح له الحاج بمسبحته فى فروغ بال قائلا:

- «على كل حال السعر معروف وليست هذه مشكلة! وعموما فانا إكراما لكم ولأنكم أولاد حتتى وجيرانى! وقلبى دائما عليكم! فإننى لن أدفع أكثر من خمسة عشر جنيها للطن الواحد لو نطق الحديد! وإذا لم يعجبكم السعر فانتم أحرار!»..

كشر «غزولى» فى وجهه تكشيرة أظهر فيها - عن عمد - قليلا من قلة الأصل، لكنه أذابها فى كوب من السكر بالليمون حين قال:

- «إحنا أحرار يعنى إيه؟! يعنى نشيل البضاعة ونرجعها تانى؟! لكن يا حاج! ما أظن أنك تفعل هذا ونحن أبناؤك! عموما خذ البضاعة ووصل ثمنها يا حاج! طلاق بالثلاثة يا حاج أننى أتكلم الجد!»..

هنا وقف «الحاج السنى» ونزع القلم الكوبيا من تحت طاقيته وشرع يحسب فى الحال قائلا:

- «يبقى الحساب على ثمانية عشر ولا أحد منكم يفتح فمه بعد الآن!»..

ومضى يخط على الورق. فصمت «غزولى»وصمت الجميع، ومطوا بوزهم ولووا أعناقهم علامة على الرضا الاضطرارى. ونظر الحاج من فوق الورقة قائلا:

- «الأصل كذا طبعا!»..

صاحوا جميعا:

- « حرام عليك يا حاج! إنه يباع رسميا بكذا! فما بالك بالسوق السوداء!»..

أضاف الحاج مبلغ جنيهين قائلا:

- «يعنى كذا؟»..

فحدجه «غزولى» بنظرة جريئة حسدته عليها، ثم أضاف خمسة جنيهات قائلا:

- «بل يعنى كذا!»..

رماه الحاج بنظرة حمراء وقال:

- «أنت سفاح! منك لله!»..

وشرع يحسب بناقص جنيهين عما قال «غزولى» وهو واثق أن أحدا منا لن يعارضه. وبالفعل لم يعارضه أحد بمجرد رؤية الأوراق الحمراء القانية وهى تترادف على يدى «غزولى» واحدة وراء الأخرى، والدنيا كلها ترقص من حولنا طربا على حفيفها.

نابنى من هذه الغنيمة شىء كبير يا خال. أتدرى كم؟ أم أقول لك: لا داعى لإفشاء الرزق؟.. اسمح لى يا خال، فاللقمة التى تتفتش لا تؤكل.

السابعة ـ ليلة النتاية المحرقة

الغرزة التى كانت تلمنا هى غرزة صفصف، منها غرزة ومنها مقهى. حين يهفنا المزاج لشرب حجرين من الحشيش ندخل المقهى بجوار النصبة، نرقع مائة أو مائتى حجر على مصفاة واحدة، إذ ترف حجارة المعسل عشرا عشرا، وتوضع الجوزة البرطمان فى جردل الجوز، ليؤخذ غيرها نظيفة بمياه ساقعة تجلجل تحت أنفاسنا الجاذبة. فإذ نفرغ من ذلك نخرج إلى الرصيف لنكمل السهرة فى قلب الحارة.

هى حارة عجيبة ليس فيها باب واحد، غير باب المقهى، كلها جدران متصلة، فيها بعض النوافذ الصغيرة. وهى ـ الحارة ـ مكسورة بعد المقهى بعدة أمتار نحو اليسار، مما يخيل للقادم أنها حارة سد، أما الذى يعرفها فإنه سينكسر مع الجدار ليستدير مع الحارة النافذة إلى خرطة «أبو السعود» وحدود الجيارة. لذا، فلا تمر إلا سيارات أبناء المنطقة المدربين على القيادة، ويتوقف مرور السيارة فيها بعد العشاء مباشرة، فيباح للزبائن زحزحة الكراسى إلى منتصف الحارة والجلوس على الصفين طول الليل، خاصة فى ضوء القمر.

صاحب هذه المقهى ولد واعر يا بوى، أقوى شخص فى الحارة، إذ هو بلطجى كبير، وخارج من عشر سنوات أشغال شاقة، ظل يرفع المطواة فى وجه كل من يدوس له على طرف، حتى ترك فى الجميع جروحا وقروحا، فتركوه فى حاله، وتركته الحكومة يطغى ويتجبر، ويقتنى عشرات الصبيان، يوقفهم على النواصى بأكياس الحشيش الفاخر يبيعونه بأغلى ثمن، عينى عينك، لكل عربة ملاكى تقف على ناصية الحارة، ولكل أفندى يجلس على المقهى. أما هو فبعيد عن الإمساك بالنار، مهمته شغل الحكومة والتفاهم معها، بالهدايا أو بالمحاكم، أو بالتهديد، أو بالبلطجة، أو بالسلاح كله ماشى، كل حالة حسب وضعها، وهو المنتصر دائما، ودائما لا يمكث صبيانه فى الحجز أكثر من سواد الليل. هو الباقى فى بلادنا والحكومة متغيرة، والقرش باق والنفوس أيضا متغيرة المهم أن «صفصف» يعيش فى هذه البلدة ولا كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان الذى يحكى عنه شاعر الربابة لكنه ربك والحق ولد ذوق مع الذوق، فواحشى مع الفواحشى؛ إن أعطيته ريقا حلوا أعطاك نهرا من العسل، وأنت لابد أن تعطيه الريق الحلو غصبا عنك لأنه يبدأ دائما بتحلية ريقك إن جئت مقهاه شاريا فى الصباح؛ حيث ترى ولدا طويل القامة نوعا، نحيف الجسد صلبه أبيض البشرة لكنها ملوحة بالشمس؛ شعر الذقن كفرشاة سمراء خصلة شعر مهملة على جبهته الضيقة تختفى تحتها عينان ضيقتان معشيتان على الدوام؛ يرتدى قميصا وبنطلونا كالحين؛ وصوته غليظ خشن؛ يمر على الجالسين فى

مقهاه واحدًا واحدًا، يوزع عليهم قطع الحشيش بالمجان، كل قطعة تساوى نصف، ربع قرش على الأقل يرصها الزبون خمسين حجرا أو أكثر، فإن طاب لك أن تشترى منه بعد ذلك أهلا وسهلا، وإن اكتفيت بذلك أهلا وسهلا أيضا، لكنك إن اشتريت فلا تفتح حنكك بأى كلمة وإلا كان نهار الأبعد أسود من قرون الخروب ترى نفسك فى الشارع مضطجعا تحت عجلات السيارات وأقدام المارة وحينئذ لن يبين لك أصحاب.

نحن وكل الناس نحب الجلوس فى قهوة «صفصف» كما نحب الشراء منه ونثق فى حشيشه، فندفع فى القرش اثنى عشر جنيها فى حين يباع عند غيره بثلاثة جنيهات فقط، لكن الفرق بين حشيشه الغالى والحشيش الرخيص فرق السما عن الأرض، إسأل مجربا ولا تسأل طبيبا خاليا من التجربة. و«صفصف» يعرف أنه محبوب الحشيش من الناس فيتدلل عليهم ولا ينزل عن السعر مليما واحدًا، ولا ينزل كذلك عن مستواه حتى لو توقف عن البيع بسبب تشاحح الصنف الجيد. أما القهوة فإنه يرفع سعر الطلب فيها ثلاثة أضعاف سعره فى المقاهى الأخرى، وكذلك سعر حجارة الدخان، إن كان يعجبك فاجلس، وإلا فلترنا عرض أكتافك. بهذا نظفت المقهى واقتصرت خدمتها على مجموعة منتقاة من الزبائن يدفعون بدون فصال ولا يعلو حاجب واحد منهم على حاجب المعلم «صفصف» ولا كلمة على كلمته..

قد يخيل إليك من رؤيته لأول مرة أنك لو ضربته كفا على وجهه سترميه فى الأرض طريحا، لكن إياك وهذا الظن؛ فإن

أجعص منك دفعوا ثمن هذا الظن غاليا مع أنهم كانوا أقوياء معتدين بأنفسهم؛ فإذا هم يلمون أشلاء نفوسهم من الأرض ويقفون فى بلاهة غير مصدقين أن هذا الولد السفروت فى جسمه كل هذه القوة الناشفة؛ وكلهم فى آخر المتمة يمنعون أنفسهم بعدها عن التلسين فى حقه أو التعرض له بأى شىء..

على حسه يدور دولاب العمل فى غير وجوده؛ إذ هو يختفى عن منطقة المقهى بعد صلاة العشاء؛ ويقول صبيانه إنه يقطع الليل كله فى مشاوير فى بلاد الشرقية والغربية والمنوفية يزور بيوتا على الطرق الصحرواية يلتقى بالمهربين يتفق معهم على البضاعة يعاينها؛ لا يعود إلا قرب الفجر يتطوح؛ إذ أن «صفصف» رغم أنه تاجر حشيش وأفيون وبرشام وهيروين وكوكايين وكل مسحوق وماكسل، فإنه خمورجي من الدرجة الأولي؛ وهذا شيء يطقطق الرأس يا بوى! فكل تجار المخدرات الذين عرفتهم يعشقون الخمر عشقا، ويشربون مع ذلك الحشيش فنطزية والأفيون لزوم مسك الدماغ وشد العصب، ولأن ألف امرأة وفتاة فى هذا الحى وهذه البلدة تتمناه وتخطب وده إذ أنه ولد كسيب وشاطر؛ فإنه له جمهور كثيرة يسعى إليها فى سهراته بين الخمر والنسوان والدخان وازوم ما يلزم. صبيانه يحكون لنا هذه الحكاوى ونحن مساطيل آخر الليل؛ ويقولون فى نهاية الكلام إنه متزوج من حورية سنيورة كالفل، كل أهل المنطقة يعرفون أن «صفصف» مليونير حافى القدمين يملك عمارات كثيرة فى مصر الجديدة والجيزة وحلوان، لكنه حويط لئيم لا يكتبها باسمه ولا يبيت فيها؛

بل إنه لم يغير سكنه القديم فى حجرة فى حارة من حارات هذه المنطقة لا يعرفها إلا صبيانه المقربون؛ وإذا داهمته الحكومة فى هذا المسكن ـ وهى كثيرا ما تداهمه ـ لا تجد فيه شيئا بطالاً، ولا أى شىء يزيد فى مظهره أو مخبره عن حالة رجل على باب الله صاحب قهوة بلدى..

ليالى كثيرة ونحن نتلاقى على هذا الرصيف فى هذه الحارة دون أن نفعل شيئا يا بوى؛ والهبرة الكبيرة التى هبرها كل واحد منا فى تلك الليلة السابقة ضاعت؛ أنا مثلا أرسلت هبرتى كلها إلى أمى فى البلد لعلها تتمكن من إعادة بناء دارنا، لم يبق معى إلا حفنة برايز وشلنات لا تودى ولا تجيب، ولولا أن الولد «هندى» رضى أن أسكن معه فى غرفته لكنت الآن بلا مكان أبيت فيه، فى كل ليلة نسفح قطعة حشيش كبيرة ونحرق حجارة معسل عدد الحصى، ونشرب شايات وحاجات ساقعة وننصرف آخر الليل صارفين من لحم الحى، وقد خشيت أن أتكلم فى هذا الأمر حتى لا أثير غضبهم علىّ وتشاؤمهم منى، فقلت فى نفسى: ما يجرى عليهم يجرى علىّ، ولم أكن أعرف أن الفلس قد أتعبهم أكثر منى يا بوى؛ إذ قال «هندى» وهو يفرق علينا ورق الكوتشينة فى هذه العشرة الجية التى نلعبها مرابعة:

ـ وبعدين يا اخونا! عايزين نشتغل بقى! خلاص فلسنا!».

فهرشوا كلهم فى رءوسهم؛ وظهر على وجوههم أن هذا الطابق هو آخر طابق فى هذه العشرة الكوتشينة سواء انتهت أو لم تنته.

وقال «بربش»: «اهرش فى دماغك يا غزولى!». فقال «غزولى» وهو يعبث بأصابعه فى شواربه مفكرا: «الفرخة لم تبض بعد! فلى إخوان فى هيئة قاف عين يشتغلون الآن فى ترتيب عملية طيبة ستعم علينا بالخير إن شاء الله! وأنا كل يوم أتصل بهم أستعجلهم! وهم يقولون لى اصبر على الأرز حتى يستوى! فأستحسن كلامهم وأنصرف»..

وهنا قال «بسبوسة» وهو يدلك فى ثدييه الكبيرين:

ـ «ويظهر أنك تستحسن حالة فقرنا أيضا!»..

وقال «هندى» وهو يزيح الورق من أمامه فى سأم

ـ «نريد عملية تعدينا من الفقر!»

ألهمنى الله قولا:

ـ «ربنا يقول اسع يا عبد وأنا أسعى معك! فما يمنعنا من أن نقوم الآن لنسعى» ونحن ورزقنا»..

بحلق «غزولى» فى عينى بنظرة ثعلب داهية.

ـ «هذا شغل الحرامية الجربانين!»..

جاراه «بسبوسة» قائلا:

ـ «جئنا لشغل النتانة! لم يبق إلا أن ننشل فى الأتوبيس!»..

قلت:

ـ «وما العجب يا بسبوسة؟ ربما تقع اليد على هبرة كبيرة!»..

شوح «بسبوسة» بخبرة معلم كبير:

ـ الهبرة الكبيرة لا تركب الأتوبيس! فلا ينوب النشال غير اللعب فى الصغير! اللعب فى الصغير يقود إلى الحبس وخراب البيوت بلا ثمن! إن سرقت أسرق جملا يا بقف!»..

نقر «بريش» بخاتمه على الترابيزة قائلا:

ـ والله حسن كلامه معقول! ومخى يحدثنى الآن بان نقوم ونبحث عن الرزق ونحن ونصيبنا!»..

ثم وقف فى الحال يا بوى، فوقفنا كلنا! وجمعنا من بعضنا أنصبتنا من مصاريف القهوة! وتولى «غزولى» دفع الحساب والبقشيش، مضينا نحو كسرة الحارة حتى خرجنا إلى الخلاء وسرنا خلف «بريش» إلى مساكن الفسطاط القديمة.

هواء الفسطاط نعنشنا! فانقلبنا ضاحكين بغير وعى، كنا فى بحر القمر غرقى، والدور من حوالينا رابضة فى سفح الطريق وفوقه يعلم الله وحده ما يدور فيها مع أنها تبدو غارقة فى الصمت اللانهائى، وكان الهواء يشاغب ويلاعب ستائر كالحة خلف بعض الترسينات والشبابيك! فيجعل الدور تبدو كأنها تتنفس وصدرها يعلو ويهبط، قلت فى نفسى إنها تدعونا للتعجيل بالفعل الذى سنترسمه، فهذه هى اللحظة المناسبة وكنت أنوى التكلم فى هذا معهم؛ لكن عينى وقعت على أكثر من حبل غسيل مزدان بالملابس المغسولة كحبال الباعة فصار قلبى يخفق بشدة وتمنيت لو أننى وحدى الآن لقطعت كل حبل بالمطواة من الناحيتين

لمته فى حضنى ثم انصرفت متعشيا؛ إلا أننى قلت لنفسى؛ يا يد انظف وأكبر على حبل الغسيل واللعب فى الصغير كما ينصح بسبوسة..

انتبهت فإذا بنا جالسين على صخرة من الأسمنت فى سفح الطريق؛ أمامنا «الجيارة» و «مصر عتيقة» على اليمين، والفسطاط القديمة على الشمال، فبحلقت فيهم وقلت إن ثعبان الليل أخذ الآن فى سحب ذيله الطويل، ولابد أن نفعل ما سنفعل قبل أن يدخل الذيل فى جحره وينطبق عليه جدار النهار، قال «بريش».

ـ « يا أخى طوّل بالك! أننى أتذكر الآن دكان بقالة فى الفسطاط متريش وملآن بالخيرات! وصاحبه ابن قحباء ذمته واسعة!».

قال بسبوسة مسلك هو أم مسيحى

قال بريش

ـ « مسلم وموحد بالله! له ذقن طولها متر ومسبحة وطولها متران!»..

قال «هندى»:

ـ «أليس يزكى على ماله وبضاعته؟!»..

قال «بريش» بعد أن أرسل شخرة سريعة خاطفة أضاف إليها:

ـ «أحّه! أقول لك ذمته يجرى فيها القطار!»..

قال «غزولى».

- « ليس لنا شأن بذمتـه الآن! ليكن ما يكون! نحن لن نصاهره ولن يصاهرنا! نحن لسنا المختصين بحسابه! فالملكان ينتظرانه فى قبـره فى الآخرة وهذا يكفيـه! والذى يهمنا الآن هو خـزنة النقود! هل يفرغها فى جيوبه قبل إغلاق الدكان؟»..

قال «بربش»:

- «راقبته كثيرا عند إغلاق الدكان بنـية أن أتتبعه فيما هو سائر إلى داره لأخلص معه! فـما رأيته يأخذ معه نقودًا قـط! لأنه يعتمد على أن باب دكانه يحميه درفيل من الحديد المضلع العريض وقفل مسوجر لا يمكن فشه بطفاشة!»..

رفعت ذراعى صائحا فى وجه «بربش» قائلا:

- «يا عم بربش يا خـوى! هل هذا الرجل صـاحب الدكان يبـيع بالشكك؟!»

قال «بربش» ضاغطا بأسنانه على لسانه المذكور فى غيظ:

- «ابن ميتين كلب! لو مت أمامه على رغيف وقطعة جبن لا يرق قلبه عـليك! إلا إذا هرشت له بالفكة! مع أنه يعطى السجـائر شكك لأفندية خولات يعرفهم!»..

قال «هندى»:

- «سوف لن يجد فى قبره من يسقيه!»..

صحت قائلا بصوت عال ولهجة حاسمة:

- «يبقـى لابد أن نحرق قلبـه! فإنه يسـتحق الخسـران الوبيل! صنف الذى يمنع عـنك اللقـمة وهـو موسـر وأنت مـعـذور اقطع رقبته! دس فوق رأسه فـإنه ثعبان سام! فوالله لابد أن يكون همنا الآن نفـكر فى أمـره! لتكون كسـرته على يـدنا بإذن الله! وبتوفيق منه!»..

قال «بربش»:- « لابد أنك تكون انقـرصت منه يومًا! فليس من واحد عـاش فى هذه المنطقة إلا وتوسم فـيه الخـير فلجـأ إليه فى طلب شكك! وارتد فى النهاية خائبا مكسور الخاطر!».

قلت مشوحا بذراعى صائحا:

- «أظنك تقـصـد البقـال الذى على ناصـيـتى حـارتين وعنده التموين وبرميل الزيت وأجولة السكر واسمه الحاج لولى!؟»..

هز رأسه قائلا:

- «هو بعينه! الوحيد بين دكاكين البيع والشراء كلها ليس عنده دفـتـر للشكك! حـتى دفـتر الـتمـوين لا يراه أحـد! أهل حـوارى الفسطاط كلـهم لا يتوفر مـعهم ثمن التمـوين الذى يبلغ من ثلاثة جنيهـات إلى عشرة! بعـضـهم يشـتـرى جزءًا صغـيرا منه ويوقع باستـلام الكل! بعضــهم لا يأخذ منه شيـئا فيـسقط حـقه بمضى الشهـر! وحاج «لولى يبـيعه لهم بعـدها بالقطاعى بسعـر السوق السوداء الحرة!»..

أنهى «غزولى» برم سيجارة حشيش أشـعلها ليستدعى بها ما طار من دماغنا من سطل فى هبوب الرياح، وقال:

ـ «ما رأيكم أننى فعلا قارش ملحة هذا اللولى من زمان! وأود أن أغدره وأذيقه العذاب ألوانا! لقد فكرتنى يا بربش بحركة كنت نسيتها من سنين طويلة! كان هذا الخنزير قد فعلها معى! حين طلبت علبة سجائر هليود وفتحتها وأشعلت منها سيجارة وكلى عشم فى أننى لو قلت له أعطيك ثمنها غدا فسيقول لى لا عليك! لكنه أخذ منى العلبة مفتوحة وقال غدا تعال حاسبنى على هذه السيجارة التى أشعلتها! فوالله العظيم لأحاسبنه الليلة على حق! ابن ديك الكلب هذا يجب محاسبته! نريد الآن عتلة ومرزبة!»..

قال «بربش»:

ـ «باب الدكان خشب بضلفتين لا تنفع فى فتحه العتلة!»..

قال «غزولى»:

ـ «سأصدّر العتلة فيما بين مفصلات الباب والجدار! هى ضغطة واحدة بإذن الله أدفعها بصدرى فى العتلة! تفصل المفصلات بحالها عن الجدار! فيتسع المجال أمام الضفلة المعلقة فيها حلقة الدرفيل! فينفصل الدرفيل وينفتح الباب على مصراعيه! ويمكن أن ندعه مقفولا كما هو ونتسلل من فتحة نوسعها بين صدغ الباب والحائط! مكان الحصالة معروف! والسجائر والأشياء الثمينة كلها متجاورة!»..

قال «هندى .

ـ «يلزمنا عربة نصف نقل!»..

قال غزولى

ـ «هذه عليك يا حدق! تسرقها من الموقف أو من الجراج الكبير المتطرف! ثم تعيدها بعد أن تخلص من مهمتها! أو ترميها فى أى مكان قريب!»..

سحب «هندى» بقايا السيجارة المحشوة ليسلب بقايا نفس وهو يقول:

ـ «بسيطة! ما أكثر العربات! لو طلبتموها الآن حالا أجيئكم بواحدة محترمة!»..

قال «بربش»:

ـ «خل ذلك للغد! فلابد لنا من عتلة! وهذه لا توجد الآن فى مكان قريب!»..

صحت قائلا:

ـ «إذن فدعونا بقية هذه الليلة نفرفش ونهيص! كل واحد يروح لحال سبيله!»..

وكان فى نيتى أن أفوز بغنيمتى الصغيرة وحدى يا بوى،أن أجمع ثلاثة أو أربعة حبال من حبال الغسيل هذه التى يخفق من رفرفتها قلبى، وغدا يمكننى أن أبيع فى سوق العصر بعض ثياب تستحق البيع ولو بثمن الدخان. لكن «غزولى» شوح قائلا:

ـ «لا ياحدق! قم بنا الآن ندور حول الدكان نعرف دخلته من خرجته! صدغه من قفاه! فلربما يلهمنا الله طريقة سهلة لفتحه!»..

استحسنا جميعا هذه القولة وتحمسنا لها، فما ندرى إلا ونحن نتخبط فى حوارى الفسطاط الضيقة الملتوية، التى صارت أشبه بسراديب من الظلمة تحت خيمة القمر، وصلنا إلى ذلك التقاطع الذى يتملك دكان «الحاج لولى» ناصيتيه، تحسسنا بأيدينا الباب والدرفيل والقفل والصدغ والمفصلات وكل شيء، إلى أن قال «غزولى» بثقة:

ـ «بالعتلة وحدها ينفتح الباب!».

ثم مشينا ندخن ونتهامس بالإشارة وهزة الرأس حتى صرنا فى شارع الخلاء البعيد المطل على! أسطبل عنتر، على يميننا صف واحد من الدور الواطئة، وعلى شمالنا الخلاء، كلها دور من طابق واحد أو طابقين، بالكثير ثلاثة، لكن الرجل منا لو مد ذراعه عز آخرها يطول آخر الطابق الثالث، «بريش» و«غزولى» كانا سارحين ببعضهما فى الكلام يبعدان مسافة طويلة، و«بسبوسة» و«هندى» مشيا معا على مسافة طويلة منهما يتكلمان، وعلى مسافة طويلة منهما مشيت وحدى سارحا بنفسى، مخى يوجهنى نحو حبا الفسيل. وقلبى يؤجل إخراج المطواة، فلما اختفى الصحاب ف حوادية بعيدة، خفق قلبى لشعورى بالوحدة المفاجئة، وكنت أحس أننى أريد أن أتخلص من ضرورة، فصرت أتمسح بالحوائط بح عن حائط رطب ووسخ أرسل عليه ضرورتى، فاجتذبنى شبا قريب إلى الأرض مدهون باللون الأزرق دهانا جديدا، وضلفتا منقسمتان من عرضهما إلى قسمين أحدهما سفلى وهو الأطوا

ومغلق من الداخل، والثانى علوى وهو الأقصر ومفتوح على مصراعيه والضوء يعبره إلى الخلاء فيرسم على التراب شبكة من ظلال أعواد الحديد المتجاورة.

هى العادة الذميمة يا خال، أبدًا ما قدرت على الخلاص منها، إذ بى قد حاذيت الجدار وقربت رأسى من فتحة الشباك محاولا النظر فى داخل الغرفة، وإذا أرى الهول يا بوى، وقعت عينى أول ما وقعت على سرير بعمدان نحاسية بدائر حريرى مكرنش، وبلا ناموسية، ومنظر الملاءة فوقه نظيف غاية النظافة يرسل رائحة معطرة، والسرير كان خاليا، ونسمة هواء تراقص كورنيش دائره العلوى، فبدا لى يا خال كانه يتاهب لتلقى موقعة سخنة يشيب لهولها الولدان.. فما دريت إلا بنفسى أحاول لصق نفسي فى الحائط، وقد بدأت جيوش من النمل تنتشر فى كل عروقى تريد أن تخرج كلها من ذلك الخرطوم المنتفض بين ساقى يا بوى، منظر السرير لخبط غزلى يا بوى، قلب كل كيانى، ذكرنى أننى لم أكن رأيت سريرا بهذه النظافة من سنين طويلة، فلما رأيته طار النوم من عينى واشتد عزمى. وقفت على مشطى قدمى ورفعت عقبى وجمعت الغرفة كلها فى نظرة واحدة، رأيت دولابا بضلفتين فى مواجهة السرير، بجواره كنبة عربى، يتمدد عليها رجل سفروت نابت اللحية والشارب أشقر الشعر، بحلقت فيه، فإذا هو مستغرق فى النوم كالقتيل العدمان العافية، منطرح على ظهره فاتحا فمه عن آخره فجأة زادت رائحة العطر فى خياشيمى وأخذت تقترب أكثر وأكثر مع اقتراب خفيف بجوار باب الحجرة الذى يفتح على

دهاليز شاحبة الضوء، أبعدت رأسى عن الشباك برهة، وقلبى أخذ ينتفض، عدت فسللت عينى من بين أعواد الحديد، فإذا بى أراها يا خال، اللهم عفوك ورضاك، يا أرض احفظى ما عليك؛ امرأة فاتنة، ترتدى قميصا من النايلون بحمالات رفيعة على الكتفين، كل جسمها بارز من خلال القميص الشفاف، طويلة فارعة، عريضة الكتفين، ينطرح شعرها الأسود على ظهرها شرائح فيصل على ضفتى قناة الظهر إلى هضبة عالية، تنحدر نحو ساقين مبرومتين، تنتهيان بسمانة كالشهد، وكعب كالريال الفضى كانت تمسك يديها الممدودتين بذراعين عاريتين كوبا من الشاى، فلما استدارت رأيت وجهها كأنه البدر فى يوم التمام، بعينين واسعتين كحيلتين، رموشها مستطيلة، وبجبهة كالبللور تميل من فوقها جدائل الشعر الغنى، أما خدودها فتفاح طايب، وأما صدرها الناهد ففحلا رمان وأما بطنها فطيات طيات، وأما خصرها فنحيل كجذع النخلة تحف به سوّة كالعجين الخمران، ازداد التصاقى بالحائط وقد تصلب مسمارى يا بوى وأوشك أن يخرق الحائط لينفذ إليها، انحنت هى على الكنبة، فارتفعت قبة المؤخرة وبان لى كل شىء، فكدت أصيح يا وعدى، وكان قلبى قد فارقنى وحط على هذه القبة وصار ينزلق فوق قناة الظهر واصلا إلى الرأس دافنا رأسى بين جدائل الشعر، وخرج صوتها يا خال تقول قطة تطلب الحلال منادية داووود، غير أنها كانت تنادى: صفصف! صفصف! الشاى أهه يا حبيبى!..

لم يرض قلبى أن يصدق حكاية الشاى هذه شاى؟! شاى ماذا يا بوى؟ وهل ينادى المرء لشرب الشاى بكل هذه الرقة وهذا

الرجاء الأنثوى الحار؟! لا يا بوى، أنها تقول له بصريح الفتنة والعبارة: قم وخذنى فى حضنك، وكلنى أكلا، حتى لا تترك منى فتفوتة واحدة،عادت فاعتدلت واقفة فخيل إلىّ أن لحماً صلباً يقبض على مسمارى هى وضعت كوبة الشاى على ترابيزة صغيرة، والتفتت، فمدت ذراعها تحت دماغ النائم ورفعته، فصار وجهه يرتفع نحوى، لأراه بكل خلقته.

وا..ه يا خال.. واه.. تزلزل كيانى يا خال وكركبت بطنى، وانعوج مسمارى منِ الرعب، إذ إننى تأكدت أن الراقد على الكنبة جثة هامدة هو بذات نفسه المعلم «صفصف» صاحب القهوة الفرزة، الذى يلقى الرعب فى قلوب المدينة كلها.. فأيقنت أنه عائد لتوه من رحلة الليل اليومية مهدود الحيل من كثرة ما تكلم واتفق وتحاسب وسكر ونصب واحتال على نساء وبغايا ورجال من الحكومة وصبيان الباعة!..

هل تقتنى هذه المهرة المتعة يا «صفصف» وتنظر إلى غيرها؟ إنك إذن لدنىء طفس، فارغ العين، أعرف أنك طَول الليل تسكر وتعربد وتبرشم الكوكايين وتفعل فى نفسك البدع لكى تضاجع امرأة ساقطة أو راقصة من شارع محمد على، هاك الآن هذه المهرة يا بقف لا تكسر بخاطرها، كن قادرا عليها وحدها تدخل الجنة يا بقف، وحق سيدى عبد الرحيم القناوى لو أن عندى هذه ما نظرت إلى غيرها وبقيت طول العمر خادما مخلصا لهذه القبة الثمينة القائمة بين الفخدين تطلب الامتلاء فى الحلال إلى مالا

نهايـة، أما أنت يا «صفـصف»، يا صاحـب القهوة الغـرزة، يا من تتـشطر علينا جـميـعا وتذيـقنا العذاب ألوانا وتظـهر علينا قـوتك ورجولتك، فإنك الآن فى وضع لا تحسد عليه، آه لو رآك واحد من الزبائن وأنت كـالخـرقـة البالـية أمـام هذه المهـرة الوادعـة، التى اخترقت سخرنتها حائط الداروسيحتنى..

رأس «صـفـصف» ينعـوج على ذراع المرأة مـتـهدلا كـالفـرخ المذبوح... والمرأة الحورية تهزه من ذقنه بأصـابعها قائلة فى حنان لا مثيل له يا خال «صفـصف! الشاى أهه! اشرب الشاى!»... ولكن «صفصف» من يا بوى؟ إن «صفصف» ليس هنا وليس له ثمة من وجود.. والمرأة التعيسة تظل مسندة رأسه بذراعـها لبرهة طويلة، تنظر فيـها نحو السرير شـاردة حزينة يتطاير الشرر من عينـيها، لكنها لا تلبث حـتى تعود فتـهزه من ذقنه بأصابع كـأصابع الموز البلدى قـائلة بكثيـر من الرجـاء وقليل من اليأس: «الشـاى أهه يا صفصف! » اشرب الشاى بقى أحـسن دا برد خالص! اعدل نفسك بس!». ثم إنهـا عـدلتـه جـالـسـا، وأسندت رأسـه علـى المسند، واسـتـدارت لتجئ بكوب الشاى بين أصـابعها، فـما كادت تتـركة حتى تهاوى من جديد مستويا على الكنبة..

استدارت إليـه المرأة، تركت كوب الشاى، أنهضت الراقـد عدلته جالسا، ضاربة خديه بكفها فى مداعـبة خشنة حتى يفيق، صائحة بعصـبيـة: «صفـصف! ما تصـحى بقى تشرب الشـاى! إنت مش طلبت الشـاى؟ مـا تصحى بقى يا أخـى!». وهو يهمـهم مـبربشـا

برمشـيه قـائلا: «آه! طيب!» ثم لا يلبث حتى يغـلق عينيه ويكسر رقبته، الحـورية المسكينة أسندته على صـدرها جالسـة بجواره، وتناولت كـوب الشاى وقـربتـه منه، فإذا هو قـد هوى واسـتـوى ممددا على الكنبـة.. وإذا هى بكل غيظ.. وبكل قـوتها، تشـيع كوب الشاى إلى الحائط المواجه: طراً.. ا.. ا..خ.. فـجاء الكوب إلى ستين حـتة، وانحـدر الشاى سـائلا على الحائط، تتـصاعـد منه خيـوط الدخـان، ورمت بنفسـها فـوق السرير كـالذبيحـة الفطسى، فكاد السـرير ينفرط من شـدة الرجة، وإذا بى أصـيح من شدة الغـيظ دون أن أشعـر بنفسى: «اتفوه عـليك راجل مره!». وأما المرأة فـقد دارت وجهها بيديها وانخرطت فى البكاء والنحيب.

وصارت تشد فى شعرها وتخربش وجـهها بأظافرها فى غيظ كبير، وتنتحب، كل ذلك وصاحبنا يغط فى النوم حتى هيج غيظى، ولو كان مـعى مسدس لأفـرغت فى صدره كل رصـاصه انتقـاما لهذه الولية الغلبانة المحرومة من نسيم الدنيا يا بوى.

ربك والحق صعبت الولية على، وتمزق قلبى من أجـلها فحقدت عليها وعلى الناس كلها، وغرزت مـسمارى فى الحائط حتى ألمنى، ولم أكن أدرى أننى أخـذت أواسى الولـيـة قائـلا: «الله يكون فى عونك». فـإذا هى تنتفض قـاعدة على حيلهـا ناظرة نحوى ملقـية عينيـها فى عينى تشـهق ضاربة صدرها بكفـها، فلما رأتنى غـير خائف ورأسى كـاد ينحشـر بين أعواد الحديد، نزلـت عن السرير مقتـربة نحوى والغضب يطق الشـرار من عينيها، أول شئ فـعلته كان بصقة شيعتها إلى وجهى، فلم أتحرك من مكانى، فمدت يديها

بضلفتى الشباك لتغلقه، فمنعتها بأصابعى هامسا فى وجهها: «ما الداعى لكل هذا وليس يرانا الآن أحد سوى الله! وأنا شعرت نحوك بالحب وكل أملى أن أروقك آخر روقان! تعالى وأنا أطفئ نارك المشتعلة إن الله ساقنى الآن إليك لأطفئ لهيبك بدلا من هذه الجثة الهامدة!»..

كنت والله غير دار بنفسى، ولا كيف تفوهت بهذا الكلام، والذى كنت واثقا منه لحظتها أن خوفى من المعلم «صفصف» قد نزل إلى الصفر ولم يعد ذكر اسمه يرعبنى، ومع أنه لو سمعنى تلك اللحظة وأحس بوجودى، لقام ولحق بى وقطعنى إربا، فإننى كنت واثقا من أن الخمرة التى هو مغرم بشرب كل أنواعها كالسلاطة فى كاس واحد تكبس الآن على نافوخه كالجبل، ولن تحل عن صدره قبل ظهر اليوم التالى، وعموما فعلى سبيل الاحتياط فإن مطواتى قرن الغزال مبرومة فى دكة سروالى، ولا بأس من أن يكون السلاحان مشهرين معا أحدهما لك والآخر لهذه الجثة إذا تحركت.. هكذا قلت للحورية وهى تبحلق فى عينى المفنجلتين ـ بينى وبينك كان لى عينان ساحرتان فى شبابى ـ وكان من الواضح أنها بدأت تنسحر بعينى بعد كلامى، لكنها مدت ذراعيها فأمسكتا بضلفتى الشباك، فتلقفت يديها بيدى وقربتهما من فمى وصرت أنهال عليهما بالقبلات الساخنة حتى تراخت أعصاب المرأة وأشارت برأسها أن: لف من الباب، فانسحبت عن الشباك نحو الباب وقلبى فى مداسى، أكاد أفرمه ليفضحنى من الخوف. إذ

كنت على استعداد، لحظتها، لأن أطبق فى زمارة رقبه الأسد نفسه إذا حاول منعى من دخول الجنة هذه التى دعتنى الآن لولوجها بسماحة وهى على أحر من الجمر..

سمعت تكة خافتة خلف الباب انفتح بعدها ربع فتحة، فدفعت جسدى فى ظلام الفتحة وأغلقت الباب من ورائى فى رفق، وارتميت فى حضن المرأة شابطا فى خصرها بكل قوة، صرت أعضها فى كل مكان فى وجهها وأضغط عليها بكل عنفوان مجنون، إلى أن شبت النار فى عروقى، فادرت المرأة وكسرت ظهرها وسللت مسمارى ورفعت ذيل قميصها، ودككت الحصن المنيع دكا حاميا، نزلت عزقا فى عزق، فما يكاد سن الفأس يرفع قبضة من اللحم حتى ينسد مكانها، فأعود للطعن، ثم الطعن، ثم الطعن، والدم هربان منى يا خال، حتى سخسخت المرأة بين يدى وتهاوت كعود القصب المصموص، فما تركتها حتى نزفت روحى فوق صدرها، ثم استرحت يا خال، ولم أصدق أننى فعلت شيئا من هذا،بل كان مجرد حلم لذيذ. لكننى حين توجهت للباب خرج صوتى من تحت أكوام التراب يهمس للمرأة قائلا: «مبسوطة يا حرمة؟». هزت رأسها بابتسامة قائلة: «أراك كل يوم هنا فى ساعة كهذه؟». قلت: «يحصل لى البركة يا هانم». ووربت الباب فاندفعت خارجا أجرر ساقى وألم دماغى المبعثر النشوان، ولم يكن يدور برأسى أننى أبحث عن صحابى، لكنى فوجئت بأنى قد صرت قريبا من «قهوة صفصف» بابها نازل والنور ينبعث من تحته،

فعرفت أن بعض الزبائن ساهرين، فنقرت على الباب بأصابعي، فنظر الولد من خرم الباب وتعرف عليّ فرفع الباب قليلا، فانحنيت داخلا، لأجد الصحاب كلهم جالسين يندفعون صائحين: «كنت فين يا بو العم؟». جلست بينهم قائلا: «أحوجتني الضرورة للقرفصة ورفع الثياب في ظلام الخلاء». فضحكوا، وطلبت شايا وعشرة حجارة على حسابي.. وكان يخيل إلى أن أحدًا من صبيان «صفصف»، وربما «صفصف» نفسه لن يستطيع فتح عينيه في وجهي بعد الآن.

الثامنة ـ ليلة البلول السكر

بى آدم منا ليس أجبن منه في الدنيا والله يا بوى، وإلا فمن كان يتخيل أنني أكف عن الذهاب إلى غرفة «صفصف» حيث تنتظرني حورية سخنة شاربة من آبار العسل والسمن، في الأول قلت إنه الشيطان الرجيم والواجب على أن أفقأ عينيه وأطرده من دماغي إذا كنت أنوى الاستقامة والمشى في الحياة بالحد والمصلحة، وحقيقة الأمر يا بوى أنني كنت خائفا من جنون المعلم «صفصف»، الذى إن إمسكني متلبسا فمصيرى الموت تمزيقا بالمطواة ويضيع دمى هدرًا، وكلما فكرت في ذلك الذى حدث منى ترتعب روحي وتنكمش في صدرى ويرتجف بدني، ويجيئني اعتقاد بأن الذى فعل ذلك الفعل الجريْ شخص سواى لا أعرف منه شيئا، لكنني يابوى لا أقدر على دفع هذا الفكر عني، حتى تخايلت من شدة الخوف والارتعاش الدائمين أن «صفصف» قد بات يعرف كل شئ، وأنه يدبر لى تدبيرا حكيما ينهى به حياتي وحياة حرمته الفاجرة، فصرت والله أهرب من «قهوة صفصف». ولو كان الود ودى ما عتبتها قط، صار الخوف والرعب يهيآن لى

تصاوير عجيبة كلما نظرت في وجهه ـ وجه صفصف ـ إذ يخيل إلى أنه قرفان مني لا يطيق رؤيتي، لهذا لم أكن أترك عيني تقع في عينيه أبدًا.

إلى أن سحبني الولد «هندي» من ذراعي وانزوى بي في ركن من الحارة وقال: «يظهر أن المعلم صفصف زعلان منك! زعل خفيف يعني!». قلبي يا بوي وقع بين ساقي ضئيلا كعود من الحطب والله يا خال. بصقت في عبي من الرعدة، قلت: «خير يا رب! اللهم اجعله خيرا!». ضحك الملعون «هندي» وهددني بحركة من يده وقال: «المعلم صفصف كلمنا بالأمس عنك حينما ذهبت تفعل مثلما تفعل الناس!». جئت بصوتي من بين ساقي مهيضا وقلت: «ماذا قال يا بوي؟». قال «هندي»: «يقول إنه مندهش من نظرة في عينيك بدأت تظهر له وهي تشبه نظرة الإحتقار! كأنك من غير مؤاخذة لا تحترمه!». ثم ضحك «هندي» فضحكت أنا الآخر متنفسا الهواء، لكنني سمعت صوتا بصدري يقول: آه يا حسن هذه هي العلة والبلوى فماذا تفعل في عينيك؟! الأوفق لك ألا تجئ هذه القهوة وإن جئتها فلا تنظر في عيني «صفصف» أبدًا.

ليلتها كنا متواعدين على سرقة دكان «حاج لولي». وكانت العتلة المطلوبة موجودة تحت ثيابي تضايقني تمنعني من الجلوس والشرب براحتي، كنت أشتريها اليوم من وكالة البلح كما نصحني «غزولي». وكان طولها ذراعا، فلما انصرف «صفصف» إلى حال سبيله في أول السهرة.قلت: وعرفت أنه هو الذي يضايقني وليس

العتلة الحديد النعنشة ركبتني في الحال فصرت أضحك بصوت عال، على الفاضي والمليان، لكي أمنع دماغي من الوقوف عند الذي سنفعله الليلة بعد ساعة زمن، إذ كلما هوب دماغي نحوها ركبني الرعب يا خال، وتحول عود الحديد من مكانه إلى مكان آخر في جسدي لا يطيق مسمارًا علّه يطيق عتلة كهذه، صرت أتمنى أن نقوم ونعجل بالفعل حتى نخلص أو أتخلص أنا من عود الحديد اللاهب، لكن صوتا يشبه صوت أبي قال لي: اعقل يا ولد وخلّيك ثقيلا راسيا، إذ نزلت في بحر كهذا فلا ترمي بنفسك من الضيق في قلب الماء حتى لو كنت عالما بالسباحة، بل انتظر حتى يرسو بك القارب على شط، حتى ولو كان هذا القارب قطعة صغيرة من الخشب، لا تنزل إلا على بر، وفي الحال وجعتني نفس الزغدة التي كان يزغدها لي في جنبي كلما اضطررته للخروج عن صبره والإدلاء بنصيحة كبيرة كهذه، فاقشعر بدني، وانتفضت متوجعا، فضحك الأولاد كلهم من فزعتي هذه مع أنني غطيتها بـ، وحد الله، قالوا ساخرين إنني ـ قد اتضح الآن ـ أركب الهواء، فلأكن ما يقولون وما يشتهون فليس على الكلام جمارك، وكل واحد يقول ما يعجبه، «غزولي» قال للحاج «السني» ما يعجبه، والحاج «السني» يفعل ما يعجبه و «صفصف» كذلك يفعل ما يعجبه وحتى حوريته المصونة هي الأخرى تفعل ما يعجبها، فكيف لي يا بوي أن أحاسب أحدا على ما يقول أو يفعل؟! إذا كان أحد لا يحاسبنا على ما نفعل؟ أنا وهؤلاء الولد نفعل ما نفعل من شدة العوز، ومن غير

حيـاء تفعل حورية صفـصف المصونة، إذ ما أشـد عوزها لشئ لا يستطيـع المال أو الذهب أن يعطيه لهـا، أما الحاج «السنـى» فلماذا يفعل ما يفعل يا خال؟ هذا هو الوحـيد الذى يفعل ما يفعل لأنه لم يجد مـن يحاسبـه، لأن الذين فى يدهم أمـر الحساب لا يشـغلون أنفســهم إلا بنا يا خال، نحن الغلابـة الذين يحبســهم القانون بدلا من المجرمـين العتاة. العـدل فى بلدنا يضرب تعظيم سـلام للحاج «السنى» وأمثاله أما نحن فيضربوننا بالصرم القديمة على دماغنا وبالشلوت فى مـؤخراتنا ويبـصقـون فى وجوهنا، ألا قـاتلهم الله، اللهم أعم أبصـارهم عـنا وأنزل على سـمـعـهم وعلى أبصـارهم غشـاوة حتى نجـهز على رسمـال ذلك الرجل الأريب الذى ينصب عليك سبحانك ويؤكلك الأونطة بذقن وَزَبِيبـة صلاة كورقة الدمغة يستغفل بها الناس ويستلبهم.

نهض «غزولى» قـائلا: «بنا؟». نهضنا فى الحـال ونحن نقول: «ع الظالم». حاسـبنا القهوجى، وتسـرسبنا خارجـين واحدا وراء الآخر، حيث كانت العربة التى سـرقها «هندى» من جراج بعيد من مدينة نصـر، واقفة فى حارة أخـرى من حوارى الجيـارة المظلمة، كانت تشبه عربة الشرطة المسماة بالبوكس فورد الزرقاء..

يخـرب بيتـك يا هندى» يا ابن الكلب، كـيف عثـرت على عـين المرام؟ قـال: اركبـوا، وجلس إلى عجلة القـيادة وأدار المحـرك فى الحال فـإذا صوته هادئ وناعم فاسـترحنا لذلك وقلنا: كـفاك هذا اليوم يا «هـندى» لتقعـد ناعم البال ونقـوم نحن بكل شىء، ثم إن

العـربة خَرمت فى الحـوارى المظلمة على مـهل شديد، حـودت من أضيق الحودايات، بدربة وحكمـة لا يتأتيان إلا من «هندى» شارب الحشـيش البريمو والأفـيون الصافى، ولقـد تمكن من ركن العربة أمام الدكان مباشرة، فسد الشارع وصنع دورة للفاعلين.

نط «غزولى» على الأرض فلم نسـمع له صوتا، فقـفزت وراءه، وهبط إلى الأرض قاعـدا على قرافيـصه، سرب سن الـعتلة المبطط المدبب وحشره بيـن الجدار ،والضلع الخشبى للبـاب، وظل يحشر ويحشر ويفرز الخشب، إلى أن دخلت العـتلة حتى ربعها، ثم عدل نفسه مثـبتا مؤخرته فى الأرض جاذبا العتـلة نحو صدره بكل ما فيـه من قوة، وصـوت الخشـب يطقطق، والضلع يسفـسف ترابا كثيرا، حتـى نجح «غزولى» فى فصل الضلـع عن الجدار من هذه الناحية، فانتقل إلى الناحيـة الأخرى وفعل نفس الفعل وحقق نفس النجاح، فأعجبنى هذا الولد يا بوى ثم إنه صدَّر العتلة بالطول فيما بين الجدار والضلع، فـارتفـع البـاب كله بضلعـه مـوسـعـا من الناحيتين حـارة يُزْرق منها رجل بكل سـهولة، وكنت قـد خلعت هدومى وسرت بالفانلة والسروال، وكان «بربش» هو الآخر لابسا مريلة زرقاء.

زرقنا داخلا يا خال، وبعدها بسملت مسـتعيذا بالله من الظلمة الكابى كنت أعرف مكان زر النور، فزحفت متـحسسا جسد الظلام حتى أدركته فلمسته فانبعث الضياء ووضح كل شئ. فـسحب «غزولى» العتلة تاركا الباب يهـبط على صدغه، صعد «بربش» فى

الحال إلى سطح البنك فنزل أمام الحصالة فانتزع من جيب سحرى فى العفريتة مطواة أخذ يعكرش بها فى درج الحصالة حتى فتحه ووقف يرقص وينظر متلصصا حتى خبلنى، فقفزت إلى جواره ونظرت، فهالنى منظر النقود يا بوى، بسرعة أخرجت منديلى المحلاوى، فردته على البنك، صرت أغترف الرزم المؤستكة وأرص على المنديل أكواما أكواما، حتى عقدت أطرافه بصعوبة شديدة، وجعلت أحشر الباقى فى كل جيوبى، ثم إننى قفزت نحو الباب، فدفعته بيدى، وسربت المنديل إلى «غزولى» فجذبه، بسرعة شديدة، أشار لى «بربش» على جوال فارغ، امسكته فتحته، صرنا نقذف فيه بكل علب السجائر والدخان والشاى والصابون الفاخر والسردين والسلمون والبولوبيف وكل ما على الرفوف من علب وصناديق أفرغناه فى عدة أجولة، حتى خلت الرفوف تماما وظهرت الحائط كمنديل محلاوى لم يتوسخ إلا فى خطوط هذه المربعات الغامقة، صرت أعقد الأجولة وأسربها من تحت الباب فيتلقفها «غزولى» ويرصها فى صندوق العربة بدون صوت، استدرنا إلى صنف من العلب الكرتونية المبرشمة بورق لاصق سميك، اخترقنا بعضها بسن المطواة فوجدناها تحوى قمر الدين والتين والزبيب.. فصار «بربش» يقذف لى بالواحدة فأسربها بحذر من تحت عقب الباب لـ «غزولى»، فيرمى بها لـ «هندى» الذى يرصها فى أرض العربة، هكذا حتى أتينا على تلال كبيرة نقلت بكاملها إلى العربة، تعثرنا فى حارة من الصفائح الكبيرة

مرتصة بجانب وفوق بعضها، كنت أعرف أنها سمن وجبن وزيتون، كانت أكثر من أربعين صفيحة حولناها كلها إلى العربة، ثم إننا استدرنا إلى صنف من الأجولة المفتوحة تمتلئ بسكر وعدس وأرز ومكرونة وفاصوليا وبازلاء، وأخرى تمتلئ بأصناف العطارة من فلفل وكمون وشيح وحناء، كل هذا صُعب علينا أن نتركه، فصرنا نحزم الجوال ونعقده ونسربه، إلى أن فرغ الدكان إلا من براميل زيت كبيرة لا نستطيع حملها أو دحرجتها من الباب، بعد ذلك دفعت الباب وخرجت، ومن ورائى، «بربش»، الذى حرص على أن يطفئ النور. كانت العربة دائرة، فتمددت فوق البضاعة وانطلقت العربة تشق طريقها كالثعبان إلى أن خرجت من الحوارى واتخذت الطريق الطوالى نحو شادر الحاج السنى.

حاجة تهوس يا بوى. الحاج السنى ثانية؟! الحديد وقلنا يقدر على تسويقه، فكيف يقدر على تسويق هذه التشكيلة العجيبة من البضائع؟! فلما رأيت من حولى أشباها كثيرة لها قلت لنفسى. لا تستغرب يا ولد، وانبريت أرفع البضاعة وأرصها على الأرض، يشاركنى «غزولى» و«هندى» و«بربش» كلهم ملهوجين، عيونهم لائذة بجيوبى، وعيوننا كلنا لائذة بصرة المنديل البارزة فى عب «غزولى». فلما فرغنا نظرنا فى الحمولة فوجدناها سمينة يا بوى، فابتسمت عيوننا لبعضها البعض، ونظر «غزولى» إلى «هندى»، وقال: «أنت وبربش تتخلصان من العربة، ورسم لهما طريقة التخلص منها: «هندى» يركب العربة ويمضى يتلكأ بها فى

الطريق، حتى ينجح «بربش» فى إيقاف عربة أجرة خالية من الزبائن، فيركبها قائلا للسائق: علَى طول يا أسطى، فيمضى السائق فى نفس الطريق، ويظل سائق الأجرة ماضيا طالما عربة «هندى» ماضية، إلى أن يجد «هندى» حارة مناسبة فى حى بعيد فيركن العربة فيها بكل عناية وينزل منها ويغلقها ثم يمضى لحال سبيله كأنه صاحبها سيعود ليركبها بعد قليل، فى هذه الأثناء تكون العربة الأجرة قد وصلت بالقرب من هذه الحارة، ويطلب «بربش» من السائق أن ينتظر برهة حتى يتأكد من عنوان، ويستخرج من جيبه ورقة فيقرؤها وينزل فينظر فى أرقام بعض البيوت ويترقب أى شخص ليسأله عن أى عنوان وهمى، حتى يكون «هندى» قد خرج من الحارة ماشيا على قدميه فيتقدم منه «بربش» ليسأله عن العنوان الوهمى فيخبره «هندى» أن العنوان فيه خطأ، ثم يتركه ويسأل سائق الأجرة إن كان يوصله لمصر عتيقة، فيقول له «بربش» أن طريقه العودة إلى مصر عتيقة، ويرجعان معا.

تحلف اليمين يا بوى أن هذا كله تم فى ثلث ساعة زمن مادخنا سيجارتين، وكان «غزولى» صاحيا فلم يدعنى أفلت من بين يديه برهة واحدة، وكنت صاحيا للمنديل فى عبه فلم تفلت حركة يديه من عينى برهة واحدة وكنت لا أدعه يضع يده فى جيبه قط إلا وراقبت حركتها، فلما وصل كل من «هندى» و«بربش» اقتربا منا قائلين فى نفس واحد: ما الحال؟ تذكرنا أننا أرسلنا خفير الشادر

ينادى الحاج السنى من لحظة وصولنا فذهب ولم يعد، فقال «هندى» متفاخرا: «ذهبنا إلى روض الفرج وعدنا وذهب المرسال مسافة خطوتين فلم يعد!».. فإذا بصوت الخفير يدهمنا من خلف ظهورنا: «ومن أدراك أنى لم أعد يا بقف؟!». ما هذا يا بوى؟ نظرنا خلفنا بعد أن بصقنا فى عبنا من الرعب، صحنا: «كيف هذا يا بوالعم؟ ذهبت تنادى الحاج فعدت فى السر ولم ترد علينا؟!». وكان حضرته جالسا على باب خُصه فى الظلام يرقبنا ويرانا دون أن نراه، ثم إنه ما صدق أن كشف عن نفسه حتى أشعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها ببرود ساخر، «تظنون أننى طول هذا الوقت عند الحاج؟! إن عدوكم أهبل! إننى لا أعطى ظهرى لواحد يدخل هنا ولو كانت زبيبة الصلاة فى جبينه أطول من لحيته! هل يتصور عدوكم الأهبل أننى أترككم أنتم بالذات كل هذا الوقت وحدكم! وأنا أعرف من أنتم؟!..

ثم انفجر ضاحكا كقصف الرعود، ومسح على شواربه الطويلة آثار الضحك وقال: «لا تنتظروا الحاج قبل صلاة الفجر! فإنه وهو قائم يصلى يلاقيكم فى الطريق! وسوف يمهلكم بالطبع حتى يصلى فى جامع عمرو ابن العاص ويعود!». وجدنا كلامه صحيحا فجلسنا فوق الصفائح والأجولة نتسلى بأكل الزبيب وقمر الدين والتين المجفف حتى صاح الخفير: «أما تبعثوا شيئا مما تأكلون؟». فقال «غزولى» ملوحا بيده: « ما خدمتنا خدمة تستحق عليها شيئا». وقال «بربش» ليكسبه: « وأنت أما تستطيع المجئ لتأكل

مـعنا؟»، فانبـرى «هندى» يسـأل الخفـير :«لديك رغـفان؟». قـال: «عندى». قلنا جـمـيـعا: «هاتهـا وتعـال». وزحـزح «هندى» بعض الصفـائح وانتقى واحـدة مفتـوحة وقـال: «هات معك طبـقا» أتى الخفيـر من داخل الخص بطبق كبير من الالومنيـوم وأربع رغفان كبيرة بعرض المطرحة مما تخبزه زوجـه الصعيدية فى فرن تقيمه لها خلف الشـادر من ناحية المقابـر، تخبزه لا لتاكله فـحسب، بل لتبيعه للفواعلية الصعايدة والأفندية الذين يحششون فى غرز بين المقابر.

فتح «هندى» صـحيفـة ودب يده فيها فـأخرجهـا بخرطة جبن تزيد عن أقة، وضـعها فى الطبق، وفـتح صفيـحة أخرى فـأخرج حفانا كبيرا من الزيتـون الأسود، دلقه فى الطبق فوق قطعة الجبن قائلا: باسم الله كان منظر الجبن لامعا براقا وطعمه سائغا، فأكلنا خرطتين كبيرتين وجعبة زيتون وستة أرغفة، وكافأنا الخفير على أرغـفتـه ببقـية صـحيـفة الجبن المـفتـوحة فكاد يجن من الفـرح والدهشة، لم يصدقنا إلا بعد أن تاواها فى خصه وعاد.

أعوذ بالله من قـولة أنا معجب بمنظر الفـرحة إعجـابى بالفرح نفـسه، أى والله يا بـوى، إن الفرح عندى هو منـظر الفرحـة على وجه أحـد من الناس لا سيما إذا كنت أنـا الذى تسبب فيهـا، فلما رأيت الفـرحة بصـفيحـة الجبن كبـيرة علـى وجه الخفـير اللئيم وعرفت أنه سيبقى شهرا بطولة لا يشترى جبنا من الدكان فرحت لفرحته وجئت بـالعلب الكرتونية المفتوحة وجسستـها فوجدت ما

فيهـا قليلا، ففرطت كـل ما كان فيهـا من زبيب وتين ومشمـشية وقمر الدين، فـملأ علبة واحدة لتـمها ، فأعطيتها للخفـير قائلا له على سـبيل التـفكة: «إملأ لنا سلـطانية من بلولهـا!». فاحـتضنهـا الخفـير، وبقفـزة واحدة صار فى الخص، بعـدها سمـعنا عكرشة داخل الخص، أدركنا منها أنه يخفى هذه الغنيمة حتى يوزعها على أولاده بالعدل والقسطاس، وقال «غـزولى» فى تريقة نواتها صدق حقيقى: «طول عمرك لم تذق الياميش يا سنطاوى! فادع للذين بلوا ريقك به!»..

ظهر «سنطاوى» الخفير ممسكا بحلة صغـيرة، والبندقية معلقة فى كـتفـه، وهو مـحنى القـامة، يقـول : «يا مـيش يعنى إيه يا بو العم؟!».

ضحكنا يا بوى، شخرنا رغما عنا، فانزعج «سنطاوى» وسحب بندقية علينا صائحا: «الدار فيها حريم يا ولد الفرطوس! فأحتشم أنت وهو!». ثم أرجع البندقية إلى كتفه، وعاد يسأل : «يا ميش إيه اللى كنت هـمتـقول عليـه ده يا بو العم؟!». فقـال «هندى»: «يعنى الزبيب والقمر الدين والتين والخـير اللى انت رقعته دلوقت».. رفع الخفير أنفه ومسح شـاربيه وصاح فى استكشاف: «هـا..آ..ه.. بقى كده يـا بوى.. اسمـه يا ميش طب عـال.. آدى كلمة جـديدة أتمقلت بيها على الولية اللى فاكرانى مـا عفهمش!». وصار يؤتى بحركات راقصة علامـة على فرحه واغتباطه، فلمـا ترقص شعرنا أن الحلة الملآنة فى يديه وهو يهزها ويبـرمها فى الهواء، وصوت خـشخشة

ورقرقة ينبعث منهـا، ثم أقتـرب، فظهر أن الحلة مـلآنة بالزبيب والقمر الدين لتمها، وهو يفرك فيـها بملعقة كبيرة ثم يذوق شفطة صغيـرة ويتلمظ مرقصـا شاربيه، وسلم الحلة والملعقـة لي قائلا: «خذ نصيبك وكلك نظر!». فأمسكت بالحلة والملعقة وصرت أطوح فى فمى زبيبا وتينا، ورأيت المعلقة لا تسعفنى فى الشرب فرفعت الحلة إلى فـمى وشفطت نفسين مـضبـوطين ثم سلمت الحلة لـ «غزولى»، ففعل مثلما فـعلت، وسلمها لـ «هندى»، ففعل هو الآخر ثم سلمها لـ «بربش» فأتى على ما فـيها فى شفطتين، وهنا صاح الخفير فى ذعر، «مانابى»، شوح له: «مـا تبقاش طماع!» فاختطف الخفير الحلة بغيظ، وغاب فى الخص يعكرش، فبان أنه بيل لنفسه كميـة أخرى، وفـعلا يا بوى، ظهـر ممسكا بالحلة يديرها ليـذيب سكرها وهو واقف علـى باب الخص علامـة أنه سـينفـرد بالحلة وحده، وصـار يشفط ويمـضغ قائلا فـى غبطة: «قـبل ما العـيال يصحـوا وأروح بلاش». قال «بربش» للخفـير وهو مستـغرب من فـجعتـه: «الحاج السنـى لم يؤكلك حاجـات من هذه أبدا؟!. قـال الخفير وقد نضحت فى صوته فـرشة صدق: «عمره ما فعلها رغم اننى أشتـريتهـا له من الدكان كـما أشتـرى خضار السـلاطة فى رمضـان! أخرطهـا وأضعـها مع البلول فى المشربية لحـين أذان المغرب! فلا يفكر المديوب فى أن يرسل لنا مـا تبقى منه! تعرف يا بوالعم؟ مرة أحببت أن أقلده فاشتريت خضار سـلاطة وخرطتها وحضرتهـا لنفسى! وحين صلى هو المغرب فى عـمرو بن العاص

وجاء يجرى! فات من أمـامى ونحن نفطر أمام الخص فاندهش يا بو العم من طبق السـلاطة! وبعد أن مـضى خطوة رجع ونظر فى طبق السـلاطة وفى عينيـه نار تقول لى: من أين لك بهـذا الطبق؟ لابد أنك سرقته أو سمسرته من البـضاعة وأنت تشتريها! المهم يا بو العم حـرمت من يومهـا أن أشتـرى له شيـئا أو أخـرط شيـئا! اكتـفيـت بالخفـارة وحدها!!». علّق «هندى» قـائلا: «هو بصراحـة رجل لا يسـتحـق البل! ربما استـحق التـخـريط!». قال «غـزولى» مشـعلا سيـجارة: «لاوذقنة وشواربه مـثل الجرجيـر تبقى حلوة تفـتح النفس للأكل!». رمى الخـفـيـر بالحلة على طول ذراعـه فى الخص وشـوح بقـرف: « يا بوى هو رجل طعـمـه مـزز يصـد النفس!». واقترب نحـونا مهرولا: «هاتوا سيـجارة». لا أعرف لماذا أسرعت يدى فأخـرجت له علبة سجائر وينجـز كبيرة أعطيـتها له قائلا: «حلال عليك يا عما». فاحـتج «غزولى» صائحا ولكن بمزاح: «وهذا ليس مال أبيك تفنجر منه!». وقـال «بربش»مقلدا الصعايده: «اللى يفندر يفندر من جيبه». فصـاح الخفير وهو يدس العلبة فى جـيب البـالطو المترهل كالجـوال: «ربنا يجـعل جيـوب المؤمنين عمارًا!». ثـم تدقلج حتى الخص، فتقـرفص على بابه وصار يدخن فى استمتاع.

الفجـر قال: الله أكبـر، وسمعنا ترباس البـوابة من الداخل يتك بشدة، وصـوت باب صغيـر فى وسطها ينفـتح ويدلف منه الحاج السنى كشبح أبيض فى أبيض، تتدلى من يده مسبحة طويلة، وهو

يبسـمل ويحوقل إلى أن حـاذانا فلم تبـد عليه الدهشـة من وجود ناس غرباء فى شادره وأمام بوابة داره، بل اكـتفى بأن فات رافعا كفـه بحـذاء أذنه قائلا: السـلام عليكم، ومضى غـير عـابئ بردنا عليه..

دخل الصـبح علينا من خلل مشـمع السرادق عـند كبسولات الحبال المربوطة، وظهرت من الباب عباءته الزرقاء الغامقة المبيضة قليلا، وظهرت من بعيد أصوات أقـدام وهمهمة المصلين الخارجين من جامع عمرو بن العاص، سمعنا صوت الحاج السنى فى الخلاء يتكلم مع بعـض الناس فى أمور الـدين والمواعظ وختـام الصـلاة وكيف تكون،فحسدته والله على طول باله، وخفت أن يجره الكلام فيأتى معه بأحد يرانا على هذا الوضع فتكون بداية الفضيحة لكنه أخيرا دخل يبسـمل فلما اقترب منا قال: «صـباح الخير يا أولاد!». ثم أخذ يجس العلب الكرتونية والصفائح والأجولة، بسرعة أمسك «غزولى» بالجوال الـكبير ودلق ما فيـه فوق الأرض، ونقض علب السـجائـر كلها فكومـتـهـا على جنب قـائلا: «هذه لنا سنفـرقهـا علينا!».وأزاح بقية محتـويات الجوال نحو الحاج السنى، الذى مال عليها وفحصها فحصا جيدا، ثم عاد ففتح كل الاجولة، وفحص ما فيـها، ثم سـمى بالله الرحمن الرحيم وأخرج من سيـالته دفـترا مطويا بالطول، نـزع من قلبه الـقلم الكوبيـا، واتجه نحـو الميـزان المتربع قرب بوابة الدار، تبعناه نجرجر الأجولة والصفائح والعلب ونضعها على طبلية الميزان، والحاج يزن ويدون فى الدفتر، ويضع

أمام الأرقـام أرقاما وعـلامات، ويطرح ويجمع ويضـرب ويقسم، وفى النهاية قـال: «هذه البيعـة كلها فى رقاب بعـضها بثـلاثمائة جنيه ولا مليم فـوقها! وأنا ونصيـبى فيهـا! فإنها بضاعـة خاملة تمكث شهورا طويلـة! يعنى أن الثلاثمائة الجنيه فى جـيبى أحسن من بضـاعـتكم هذه فى مكتـبى! لـكننى وحق صـلاتى لا أريد أن أكسفكم لكن قولوا لى من أين جئتم بهـا؟!». فقال «غزولى» كلاما متناثرا مـعناه أن هذه البضاعة تخص جـماعة من البمـبوطية ممن أصدقائه وقد قصدوه فى بيعهـا لحسابهم وهنا قال الحاج: «طبعا هم يسرقونهـا من السفن العابرة أو الواقفـة!». قال «غزولى»: «لا وأنت الصـادق هم يأخـذونها عـلى سبـيل الهـبـات من أصحـاب المراكب، بالمراكب المحملة بالتمـر تعطى تمرا! والمحملة بالبـصل تعطى بصـلا! وكلهـا تعطى علب السـجـائر! وهم يجـمعـون هذه الهبات إلى أن تصـبح كميات صـالحة للبيع فيكلفـون واحدًا مثلى ببيعها!».

كانـت فى عينى الحـاج السنى نظرة بعيـدة الغور تقـول بالفم المليان أن كلام «غـزولى» المسوى هذا رغم مـعقـوليتـه لم يدخل دماغه ولم يـاكل منه بمليم. ومع ذلك قـال: «على بركـة الله! على بركة الله!». كذلك كانت عين «غزولى» تقول بالمفتشر إنه يعرف أن الحـاج «السنى» لم يصـدق من كلامـه حرفـا، ومع ذلك رد عليـه قـائلا: «كله من فضل الله! كلـه من فضل الله!». كـدنا ننفجـر من الضحك يا بوى، لأن «غـزولى» لحظتهـا كان يتكلم بصوت وهيئة

الناس الأتقياء الذين لابد أن تصدقهم، حتى أن الحاج «السنى» نظر إليه من تحت نظرة مذهولة متشككة، فسرّها العبد لله!». بأن الحاج كاد يصدق «غزولى» فحدثت له هذه الهزة إلا أن الحاج طوى نظرته وأخرج من سياله رزمة النقود المطوية، فتحها بين أصابعه وصار يعد العشرات المجمدة حتى عد ثلاثين منها طواها وقدمها لـ «غزولى» وهو يتناول النقود: «كام دول؟». فقال الحاج وهو يمضى خطوة ثم يتوقف: «أنا ما ابغى وجع الدماغ! هذا هو الجمل وهذا هو الجمال! لا تضيعوا النوم من عينى!». قال «بربش» وهو يشير إلينا بالنهوض للانصراف: «خلاص! نعوضها فى بيعة أخرى! ليلتك فل يا حاج!».

مضينا نترنح فى الطريق مثل السكارى، وكانت علب السجائر مصرورة فى خرقة قديمة استلفناها من «سنطاوى» الخفير، قال «هندى» فى حسم:«نذهب إلى بيتى»، لم نرد، لكننا حودنا تلقائيا نحو بيته، تلك الحجرة الكائنة فى حارة من الحوارى المزنوقة تحت بوابة من بوابات مجرى العيون، افترشنا الأرض يا خال، ونفض كل منا جيوبه يا خال: بربش وغزولى وأنا.. فإذا أمامنا كومة من النقود كأننا البنك الأهلى، أحصيناها فوجدنا ثلاثة آلاف جنيه ومائتين، نحينا المائتين جانبا ووزعنا الباقى علينا بالعدل والقسطاط، وكذا فعلنا بالسجائر، وبقينا مسندين ظهورنا للحائط كالملوك الأكاسرة، وقالْ «غزولى» وهو يطوى المائتى الجنيه الباقية: «هذه لابد أن نفنطز بها اليوم فهيا نبدأ بالإفطار». قلنا:

«وجب»، وقمنا فنزلنا وقد نفى النوم من دماغنا وتفنجلت عيوننا بالفوقان، وكانت الشمس فى انتظارنا حمراء ذهبية وشكلها غاضب ونحن غير قادرين على النظر فيها، فمشينا حتى باب اللوق، أفطرنا فولا وطعمية عند الدمياطى، ثم عدنا إلى قهوة، «صفصف»، حيث طرقعنا حوالى مائتى حجر، وكانت الظهيرة قد عمت الكون فقال «غزولى»: «ما رأيكم الآن فى الغداء كبابا عند أبى شقرة؟». قلنا: «مثل الناس الطيبين؟». قال: «نعم!». قلنا: «إلى هناك نسير حالا!». كنا أول من دخل المحل يومها، فحالا جاءت السلاطات التى قلبك يحبها، وانزل يا ولد حتتك بتتك، كل منا رقع كليو كباب وكفته وحمدنا الله على ذلك، وكل ذلك لم يتكلف أكثر من خمسين جنيها عشنا بها بكوات وباشوات لمدة خمس ساعات.

قلت لـ «غزولى»: «كفانا هذا ووزع بقية المبلغ علينا بالتساوى». فقال «بربش»: «يستحسن! إذا إننا لابد أن نختفى من المنطقة كلها شهرا على الأقل لانظهر مجتمعين أبدا!». قال «بسبوسة» ملوحا بكفه المتخشبة: «أنا مسافر إلى دمياط غدا لشراء جهاز عروسة!» قلنا جميعا: «لمن يا بسبوسة؟!». قال باسما: «لى!». صحنا فيه باحتجاج «أنت متزوج منذ مدة يا ولد! تتزوج ثانية؟!». قال محتجا على احتجاجنا:» «ما غلطت يا أسيادنا! العروس هى زوجتى بعينها! بنت الناس تزوجتها على حصيرة وكانت راضية! فيكرمنا الله ونقل أصلنا معها؟ حلفت ألا أجهز لها

عفـشـها إلا من دميـاط مثل بنات الناس الأكابر!». شـوحنا قائلين: «حلال عليك يا عم!». وقال «بربش» كأنه يكلم نفسه: سأسافر غدا إلى الإسكندرية يومـين أو ثلاثة». قـال «غزولى» كـأنه يرد عليـه وحده:«وأنا سأدخـل زوجتى مستشـفى الدمرداش لتجرى عـملية من أجل الخلفـة عـسى أن يكرمنـا الله بولد أو حـتى بنت تحـفظ نسلنا!». قلت: «معك الآن مـبلغ ينفعك فى العمليـة آخر فل!». قال: «إنه من حـسن حظ الوليـة الغلبـانة! ربنا أكـرمنا بهـذه الشـغلة! ولولاها ما حلمت الولية بإجراء هذه العـملية أبدا!». ـ وكان صوته فى منتـهى الطيـبـة والله يا بوى، ثم إنه وزع المبلغ البـاقى علينا وانصرف لا تسـعه الدنيـا من الفرح، فدعـونا له بنجاح العـملية، وانصرف «بسبوسة» هو الآخر، فدعونا له بجهاز مستريح الثمن، ثم انصرف «بربـش» فدعونا له ببـحـر معـتدل الجـو وسر هادئ المزاج، بقـيت أنا و«هندى» واقفـين. قال «هندى» إن النوم كـابس عليـه بشدة ولهـذا سيـذهب لينام. فـقلت إننى ذاهب إلى مشـوار بسيط وسـوف ألحق به، ومضيت إلى مكـتب البريد لأرسل لأمى أكبر حـوالة بريدية تتلقاها فى حياتها. كنت أمـشى منفوخ الصدر أطير طيرانا، فما أن وصلت مكتب البريد يا بوى حتى رأيت رجلى تلفان على بعضـهما من دوار الخوف، تحلف اليمـين أننى عجزت عن مـد القـدم من الأرض إلى رصـيف المكـتب، بعـيـدا عنك وعن السامعـين حصل لى ما يحصل لـلمشلول قبل أن يصيـبه المذكور والعياذ بالله بدقيقة واحدة..

رَنَّ فى دمـاغى صـوت يائس حران يقـول: « بس! وقـعت فى غضب الله يا حلو! وها هوذا يرزؤك فى جسدك عقابا سريعا على ما فعلت!». وسمـعتنى أرد على هذا الصوت بقولى: «لا إله إلا الله محـمد رسول الله! نذرا علىّ والله يا رب إن رأفـت اللحظة بحالى ولطفت بى وبأمى لتكونن الفعلة الأخيـرة فى حياتى وبعدها يحق لى أن أطلب رضاك ومغفرتك باقى عمرى!».

سنى وقتـها لم يكن سن الشلـل يا بوى، ولكن السهـر والتعب والحشيش والخوف وأقسـام الشرطة وقلة النوم كل ذلك يعطل ما كينة الجسد ولـو كانت جديدة بشمعها وورق بيـاعها كل شىء له حدود يا بوى، وكل مرينة لـها حمولتهـا، ركنت رأسى على شباك مكاتب البريد حتـى همدت الدوخة واضمحلت وعـادت مكنة الجسد المعطل من جـديد، ويظهر أن رايشا فى معدتـى أو فى دماغى كان يسد منافذ الماكينة، ويعطل سيرها، وقد انزاح بعـون الله وفضله، النفس أمـارة بالسوء يا بوى، فـبدى التى تنقطع هـذه، لم يهمـها الدوخة التى كانت فـيها منذ برهة، فاسـتندت وأشعلت سيـجارة فى فمى الظـامئ أدوخ ثانية، لكنها دوخـة لذيذة، وسرعان مـا تنبهت فتبين لى، بجوار رصـيف المكتب، ولد يقيم نصـبة شاى وقـهوة، فناديت عليه وركنت إليـه مستظرفا مكانه الفسـيح تحت ظل شجرة عتيقـة، على كرسى من القش جلسـت واضعا رجـلا على رجل وطلبت فنجان قهـوة على الريحة، من رائحة القهـوة والولد يدلقها من الكنكة فى الفنجان بدأ الفـوران؛ فما أتممت شـربه حتى صرت

في الروقان الشديد؛ واستمعت لصوت يشبه صوت أبي يرن في دماغي قائلا: «حوالة ماذا يا عبيط يا أهطل هذه التي جئت ترسلها لأمك في الغنايم في كوم سعيد؟! ألا تعرف يا خائب يا صاحب النوائب أن مبلغا كهذا مع ولد شكله شكلك لابد أن يبحلق فيه الناس؛ فتصير هدفا للبحلقة حتى تتعرى من ثيابك فتنكشف عوراتك؟! وكيف بأمك،هل تراها تقدر على استلام مبلغ كهذا من طواف البريد؟! سوف يتعين عليها أن تسافر لتقبض المبلغ! حقا إن الصعيدي إن تمدن يجيء لأهله ببلوى؛ وأنت الآن تسعى لوضع يديك في الحديد!».

رددت عليه بسحائب من دخان السيجارة قائلا: «ولكنني لا أقدر أن أمضي بهذا المبلغ في هذه المدينة يا بو العم! إنني أعرفها إنها مدينة كافرة فاجرة! والدليل على ذلك كثرة الجوامع في كل حارة وكثرة الحجاج وراء لافتات الدكاكين العامرة! لو ضبطوا المبلغ معي أساق أنا للشنق بتهم ارتكبها مئات الحجاج ومئات الأفندية ممن بيدهم مفاتيح الخازن وأدراج الأوراق وأبواب المصالح!»..

رَنَّ الصوت من جديد في جدران دماغي، تحلف اليمين يا بوى تقول إنني تصدعت من رنته، التي صدمتني ضاحكة ساخرة: «ومن قال لك أن تمضي هنا يا ابن اللبؤة؟! ما الذي يقعدك هنا بالنقود وبينك وبين النجاة بها سبع ساعات سفر لا غير في قطار الصعيد؟!»..

هنا يا خال. تمطعت ناهضا عن نفسي الكسل؛ قلت: «معك حق الله يا هذا»؛ وحاسبت الولد على ثمن القهوة وفاصلته في القرش المليم؛ ليس بخلا والله يا خال؛ ولكن نكاية في ولد بلدنا السابقين الأغبياء الذين ظهرت سرقاتهم الكبيرة من غباوتهم في المصاريف الكبيرة في محلات اللهو واستصغار شأن النقود أمام الباعة وأهل الحرف. أما النقود الكبيرة فكانت مربوطة في حزام حول وسطي، وليس في جيبي سوى بضع ورقات بعشرات صاغ لزوم الصرف والمهيصة والفنطزة إلى أن يأذن الله برزق جديد؛ وحتى هذه الورقات مع بضع جنيهات وأنصاف جنيهات وأرباعها كانت مخبأة. مصرورة في منديل مربوط حول زندي تحت الثياب؛ وأبقيت لنفسي حرية التصرف في بضع شلنات؛ وأنصاف فرنكات من الفضة المصلمة.

رميت نفسي للريح؛ جرجرتني حتى أوصلتني حجرة «هندي» فضربت زر جرس على الباب في الشارع، فنظر «هندي» خلسة من وراء شيش الشباك: «سأرمي لك المفتاح وتدخل» صحت به قائلا: «لا تقفل! فأنا سأخطف رجلي إلى البلد! وسأعود بمشيئة الله بعد يومين بالكثير ثلاثة!» قال: «تعود بالسلامة». ثم لوح بيده واختفى من الشباك؛ فاندفعت بين الحواري الملتوية كالفار في شق طويل متعرج؛ فما صدقت بأني قد امتلكت الشارع العمومي حتى شبطت في سيارة أوصلتني إلى محطة الجيزة؛ لأركب منها إلى محطة «صدفا» على خط أسيوط، لأكون مع طلعة الشمس في كوم سعيد بالغنايم.

ورقة الناسك: تسعة الأولة ـ ع الأصل دور

الناس أجناس يا خال؛ ومن كانت أمه داعية له فى ليلة القدر، يكرمه الله بصحاب من جنس أصله طيب..

وبفضل دعاء الوالدين يا بوى عوضنى الله خيرا فى «هليّل» صاحبى، وبالاكثر بعد أن تزوج أبوه «يوسف النجار» بشقيقتى «هندية»، تحلف اليمين يا بوى أننى ما وجدت لى فى البلدة أهلا سواه؛ فدارنا مهدودة من يوم ما حلت ببلدتنا غضبة عائلة المشير؛ ودور أعمامى قد باتت لا تستقبل إلا أولاد المدارس والمعهد والأزهر الذين هم أنداد وزملاء لأولادهم وهم فى الأصل ـ أعمامى وولدانهم ـ لا يسألون عنى ولا يتذكرون أننى من دمهم، أنا الآخر ألهتنى الحياة فلم أتعجب فلم أسأل، ولم أسأل فلم أتعجب. وأمى راكنة فى دار «خرابة» ضيفة معززة مكرمة.. فإلى من أذهب؟! ..

ذهبت بالطبع إلى أمى، ففرحت بحضورى كما فرحت زوجة «خرابة»، وأكدت لى أن أمى مستريحة فى دارهم، وأنها لن تبارحها حتى لو بنينا دارنا من جديد. وآه! كيف الكلام ذا يا بوى؟

قالت الولية: «مسكينة أمك يا حسن يا خوى! فمن يخدمها فى داركم وهى لوحدها؟!». قلت ضاحكا: «فهل يا ترى نترك الدار هدمها ونستريح؟!» .صاحت هى وأمى معا: «فال الله ولا فالك الدار مالها ولبقاء أمك هنا؟!» . قلت: «هل أبنيها إذن!». قالت أمى بفرحة طاغية: «طبعا يا ولدى! إن أعطاك الله فابنها اليوم قبل الغداء» . قلت باسما من النشوة: «حاضر يا أم! سوف أبنى فى الحال!». وقدموا لى لقمة سريعة طرية فأكلتها جبران خاطر، وشربت الشاى وقمت. «أين تروح يا ولد؟» قالت أمى: «تبيت فى غرفة الولاد معهم طالما أنت هنا» وقالت زوجة خرابة ذلك أيضا. قلت: «لا .. أنا سأبيت عند صاحبى هليّل حيث الوسع والراحة». قالت: «أنت وراحتك». وقالت أمى كالمعتذرة لها: «إنهما صحاب بحل وحليل». قالت: «أعرف يا خاله». ثم إننى نثرت على الولاد كلهم عددا كبيرا من البرايز والشلنات وأرباع الجنيهات بمنظر دهشت منه الولية وبان فى عينيها قليل من الحسد، أما أمى فارتاعت وكادت تقع من طولها وتقطع شفتيها من العض عليهما، وعيناها تغمزان لعينى تنبيها واستغاثة بأن أكف عن هذا الجنون الذى أفعله، وقد أعماها الذهول من حصر ما فرقته على الولاد، ولو علمت أنه اقترب من الجنيهات الخمسة لوقعت ميتة بما يسمونه السكتة القلبية فى الحال .. أمال يا بوى. إنها ولية شقيانة طول عمرها من يوم أن خلقها الله ترفع أحمال الطين وراء مليم قابع تحتها، وقد علّم فيها الفقر وعلمها كم للقرش الأبيض من نفع عظيم فى اليوم الأسود. قلبى يرق لها والله دائما يا خال، سلمت

عليهـا وقرصت على يدها قرصـة خفيـفة أنبهـها قائلا فى حـبور وابتسام: «ولا يهـمك يا أم! فخير الله كثيـر»، وعرجت على زوجة خرابة فـسلمت عليهـا واستكثـرت لها الخـير من الله .. ومـضيت موليا نحو كوم سعيد ..

فى مدخل البلدة واجهنى فانوس مشتعل، يلقى على الأرض ظل صورته العتيقة بأضلاعها الشبيهة بشكل الكاس. توقعته، فإذا هو بالفعل: عم «صـهيب» المتـصوف، الذى يقضى نهـاره عاكـفا على العـبـادة فى خلوته وليلة مـتنقـلا بين أضـرحـة الأوليـاء فى كل البلدان، يزورهم بأكـيـاس من فاكـهة القـرآن الكريم ينثـرها على أعتـابهم ثم ينصرف. ها هو ذا يقبل نـحوى بشكله الأزلى الذى لا يتغيـر: رأسه الصـغيرة المتعـصبة بمنديل رفيع أخضـر كالح، فوق بقايا طربوش مغـربى اسود احمراره، وقامتـه المديدة المحنية قليلا إلى الأمام بفعل الكهـولة والسـجود والخشوع للـه، يتسربل بِخَلَقٍ مرقع تفوح منه على الدوام رائحة المسك، يتأبط مخلاة من المشمع مجهولة المحـتوى، يمسك الفانوس بيمناه، والعصـا بيسراه، يجيل بصره الحائل فى الطريق، مغمغما بصلوات وتسبيحات غامضة ..

تذكرت يـا خال أن عم «صـهـيب» هذا هو جد صـديقى «هلّيل» يعنى «يوسف النجـار» ابنه، إذ إن عم «صــهيب» كـان فى الأصل نجارا للسواقى منذ زمن بعيد مجهول. مسيت عليه فغمغم بالرد .. واتخذت طريقى إلى داره حيث يقطن صديقى «هليّل»، وفى دماغى خاطر يقول لى أن «هلّيل» مصيره سيكون كجده هذا بإذن الله، ثم ضحكت عاليا ..

الثانية ـ قلب الراعى

يا بو .. و .. و .. و .. ى على تـلك الفـرحـة التى لقــينى بهـا صاحـبى «هلّيل»، كـادت والله تنسيـه عقله، فـصار يهـذى بكلام الشـوق والحب والغـربة والوحـدة وصـار من عناقـه الطويل لى يحرم أختى ـ زوج أبيه ـ مـن فرصتـها فى عناقـى. وصرت من عنالى له أحـرم نفـسى من فـرحـة عناق أبيـه. لحظة من لحظات الجنة كـانت والله ياخـال. بـعدهـا نحـرت السكين فـراخـا وبطا وحماما، وامـتلا وسط الدار بدخان كبير له رائحـة مسكرة، حتى إذا مـا جاء المغـرب توسطنا وسط الدار على مـقـربة من الكوانين المشتعلة، المحاطة بحلل كثيـرة، نفترش حصائر من السمار الملون، تحتنا المساند، وإذ تحلقنا الطبلية وفوقهـا صينية العشاء حافلة بما لذ وطاب مما حـرمتـه فى طول الغيـاب، صـرنا نشفط فى تتـابع صوانى والصحن عرقا، ونضرب بالملاعق فى أكوام الفريك المكومة فى الأطباق نهدها نطوح بها فى الأفواه والجميع يفسخون الطيور المحمرة ويرمون شرائحـها أمامى وفى يدى وفى فمى، وأنا لا أرد لأحد طلبا ولا أكسر له خاطرا، ومكنة الطحن شغـالة على سنجة مطيرة، وكلما ازدحم حـلقى بوارد البلع سلكتـه بشـفطات المرق الساخن فتنفذ اللذاذة فى دمـاغى تعمره، وفى عينى تفنجلها، وفى

عروق جسدى تزيده النصف. ولم يكن ذلك التوفيق إلا لأن نَفَس أختى - وهو مندوب عن نفس أمى - كان يعطر هذا الطعام..

ثم إن «هلّيل» دعانى لغسل يدى ولدخول الحمام بالمرة، فلم أكسفه بالطبع. وجدت فى انتظارى ثيابا نظيفة من ثياب «هلّيل» فى رائحتها نفس أختى كذلك، فلبستها على جسد نظيف، فشعرت والله كأن الروح قد ردت فى من هذه اللحظة فحسب. وكان الخلاء الرحب فى شوق إلينا، فطلعناإليه نلتقيه ويلتقينا. عند هديم دارنا وقفنا، وشرعت أكلم «هلّيل» فى موضوع بنائها، فقال: «على الأقل تقيم الجدران». شوحت بملء صدرى قائلا: «نبنيها على أحسن وضع! الخير كثير والحمد لله!» نظر فى عينى مستفهما عن آخر مدى لهذا الخير. قلت: «مستورة والحمد لله! كله من نعيمه يا هلّيل يا خوى!» هز يده ليستزيد التأكيد: «تبنى بناية ! بناية !». قلت بنفس التأكيد: «طبعا بناية بناية! ودورين لو أحببت!». قال بفرحة: «آه! على بركة الله! من غد نتوكل على الله!».

لم نكذب خبرا. الولد «هلّيل» ما أجدعه. مشوار بسيط لحد البناء فى آخر البلد، مشوار أبسط لحد بائع الطوب، فركة كعب لحد دار واحد يكرى لنا أنفارا تزيح الهديم وتفحت للحديد، بضع جنيهات نثرتها كعربون.. فوالله ما أتى الصباح بنوره الوضاح إلا وفى دارنا أنفار تشتغل وطوب ينزل ومونة تصعد فى القصاع. بناء بالأسمنت يا ولد. أربع أيام والله يا بوى صارت الدار بعدها واقفة على أساس متين ومستورة بسقف مسلح بالحديد والبتن.

ثم بدأ شغل الخشب، فما مضى أسبوع إلا وكانت مفاتيح الأبواب والشبابيك فى يدى. ولم يبق إلا الفرش الذى سأشتريه غدا من أسيوط. الناس فى بلدنا كثار يا بوى وأجرة عرقهم أرخص شىء فى الدنيا، الواحد تشتريه طول اليوم بأكله وشربه وكسوته. لو مكث فى خدمتك حولا كاملا ما طالبك بشىء آخر. الأشياء هى الأخرى كثيرة لا تجد من يشتريها، ولكن لأن من هى عندهم يستغنون عن بيعها فهى مسجونة حتى يظهر من يبز بالقرش.

على أسيوط سافرنا أنا و«هلّيل». فاشترينا عفشا من كنب وسرير ودولاب يصلح شوارا لعروس بنت العمدة؛ ولكننى نويت أن أجعل من دارنا دارا بحق وحقيق ذات مندرة يجتمع فيها القوم بكل احترام ومعزة، كنت ألمح فى عيون «هلّيل» كلاما كبيرا يود لو ينفلت. ليلت ويعجن معى فيه، ليعرف من أين جاءتنى كل هذه الثروة فى زمن قليل؟! فلم أصرح له أبدا، غير أنه لم يتركنى؛ قال فيما نحن نشد نفسين من الحشيش فى غرزة فى مسطاح النيل: «المهم يا بوعلى أن يكون ما صرفته على داركم فلوسا حلالا!».. فشوحت له بيدى قائلا: «دعك من مسألة الحلال والحرام هذه يا خوى! فواحق مخرج الصباح من الليل ومشرق الشمس أن البلدة كلها تعيش حراما فى حرام! وسحتا فى سحت! ونهبا فى نهب! وبلطجة فى بلطجة وتهليبا فى تهليب! صدقنى يا خوى! حاميها حراميها يا خوى! صرت أعتقد أن الله لا يبارك إلا فى الحرام! ويحمى أهل الحرام ويرفع قدرهم فى الدنيا صحيح أن الله

سيعذبهم فى الآخرة ولكن كيف أعيش أنا فى الدنيا طاهرا من الخطيئة معدما من القوت فى نفس الوقت؟! سأفوزبالآخرة؟! مت يا حمار حتى يجيئك العليق! عقلى الصعيدى لا يفهم كيف يحرمنى الله فى الحياة من نسمة الدنيا ويمتع غيرى بالجنة؟! إنك يا هليّل يا خوى لوشفت الحياة التى يعيشها ناس مصر المحروسة لوقعت من طولك ميتا! اسكت يا هليّل يا خوى فقد أصبحت والله أكره الكلام فى شغلة الحرام والحلال هذه! أكره أيضا شغلة الثورة هذه ! أتمنى زوالها من الوجود! حتى أبو عبدالناصر نفسه بلدينا نفسه صرت لا أحبه! صار قلبى ينزعج كلما سمعت اسمه! دعنا يا هليّل نعيش لنا يومين قبلما تأكلنا الذئاب! إذاً كنت تعيش بين اللصوص والحرامية فلابد أن تكون أحرف منهم حتى تعيش بينهم! عمرك رأيت جديا صغيرًا يعاشر الذئاب ويعيش فى سلام ؟! حلال ماذا وحرام ماذا يا هليّل يا خوى؟ لقد خربت الدنيا! أهل الثورة سرقوا أراضى الناس ورأسمالهم الذين لموه بعرق جبينهم ثم وزعوه على أهل لهم! وحرسوا عليه اللصوص والمغفلين ومن جاء فى ركبهم!»..

الحق لله يا بوى لم يراجعنى «هليل» فيما قلته، ظل ينظر فى وجهى ويشرب بعمق ويكتم نفس الدخان فى حلقه ليسربه من أنفه ويختزنه فى دماغه فبدا كأنه يحاول تسليك مخه ليفهم كلامى الكبير الذى قلته الآن، لكنه قال وهو يلقط بقايا النفس: «على كل حال! كن بصيرا على نفسك فى الغربة! ضع عينيك فى

وسط رأسك!». قلت: «هذا ما أنا فيه بالفعل فلا تقلق». قال : «كم صرفت حتى الآن؟». هززت يدى ورأسى مبتسما فى سعادة وقلت: «تصور يا هلّيل أن كل ما فعلناه لم يتكلف أكثر من ثلاث مئات؟! بما فى ذلك مصاريفنا ومصاريفى من ساعة ما جئت!». قال: «بركة! بركة!». قلت: «كله من خيرك يا هليل يا خوى! لولا جملك وحمارك وصحاب أبيك ما فعلنا شيئا حتى الآن». قال: الفضل فضل الله! فهل بقى معك شىء من القرشين؟». قلت باسما: «كثير يا ولد! كان مع أمى الكثير مما أرسلته لها! وسآخذ منه معى عند عودتى لمصر!». أزاح الولد لبدته علامة الانبساط وقال: «وماذا ستفعل بها ياولد؟!». قلت: «سأضعها فى دفتر التوفير» لكزنى فى جنبى قائلا: توفير ماذا يا عبيط! هاتها أشترى لك بها ماشية نربيها ونبيع ولدها ونأكل سمنها ولبنها!»..

تحلف اليمين والله يا خال أننى من فرحتى نطرت نفسى واقفا وصرت أحضنه وأقبله لأنه افتكر هذه الفكرة، قلت فى فرحة: «والله لافعلن!». بالمصادفة كان الغد يوم سوق فى «صدفة» وهى بلدة سوقها كبير، فذهبنا إليه من الفجر واشترينا خمس رءوس صبية ورأسين وراءهما عجلين واشترينا حوالى عشر رءوس من الغنم وحمارًا ينتفع به «هلّيل» فى خدمة هذه الرءوس وأستخدمه عند وجودى فى البلد.

قلت: «يا هلّيل يا خوى أنت عليك التربية والتسمين وأنا على أن أقسم الربح معك بالنصف وتبقى البهيمة الأصلية ملكى أنا

وحدى!». قال: «ياجدع فضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا! وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائى!». لحظتها رن هذا الكلام فى دماغى فقلت لنفسى: صحيح يا ولد لماذا لا تستقر الآن فى البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام ان الله قد أكرمك بدار أبهة وبهائم وأغنام تعيش من ورائها؟! إنه لا ينقصك الآن سوى البنت «حنة» فأين هى الآن يا ترى؟! لكن هذا الكلام حين أدرته فى دماغى عصلج وأتعبنى ولم يدر بالمضبوط فعرفت أننى غير مرحب بالبقاء فى البلدة الآن على الأقل، فالخفراء والعمدة هنا سيجعلوننى سلوتهم وكلما وقع فى البلدة حادث يجروننى إلى دوار العمدة، ولابد أنهم يطقسون حول بنائى للدار بالبتن، وحول رأسمالى من الماشية الذى لابد سيظهر، سيقول الجميع: من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولاهناك؟!..

اقتنعت أن ابتعادى عن وجوههم سينسيهم أمرى وسيتركوننى فى حالى، وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتنى وفتحت مخى، وفيها متسع كبير لان يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمى عينه عن الجميع «ويطرمخ» عليه، والأمور ماشية بالتكال، ثم إننى انقضضت على الحشيش. كالشهوان يشرب فى آخر زاده، ونفسى تطلب الحلاوة الطحينية. ضحك «هليل» قائلا: «أنت الآن لست على بعضك فما الأمر؟». وبرقت فى عينيه نظرة خبيثة شقية،

فتجاهلتها قائلا: «لاشىء! لا شىء». قال فى خبث: «يعنى ليس وراءك أى مشاوير الليلة؟!». ضحكت رغما عنى وترددت، خفت إن قلت لا، أن يبقى معى ويعطلنى، إذ إننى ورائى مشوار بالفعل. نظرت فى عينى «هلّيل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع فى مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «هليل» يعرف أننى الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه شاهدنى وأنا أكلمها، وسمعها وهى تتواعد معى أثناء وقوفنا فى السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوى امرأة فاتنة تلهى الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها فى دماغه أثناء الصلاة. هى مشهورة فى البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان فى البلدة أجمل منها، ولكن الفقر وحده هو الذى أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها مثل شهدتين من كوز العسل يتمنى المرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تآكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهى مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كظل صفصافة على قضيب القطار. أما وجهها يا خال فمثل رغيف الخبز العلامة الخارج لتوه من الفرن موردًا يبك الدم فيه، عينان واسعتان كعينى البقرة مكحولتان

وحدى!». قال: «ياجدع فضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا! وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائى!».
لحظتها رن هذا الكلام فى دماغى فقلت لنفسى: صحيح يا ولد لماذا لا تستقر الآن فى البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله قد أكرمك بدار أبهة وبهائم وأغنام تعيش من ورائها؟! إنه لا ينقصك الآن سوى البنت «حنة» فأين هى الآن يا ترى؟! لكن هذا الكلام حين أدرته فى دماغى عصلج وأتعبنى ولم يدر بالمضبوط فعرفت أننى غير مرحب بالبقاء فى البلدة الآن على الأقل، فالخفراء والعمدة هنا سيجعلوننى سلوتهم وكلما وقع فى البلدة حادث يجروننى إلى دوار العمدة، ولابد أنهم يطقسون حول بنائى للدار بالبتن، وحول رأسمالى من الماشية الذى لابد سيظهر، سيقول الجميع: من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولاهناك؟!..

اقتنعت أن ابتعادى عن وجوههم سينسيهم أمرى وسيتركوننى فى حالى، وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتنى وفتحت مخى، وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمى عينه عن الجميع «ويطرمخ» عليه، والأمور ماشية بالتكال، ثم إننى انقضضت على الحشيش. كالشهوان يشرب فى آخر زاده، ونفسى تطلب الحلاوة الطحينية. ضحك «هليل» قائلا: «أنت الآن لست على بعضك فما الأمر؟». وبرقت فى عينيه نظرة خبيثة شقية،

فتجاهلتها قائلا: «لاشىء! لا شىء». قال فى خبث: «يعنى ليس وراءك أى مشاوير الليلة؟!». ضحكت رغما عنى وترددت، خفت إن قلت لا، أن يبقى معى ويعطلنى، إذ إننى ورائى مشوار بالفعل. نظرت فى عينى «هليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع فى مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «هليل» يعرف أننى الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه شاهدنى وأنا أكلمها، وسمعها وهى تتواعد معى أثناء وقوفنا فى السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوى امرأة فاتنة تلهى الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها فى دماغه أثناء الصلاة. هى مشهورة فى البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان فى البلدة أجمل منها، ولكن الفقر وحده هو الذى أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها مثل شهدتين من كوز العسل يتمنى المرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تآكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهى مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كظل صفصافة على قضيب القطار. أما وجهها يا خال فمثل رغيف الخبز العلامة الخارج لتوه من الفرن موردًا يبك الدم فيه، عينان واسعتان كعينى البقرة مكحولتان

كحلا طبيعيا، لا ينظر فيهما مخلوق إلا ويتوه ويتأكد أنها بحر يطلب الرى من ماء الحياة بغير حدود..

هذا الجمال كله يا بوى متزوج من رجل هلف مسن، لا شخصية له ولا وقار، اسمه «سعداوى»، يعمل سقاء! بالسنوية، يحمل القربة على ظهره يملؤها من النيل يلف بها على البيوت يفرغها فى الأزيار حتى تمتلىء، فى مقابل حزمة قمح أو برسيم أو بضعة كيزان من الذرة أو حفنة قطن يأخذها عند الحصاد، أو لا يأخذها لا يهم. هو ضعيف مثل كلب جربان فى حى غريب. أنت وغيرك يشخط فيه ويضربه بكف اليد على وجهه فلا يرد ولا يفعل شيئا أكثر من الجعجعة والبرطمة، وينتهى الأمر عند هذا الحد.

ولا أحد يعرف كيف تزوج هذا الجرو العجوز من هذه الحورية الطرية الشهية، لكنها عجائب الزمن وما أكثرها فى بلادنا يا خال. غير أن الجميع يثق ثقة كبيرة أن هذه المرأة المسكينة غير شبعانة من ناحية الجماع، وبعضهم يطمع فيها ويستغفر الله له ولولاياه، وبعضهم يأتيها فى السر، وكل مار من أمام دارهم ـ إن كان من حى آخر ـ لابد أن يكون قادما لـ «كاملة» أو من عندها. وهى تسكن مع زوجها «سعداوى» فى دار فى نهاية حارة ضيقة مستطيلة. ومن حسن الحظ أن الدار المجاورة لها مباشرة يسكن فيها رجل من عائلة طيبة أسمه «خربوش»، كان يسرح فى الليل لاصطياد رزقه وتلقيطه من غيطان الناس. وكنت كثيرا ما أضبطه

فأساعده ولا أفتن عليه أبدًا. كنت أيضًا أحب شرب الشاى معه فى داره كلما عزمنى لكى أتفرج ـ فقط ـ على هذه الحورية الضالة.

إلى أن منّ الله علىّ بمقابلتها وحدها فى السوق تشترى حاجات لناس طيبين تخدم عندهم. فأخذتها على جنب وعرضت عليها الخدمات وقلت: «أنا طالب القرب!». فقالت: «يا مرحبا!». قلت: «أين؟!». قالت: «أنا لا أخرج من دارى! ولا أعرف مكانا! فإن كنت تقدر على المجىء لى فى الدار فتعال!». قلت: «وزوجك؟!». قالت: «سيكون نائما بجوارى ولن يحس بشىء». قلت مشوحا: «فإن أحس أخذته بالبونية على بوزه أخمد لك أنفاسه!». فجلجلت ضحكتها ولكزتنى فى صدرى. قلت: «يعنى هل أجىء الليلة؟!». قالت فى دل: «تقدر؟!». قلت: «طبعا». قالت: «خلاص! تنط من الجدار تجدنا فى حوش الدار نائمين على الحصيرة! فتنام بجوارى تحت الغطاء! وأنا أنام دائما فى الطرف اليمين والباب فى ظهرك!». قلت وأنا منتصب القامات: «والله لأجيئن الليلة فانتظرينى بعد نصف الليل!». فهزت رأسها موافقة ومضت، ومضيت، ولكنى أيقنت أن ولدانا كثيرين من حارتها رأونا نتواعد، وواجهونى بنظرات مسمومة، بل وتحسسوا شواربهم متوعدين، علامة على أننى لن أنجح فى الوصول إليها طالما شواربهم هذه قائمة فى وجوههم. وعرفت أنهم سيرابطون لى طول الليل حتى يمنعونى، فصممت على أن أفعل مهما كان الأمر.

قلت لـ «هليل» وأنا أشفط آخر نفس فى الحجر «الحوحو» ـ أى الأخير: «يكفى هذا فقد صرت على سنجة عشرة!». زغدنى فى

جنبى وقال بلهجة ذات معنى: «لماذا لا تخزى الشيطان وتمضى معى إلى الدار فتنام فى أمان الله؟!». قلت: «شف يا هلّيل يا خوى! لو لم يكن ولاد حارتها رأونى وتحسسوا شواربهم كنت سمعت كلامك الآن وجئت معك من سكات! أما وقد برموا لى فى شواربهم فإننى لابد لى الليلة أن أحيكهم جميعا! أعرف أنهم الآن ينتظروننى على رأس الحارة! وسأدعهم ينتظرونى هكذا حتى الصباح فيما أكون راكبا أنهى مهمتى بسلام!». قال «هلّيل» وهو ينظر فى وجهى باستخفاف: «كيف يا بوى؟ ولد فتوات أنت؟ أم لعلك ولد عفاريت!» . قلت: «سترى فى الصبح!». قال وهو يدارى وجهه بكفيه من شدة الضحك: «مادمت قلت هذا فغالب ظنى أنك لن تجىء بها البر يا حسن! تظن نفسك خولى الجنينة لكى تظفر بالغنوة على كل لسان؟ إخز الشيطان يا حسن فالغنوة تقصد حسنا آخر غيرك هو خولى الجنينة بتاع زمان!».

تغيظت منه والله يا بوى، وصرت موشكا على الغلط فى حقه، لولا وثوقى من حبه لى، ووجدت أن خير الكلام ما قل ودل على رأى ذلك الصحافى المشهور الذى لا أعرف اسمه، فنهضت واقفا وقلت لهلّيل: «سأنام فى دارى هذه الليلة وفى الصبح أجىء لأفطر معك» قال هلّيل: «مادمنا فى دارك الآن فسأنتظرك هنا فوق هذه الكنبة حتى تخلص من مهمتك المجنونة وتعود!». قلت: «أهكذا رأيت؟». قال: «دعنى أكون أول من يفك بوش هذا الكنب لأجربه لك فى النوم!». قلت: «يزيده شرف! ولكن أحذر أن تفعل فوقه شيئا

على حس المهمة التى أنا ذاهب لأدائها الآن!». ضحك حتى استوى جالسا فوق الكنبة وقال: «وهل أنا متأكد أنك ستقوم بها حتى أبنى عليها؟» أوشك الغيظ يركبنى ركوبا تاما، فلم أضحك معه، إنما رأيتنى أقول له بضيق: «أنت إذن تشك فى رجوليتى يا هلّيل!». فشوح قائلا وهو يعود للتمدد على الكنبة: «إذهب! إذهب! كان الله فى عونك!»..

وذهبت يا خال.

ثالثا. خطبة الوداع

الحارة محتجبة وراء خرطة نخيل كبيرة. من يقف فى قلب النخيل ويرسل البصر بالطول يستطيع رؤية الحارة على طولها ، ويرى كل من يدخل ويخرج منها أو يولى ناحيتها،يرى الحارة بابًا بابًا. وكنت قادرًا على الوصول إلى الحارة من دارنا بفركة كعب، غير اننى فى هذه الحالة لابد أن أمر على الولاد الساهرين فى انتظارى، فيحصل الاحتكاك بينى وبينهم، فتجئ المسألة غير ظريفة من بدايتها ثم إن هدفى شئ آخر غير العراك، ولهذا لففت لفة كبيرة من وراء البلدة حتى سقطت داخل النخيل مباشرة وجعلت أترقب الولاد من بعيد فى جوف الظلام، النخيل كثير يا بوى، وكثيف، يطرح فوقى ظلامًا على ظلام، لكننى بعون الله رقدت فى مطرحى مداريا جسدى فى جذع نخلة كأننى مجرد انتفاخ فى الجذع، وأرسلت بريق عينى إلى مساحة من الشارع العمومى المحاذى للنخيل حيث تسقط منه الحارة إلى الداخل، فرأيت أربع ولدان شداد يتملكون نواصى النخيل، واثنين من اليمين وآخرين من الشمال، يتوقعون قدومى من جوف النخيل لأسقط مباشرة على الحارة.

كان «مختار عريبى» الولد الصابع ساكن أول دار فى هذه الحارة قد فرش جوالا على مدخل الحارة بالعرض ونام متغطيا بجوال آخر كاشفا دماغه، وحين وصلت كان الأربعة يتكلمون مع «مختار عريبى» كلاما لا أتبينه، لبعد المسافة بينى وبينهم، فكان الكلام يضيع كله فى حفيف النخيل مكثت متقرفصا ألف السجائر وأشعلها من بعضها، مداريا شعلتها عند الجذب بكفى المضمومة، مضى حوالى نصف الساعة، كف بعدها صوت «مختار عريبى»، وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم إلا بشخير النوم، إننى أعرف أصواتهم جميعا، ومن أصواتهم أعرف أنهم الولد «صابر» والولد «زيدان» والولد «سماعين» والولد «شحتة»، وهم كلهم عيال تملية لكنهم أشداء، لو هاجوا فى بلدة لأخمدوها..

مضى نصف ساعة آخر، كف بعدها صوت الولد «صابر» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم، فبقى الثلاثة يتكلمون ويضحكون ويتثاءبون، وبعد حوالى عشر دقائق كفوا عن الكلام تماما، فارتفع صوت نقيق الضفادع يقول يا أرض اشتدى ما فوقك قدى، أما قلبى فصار يدق بصوت أعلى من صوت النقيق، إذ فكرت فى الهجوم، والاقتراب أكثر من الحارة، كنت مشمرا ذيل جلبابى، لكى لا يصدر عنه وشيش ينبهم إلى وجودى، ولم أكن أمشى، بل كنت أمد ساقى على وسعها، حتى تستقر قدمى على الأرض، فأنقل الساق الأخرى، وبعد برهة أمدها نفس المدة، حتى صرت على مرمى حجر من الحارة، فتقرفصت، فارشا عينى على الأرض، حتى ميزت أشباح الولاد، متمددة فى أماكنها المتباعدة، وكانت

أنفاسهم قد راحت تنتظم، ويتصاعد شخير مجلجل، ووضح أنهم قد استغرقوا فى النوم، ما عدا «شحتة»، الذى كان فى آخر حدود النخيل، حيث نادى عليهم واحدا واحدا فلم يرد أحد، فتمدد وتقلب، معطيا وجهه للنخيل..

زحفت متقرفصا، شيئا فشيئا، حتى صرت بين «زيدان» و«سماعين» الراقدين، لا يفصلنى عن كل منهما سوى بضعة أذرع من اليمين ومن الشمال، بقيت هكذا برهة، ثم خشيت ـ اى والله يا خال ـ أن يسمعوا دقات قلبى من شدة علو صوتها، فنهضت واقفا، وعلى أطراف أصابعى قفزت، وهى القفزة، كنت أقدر على أن أدوس بقدمى فوق صدر «مختار عريبى» الراقد يسد الحارة بجسده، لكننى تخطيته. فلما صرت فى الحارة خفت فجأة من فكرة الحصار، فارتددت مذعورا، وخطوت من فوق جسد «مختار عريبى» ثانية، ومشيت فى قلب الحارة لباب «كاملة»، أمسكت فى صدغه هذا، وشبطت فى طوب الجدار دافعا نفسى إلى أعلى، فتمكنت ساقى اليسرى من الاشتباك بطوب الجدار، حتى استويت بكلى فوقه، واعتدلت، ورميت بنفسى فى حوش الدار على أطراف أصابع قدمى.

هدأت دقات قلبى لما رأيت أننى قد نجحت فى الوصول، ولما لمحت الأجساد متمددة فوق الحصيرة ومغطاة بالبطانية قلت لنفسى: صبرت ونلت يا خسن، تذكرت قول «كاملة» بأنها تنام فى الطرف الأيمن. هى إذن هذه التى تنام على مقربة منى. وا..ه..

يا بوى واه.. خطوة واحدة وأصير فى حضنها، لكن يجب أن أنتظر برهة، فربما يكون زوجها أو ابنها صاحيا، بقيت متقرفصا فى مكانى يا بوى، كاتما أنفاسى، حتى تأكدت أنهم جميعا فى أحلى نومة ويأكلون الأرز باللبن مع الملائكة، كل الأمور عال العال يا بوى، وآخر تمام، واه ، واه من وساخة النحس يا بوى، الولية يا بوى لم تكن تعرف أن عمتها أخت زوجها ستتعارك مع زوجها فى هذه الليلة بالذات، وستغضب وتجىء لتبيت عند أخيها «سعداوى» السقاء، والولية ـ كاملة يعنى ـ لم تقدر على أن تبعث لى مرسالا يبلغنى بما حصل، فسلمت أمرها لله، ورقدت بجوار زوجها كالعادة، وجاءت عمتها هذه فرقدت بجوارها فى الطرف الأيمن، وجئت أنا بسلامتى وتمددت بجوارها متسللا تحت البطانية، فلفحنى ريح غريب ليس هو ريح «كاملة» ولا عطرها، قلت لنفسى: لعله ريح النوم. ومددت ذراعى وجعلت أحتضنها، فإذا بالولية تنتفض مذعورة وتملأ الليل صراخا مجنونا، وإذا بالقيامة تقوم، صاحت الأصوات الغامضة فى كل مكان، ونبحت عشرات الكلاب الشرسة المربوطة خلف الأبواب، وملأت الدنيا زئيطا، وتيقظ كل الرجال فى كل الحوارى، وصارت الأصوات تتجمع أمام باب الدار والنبابيت تدق فوق الباب طالبة تسليمى لتقطيع جثتى، و«سعداوى» السقاء من شدة هوله وذهوله صار يشتم فيهم: «يا ناس حرام عليكم! يا أنجاس يا كفره! أنتم تنطون على فى دارى! إنى سأشكوكم للعمدة الليلة قبل الغد!» أما أنا يا بوى فلقد صرت كالفأر فى المصيدة أبحث عن خرم إبرة أخرج

منه، والكلاب جوار الباب تفزع، تريد نزع نفسها بالقوة من سلاسلها للانقضاض فوق رائحتى، إذ أنا متكور على نفسى فى ركن قصى مظلم، إلى أن لاح الخلاص كشمس الصباح بعد برهة قصيرة، كأننى سقطت خلالها فى فوهة قبر وخرجت منه فى الحال.. ذلك أننى رأيت كومة من تراب هديم بجوارى، فادركت فى الحال أننى لو تسلقتها صرت بقفزة واحدة فى دار صاحبى «خربوش»..

واه يا بوى على فرحتى لحظتذاك، من كثرة اللذة بالراحة تلكأت فى التنفيذ، حيث رقدت على بطنى، وصرت أزحف كالثعبان فوق كثيب التراب، حتى صرت على سن الجدار، فاعتدلت، وقفزت ساقطا فى قلب دار صاحبى «خربوش»، بجوار فراشه بالضبط، إذ هو يفرش وينام فى الحوش بجوار هذا الجدار، تحسبا لفعل كهذا من أولاد الحرام الذين ينطون على «كاملة» فى دارها، وقد تعود أن يربط السكين الكبيرة على زنده ملفوفة فى جراب وأربطة بحيث يسهل نزعها عند اللزوم، وإعادتها إلى وضعها فى لمح البصر..

انتفض «خربوش» قاعدا، ويده على زنده تنزع السكين فيما يصيح: «ليلتك أسود من شعر رأسك يا بوديل نجس!». وهم بالانقضاض على، لولا أن صحت فيه بسرعة لاهثة: «أنا حسن ولد أبو ضب يا عم خربوش!». أعاد السكين وتلقانى بالحضن: «يخرب بيتك يا حسن! كنت عند كاملة!». قلت: «إن الله حليم ستار!». قال باسما: «طب اجلس! نم بجوارى، لا تفتح فمك!»..

تكرمشت بجواره مثل الكتكوت العريان تحت وابل من المطر فصار يهدؤنى ويكتم ضحكته قائلا فى همس: «تعمل سبعا ثم تكتكت بالصغر الرجال!» فحاولت التمدد، والإيهام بأننى سأتهور بفعل مجنون تحلف اليمين أنه كان يعرف أفكارى، فضغط على كتفى قائلا بسخرية: «اعقل يا مجنون! وإلا دشدشت النبابيت رأسك الناشف ذا! هو لا يستحق الدشدشة أى نعم! لكنه صالح لها من كثرة نشفانه هذا! ثانى مرة تبقى تسقيه شيئا من ماء العقل حتى يلين! والآن اسكت حتى نعرف ماذا يحصل فى الحارة.

بقينا منصتين وقتا طويلا، وهياج الرجال يزداد حدة، ويتسع ثم يتلاشى قليلا ثم يعود أكثر حدة فيتسع كأن الكون كله يشارك فيه، واسمى يتردد من حين إلى حين، ولكن صوت العقل كان ينزع وسط الضجيج قائلا: «يا جماعة لا تظلموا الجدع ولا تظلموا أحدا ما دام لم يخرج من الدار أحد!».فيجاوبه صوت التكبر قائلا: «إن الفاجرة تحتجزه بالداخل حتى الصباح خوفا من الفضيحة!». وتعلو نتفة بعيدة من نفس الصوت: «الفضيحة حدثت وانتهى الأمر!» تعلو نتفة أخرى: «تحتجز عشيقها خوفا عليه من القتل!»، فيعلو الهياج من جديد وتنبرى النبابيت تدق فوق الباب طالبة ذلك النجس الذى بالداخل، فيجاوبهم صوت «سعداوى» باللعن والصراخ والبكاء والتهديد بالعمدة.

ثم سمعنا باب داره ينفتح على مصراعيه، وصوت «سعداوى» يصرخ، لأول مرة فى حياتى أراه يصرخ ويتنحرر كالرجال، بل

إن صوته كان جعيرا مليئا بالرجولية والهيبة والوقار، فتعجبت والله يا خال غاية التعجب: كيف يخفى هذا الرجل هذا الكنز الذى فى صوته؟ وهو الذى لو كشفه من أول لحظة لحظى بمكانة كبيرة فى البلد. إنه صوت من قبيلة الباشوات والبكوات والعمد وملاك الدواير لكنه ضل طريقه،فبدلا من أن يضرب الناس بالكرباج ويمص دمهم، صار سقاء يزودهم بالماء صبح مساء، لقاء أجر مؤجل، والبلغة القديمة فوق رأسه، غير أن هذا كان من الأول يا «سعدواى»، وهيهات أن تستخدم صوتك وحده فى صنع هيبتك، ثم إن اسمك «سعداوى» وليس هذا الصوت بالذى يليق على هذا الاسم، فأنت إذن هزأة مع احترامنا لصوتك المهيب هذا ولكلامك المنفعل هذا»: «أيها الناس الجبناء دونكم دارى هذه فادخلوها وفتشوا فيها عن ذلك العشيق الذى تدعون وجوده! هاكم بابى مفتوح فادخلوا واهتكونى وانهشوا عرضى أكثر! قربوا أنيابكم من اللحم المسكين المستباح! يا كفره يا من تدعون النخوة والشرف والدفاع عن العرض! قسما بالله ما أفعالكم هذه سوى الحصرم الذى تأكلونه فتضرسون! إنها الغيرة تأكل مؤخراتكم وأصرامكم! كلكم تطمحون فى عرضى فتنطون على فى قلب دارى!ولابد أن الله يصليكم بنار جهنم الحامية! فوضت فيكم أمرى إلى الله! حسبى الله ونعم الوكيل!»..

ثم سمعنا صوت الباب وهو يغلق. وصوت الكلاب يستلم الهواء، سكت الهياج شيئا فشيئا، وانسحب صوت العقل أسفا

يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستغفر عن سوء النوايا، ويبقى صوت الحكمة واضحا، يبلغنا بلا حول ولا قوة إلا بالله، باكيا على فضح خلق الله، مبررا الصراخ بأن الولية كبس عليها كابوس من كثرة ما تكلم الناس في حقها ونهشوا فى عرضها، لقد باتت تحلم بأشباح تهجم عليها فى عز الليل. ثم إن الصوت نفسه قد راح ينسحب هو الآخر عجوز كانت تصلى الفجر أمام دارها بين النخيل، وصار فى مقدورنا أن نعرف أن ما بقى من جمع الرجال قد صفصف على أبناء الحارة، وأن جمعهم قد اتجه زاحفا وهم يتكلمون، بما يشبه الاعتذار مرة، والتأكيد على وجودى مرات، حتى شحب صوتهم عند آخر دار فى الحارة، ثم اختفى تماما مرة واحدة، فعرفنا أنهم دخلوا دار «مختار عريبى» ليكملوا الكلام.

عندئذ نهض «خربوش» ومضى بخفة نحو الباب، فأزاح الضبة بهدوء دون صوت، رغم أنها كبيرة وذات جرجرة، ثم وارب الباب قليلا ونظر فى الحارة، فتأكد من خلوها، فاندفع خارجا كالفهد العجوز بلا حفيف، بعد أن رد الباب خلفه وعاد بعد برهة قصيرة، فدفع الباب، وتسلل داخلا، وقال إنه خطف رجله لحد دار «مختار عريبى» وتأكد أنهم جميعا هناك، وأن «مختار عريبى» أشعل الوابور يصنع شايا، وسحبنى من يدى، فخرجنا وأغلقنا الباب، بخطوتين اثنين صرنا فى الشارع العمومى، منه بقفزة واحدة صرنا فى قلب النخيل، نضرب بخطى سريعة، حتى لاح لنا

الطريق الزراعى المحاذى للترعة فانسللنا من بين النخيل وامتطينا الطريق الزراعى، فانحرفنا مع المدخل الرئيسى للبلدة، فدخلنا فصرنا فى حكم القادمين من خارجها، من الحقول مثلا، أو من عند ماكينة المياه، التى كثيرا ما أخفرها أو يخفرها «خربوش» حتى لقد ارتبط اسم كل منا بها..

أخذنا نتلكأ فى السير، وندخن السجائر، ونتكلم ونتبختر فى سيرنا، حتى وصلنا إلى الحارة بعد لفة طويلة، يتقدمها ضوء الشروق الفتاح، «خربوش» رغم صياعته وشقاوته من عائلة كبيرة، وله أن يتحرك على راحته، ويفعل ما يحلو له، فلن يجد من يدوس له على طرف حتى لو ضبطه بسريقة، وهكذا أقلبنا على الحارة نتبختر، فوجدناهم جميعا قد خرجوا وتربعوا على مدخل الحارة، يتكلمون ويسعلون، وبعضهم يفلّى نفسه ،وثيابه من القمل والبراغيث، وكان من الواضح أن حزنا شديدا وعميقا جدا يخيم عليهم، والدموع لاتزال تنحدر من مآقيهم، وكانت دار «سعداوى» مفتوحة، وعلى بابها يقف ناس كثار، ومن داخلها يجئ صوت بكاء ونواح، صاح أحدهم لما رآنا، وبدا من صوته أنه يعمل حسابا لـ «خربوش» فحسب: «يا جماعة! يا جماعة! لقد ظلمنا حسن ولد أبو ضب! وها هو ذا قادم من عند ماكينة المياه! ياه! ياما فى السجون مظاليم!»..

فنظروا جميعا فينا، مبهوتين، وبدا عليهم الأسف الشديد، بل قل الخزى يا خال، مع ذاك كان فى عيونهم بريق خبيث، يحوم حولى بالشكوك، ويتحسسنى فى كل موضع، والأنوف تريد أن

تقفز، وتسقط فى عبى، لتشمم رائحة الخيانة تحت لباسى، وقال «خربوش»، كأنه لا يعرف شيئا مما حدث: «ما الأمر يا رجال؟!». فحكوا له الأمر من طقطق لسلامو عليكم. حينئذ صاح «خربوش» مصفقا كفا على كف: «لا حول ولا قوة إلا بالله! الرجل معى من المغرب عند الماكينة وجاء يوصلنى فعزمت عليه بالشاى! أنتم والله ظلمة ولابد أن تستغفروا وتتأسفوا لحسن! هل هو وجه ذلك؟! إنه ابن ناس طيبين وأعمامه شيوخ سجادة فحرام عليكم! كل منكم يحمى نفسه وكفاه ذلك فضلا! بدلا من التعدى على حرمة الناس!». فصمتوا جميعا ولم يردوا، وعادت الدموع تنهمر من عيونهم، مع ارتفاع صوت النواح القادم من دار «سعداوى» السقاء زوج «كاملة». فشوح «خربوش»نحو الدار قائلا: «ولكن ما هذا؟!». فلم يردوا. وبعد برهة نطق أحدهم من خلال بكائه: «البقية فى حياتكم! سعداوى مات منذ ربع ساعة!!»..

مات؟!! وشهقنا معا كأن سهم الله نزل علينا، ولم أدر إلا وأنا أنفجر فى البكاء وأستدير ماضيا نحو دارى ومن خلفى «خربوش» يهدئ من بكائى تارة ويلعننى تارة أخرى. ولقد عزمت فى هذه الصبحية المرخية أن أهجّ من البلدة قبل أن تصبح سيرتى على كل لسان تقابلنى فى كل مكان.

الرابعة. المساخيط إخوتى

وحق هذه الليلة ومساها أن الولد «بربش» كاد يقع من طوله لـ أن فوجئ بى أهبط عليه كالقضاء المستعجل فى قطار الصعيد مرتان يا «بربش» أضبطك فى قطار الصعيد صدفه؟! ألم تقل إنك راحل إلى الإسكندرية لكى تتوه فيها من نفسك بعض الوقت؟ تكون الحكاية وردا وفلا إذا بان لى أنكم جميعا ستظهرون الآن فى قطار الصعيد كصدفة من غير تدبير، وفاتكم أن الصدفة نفسها تخلى بكم وتوقعكم فى المكشوف.

وصرت أضحك يا بوى وأعزم عليه بالسجائر المكن وأشترى شيئا من كل من يمر حاملا شيئا يؤكل أويشرب، وغرضى أن أخفف عن «بربش» هول المفاجأة، إذ راح ينظر لى فى بلادة طرية بعض الشئ عزوتها إلى كنكة حشيش يكون قد تجرعها ولم تشتغل بعد أو ربما كانت كاتمة عليه بعض الشئ، فأنا يا بوى أعرف هذه الكتمة ومقروص منها كثيرا، صرت أطلب شايا ساخنا لزوم التسبيح، وأرقبه وهو يأكل فى السيجارة أكلا، فيما يرمقنى بشئ من الغباوة، فتفكرت قائلا لنفسى لعل وراءه أمر يكدره هكذا، ولكن شيئا إلهيا ضرب فى صدرى، قائلا إنه يتغابى علىّ،

ظنا منه أننى كنت أتعقبه، فانبريت فى الحال شاكرا لله على هذا الفتح، ورحت أحكى لبربش حكايتى مع السفر من طقطق لسلامو عليكم، حتى أنه ابتسم هذه المرة عن حق، وجرع كوب الشاى فى لذة، وعزم على بالسجائر المحشوة، وغمز لى بأن أجعل ذراعى بالسيجارة خارج شباك القطار، حتى تضيع رائحة الحشيش فى الغيطان، التى تجرى أمامنا وخلفنا. وقلت له: «ماذا يكدرك يا بربش؟ فمن واجبى أن أسال عن أحوالك! وأنت قلت لنا إنك مسافر إلى الإسكندرية! فإن كانت فى الأمور أمور جدت على غير حساب فإن رقبتى سدادة كما تعرف! وإن لم تكن وثقت فىّ بعد فيمكنك أن تعرف الآن رجولية أخيك الجالس أمامك! ماذا وإلا فأنت تتكدر فى وجهى بالعنية! ومحسوبك ليس بالذى يتكدر فى وجهه أحد يا بربش يا خوى! أنا لست تلقيحة بل إننى فى المحطة القادمة سانزل تاركا لك القطار كله مضحيا بتذكرة جديدة فى قطارآخر!».

عليها وضحك العكروت، تحلف اليمين إنه أفاق من سكرة غاشية إلى صحوة رائقة. حضننى وطلب لى شايا، ودعبس فى جيبه فأخرج منه شيئا مثل «الشكلاطة» قضم منه قطعة كبيرة غمزنى بها، فما إن قربتها من أنفى حتى زكمتنى كرفة الحشيش الزاعقة، فطوحت بها فى فمى متلمظا، حتى ذابت فى لمح البصر، وملأت فمى بنكهة الحشيش بالشكلاطة. لاذعة، تجلد الأنف وسقف الحلق، وصرت ألحف فى طلب الشاى وإشعال السجائر، وصار الهواء يلفح «قناعية» رأسى بفزارة، كأنه دش المياه فى

الحمام الذى لم أعرفه بعد، فإن هى إلا محطة أو محطتان، حتى انخلعت دماغى عن رأسى، وطارت؛ وصرت لا أستطيع اللحاق بها؛ فصرت أضحك على الفاضى والمليان؛ وأشقى فى استبيان بعض كلام يحكيه «بربش» عن مشواره المفاجئ للصعيد حيث بعث له «الحاج السنى» مرسالا فى عز الليل «يقع فى عرضه» أن يذهب إلى هذا المشوار يستقضى فيه أمانة من طرف أحد أعيان الصعيد الجوانى، لكى يعود بها للحاج السنى، أه مشوار فيه لقمة طرية والخائب من يرد رزقا جاءه لحد عنده..

وكاد دماغى يتعب من الرمح فى الريح، فيرد إلى ويلتبس مكانه من رأسى، فافيق لبرهة، فأسأل «بربش» ما عساها تكون هذه الأمانة يا ترى؟ فيقول إنها مجرد قرشين، شئ إلهى قال لى إن هذا البربش يكذب على، ويسرح بى، يريد أن يأكل بعقلى حلاوة، لكننى نسيته ومضيت أضحك، وأحكى حكايات مضحكة، لكننى لا أذكر شيئا مما دار غير الضحك، فلما فوجئت بالركاب كلهم وقوفا نهضت واقفا مثلهم؛ ورأيت المدينة تقذف بنفسها شيئا فشيئا، فى أحضاننا؛ إلى أن صرنا فى رحمها، بين رصيفين تصدهما البنايات من كل مكان، فصرنا ندفع بعضنا بعضا للوصول إلى باب القطار، وقد ارتفع الزئيط فجأة، وصرنا كما يوم القيامة بالضبط، ومع ذلك انتبهت، فإذا «بربش» يسحب عن الرف حقيبة كبيرة، بدت للأعمى، وهو يسحبها ثقيلة ثقلا ينوء بحمله حمار. قلت: «هات يا بربش أحملها لك» فأخر ذراعه بها فى تصميم أكيد قائلا: «لا! لا! إنها خفيفة فخلٌ عنك أنت!» وكانت

الحقيبة تأخذ كتفه وتنزل به إلى الأرض؛ فأقسمت يمينا أحاسب عليه فى نار جهنم، أن هذه الحقيبة مملوءة بالمساخيط والأحجار المنقوشة مما يسمونه بالأثريات، تلك التى تلدها بطن الأرض فى الصعيد بلا حساب ياخال، مخى ناشف كما تعلم؛ لهذا تلكأت فى النزول، تحككت ساقى بجسم الحقيبة، وتأثرت ملمس الحجر، ورائحة بطن الأرض كرائحة بطن الأم، يحملها الوليد ولو كان حجرا أصمّ..

الله وكيل يا بوى، لقد شعرت والله بحقد شديد على «الحاج السنى» وعلى «بربش» معا؛ وحقدت على نفسى كذلك والله يابوى؛ كرهتها، لشدة خيبتها، وتحركت الدماء فى قلبى، وقلت لنفسى: كيف يتاجر أبناء الزوانى فى إخوتى وأنا واقف أتفرج؟!.. نعم! نعم! فإن هذه المساخيط، وهذه الأحجار المنقوشة بالذهب، هى إخوتى، ولدتهم بطن أرض الصعيد، كما ولدتنى، فكيف ينزعها أولاد المخاريق ويبيعونها بالذهب، وأبقى أنا خداما لهم على طول الزمان؟! هذه الأرض والله لم تعرف العدل طول حياتها؛ لا تعرف إلا النصب والاحتيال به علينا فقط؛ مدارسها تعلم لنا العدل دروسا نسمعها ولا نرى منه شيئا فى الحياة، مخروقة أم كل من يتفلحس ويكلمنى عن العدل، والحق، والضمير والذمة، وكل هذا الكلام الفارغ، الذى نأكل به الأونطة، وغيرنا يأكل الشهد المصفى!.

لم أكن أدرك لحظتذاك والله ياخال، أننى وضعت «الحاج السنى» فى رأسى وقلت إننى لابد أن أجئ بداغه فى يوم قريب.

الخامسة . البساط الأحمدى

ما إن خرجنا من محطة الجيزة حتى بان لى أن «بربش» يريد أن ينسلت وحده؛ بل إنه وقف مادا يده قائلا: «أفوتك بعافية» قلت بلهجة ذات معنى: «وماله!» وعانقت يدى يده، تجاهل غمزتى وقال: «ربما أشوفك الليلة فى القهوة! وربما لا حسب الظروف!» هززت رأسى قائلا فى عشم: «وماله برضه! ربنا معاك ياولد!».. وتركته ومضيت.

وليّت وجهى نحو دار «هندى» فى حوارى فم الخليج. فلما وصلت ضربت الجرس كثيرا، فلم يرد أحد؛ فأبقيت أصبعى فوق الزرار مدة كبيرة، وصوت الجرس يزعق ويجلجل فى قلب الحجرة، ويسمعه الرائح والجائى.. فعرفت أن «هندى» يشوف حاله فى الشوارع؛ فوليت نحو «قهوة صفصف» وقد شعرت أننى خرمان، ونفسى تطلب الشاى والدخان، الله وكيل يابوى؛ عينى ونيتى كانت على «قهوة صفصف»؛ لكننى وجدت نفسى أمشى بحذاء شادر «الحاج السنى» دون أن أدرى؛ مع أننى والله يابوى ما فكرت فى الذهاب إليه ولا خطر فى بالى أن أمر من جواره؛ وحتى لم أكن أدرى أننى أمر بجوار الشادر أصلا؛ لكننى لحظتها

وجدت نفسى واقفا فى الخلاء الفسيح بعد انفلاتى من الحوارى الضيقة الملولبة؛ والنور الساطع كان يغمر الخلاء ويدهنه بلون صفار البيض، ودماغى غير موجودة على كتفى يا بوى، تحلف اليمين أننى ما كنت أجد لها أثرا على كتفى، وإلا كنت تفطنت إلى أننى فى رحاب جامع عمرو بن العاص، الذى أعرفه ويعرفنى حق المعرفة، كان الظن لحظتها أننى نسيت دماغى تائها فى الهواء الشديد، فى الحقول التى اخترقها القطار؛ وعجبت كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان بدون دماغى! وسألت نفسى لبرهة سريعة: أين كنت قبل هذه اللحظة مباشرة؟ فما ظفرت بجواب؛ وبقيت حائرا لوقت طويل كأن طائرة «هالوكبتر» رمتنى من السماء فى هذا المكان وولت! حتى قباب جامع عمرو كانت مزهزهة على غير العادة، مطلية بالغموض،تذكرنى بأننى رأيت مثلها ذات يوم، غير أنى لا أذكر أين ونظرت فوجدت أمامى طريقا يمتد فيه النور إلى مالا نهاية، وبجوارى طريق يتقطع فيه النور بعد بضعة أمتار، حيث يختفى بصيص الفوانيس فى هضاب من الظلمة مدببة، تشبه سنام الجمل، سرعان ما فطنت إلى أنها القرافة، وأن هذا الرصيف هو نفسه الذى يقع عليه شادر«الحاج السنى»، ذلك الشادر الذى مررت بجواره عدة مرات، وفى كل مرة أتصور أن ماتما كان مقاما هاهنا وانفض؛ وتبعا لذلك فلابد أننا الآن فى منتصف الليل؛ إلا وصوت الآذان ينطلق من فوق مئذنة جامع عمرو، فاستهديت أذنى صوت المؤذن فتعرفت عليه ولكن كأنه الحلم، ورأيت الحركة تدب فجأة والناس يهرولون نحو

الجامع، وولدان يجرون بطاولات العيش؛ فلما حاذيت الشادر، ونظرت الدور المجاورة له، ووجدتها صاحية وصوت الراديو والتليفزيون يعلوان فيها على كل الأصوات، تفطنت إلى أن الآذان هو آذان العشاء؛ وتفطنت إلى أن الذى يفعل لى كل هذه الأفاعيل هو قطعة «الشكلاطة» بالحشيش التى أعطاها لى «بربش»، فصرت اضحك وأتطوح كالسكران، وألعن أبا خاشه، وإذا بصوت ضحكات عالية تنطلق من وراء ظهرى، فتفزعنى فألتفت حولى مرعوبا وكركرة الضحك مستمرة، بربشت بعينى فى الضاحكين، فوجدت أنهما «بربش» والخفير، وقال «بربش» وهو يخرج من ظلمة الشادر ليسندنى «مالك يا متنيل على عينك! رايح فين؟» قلت: «منك لله يا بربش يا مفترى! أنت الذى فعلت بى كل هذه اللخبطة!» قال: «كنت تمشى ورائى؟!» قلت: أبدا والله! إنما كنت أسال عن هندى فى داره فلم أجده! فقلت أذهب إلى القهوة أنتظرك حتى تجئ! فلم أدر إلا وأنا ماش من هنا غصبا عنى! وها أنذا كما ترانى تلخبط غزلى والسبب أنت»..

والعكروت يضحك ويتمايل ويتطوح من شدة الضحك، والخفير هو الآخر يحفر فى الأرض من الضحك؛ حتى تعبت من الوقفة ومن الضحك، فتقرفصت على الأرض، وأشعلت سيجارة، ثم تذكرت، فوزعت عليهم السجائر؛ وحلفت بالله أن الخفير يكون جدعا بحق وحقيق لو عمل كوب شاى ينوبه ثواب، الخفير ما صدق أن سمع الكلمة ونهض قائلا: «دانا حتى عايز أشرب شاى! وأنت كمان يا بو على خيرك علينا لسه فيه منه عندنا!» ودخل

يعمل الشاى وبقيت شاردًا فى ملكوت الله وحدى، و«بربش» يضحك ويعاكسنى بحصو من الطوب يرميه بجوارى حتى أفزع وأخاف؛ إلى أن جاء الخفير بالشاى فقبضت على الكوب بيدى، وشفطت منه شفطات ساخنة وراء بعضها فى لذة كبيرة، حتى شعرت بأن عينى صحت من النوم ومن الغشلقة، فصرت أتكلم بوعى، وفى انبساط لا مثيل له، فى أمور كثيرة نسيتها؛ لكن «بربش» والخفير كانا يصيحان بين وقت وآخر قائلين: «يا سلا ام..يا سلام على الحكم والكلام اللى زى العسل!».

وفيما أنا مندمج فى الكلام الذى هو مثل العسل، مادريت إلا وأنا واقف أواصل الكلام والكوب فى يدى، وأنا أشوح وأمثل، وأهرج؛ وإذا بـ «بالحاج السنى»مقبل من الجامع بين جمع من الأفندية المحترمين يتكلمون فى حديث نبوى شريف يقول «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ونسبها» ولا أدرى لماذا أيضا وكان بعض الأفندية يشير بأصبعه فى نفى وتصميم قائلا إنه حديث مدخول، والحاج السنى يقسم إنه صحيح وأنه قرأه فى البخارى ومسلم عن ، وصار يرص أسماء مثل قلاقيل الطوب كانه ألفها من دماغه، والأفندية يصلون عليهم طالبين رضا الله عنهم وعنهم أجمعين، مما يؤكد أنهم يعرفون هذه الأسماء، مع أننى لم أسمع بهم قط فى دار عمى الفقيه الكبير؛ ولكن، ليس كل من يستحق الصلاة على النبى ينالها.

صرنا جميعا وقوفا فى استقبالهم، صامتين، إلى أن يفرغوا من الكلام، فتقدمهم «الحاج السنى» قائلا: «تفضلوا»، فمشوا وراءه

فى صمت؛ وإذا هو يتأملنى برهة ويقول: «الواد حسن أبو على! إيه اللى جابك دلوقت يا عكروت؟ جئت فى وقتك والله! تعال! تعال!»، وسحبنى من أذنى قائلا: «تعال ورائى! فلك الليلة عوزة» واستدار قائلا: «مع السلامة أنت يا بربش وتعال قابلنى هنا بعد باكر بعد صلاة العصر!» فقال «بربش» بصوت غير منبسط: «حاضر ياحاج»،ثم أضاف: «أشوفك الليلة ياحسن؟» قلت «ما أعرف» قال الحاج: «لا تنتظره الليلة!» قلت لنفسى: «بشرة خير يا ولد! جاءك الفتح على الطبطاب!» ومشيت خلفهم مانعا دماغى من التفكير فى الأمر الذى يطلبنى من أجله الحاج حتى تكون المفاجأة طيبة.

قلب الإنسان دليله يا بوى، خاصة إذا كان إنسانا طيبا مثلى وعلى نياته، وقد دلنى على أن هؤلاء الذين يمشون أمامى مع الحاج، هم من علية القوم ذوى المهابة؛ إذ هم يتحركون فى صيغة أمر ونهى، حتى ولو لم يفعلوا غير الابتسام وحنى الرأس فى تهذيب، ولما صار قلبى يرتعش فجأة، ويدق فى صدرى كالطبل البلدى، فهمت أن هذا الدق بالذات لا يدوى إلا لحظة مصادمة الخطر الحقيقى الذى أصير فجأة فى قبضته، آه من هذا الدق يا بوى، أعرفه جيدا يا بوى، عمره ما خاب أبدا فى أى إنذار وجهه لى بهذا الطبل الذى يهزنى، إنه يشبه النفير النحاسى والذى يجعر كالجاموسة، علامة على مجئ المأمير والضباط والناس الأبهة، وأيقنت أن الملامح التى رأيتها على وجوههم فى ضوء الشارع الشاحب، سبق أن رأيتها بنفسها مرة، بل مرات فى مكان بل

أماكن كثيرة لست أدريها الآن بالضبط يا بوى، لكننى أدرى - وقلبى دليلى - أن هذه الأجسام المهيبة بنظراتها وملامحها وابتساماتها وانحناءة رءوسها المهذبة مربوطة فى قلبى بالغلب والرعب والضياع، ومربوطة فى نفس الوقت من طرف مقابل بالله فى سماه مستويا على عرشه يرانى ويرى كل شىء ولابد أن يعذرنى ويقف فى صفى، وإلا فهل رأيت عمرك أبا يقف فى صف أعداء ولده مهما كان عاقا؟ هكذا يا بوى كلما دقت طبول قلبى أرعدتنى وفتحت مخى على عرش السماء، فى الحال أتمنى رؤيته لتقبيل أعتابه.

توكلت على الله ومضيت فتخطيت البوابة الصغيرة التى تتوسط البوابة الكبيرة، وغاصت قدمى فى السجاجيد من أول خطوة؛ حتى السلم عليه سجاجيد محندقة. قطعنا نفس الرحلة السابقة صعودًا وهبوطًا ومرورًا فى ردهات وممرات حتى صرنا فى غرفة البرج، حيث الشلت والبفات والحمير الخشبية المنجدة. فتحها الحاج وقال: «تفضلوا»، ثم إنه أردف قائلا: «أحضر لكم جلاليب خفيفة؟ يستحسن طبعا!» فحلفوا جميعا فى نفس واحد ألا يتعب نفسه؛ وشرعوا فى خلع أحذيتهم والجلوس على الشلت المريحة، متأوهين من فرط التلذذ. حينئذ طوقت عينى وجوههم واحدا واحدا؛ ومن واحد إلى واحد تنتقل الرعشة من قلبى على نغم الطبول إلى ساقى. فصرت فى وقفتى المتخشبة أرقص رقصة الفزع؛ رقصة الدجاجة بعد ذبحها؛ بل إننى صرخت فعلا يابوى، ولكن من قرصة دامية فى كتفى تقول إنها كلابات من الحديد يا

بوى؟! إذا بها أصبعى الحاج السنى وإذا به يريد أن يغمزنى مجرد غمز. هكذا قال وهو ينتفض من الضحك كطفل عابث جرىء، والضيوف يضحكون لضحكه ولفزعتى. أفيك كل هذه القوة الجسدية الجبارة يا مديوب؟ لابد أن يقيم المرء حسابا لهذا. ثم إنه غمزنى ثانية غمزة أخف قائلا: «خل بالك مع هؤلاء الرجال على قدر ما تستطيع! هم حبايبى وإذا لم ينبسطوا ساقطع رقبتك!». قلت ـ مع أننى لم أعرف بعد كيف سأبسطهم يا بوى: «رقبتى للبهوات! إن شاء الله يكونوا مبسوطين آخر انبساط!». فقال: «أريد أن أرى شهامة الصعايدة! هم بلدياتك على العموم!» ، ثم سحبنى قائلا: «عن أذنكم»؛ فمضيت تحت إبطه كنعجة منجذبة بأعواد خضراء.

عند آخر السطح من خلف البرج وحواليه بنايات منفصلة، لم أكن رأيتها فى المرة الأولى، إذ هى فى أسفل البرج، مشينا قليلاً فى مربع كبير مسقوف بألواح الزجاج الجملون كالهرم. نزلنا حوالى أربع درجات سلم، وكأننا نهبط داخل البرج نفسه لنحود بعد ذلك يمينا أو شمالا حسبما نهوى، حودنا يمينًا فيمينًا؛ فإذا بنا فيما يشبه المطبخ، كل جدرانه بالزليزلى والقيشانى وفيها رفوف كثيرة كبيرة من الرخام، ودواليب بيضاء، وثلاجات ومواقد وأفران؛ وفيه من خيرات الله ما لذ وطاب، تحلف اليمين ولا معرض من معارض عمر أفندى وشركة بيع المصنوعات، أربعة رجال يلبسون الطراطير والجلاليب البيضاء، منهمكون فى غرف

وشوى وقلى وتخريط وتوضيب وتصفيف، ورائحة الأكل تضرب فى الحجرة تقلبها.

فتح «الحاج السنى» بابا أسفل رف رخامى؛ فكان الحائط انفتحت بضلفتين. حاجة تهوس يا بوى؛ وإذا الفتحة مليئة بعشرات الأحجام من الحلل. مد ذراعه ودعبس فى الداخل وأعاده بكيس كبير من أكياس الفاكهة منظره كالح وعليه بطش الهباب، وتطل منه البوصة الطويلة ورقبة البخش، أعطاه لى؛ فقلت لنفسى: «ليلتك فل يا ولد الحرام وأنت لا تستأهل لكل هذا النعيم من الله ولابد أن تصلى له منذ الآن!» زحف الحاج نحو باب آخر تحت رف آخر، فتحه ونظر فى الفتحة، وشوح بالمسبحة فى وجهى قائلا: «اترك هذا! اترك هذا!»؛ فأعطيته له، فركنه ، وسحب حقيبة من حقائب الخضروات من المشمع، فيها جوزة هند كبيرة كاملة، وحزمة من البوص الاحتياطى الذى هو عبارة عن أعواد من شجر الورد مجوفة من الداخل كالبوصة، وحوالى أربعين حجرا من النوع الجيد المزلط، ووجاق نحاسى مشغول بالنقوش الأثرية، وبضع ماشات من معدن مصقول بأحجام مختلفة. حاجة تهوس يا بوى؛ مد ذراعه فانتزع الجوزة وقال: «طلع دول فوق وتعال!» قلت: «حاضر»، وفعلت؛ ونزلت؛ فأعطانى مشمعا مطويا أمرنى بفرشة فوق؛ وأمرنى بأن أسيخ الجوزة وأعمرها بالمياه المثلجة وأضبط إيقاعها جيدا، ففعلت، وفتح بابا من عشرات الأبواب فى الحوائط، أخرج فيتة معسل مزاج كامل كبيرة فيها عشرون باكو،

سلمها لى قائلا: اطلع، فطلعت، لأجد السفرجية قد مدوا طبلية طويلة وسلموا كل واحد فوطة نظيفة فردها على ركبتيه؛ وشرعوا يجلبون الأطباق المحملة بالأطايب الساخنة. فتسللت عائدا إلى المطبخ، وقلت للواقف فيه: «عشينى يا خوى قبلما ندخل فى شغل الغويط! وإلا حملونى من هنا على القرافة طوالي!». قال الطباخ: «نعشيك يا بو العم! اتفضل اقعد!»، وسحب ضلفة من الحائط فإذا هى ترابيزة كاملة استوت واقفة على الأرض موصولة بالحائط،وسحب كرسيا مستديرا وقال: «اقعد»؛ فقعدت؛ فصار يغرف ويضع أمامى حتى امتلأت الترابيزة بالأطباق؛ وحرت بين الأصناف لكننى أكلت منها كلها كفايتى، وتركتها فارغة توحد الله لا تبغى غسيلا. ونهضت؛ فقال الطباخ باسمًا: «لسه! الحلو!». قعدت مصفقا بيدى فى طرب: «ما أحلى منك». فوضع أمامى مجموعة أخرى من الأطباق فيها مهلبية بالفسدق واللوز والجوز والبندق وفيها كل ما ذكره لى الطباخ من الأصناف التى لم اكن سمعت بها من قبل أبدا. حاجة تهوس يا بوى. أكلت من كل ذلك كفايتى وقد انفتحت نفسى، ونسيت أن بطنى لها وسع محدد.نهضت متلمظا فقال الطباخ: باسما: «لسه الفواكه!». قلت جالسا: «لم يعد فى بطنى خرم إبرة!». قال: «مطها يا بو العم!»؛ وفى الحال رفع هذه الأطباق ووضع بدلا منها أطباقا كبيرة، عليها برتقال مشقق وتفاح وخوخ ورمان وتين وعنب، وحديقة كاملة بأصناف لا نراها عند الباعة فى الأسواق. أكلت منها هى الأخرى كفايتى، حتى وصل الأكل إلى حلقى. وتذكرت أن عمى الفقيه قال

ذات مرة إن الجمل يختزن الطعام فى جوفه لوقت جوع لا يتوفر فيه الطعام فيجئ به من بطنه ويمضغه ثانية ليعيش عليه. فانبسطت على الآخر لما تذكرت هذا القول، وقلت: فلأكن جملا يخزن الطعام لوقت جوع قريب، وهو على كل حال مهما زحم معدتى وأتعبنى فإنه إلى زوال. عزمت على الطباخ بسيجارة فأبرز لى علبة أجنبية وقال: «ماباغيرش! خذ أنت واحدة نظف بها صدرك!». فأخذت يا بوى، وبالفعل أحسست بنفسها الرطب ينفذ فى خياشمى وصدرى ناعما كالنسوان الخواجات. ثم مضيت إلى فوق أجرر ساقى. وكان الرجال يقابلوننى عائدين بالأطباق تلالا فوق بعضها.

الضيوف كانوا متقرفصين أمام البرج يغسلون أيديهم فى الطشت النحاسى والولد يصب على أيديهم من بزبوز الأبريق النحاسى المشغول بالنقوش الأثرية. اتخذت طريقى إلى المشمع فرشته فى الركن، وفردت عليه العدة، وملأت الوجاق بالفحم، جاءنى ولد بقطع من الفحم المشتعل وضعتها فى الوجاق وصرت أمروح عليها بذيل جلبابى حتى صهلل الوجاق بالنار. انعطفت على الحجارة فجلعت أنظفها وأضع فيها الحصو وأحشوها بالدخان المعسل وأرصها بجوار بعضها؛ وعينى لا تكف عن التأمل فى الضيوف وتفحص كل ضيف، لكن واحدا منهم هو الذى كاد ينسف أبراج دماغى كلها من أساسها، إذ أننى أراه كثيرا ولكننى لا أذكر متى وأين أراه، ولولا أنه يرتدى الجلباب البلدى والطاقية

ويمسك بالعصا الأبنوس ويقول له الحاج يا أسطى، لولا ذلك لقلت إنه أنور السادات بعينه الخالق الناطق حتى فى الصوت والكلام والنظرات. أخرج أحدهم من جيب صديريه علبة ذهبية كعلبة النشوق، فتحها ونفض منها قطعة حشيش مدملجة صار يرص منها تعامير فى حجم المليم الأصفر يضعها على ظهر علبة سجائر مارلبورو. بعد برهة فوجئت بالحاج السنى يرمى فى حجرى خلسة قطعة حشيش لا تقل عن أوقية، وأشار لى بغمزة أن أرص منها برحمة. ففعلت. ثم بدأت معمعة الشرب يا بوى؛ أدور عليهم بالجوزة وأسحب البهريز من وراء شربهم وفوق ذلك آخذ دورى فى توليع حجر مثلهم. صهلل الجميع وتفككوا من ثيابهم، وخرجت أصواتهم المحتبسة منطلقة تتكلم بصوت عال، تروى النكت الإباحية والسياسية وينفجرون فى الضحك.

حجر وراء حجر ودور فى أثر دور، نجحت دماغى فى معرفة كل هؤلاء القوم واحدا واحدًا يا خال، تيقنت من شخصياتهم يا خال؛ فيما عدا ذلك الرجل الأسمر الوجه الذى يقلد أنور السادات ويتلمظ بشفتيه مثله وعند الحديث يواوئ مثله. أما بقية القوم يا بوى فإنهم كلهم ممن حققوا معى يوم أمسكونى أهرب الأسلحة. هذا الذى يجلس بجوارى تخين الفخذين كبير المؤخرة ممدود الكرش قصير الرقبة تخينها ووجهه كالأوزة المحمرة، بشفتين غليظتين وعينين براقتين تلمع فيهما الشتائم على الدوام حتى ليظهر كأنه يشتمك وإن كان صامتا.. هذا الرجل يابوى هو أول

من تلقانى يوم أمسكوا بى. أما هذا الأفندى الجالس بجواره، المحبوك حتى وهو مشمر أكمامه موسع ربطة العنق فاكك زراير الصديرى، بشبابه الطالع نحو الخمسين من عمره، وجهه الأبيض المحمر الشبيه بفردة حمام زغاليل، بضيق عينيه وصغر رأسه، والشعر الخفيف المبيض المتناثر حولها، وشفتيه الرهيفتين المزمومتين حتى وهو يتكلم، وحتى ليحار مستمعه فى معرفة من أين يطلع هذا الكلام الواضح المرتب الممتلئ بعبارات مثل «حيث إنه» و«الأمر يتوقف» و «القانون لا يحمى المغفلين»، بصوت قوى رنان، ويغمره الوقار الشديد حتى وهو يقول نكتة على الرئيس أبو عبدالناصر. هذا الرجل الملعون يا بوى هو اللى حقق معى تحت وابل من الكرابيج. حاجة تهوس يا بوى؛ سبحان الذى أجلسنى بجواره الآن حجرا لحجر، تخرج البوصة من فمه إلى فمى. ياللعز الذى أنا فيه الآن. أما هذا الرجل الثالث، النحيف، الذى تميز عن الجميع بأن أخذ راحته على الآخر، فمدد ساقا وعوج الأخرى دون أن يقول دستوركم، بل وانعوج متمددًا على فخذه الأيمن منشغلا فى العبث بمؤشر راديو صغير جدا فى كفه، حتى إذا جاءته بوصة الجوزة مد بوزه الرفيع الشبيه بـ «عقدة وشنيطة»، وصار يشفط الأنفاس بهدوء وروية حتى يأتى على الحجر ثم يضع كفه المستطيلة بأصابعها السرحة على فمه وأنفه تاركا لدخان يعود من جديد إلى فمه وأنفه تدمع لدى ذلك عيناه، فيمسح على جبهته الضيقة ورأسه الشبيهة بأصص الزرع، غزيرة الشعر قصيرته، قصير السوالف، وخط تصليح الحلاق لامع

بوضـوح شديد حـول أذنيه وعلى قـفـاه الخطوط بالمسطرة. هذا الرجل يا بوى آه منه؛أعرفـه ولا أعرفه، أرى صـوره فى الجرانين المفرودة عند بائعى الطعمـية وماسحى الأحذية والحـلاقين، يظهر والله أعلم أننى رأيت صورته ذات مرة بالبذلة العسكرية فى برواز على الحائط فى منزل لا أدرى من، إنما أدرى أنه منزل كبـير، فهو إذن لابد أن يكون رجلا تخـين المركز يا خـال؛ والحاج السنى هذا الملعون لا يريد أن يبوح باسمه، ويكتـفى أن يناديهم جميعا بـ «يا سعـادة البيه»، ويا أفندم، ويا سـعادة الباشـا، وحين يكون الكلام عن نفسه يقول: خادمكم المطيع أحـمد السنى يقول لكم بعد إذنكم كذا وكذا.

دماغى لفت يا بوى، تحلف اليمين أن البرج الذى كنا نجلس فيه صار يطيـر فى الهواء. الفجـرقال الله أكبـر ونحن نطفئ النار فى الوجاق ونلم العدة والضيوف يلبسون أحذيتهم ويزررون ثيابهم ويشربون بعض المياه المثلجة قبل خروجـهم للهواء. سبقهم الحاج السنى نحـو الباب ملتفـتا نحـوى آمرا بأن ألم العدة كـلها وأكنس المكان جيدا وأطلب من الخادم أن يوصلنى إلى باب الخروج حينما أنتهى من مهـمتى، وإننى لأكون جدعا بصحيح لـو غسلت أرضية الغرفـة بالماء والخيـشة. وكنت أظـنه قد رأى النوم مـعششـا فى عينى، لـكننى تأكدت أن النوم فى عينيه هو سـيمنعـه من صلاة الفجر على النحـو الذى يهواه.. لكنه مضـى أمام الضيـوف فهبطوا السلم، وابتـعدت أصـواتهم، ثم اختـفت، ثم ظهرت من جـديد، ثم ابتعدت، لتختفى نهائيا.

السادسة: الطريق الملكى

تسلقت الشبـاك ونظرت فى الشارع، فرأيتهم جـميعا يـمشون نحو جـامع عمرو، فنزلت، وجعلـت أمشى هنا وهناك. رأيت الولد الخادم متكورا خلف البـرج فى الطراوة، مستغرقـا فى نوم عميق يأكل الأرز باللبن مع الملائكة. أسـرعت بتنفيض الفـرشة والأرض بصنعة لطافة، حتى نظفتها جيدا فى دقائق معدودة، وحملت العدة إلى المطبخ، فـوضعتـها فى نفس الدولاب، وخـرجت. وبدلا من أن أستـدير يمينا استـدرت شمالا، ومـشيت قاصـدا الباب الذى منه أصعد إلى البرج لأوقظ الولد، كى يفتح لى باب الشارع لأخرج..

فـإذا بى قد صـرت فى ممر ضـيق مـضاء بلمـبات سهـارى صغيرة، ومـفروش بالسجاد فوق أرض من الخشـب، ترن فوقها الخطوات، حـوائطه جـمـيلة الشكل، مـزدانة بالـلوحـات الملونة، المبـروزة، والأنتـيكـات وبين كل بضع خـطوات تبـرز من أحـد الجدارين حنية مـتكورة، أحود عندها يمينا، وأحيـانا شمالا. وفى كل حنية عـدة طاقات فـوقها زهريات ورد يتـضوع منهـا الضوء الوردى الخافت عبر مصابيح على شكل أيقونات ومساخيط..

السُّطَل يا بوى هيات لى أننى ماش فى قصر من قصور الجنة لا يعترض طريقى أحد فلابد إذن أن يكون رضوانها الخفير مسطولا هو الآخر حتى نام يأكل أرزا باللبن مع الملائكة. صوت إلهى جعل يرن فى صدرى قائلا: إرجع يا ولد قبل أن تتوه ولا تعرف كيف تعود. وصوت آخر حاد لعله صوت أبى يزغد هذا الصوت الإلهى قائلا: إمش ياولد ولا يهمك اضربها طبنجة فلن يحدث لك إلا ما هو مكتوب عليك، تفرج على هذه الأبهات التى لم ترها فى حياتك من قبل، شف كيف الأغنياء اللصوص يعيشون يتمتعون بجنات النعيم فوالله يا بوالعم لا يحظى بهذه الجنان سوى فجرة اللصوص أما نحن فتعال قابلنى يوم القيامة لو شفناها؛ إننا فى فقرنا وعجزنا نسبّ الدين، نسرق، نقتل، ولن نحظى بالجنة فى الآخرة مهما تبنا ـ وهل سنتوب؟..

انتبهت إلى أننى مع مغادرتى لكل حنية يتعين على أن أنزل درجة سلم صغيرة، فاتبين على أثرها أن كل حنية فى الممر هى عبارة عن عامود من الاسمنت المسلح المدهون بألوان الزيت، لاحظت كذلك يا بوى أن بعض الشبابيك فى أحد الجدارين قد تحولت إلى نوافذ دائرية صغيرة كنوافذ السجن فى أعلى الجدار، ثم إنها اختفت تماما بعد عدة سلمات هبطتها على امتداد ذلك الممر الدائرى العجيب. إنه يتسع لشخصين اثنين بجوار بعضهما لا غير وبالكثير ثلاثة، رفيعين مزنوقين..

على بعد قليل كانت ثمة حنية جديدة تقترب، فأخذت استعد لنزول درجة السلم التابعة لها حتى لا أتعثر. هى الأخرى محفور

فيها طاقة مبطنة بالخشب من رفين منقوشين، على أحدهما زهرية ورد مضيئة وعلى الآخر مسخوط من الفضة اللامعة. وإذا بالهواء يكثر فجأة، كالمطر يتدفق من السماء، وسمعت أزيزا يشبه الأنين ويشبه زيق صدور المدخنين ويشبه كذلك الصريخ المكتوم. توقفت متجمدا من الرعب ياخال، باحثا عن مصدر هذا الهواء من أين جاء وهذه الأنات من أين طلعت. ثم إن الممر انفرش فجأة بالنور الربانى السماوى، فصرت أنظر فى السقف، فرأيت ناروزة فيه، عبارة عن فتحة مستديرة فى سقف مقبب يتساقط منها الضوء والهواء. جعلت دماغى تحت الفتحة مباشرة وتربعت فوق الأرض ناظرا فى عمق الفتحة فوجدتها غريبة مظلمة من الداخل، فنمت مسطوحا على الأرض ناظرا فى الفتحة محاولا رؤية السماء فلم أقدر، لأن الفتحة كانت تحتوى عينى، فكأننى أنظر فى جوف مئذنة منبعجة بعدة أدوار مقببة، تنتهى فى شاهق البصر بعمة تشبه عمة الجيلاتى فوق كأس البسكويت. قلت: لا إله إلا الله، واعتدلت جالسا ثم واقفا، وقد أحسست بدوخة كبيرة لا أعرف من السطل أم من الخوف أم من التعب؛ فتسمرت فى مكانى يا بوى، وأخذ الهواء يشتد فجأة، ويسكت فجأة؛ لكنه كلما اشتد أو سكت، ارتفعت معه الأصوات التى تشبه الصريخ والأنين؛ فصرت أبحلق فى كل شىء فى الممر؛ فخيل لى أن الحنية التى تبعد عنى مقدار ثلاثة أمتار تهتز وتتحرك..

قلبى راح يزعق ـ اقصد يخفق بشدة: عامود من المسلح يتحرك؟

لابد أننى مسطول سطلة الجنون، فها هو ذا عامود الحنية يقف من جديد ثابتا فى مكانه.. ولكن، ها هو ذا يتحرك ثانية، بل إنه يقبل نحوى، يكاد ينخلع من الجدار، ينكسر، يقبل نحوى، وا..ه.. يابوى..وقعت أنا فى قمقم العفاريت بدون شك. شئ إلهى نطق فى صدرى قائلا: إجمد يا ولدى وكن رجلا. فصرت أتحرك نحو الحنية فى شجاعة مرتعشة، وفى نيتى أن أمسك العامود بيدى؛ لكننى ما كدت أقترب من العامود خطوة واحدة، حتى رأيته ينفصل عن الجدار ويقبل نحوى مندفعا هذه المرة كالرياح النافرة المباغتة، يهبد فى الحائط المقابل ثم يبقى مستكنا تماما. وبذلك انسد الممر تماما بعامود من الأسمنت المسلح ذى رفوف عليها ومساخيط ينبعث منها الضوء الملون. لحظتئذ ظهر لى بشكل قاطع كأن الممر لم يكن مفتوحا من قبل، وأنه مسدود بهذا العامود ذى الشفة العريضة من عهد بنائه، أى والله يا خال قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب. اقتربت من العامود الذى صار فى هذه اللحظة مرادفا لعقلى. وضعت يدى عليه، فأحسست بنعومته وثقله ..دفعته، فإذا هو ثابت ثبوت الجدار فى الجدار، دفعته بقوة، فإذا هو يهتز قليلا، فدفعته بقوة أشد، فإذا به ينزاح ببطء؛ ليرتد آخذا مكانه السابق؛ وإذا الممر ينفتح من جديد..

نزلت السلمة المعتادة عند كل حنية؛ وجعلت أنظر فى أمر هذا العامود أتحسس طرف شفته التى التحمت بالحائط فكادت معالمها تختفى. أدخلت أطراف أظافر أصابعى بينها وبين الجدار وشددت

بقوة؛ فإذا بالعامود كله ينشد معى ببطء أول الأمر ثم بسرعة ينجذب إلى الناحية الأخرى قافلا الممر من جديد. رأيت وراءه فراغ فتحة باب، فإذا هو عامود وباب فى نفس الوقت، إذا التحم بالحائط لا يستطيع الغريب عن هذه الدار اكتشاف أنه باب. ونظرته من ظهره فإذا فيه «شنكل» سحرى، فى مكان غامض، يمكن فتحه بمد اليد من الطاقة تحت الزهرية مباشرة، حيث تدفع اليد رقعة صغيرة من الخشب دفعة تلقائية، لتنزاح، فيصطدم كف اليد بالشنكل، فيفتحه أو يغلقه..

رأيت هذا الباب السحرى يفضى إلى سلم غائص فى الأرض؛ فصار قلبى يزعق من جديد فى ضرباته، يهزنى كأنى ساقع فى بئر غويط. مع ذلك شمرت ذيل جلبابى، ونزلت.. أمال يا آبا.. الرب واحد والعمر واحد.

السابعة : الإمبراطـــــور

الفتـحة من أساسـها فتـحة بئر، ومن حـقى أن أخاف يا بوى، فالعـمر ليس بعزقـة بصرف النظر عن الجراءة. أمـا السلم الهابط فيه فمثل الزنبرك، يدور حول نفسه. حاجة تهوس يا بوى. ما هذه الدماغ الرائقـة، التى حفرت هـذا البئر الصـخرى فى هذه الأرض وحفرت هذا السلم فيـه، وجعلت له ـ شف الفجر ـ ـ درابزينا من حديد ناعم، عبارة عن مثلثات كـالأهرامات، واحد معدول، يجاوره آخـر مقلوب؛ مـشدودة بين قـضيـبـين، أحدهمـا ثابت فى الدرج والآخر مطلق السـراح يتلوى ويتعوج هابطا فى حوض البـئر إلى عمق غويط جدا..

رجلى تخشبت على أول درجة، وقبـضتى استماتت على حديد الدرابزين، وقلبى يرقص كاوزة ذبيحة. العجب يا خال أن صدرى كان منتفخا كأننى فرعون بذات نفسه. يظهر والله أعلم أن درجات السلم محـمولة بالعنيـة كى تجعل من راكبـها هكذا قلت فـما بالى أرتعش هكذا وكأننى مجبر على نزول القبر حيا؟ قلت: لأننى لست بفرعون صـعيدى أنا وأعرف مقـابر الفراعين معرفـة ديارى، كما

أعرف أصالة المساخيط من زيفها معرفة الأخ لأخيه ولو بعد غياب مائة عام؛ وأعرف منهـا مالو عرفته الحكومة لاحـتلت الصعيد كله ولكن هيـهـات، ولرحلت عنه سكانه ووضـعت بدلا منهم خـفـراء بنبابيت وأفندية من هيئة الاثار، كذلك أعرف المقبرة من المغارة من السرداب من المتـاهة من الشرخ الجبلى الـواسع، ليس هذا فقط يا بوى؛ بل إننى لأعرف مقبرة الأمير من مقـبرة الفقير، مثلما أعرف جحر السـحالى من جحر الثعابـين لست فى ذلك فارسا، خل بالك من هذا؛ إنما هى خـبرة توارثتـها عن أهلى، وتأكـدتها من سـعيى على ظهرهـا؛ أقصد الأرض، بل أقـصد هى، المقـابر؛ فالأرض هى المقابـر والمقابر هى الأرض؛ والواحـد منا يا خال مـذ يفتح عيـنيه يرى الأرض مباشرة، وتظل عينة قريبة منها مهما استطالت قامته؛ ولا وسـيط، لا عـازل بينه وبينهـا؛ يده فى أحـشـائهـا، كـمـا أن أحشاءها فى جوفه على الدوام. ولذا فـالواحد منا يا خال ـ أقصد الجنوبيين ـ قد رزقه المـولى الكريم عينا نطاطة، تحط على هامات الجـبال، وفى سـفوح الأرض. ومـحـسوبك بالذات ـ بفـضل هذه العين اللعـبية ـ عاش حـياة الطيور وحـياة الحشرات مـعا تحلف اليمين ـ لا كذب ولا ميْس ـ إننى أحـمل فى صدرى وقعر دماغى ذكـريات الحشـرات وذكريات الطيـور مـعا، وأقـدر على أن أفكر كأننى حشرة، وأفكر كأننى طير.. لأن حـياتى الفائتة كلها لم تكن غير يومين اثنين، يوم كحشرة، ويوم كطير...

إن كان على المقـابر فيـاما نزلتهـا فى أنصاف الليـالى؛ لأخفى بداخلها مـسروقاتى، بجوار هشـيم من عظام الموتى؛ بل إننى أيام

شعورى بغلظ الصوت وطلوع العانة ورمى النعمة فى الحلم، شعللنى الجنون، فاستدرجت امرأة عبيطة ضالة؛ ونيمتها بجوار الهشيم، وشرعت أتأكد من رجولتى. فما دريت إلا والميت يزغدنى بكف متخشبة فى جنبى زغدة مؤلمة ويقول بصوت مسلوخ كصوت صرخة النار المكتومة: «يا أخى اختشى وخل عندك رباية! بقى راجل أنت؟!» أما العبيطة الضالة فانفجرت ضاحكة بصوت هائج؛ وأما أنا فقد اندفعت خارجا أعوى، والشرر الأحمر يتطاير من عينى، بعد إذ اصطدمت جبهتى بسقف باب الفسقية، وما كان صراخى وعوائى خوفا من الميت الذى نطق، بل خوفا من «زقلط» قاطع الطريق، الذى نعرف جميعا أنه يخاوى جنية تؤويه فى دار لها تحت الأرض؛ ولم يكن يخطر لى فى بال أنه يستوطن هذه الفسقية بالذات.

حضرتنى هذه الواقعة وأنا فى وقفتى على أول درج من سلم البئر. فصرت أضحك بشدة، أى والله يا بوى؛ وهتف بى هاتف: إخز الشيطان وارجع يا حسن فهذه المقبرة الفرعونية مقبرة ملوكية مائة فى المائة، وهذا البئر ليس محفورا بل مبنيا بالصخر حول هذا السلم اللولبى، الذى لو تكسرت أصابع الأمريكان والألمان والبريطان وكل المتفرعنين علينا هذه الأيام، لا يخرج من يدها سلمة واحدة منه. المقابر الملوكية خطر يا خال، كلها خطر، هى الخطر بذات نفسه، هى مخزن لعطر الموت يا خال رشه الفرعون قبل دفنه فيه بغاز يبقى أبد الدهر فى مكانه، من يستنشقه يموت حتما. أهلنا القدامى كانوا فى غاية النصاحة،

يعرفون أن لصوصهم مهما عبدوهم لا يصدقونهم، ولا يخافون من أبيهم الله، الذى يقول فرعون إنه ابنه، ولسوف يتسللون لسرقة ما تحويه المقبرة من جواهر وأموال؛ ومن هنا يا خال، لجأ أهلنا الملوك إلى حيل جهنمية، منها تسميم الهواء. لا أقول هذا من دماغى يا بوى؛ ولكنه شئ جربناه، ودفنا موتانا فى الكتم، ومع ذلك لم نتوقف عن نزول المقابر والإتيان بكنوزها، لكى يغتنى بها ضلالية كبار مثل الحاج السنى وغيره من لصوص البر العظماء. لكن قولوا لى بالله عليكم كيف جاءت هذه المقبرة إلى دار السنى؟ المؤكد أن دار الحاج السنى هى التى بنيت حولها منذ زمن سلطانى بعيد..

حلو! حلو! مادامت هذه المقبرة فى دار مقصوف الرقبة هذا، فلابد أن النزول إليها شغال على الدوام؛ وهاهى ذى بقايا وساخات الأقدام، وليس من المعقول أن أعقاب السجائر هذه من نذ أيام الفراعنة، أم تراهم كانوا يعرفون السجائر أيضا؟ ربما يا وى، محتمل، فقد عرفوا كل شئ فى الدنيا والآخرة. والدليل على ن النزول هنا شغال هو وصولى إلى هنا فى حد ذاته يا بوى، إذ يوجد طريق معلوم وباب مرسوم، ومن حسن حظى أنه كان مفتوحا مما يؤكد أن أحدا كان هاهنا منذ وقت قريب، ومن لهوجته نسى أن يغلق باب الممر. النكتة لو أنه قد ترك الباب اعتمادا على أنه قريب من هنا وسيعود بعد برهة، أو لعله موجود الآن داخل المقبرة وسيطلع منها بعد قليل..

حاجة تهوس يا بوى؛ الرعشة فككت تيبس قدمى، فلانتا، وتحركت يمناى نحو الهبوط؛ فقلت: والله لأنزلن، فى البئر شفاط قوى، مادريت إلا وجسدى كريشة تهبط فوق الدرج مسحوبة بالشفط برهة طويلة مرت كسياحة فى حلق الثور حامل الأرض على قرنه. وإذا بى فوق أرض مبلطة بالنقوش والرسوم والألوان الثقيلة اللامعة، كأرض حمام فى سراية مشغولة بالموزايكو. مضيت أنظر فى هذه الأرض، فإذا بإمكانى المشى فوقها تحت سقف تتدلى منه لمبة كهربية من أيامنا، وإذا مساحة الأرض عريضة توازى مساحة البيت المقام فوقها. فى الأركان لمبات أخرى مضاءة كالبلح الأبيض. رأيت فى الركن البعيد بابا كأبواب الأضرحه. خطفت رجلى إليه، دفعته، فانفتح، فإذا بسلم آخر أمامى وفمه مفتوح، كفم تمساح جوفه مظلم، لا يلمع فيه سوى أطراف الدرج كالأنياب المخيفة. جاءنى هاتف يقول إننى سأرمى بنفسى فى جوف التمساح لو نزلت هذه المرة لكن الدماغ الناشف ناشف يابوى، صرت أتحسس الحيطان بيدى، فتلاقت بزر نور آخر لمسته فأضىء السلم كله فإذا هو قصير لا يزيد عن خمس درجات فى مواجهتها باب. إه، العمر واحد والرب واحد، نزلت مددت يدى متحسسا جدار الباب السفلى، فلمست زر نور فأضيئت الدنيا كلها أمامى..

صدق أو لا تصدق يا خال، الدنيا كلها كانت أمامى. باحة من باحات الجنة، حيطانها حمراء وزرقاء، وعلى كل لون، رسوم

نقوش لا مثيل لها. على الأرض قواعد رخامية، يقف ويقعد فوقها تماثيل عظيمة من الرخام والحجر الصوان؛ ومسلات صغيرة وكبيرة من الرخام عليها نقوش ورسوم. صادفنى باب على اليمين، فتحته، عبثت يدى فى الحائط بحثا عن الزر، فلما لمسته أضيئت الحجرة، فإذا بها تمتلئ بالصناديق المشغولة بالذهب والأحجار الكريمة؛ بعضها مغلق وبعضها مفتوح؛ والتماثيل الذهبية والفضية والبرونزية والنحاسية مرصوصة فى كل مكان. ارتعت يا بوى؛ انسرعت؛ صرت أحشو جيوبى بالتماثيل الذهبية، وأحشر فى دكة السروال، حتى صنعت خصرا سمينا، ومؤخرة كبيرة؛ وقلت: والله ليكونن لى نصيب فى هذه البقية مهما كان الأمر..

طلعت أجرى على الباحة. دفعت بابا آخر، وأضاءت النور، فإذا بى فى حجرة مليئة بالفتارين، والدواليب الزجاجية العتيقة، كلها ملآنة بالحلى وأدوات الزينة والغوايش والخواتم والأقراط والعصى والمنشات ومراوح اليد والنياشين حاجة تهوس يا بوى، صرت أكبش وأضع فى عبى، بعد أن حزمت وسطى جيدا بدكة السروال، حتى انتفخ جسمى كله. طلعت أجرى كالمجنون. دفعت باب الحجرة الثالثة، فانفتح؛ فإذا بها تمتلئ بأنواع من الكراسى والأسرة الذهبية، لها أرجل كالحيوانات المفترسة بعيون تبرق بالأحجار الكريمة والذهب. ارتفعت دقات قلبى كدبدبة الخيول على الأرض، وهتف بى هاتف يضحك، ينبهنى أن الشخص الذى من

المفروض أن يعـود زمانه الآن قد عـاد، وقد يغلق الباب الفـوقانى بالقفل، فأنحبس هنا إلى أن يبين لى أصحاب..

دورت على قلـبى بين ضلوعى فلـم أجـده، حـينمـا دلفت إلى الباحـة الكبيرة، فإذا هـى قد تغيرت؛ فـالباحة التى دخلتـها لحظة قدومـى كانت حـوضا من حـيضـان الجنة، على حيطانهـا كتـاب النقوش الحاوى من كل نوع ولون، حتى لكأنك وسطها فى سراية جـدرانهـا من الزهور: أين ذهبت التـصـاوير يا بوى؟ تظل آلاف السنين عالقـة بالحائط؛ الحائط نفـسه مشكول بهـا، فما بالهـا قد اختفت فى لمح البـصر مسافة ما دخلت الغرفـة وخرجت؟ كيف يا بوى؟ أنا مهما أنسطل من شرب الحشيش لا أغيب عن الوعى أبدًا، فـالسطل هى مزاج المسـامرة وليـست بنج العـمليات. هذه باحـة أخرى غير التى دخلتها عند نزولى من السلم مباشرة!..

صار قـلبى مثل الدلو يغـوص فى بئر قـدمى، وصرت أشـده بحبال تتقطع لهـا أنفاسى؛ وصار الرعب ينشف قدمى من كل دم، تحلف اليمين يا خال أننى شعرت ـ خل بالك من كلمة شعرت هذه ـ أن جثتى كلها أبت إلى عرق من الخـشب اليابس، ليس فيه قطرة ماء توحد ربها. انشللت فيـما يظهر! ولكن حد علمى أن المشلول لا يقدر على التـحرك ومد اليد والقـدم، والتنفس، وها أنذا قادر على هذا، وها هى ذى حـبال النفس التى أشـد بها قلبى من بئـر قدمى تقـوى، وبكرتهـا تكر فى سـلامـة،ومكنة الجـسم شغـالة أربعـة وعشرين قـيراطا. لكننى ـ فيمـا يخيل إلى أيضا أشعـر كأننى لو أردت رفـع يدى ما قدرت، أو مد قدمى ما تمكنت..

الذى طرأ على دماغى لحظتها يا خال أننى وقفت مسمرا، أضع ذراعى بجـوار جنبى، وقد نسـيت تمامـا كل ما تحت جلبـابى من كنوز مخفية؛ بل والله وبالله نسيت الدنيـا وما فيها، تقول يا خال إننى شارب لتوى ألف حـجر من الحشيش المعتـبر مع سنّه جليلة القدر من الأفيـون الخام؟ حاجة تهوس يـا بوى! وكنت أذكر فقط أننى جعلت أنظر كيف دخلت هنا ومن أى باب، وأحـاول استذكار الخطوات التى اتبعتها منذ نزولى خطوة خطوة، فلا ازداد إلا تأكدا بأننى تهت، إذ ـ لابـد ـ دخلت من باب سـحـرى مـوجـود وليس موجودا فى نفس الوقت.. ثم فوجئت بأننـى ـ صدق أو لا تصدق يا بوى ـ قـاعدًا الـقرفـصاء عـلى الأرض مثل تمثـال شـيخ البلد؛ الأكادة أننى ولست أذكر كيف ولا متى جلست القرفصاء، مع أننى منذ برهة كنت واقـفا مسـمرا أنقل البصـر فى الحيطان بحـثا عن الباب الصحيح الذى دخلت منه لكى أخرج منه فى الحال. لكن، لم يكن ثمـة من باب سـوى البـاب الذى خلف ظهـرى والذى من المفـروض أنه يفـتح على غرفـة الأوسـمـة والنياشـين والعـصى والجعـارين والسبح الذهبـية والخواتم والحلى على شـكل صلبان وقباب وعقارب وحيات. هذا الباب الذى خلف ظهرى ـ إذن ـ يجب أن يفتح على هذه الغـرفة وعلى الباحـة، التى يطل عليها مجـموع أبواب الغـرف المطلة عليـها. أيـن بالله ذهبت بقـية الأبواب إذا مـا اعتبـرت أننى الآن فى الباحة العـمومية؟! وأين الحوائط المـنقوشة بالألوان؟! وأين السلم؟!..

يا ربي، ما نهاية هذه القعدة المتقرفصة التي وجدتني فيها كأنني صرت تمثالا حجريا. هكذا قلت لنفسي فجأة وقد بدأت أسمع دقات قلبي بعد غياب طويل. وقالت نفسي: متى أنهض لأرجع إلى هذا الباب خلف ظهري؟لعلي أكتشف أن دماغي هو الذي في رأسي. إنني ما دمت وأنا قاعد الآن أتذكر نفسي واقفا فإنني أستطيع تبعا لذلك أن أقف ثانية؛ وأن أستدير خارجا من الباب أو داخلا منه إلى الغرفة التي كنت فيها؛ وأن هذا يجب أن يحدث الآن فورا، إذ أن خاطرا في دماغي أنبأني بأني قد تهت فدخلت غرفة الدفن لابد، أو الغرفة الملاصقة لها، أو التي تفضي إليها بباب سري لست أراه وليس يكشف نفسه لمثلي، إنما هو يستلبني إليه فحسب!..

صدق أو لا تصدق يا خال أنني كنت لحظتها أشعر بغاية البهجة والراحة النفسية، لا يداخلني أي ذرة من خوف أو رعب، بل تشوقت لرؤية الجثث التي هي مدفونة ها هنا، بل صرت أشعر بالحنين لأن ألتحم بها وأمضي في عروقها وأتركها تمضي في عروقي؛ أي والله يا خال ما هو بميس ولا فلحسة افتخار..

واضعا كفي على ركبتي ظللت متقرفصا أنظر في فراغ الباحة، غير قادر وغير راغب في تحريك أي عضو من أعضائي. حاجة تهوس يابوي؛ دماغي ـ مع ذلك ـ لا يتوقف عن الشغل في ملكوت أفكار تغوص تحت الأرض وتتطلع منسلتة من بين الفجوات، تتسلق الأبار، لا تريد أن تبارح هذا المكان أبدا، لا تريد طعاما ولا

شرابا ولا نوما ولا هواء ولا غطاء ولا شمسا ولا قمرا؛ فكل ذلك موجود الآن بوفرة بين هذه الجدران الأربعة تحت هذا السقف الجيري الأبيض، الذي اتضح لي الآن أنه مقبب كسقف الجبانة بعد أن كان مسطحا مستويا منذ برهة. ولكن أية برهة؟! إنني لم أعد أذكر متى جلست القرفصاء هكذا في هذا المكان؛ فمن فرط ما مر على دماغي من الأفكار والمرئيات ها هنا لابد أن أكون مكثت في قعدتي عشر سنوات على الأقل، ولابد أن أهل الكهف والرقيم الذين ناموا في كهفهم مائة سنة عددا إنما كان نومهم من هذا القبيل الذي أنا فيه الآن نوما صاحيا وصحوا نائما.. حاجة تهوس يا بوي!!.

الخيال الذي رأيته يزحف أمام عيني جائيا من خلفي كان خيال حيوان غليظ الحجم، تبينت في شكله ثورا بقرنين نافرين، ولحظة انتبهت إلى شكله كنت قد صرت في قعدتي القرفصاء تحت بطن هذا الثور الضخم، وهي تضغط بكلكلها فوق دماغي؛ لكنني كنت ـ مع ذلك ـ قادرا على تحريك رأسي. الدليل على ذلك يا خال أنني التفت مذعورًا إلى اليمين وإلى اليسار. فلما رأيت ظل الفخذين الأخيرين للثور تمران بجواري أذن شعرت أن.. أن .. إحليله قد تصدر كالمسمار في قناعية رأسي؛ أي والله يا خال، فحنيت رأسي إلى الأمام بفعل ضغط الإحليل الحديد عليه، فشعرت بذيل يلفحني، يلسعني، تلاته بالله العظيم يا خال تحلف اليمين أن قفاي كله أخذ يلتهب ويوجعني. هنالك شعرت بغاية الرعب يا خال. فلما

فطنت إلى أننى أشعر بالرعب أيقنت بأننى مازلت حيا، وحينئذ جاءنى الفرج يا بوى؛ نفضت نفسى قائما فى الحال واقفا، وصرت أنكت جثتى نكتا وأهزها هزا. وحينئذ انتبهت إلى الأشياء التى أخذت تتساقط من بين خلقانى؛ فأيقنت بأننى قد أفقت تماما، وعدت إلى الصواب؛ فرحت أجمع ما تساقط منى وأعيده إلى خفائه. وكان ثمة باب وحيد أمامى، انتبهت إلى أن شكله ليس كشكل الأبواب، إنما هو إلى الممر أقرب، مجرد فراغ بين حائطين محكومين بأرض وسقف. دلفت منه. واجهنى حائط، كسر وجهتى، فوليت يسارا بين حائطين، فى ممر طويل كالسرداب لكن أرضه مرصوفة بالزلط والحصباء، وسقفه كذلك، واللون البرتقالى يلعب فى السقف والأرض والحائطين بكل درجاته..

بعد سير طويل فى هذا الممر البرتقالى، فطنت إلى أنه ضوء الشمس قد شرّف قادما من نهاية هذا السرداب على مبعدة خطوات قليلة. هممت بالجرى؛ ولكن جثتى كات ثقيلة كالرصاص يا خال، تحلف اليمين أننى كنت أحتاج لمن يحملها عنى. عافانى الله فرأيت الضوء البرتقالى يتسع شيئا فشيئا ويعمل بحرا كبيرا. سبحان الله يابوى كلما أوشكت على نهاية الممر واقترب الضوء شعرت بالبرود والارتجاف؛ وأخيرا فوجئت بأننى صرت فى منور كبير دائرى الشكل كمئذنة كبرج عال كبير، أرضه مسفلتة، وسقفه شمس وسحاب، وجدرانه الأسطوانية أطول من قامة ثلاثة رجال يقفون فوق بعضهم، ورابعهم هو الذى إن تساند فوقهم

يتمكن من حافة الجدار، ليروعه عمق الهاوية السحيقة خلف الجدار..

أخذت ألف فى فراغ هذا المنور يا بوى كلعبة الحلقة البلقة، أكاد يصيبنى لطف والعياذ بالله من حائط المنور الدائرى يعتقل قبسا دائما من مراسيل الشمس والقمر والهواء والمساء والمطر.. يالك من فرعون ابن فراعين يا من بنيت هذا هكذا. دورية الجدار فيها فجوات عديدة على شكل مربعات ومستطيلات ومثلثات، لا تتمكن العين من حصر عددها، صغيرة وكبيرة ومتجاورة ومتباعدة، وكلها فجوات فارغة يفح منها الظلام. إلى يسارى كانت فجوة، على شكل فتحة باب لا تعبرها قامة الإنسان إلا محنية..

قلت: لأعبرنها. مخى ناشف يا بوى؟ طب ماذا أفعل غير هذا يا بوى؟ خلها توهة بتوهة، حتى نصل إلى منفس رحمته. ما إن أحنيت قامتى ودلفت على عتبة من الحجر الأملس كحجر الجدار التخين المزوق بخطوط دقيقة، هى المسافات الفاصلة بين حجر وحجر؛ انجذبت لسلم حلزونى من الحجر، يدعونى للصعود. إه، يادار ما دخلك شر. درجة فدرجة، بسطة وراء بسطة، حودة إثر حودة، انحناءه قامة عقب استقامة خاطفة، يعقبها رفع صدر تواتيه وفرة من الهواء. وكنت أرى على يمينى وعلى يسارى كثيرا من هذه الفتحات المختلفة الأشكال التى رأيتها فى دورية الجدار قبل أن أدخل البرج. بعضها يجلب عواميد من الشمس؛ وبعضها يسرب كتلا من السحاب فحسب. بصصت من فتحة واجهتنى، فوقعت بصتى على أرض المنور وقد غاصت فى قرار مكين.

بصصت مـرة أخرى،فرأيت سـماء مشمـسة شاسـعة تنكفئ على أرض خضـراء تتاخـمها ـ على البـعد ـ أبنيـة كثيـفة؛ كـما رأيت شريطا يلمع كرقـبة نوبى متطاولة متلوية، سـرعان ما فطنت إلى أنه نهر النيل الحـبيب يجثم فـوق جناحه جامع عمـرو بن العاص بجـلالة قدره كـفيلق من طائر أبـى قردان يحط على شطه لبـرهة وجيزة ولن يلبث حتى يحلق فى الهواء. حاجة تهوس يابوى..

واصلت صعود الـدرج؛ وكم صادفنى فى الصعود من فـتحات كبيرة تفـضى إلى ممرات وأبهاء يجرى الخيل فيهـا لفرط براحها؛ كيف يا بوى؟ من أين جاء كل هذا الوسع وكل هذا التأسيس؟ وقد خامرنى والله خـاطر للدخول فى كل فتحة على حدة؛ ولكـن شيئا إلهيـا كان يدفعـنى إلى تسلق الدرج فى سمت السـحاب، الذى بدا يظهر متكررا على الدرج الحـجرى. ثم ما لبثت السمـاء كلها حتى بانت شبكة حديدية مـستلقية فوق فتحـة دائرية، تظللنى طاولتها؛ وصار بإمكانى أن أتبين أنها مثبـتة فى السقف بعاشق ومعشوق؛ عاشق ثابت فى السقف ومعشوق فيها، يتثبت فيه العاشق..

صدّرت فيها رأسى يا خال، وكفى وكتفى، حتى نزعتها، وكانت ثقيلة جدا يا خال، وسبحان من يخلعها يا خال، لولا حدوث ذوبان وتهتك وتشعث فى حجر السـقف. انخلعت يا خال؛ إذ إن معاشيق كثيـرة خرجت بمعشوقاتهـا عن ثبت السقف؛ مما أتاح لى أن أدفع جسدى كله فيها؛ لأقلبـها على ظهرها، وأخرج إلى السقف يا خال واه واه وا..ه يابوى، مما رأيت: السقف كان ملتـحقا بسقف الدار،

بل ها هى ذى الحجرة القـمرة التى كنا نحشش فيهـا مع ضيوف الحاج وعـدت فنظرت فى فـتحـة البرج الذى صـعدت من جـوفه فعصف بى الخوف والرعب من العـمق السحيق الذى خيل لى أنه يشدنى إلـى القاع.فمـا كان منى إلا أن غطيت الفـتحة بـكل قوتى حتى رجع الغطاء كما كان..

رجع لى قلبى يـا خـال، وسمـعـت وقع خطواته فى صـدرى، لكننى وقـفت مطرحى، أفكر فى كـيفـيـة الخـروج من هذه الدار وحدى بدون أن أتعرض للتوهان مـرة أخرى. درت حول الحجرة القـمرة مـرتين، ثلاثا، وبدنى كـان يرتجف. أسندت مرفـقى على حافة جدار سور السطح المرسوم على شكل تاج ملكى. ورأيتها يا خال؛ نعم رأيتـها، فرقص قلـبى من الفرح. إنها المجـارى التحتـية الصاعدة حـتى أعلى السطح ملتحقـة بدورة مياه الحجـرة القمرة. عـافرت فى جـدار السـور حتى تملكت الماسـورة وحـضنتهـا فى صدرى، محـوّطا عليها بذراعى، وتركت جثـتى تهوى إلى الأرض بكل سهولة..

اسـتقـرت قدمى على الأرض، فـأخذت أمـشى فى هدوء وترو خلف دار الحاج السنى، متـجها نحو عشش الجـيارة. وكان بعض الأطفال قد رأونى وصاحـوا صاخبين، لكننى سرعان مـا اختبأت منهم فى إحدى الحوارى الغويطة، لأرى نفسى مـتجها نحو بوابة الحـديد بغـيـر إبطاء وفى عـزمى الرحـيل إلـى البلد، لآتاوى هذه الثروة فى أرض دارى.

الثامنة: خطبة على قبر أبى

ما أحلاها يا خال حين تكون مواتية وجائية على الكيف، أقصد الظروف الحلوة، ظروف الإنسان الشقيان يتخبط فى بحر من التعاسة. ألا قاتل الله أيام النحوس يا خال، إنها خسيسة خبيثة هذه النحوس، لا تستضعف إلا طيبى القلوب الأبرار الأبرياء، ذوى النفوس الحسنة والصدور الطاهرة والأيدى العفيفة؛ تستكردهم يا خال، تضربهم على أقفيتهم بالصرمة القديمة، لعلمها انهم بلا خرابيش ينشبونها فى وجوه حاسديهم وعزالهم. ووالله إنها لنحوس وأى نحوس، تلك التى تتحكم فى رقاب البشر الضعفاء؛ تخلقهم على مزاجها يا خال من قبل أن يولدوا. طبعا يا بوى؛ وإلا فما معنى أن يكون رجلا شرموطا كالحاج السنى يفعل كل الموبقات من وراء لحية ممدودة ومسبحة مطرودة ومائدة منضودة وحدائق موروودة وسيرة محمودة وفى باطنها مندودة.. أليس ذلك يدل على ظروف فى الأصل مجدودة وخيراتها غير محدودة؟!..

ردّنى يا خال إن كنت ترانى جمحت، فلست والله براكب فرسا غير فرسى فما أنا الآن بجامح أبدًا خصوصا بعد أن رأيت ما

رأيت وفهمت ما فهمت وعرفت ما عرفت من أسرار فى هذا البلد يشيب لهولها الولدان. حقا حقا هذه مصر أم العجائب يا خال ولن أمل من تكرارها. هذا والله ليس مثلا يقصد به التندر، ولا هو من قبيل الهتافات والعصبية، فلو قدر لك أن ترى ما رآه العبد لله وتشقى شقاءه وتعرف ما عرف، لأيقنت أنه قرينة صدق لايجيئها الباطل من أى مكان فيها. والحاج السنى أحد هذه العجائب يا خال، إذا قدر لك نزول هذه البلد لاتنسى أن تمر عليه وتتفرج؛ دعك من الأهرامات وأبى الهول وسقارة،بل دعك من البطلمى والقبطى والإسلامى والمملوكى وكل ما تلوكه ألسن المرشدين السياحيين؛ وانظر فى عجيبة الحاج السنى وحدها، ففيها ـ أقصد فيه ـ كل الأزمنة والأنتيكات؛ عافاه الله وأعطاه طول العمر حتى يتمكن من مص كل ما فى العروق من دم، وما فى الأرض من رحيق، وما فى السماء من ماء، وما فى الجو من هواء يقتل الفجر فى كل يوم ويمشى فى جنازته محنى الرأس من فرط الخشوع والتقوى، وتباركه الشمس صباح كل يوم، تبرم فى عوده وتصلبه كعود الخيزران..

شف يا خال؛ خذها من العبد الفقير إلى ربه تعالى «حسن أبو على» ولد أبى ضب: هناك مصران: يا ولد العم لامصر واحدة: مصر الصعيد والوجه البحرى، ومصر القاهرة وحدها، عليها اللعنة إلى يوم القيامة. شف يا خال؛ لست متعلما وإن كان أعمامى من الفقهاء النبهاء؛ إنما أستطيع أن أقول لك بالفم المليان أن مصر كنانة الله، التى ورد ذكرها فى كتابه العزيز هى الصعيد

والوجه البحرى؛ هى مصر ذلك الزمان، التى تعهد الله بحمايتها من كل شر وخراب ومن كل معتد أثيم؛ أما مصر القاهرة هذه، استعنت عليها بالله أن تجيئها شوطة تأخذها إلى غير رجعة بكل ما ومن فيها، وأن يجرى الزمان بقيام عاصمة جديدة فيها عالم نظيف طاهر اليد..

مصر القاهرة هذه يا بوى هى التى ابتناها علية القوم من الفاتحين الأجلاء ـ شف الأكادة ـ فمن الفسطاط إلى العسكر إلى القطائع إلى القاهرة المعزية ـ الحسينية والجمالية ـ إلى قاهرة الإفنج من تخوم الأزبكية حتى ميت عقبة.. هذه كلها كانت مجرد سكن للحاكم الجديد ولأسرته وعلية القوم وأتباعه وعائلات خدمه وحشمه. هذا ما تعلمته من أولاد الحلال القارئين، ومن وكيل النيابة الذى كان مسجونا معى، حتى بربش وهندى وغزولى وبسبوسه يعرفون هذا من غير قراءة فى الكتب. وحيث يسكن الأمراء والحكام والمرفهون لابد أن يعف على مساكنهم ذباب كثير، حشرات من كل نوع تتغذى على حسابهم.. الكل عبيد ولا أخلاق للعبيد وإن لبسوا فاخر الثياب من خلع أسيادهم وأكلوا شهى الطعام من فضلاتهم. ومهما تقلد العبد خطير المناصب أو جليلها يظل العبد الذى فى داخله يسبح بحمد سيده، يوجه كل همته فى تقوية سلطانه وتعلية جبروته وتثبيت طغيانه، حتى ألفوا مثلا سيئا يقول: من أكل خبز اليهودى يضرب بسيفه. إسمع كلامى يا بوى وصدقنى أن اللص فى مصر القاهرة هو السيد الحقيقى

مهما تفه شأنه وقل نفعه، والكل يسرق على قد حجمه ومركزه يا بوى، هو وشطارته، ولربما يقع فى قبضة الحكومة فى كل يوم، ويمثل أمام المحاكم كل أسبوع، وكل ذلك يصبح مجرد رياضة ونزهة يقوم بها، فهو واثق أن الدينار سيد الأخلاق. إفعل ما بدا لك فى هذه البلاد يا بوى، فأنت لن تستطيع رؤية الدينار وهو يغادر يد الفاعل داخلا فى ذمة الحارس. أنت يا بوى فى هذه البلد لاتستطيع أن تحكم بالقانون؛ ووالله لو وضعت على رأس كل فرد قدمى شرطى مدجج، بل وحتى لو وضعت فوق رأس كل شرطى قدمى شرطى آخر، إن الفساد ضارب فى كل النفوس يا بوى، البذرة نفسها مسمومة من الأساس فكيف يتم إصلاحها يا بوى؟ إنهم قوم لاينفع معهم وعظ ولا إرشاد ولا ردع، لأن الوعظ والإرشاد والردع عندهم فى حاجة إلى وعظ وإرشاد وردع فكيف يتم ذلك يا بوى؟ كيف يا بوى حفظك الله؟ تحلف اليمين يا خال أنهم قوم يشجعون اللص وينفخونه ويمكنونه من كل المنافذ حتى يتمكن منهم أنفسهم ويمص دمهم بصنعة لطافة أو بخشونة العافية؛ ويا حلاوة اللص فى نظرهم لو كان ظريفا؛ إنه والله ليوشك أن يكون نبيا بينهم..

أنا لم أقرأ الكتب يا بوى؛ ولكننى عن خبرة وتجربة مريرة أقول لك إن بلد الألف مئذنة هذه تحوى من دود الأزقة والخنازير الوضيعة والخنافيش العتيقة ما لا يمكن أن تسمع به فى مكان آخر. واه يا بوى واه، تحلف اليمين أنها مخزن للدعارة والإفك والزور والبهتان رغم مظهرها الوديع ولحيتها الطويلة الساجية

ورغم رائحة بخورها وحلاوة نسوانها وطراوة رجالها هؤلاء الذين يعيشون يا بوى ويطالبون بكل شئ فيحصلون عليه بالطيبة أو بالغصبية ، ألم أقل لك إن الدينار سيد الأخلاق وأنه مفتاح مخك الذى يجب أن ينفتح لأى تفاهم حول أى شئ عن أى شئ؛ ستدفع كم؟ والكل باريحية وعن طيب خاطر، لأن الجميع يشفطون ويهبرون ويبيعون كل شئ يخطر على بالك؛ وما دام قد أصبح للذمم أسعار فقل على الدنيا يا رحمن يا رحيم. الاكادة أنهم يفعلون كل ذلك يا بوى، فى سهولة تامة يا بوى؛ وتمضى مع ذلك الحياة هادرة كأن شيئا لم يكن: الذى تعرف ديته اقتله؛ هكذا يقول المثل عندهم يا بوى!!..

أفتعرف يا بوى من هو الذى يقتل كل يوم وكم عدد القتلى ؟ بالطبع لاتعرف يا بوى. أما أنا فأعرف؛ وجوابى أنك تستطيع أن تعرف بسهولة كم يزداد عدد القتلى كلما رأيت شخصا يضحى بالمال أو بالكرامة فى سبيل مغنم شخصى؛ ولاتنسَ أن تضيف نفسك فى عداد القتلى يوم تضبط نفسك متلبسا بفعل كهذا مما تضطر لفعله كل يوم كى تبقى ـ فقط ـ على قيد الحياة يا بوى!!..

أفتنتظر منى يا بوى أن أعيش بين هؤلاء القوم دون أن أكون مثلهم؟ كيف يا بوى؟ أتلقينى بين الثعابين السامة وتطلب منى أن أكفيها شر أذيتى لها والأذية ليست متوقعة إلا منها؟ كيف يا بوى؟ ألست أنت يا بوى القائل دائما فى كل وقت: إن لم تتذأب أكلتك الذئاب؟ وأن هذا مثل وارد فى الكتب مثل الآيات القرآنية؟ هاأنذا أعمل بنصيحتك وأتأكد أن البركة فى هذا المثل، وعما

قريب أغدو أذأب واحد فى البشر. هاأنذا يا بوى أتطبع بشخصية الحاج وأتخلق بأخلاقه، وأحوى بعض صفاته، حتى أكملت منها وجهها وبقى الوجه الآخر. أما وجه الحرفنه فى السرقة والنهب والتهليب والتهريب فإن لم أفعله كله فإنى مؤنس فى نفسى القدرة على أشنع منه منذ أن كشفت أساليب الحاج السنى وغيره. أما الوجه الآخر، وجه اللحية والمسبحة، والرفول فى ثياب سمعة جيدة تجتذب علية القوم والحكام وتوسع من العلاقات وتقوى من النفوذ، أما هذا الوجه فأنا بسبيل تأسيسه وبحث سبل الوصول إليه بكل هدوء واطمئنان بال. كل ما هنالك ـ وادع لى يا بوى ـ أن يقينى الله عقوبة السجن إلى الأبد، فالسجن ليس اللص الكبير فى بلادنا يا بوى؛ إنه عقوبة اللص الصغير فحسب، كلما تفهت مسروقاته عظمت عقوبته. لهذا أعدك يا بوى أننى لن أكون هذا اللص أبدًا؛ إنما ساكون ذلك الكبير الذى يعلو بنفوذه فلا تطاوله هامة القانون، ولاتعرف طريقه عربات العسكر.

التاسعة: حساب على تخوم الجحيم

ذلك ما حدث لى فى جوار قبر أبى؛ وهذا كل ما دار فى خاطرى من حوار أمام شاهده. كيف يا بوى مررت على هذا القبر وأنا ملغم بالممنوعات وليس من الصواب أن يرانى أحد أو يحتك بى أحد. فكيف جئت إلى هذا القبر لأقرأ على روحه الفاتحة؟ أنا الذى جئت من تلقاء ذاتى أم أنه نادانى فجئت مزدجرا؟ إذ بينما أدخل البلدة كانت الشمس خارجة ورقبتها دامية على أطراف سكاكين السحب البيضاء المرتدة الزاحفة نحوها كالغول يوشك أن يبتلع بقية الرأس الصغير لنغيب كلنا فى جوفه المظلم. مع المغارب تيقظت الليالى الفائتة التى تركتها على هذا الطريق بين هذه الحقول والجبل بشقيه. خيل لى والله يا بوى أن أبى طالع من الخص الذى يخفر فيه ماكينة المياه يستعجل قدومى فى قلق. شعرت والله بالحنين إليه، الدم يحن يا خال. قلت: لقد طلبنى إذن ولأكونن نذلا وابن حرام إن لم ألبه فاتحا أحضانى، هى تخريمه قصيرة عبرتها إلى سفح الجبل فصرت أمام المقبرة. وشعرت والله أننى كنت فى حاجة إليه ينصرنى فى هذه العملية الكبيرة

التى عملتها، وعملتها فى من؟ فى سبع من سباع الكهن واللؤم واللصوصية وله بين كبار الحكام أرهاط من الأصدقاء والخلان والعشاق والمسامرين، وهو الباذل فى كل حال هدايا من الأنتيكات والآثريات وفلوسا رخيصة يذبح بها ذمما وضمائر لا حصر لها.

وبعد أن جالت كل هذه الخواطر برأسى ولعبت فى بطنى تذكرت أننى لم أقرأ الفاتحة بعد، فقرأتها على عجل. ثم تابطنى الليل حتى وصلت إلى دارنا والناس كلهم مشغولون فى صلاة العشاء فلم يحفل بقدومى أحد. فلما فتحت الباب ودخلت وأغلقته من ورائى بسر هادئ أيقنت أن روح أبى قد حضرت وباركتنى فعافانى الله إكراما لخاطرها؛ إذ هى منذ لحظة صعودها إلى بارئها ـ كما يقول عمى الفقيه دائما فى كل مأتم ـ صارت من جديد نفسًا بريئةً طاهرة فى رحاب الرحمة الواسعة. الفأل الحسن يمضى حسنا إلى النهاية، هكذا يبدو الجواب من عنوانه. على ضوء عود الكبريت رأيت لمبة الجاز نمرة عشرة متربعة فوق رفها الخشبى يغطيها التراب ولكن الجاز فيها واضح حتى منتصفها. الحمد لله، خلعت خلقانى كلها؛ نفضت جسدى من كل ما خبأته فيه من تحف ثمينة وكنوز نفيسة؛ غطيتها بحلة كفأتها فوقها. ثم جئت بكريك ومنقرة صغيرة، وجعلت أحفر فى الأرض بصبر وقوة حتى لا أصدر صوتا ينبه إلى وجودى؛ إلى أن وفقنى الله فاصطنعت بئرا صغيرا محندقا مربعا فى حجم صندوق جدتى. ياما أنت كريم يا رب، هذه شكارة أسمنت باقية من أيام

البناء؛ عجنتها بالمونة؛ وليست البئر من جميع الجهات تلييسًا جيدا كـأننى صنعت له حوائط بالبـتن. تركتـه حتى يجف، ثم اخـتلقت لوحا كبـيرا من الخشب سويتـه على قد حلقه. صار مـؤكدا أننى فى الصـباح سـادفن ثروتى فى هذا البـئر المربع الكبـير وأغطيـه بلوح الخـشب هذا وأردم فـوقـه مـسـويا به الأرض وفى الآخـر وضعت السرير فوقه فى هذا الركن ليختفى البئر عن الأنظار تماما وينجـو من تحسس الأقـدام الفضـولية. صـار بإمكانى أن أرتمى فوق السـرير متـمنيا على الله ألا يـحس بوجودى أحد حـتى أتمم العملية فى أمان الله..

مسيت على المصباح، فلمَّ خيمة ضوئه وابتلعها، تاركا بصيصا يدل عليه. مادريت إلا وعمى الفقيه الـكبير المتوفى قاعد على تخوم الحائط المجاور للـمصباح بكامل هيئتـه. ارتعت يا خال؛ يدى تكاد تمتد لتـصافحه. غـير أنه لم يكن ينظر لى أو يشعـر بوجودى، بل كان كعـادته مستـغرقا فى حديث العـشاء الذى يعظ به الناس كل يوم فى دارنا عقب صلاة العشاء. كان يقول عن يوم القيامة كلاما عجيبا يا بوى؛ ما سمعته منه إلا وشملتنى رعشة الخوف من يوم الحساب فى الآخرة: إنه يوم بشع يا خال والعـياذ بالله، وسبحان المنجى من عـذابه الأليم: يوم تكون كل الأجسـاد التى على ظهـر الأرض قـد فنيت وباتت ترابـا فى تراب ولم يبق من الجـسـد إلا فسفـوسة كالسمسـمة كامنة فى أسفل العمـود الفقرى للبنى آدم فوق الذيل مباشـرة واسمها عضمـة الذراع؛ حينئذ ـ خل بالك يا

بوى وفتّح مـخك ـ تبدأ هذه الفـسفوسـة تنبت فى جوف الأرض ولكن إلى الداخل، حيث ينمو عودها فى بطن الأرض قدر ما ينمو؛ وإذ ينادى المنادى لحظة المثول أمام الخالق فى ذلك المشهد العظيم، تنفلت كل هذه العيـدان النابتة الطائرة فى الهواء ذاهبـة فى سمت النداء. هذا إذا كانت فى الأصل لمخلوقات من ذوى الأصـول الطيبة والأعـمال الحـسنة ممن هم بلا ذنوب يا بوى. فـأما المذنبـون فى الدنيا فآه على محنتهم وما يجرى لهم يا بوى؛ تظل العيدان المذنبة تحاول نزع نفسـها من باطن الأرض الملتهبة دون جدوى، فـتبقى هكذا يسفعها الريح واللهب إلى أجل غير معلوم..

خفت يا بوى؛ وسحقنى الخوف فى جوف الفراش فلم تقو على احتوائى، بل ضاعفت خوفى. دفنت رأسى فى ثنية المخدة، وألقيت بنفـسى عنوة فى قلـب الظلمـة المدلهمـة، لا أبغى رؤية شئ ولا التفكيـر فى شئ.صرت أقرأ الفـاتحة مرة بعد مـرة، وسورة يس، وآية الكرسى، حـتى انقطع سـياق الآيات فـجـأة وكف طنينه فى دماغـى؛ وقد انجابت الـظلمة فـجاة، فظهرت السماوات، وظـهر الضوء والدنيـا أمامى سـداح مداح، لا بناء لازرع لا ماء لاشـجر لاطيـر لابشر لا حـشرة، لاشئ سـوى الضـوء والفراغ والرمـال والرعب الهائل العظيم. أنا ـ آنئذ ـ مربوط من مؤخرتى فى مرتفع من الأرض، كأن مـسمـارا بقلاووظ قـد ثبت فى مؤخـرتى أسفل الذيل وفى جوف الأرض ومربوط من الطرفين بصامولة حديدية قابضـة. بكل ما فىّ من جهـد وقوة جعلت أعـافر وأعافـر، أحاول

نزع نفسى من الأرض بدون جدوى، وروحى متعثرة متحشرجة فى حلقى، لاهى تعود إلى صدرى ولاهى تطلع نهائيا وتريحنى؛ حتى الصراخ يرتفع داخل جمجمتى ولا أقوى على إطلاقه؛ ومن حوالى ومن كل ناحية أرى عشرات المئات من الأجساد كالأعواد تتخلع بسرعة هائلة عن الأرض؛ فتطير فى الهواء نشوانة فرحانة فى سمت النداء. وقد ظهر لى كأن الأرض كلها لم يعد فيها نبت معذب سواى يا خال، فصارت نفسى تتمزق، وصرت أحاول وأحاول حتى كففت عن المحاولة درءًا للوجع العظيم الذى يمزقنى من المعافرة. كنت أزفر فى صيحات استغاثة ذليلة: رحمتك يا.. رب.. عفو.. ك ور.. ضاك يا.. ر.. ب. حتى استجاب سبحانه لدعائى؛ إذ ما كدت أشرع فى المعافرة من جديد حتى وجدتنى منتزعا من الأرض غير أننى لم اطر، بل صرت أمشى على الرمال وحيدا، حيث لا شئ حوالى أو أمامى. كنت متيقنا بينى وبين نفسى أن لامفر من الحساب، وأنه لم يبدأ بعد، وأننى ذاهب الآن إليه. وكنت أتعشم أن الله سبحانه لابد أن يدخر لى رحمة، إكراما لخاطر أعمامى الفقهاء مثلا، أو تقديرا لظروفى يا بوى. فجأة وقع بصرى على بنايتين متجاورتين على طراز يشبه المساجد لكنه ليس بمسجد، البناء جديد ولامع ومهيب إحدى البنايتين تمتد إلى الأمام بضعة أمتار عن الأخرى؛ ولهما بابان يفتحان فى إتجاه واحد. جعلتهما قبلتى يا خال؛ فلما اقتربت منهما تبينت أن البناية المتقدمة لها باب عتيد كأبواب السجون الحديدية العتيقة المقرحة بلون الصدأ والرطوبة؛ شكله والعياذ بالله مخيف مرعب. أمامه

تبينت ناسا كثيرين لاحصر لهم يقفون فى ساحة قاحلة أمام البوابة فى حالة انتظار. أما البناية الثانية فقد ظهر لى أن شكلها فخيم، وليس لها باب يغلق؛ وحبال الورد الخضراء تتدلى بورودها على الحائط ظهر أنه سور عظيم يا خال. ولم يكن أمام هذه البناية ثمة من أحد، فتقدمت من بابها، وهممت بالدخول فإذا بجسد غليظ ضخم يظهر مائلا من وراء الجدار، فيعترضنى بعينين ما كرتين قائلا: رايح فين؟! قلت مرتجفا: تسمح لى أدخل؟! فأشار بيده نحو البناية الأخرى قائلا: شوف اسمك هناك. فأخذت أنفض نفسى فى الأرض يا خال، أصرخ صراخا لله ما يغيثنى، أصوات كالنساء كالحيوانات يا خال؛ وكلما اتجهت نحو طابور الحشر ارتددت مصوتا فزعا ألطم وجهى وركبتى بكفى، والدموع والعرق يبللان جسدى كله طار صوابى يا خال؛ فصرت أجرى مبتعدا وأنا متيقن من أنه لامفر من الحساب، يعنى بالعربى لهم حقوق عندى لابد أن يأخذوها؛ وليس هناك مكان أهرب إليه .
لكن البنايتين اختفتا وعادت الدنيا سداح مداح كما كانت: رمل وسماء ودخان قاتم، إلا ويظهر أمامى نهر عريض فيه قارب كبير. جريت نحو القارب أصيح مشوحا بكل عزمى. النوتى كان رجلا طيبا؛ حَرف بوز القارب نحو الشاطئ واقترب منى؛ فإذا فوق القارب جمع كبير من الناس لكنهم منكمشون فى بعضهم من شدة الريح. والنوتى رفيع ممصوص يوحوح قائلا وهو يمد لى سقالة أتشعبط فيها: تعال دفينا يابو العم. ورغم أننى لم ألمس الماء فقد شعرت بخلقاتى غرقانة فى المياه ثقيلة على كتفى. فلما ركبت

واعتدل القارب وصار فى وسط النهر يضربه الموج والريح من كل مكان؛ كنت واثقـا أننا ربما نكون ذاهبين بهـذا القارب إلى المنـطقة التى يتم فيها حسابنا وتسويتنا على الجنبين؛ إذ لابد أن يكون كل مـا هاهنا يعمل لحسـاب الحسـاب، فنحن الآن فـيمـا لاح لى فى منطقة الحساب وأينما توجهت تتلقفك أيد تجرك إلى الحساب.

اللهم اجعله خيرا، لم أدر أننى كنت لا أزال فى قلب سريرى إلا حين وقعت منتفضا فوق تـراب الحفرة، وكان الضحى لحـظتها يركب الحيطان. لقد أفزعنى منظر الحفـرة يا بوى؛ تخيلتها قبرى الذى انفـتح لأطلع منه إلى الحسـاب؛ فنكت جسـدى فى الحـال ونزلت؛ دفنت الغنيمة كما رسمت لها؛ وضعت فوقها لوح الخشب؛ ردمت لوح الخشب بالتراب سويتـه بالأرض. بعدها غسلت وجهى وسويت الخلق على كتفى، وطلعت أسأل عن صديقى «هليّل» وعلى إخوتى البنات وعلى أمى.

على أن قلبى ـ تحلف اليـمـين يا بوى ـ كـان يتلوى بين جنبى ويزعق فى صـدرى من شدة الألم. ذلك أننى مـررت بجوار غـابة النخيل فى طريقى إلى «هليّل». ولدار «هليل» طريق آخر من وسط البلد عـبـر حوار ودروب ضـيـقـة وخلال بيـوت خـربت من أيام الحريق ولم يقو أصـحابها على إعادة بنائها لضيق ذات الـيد، غير أننى لا أدرى لماذا نفرت من هذه الطريق نفـرة شديدة ووليت نحو الغيطان ملتفا حول البلدة، لعلنى كنت مـشتاقا للمرور حول البلدة ورؤية الناس، ولـكن يبـدو أنـنى كنت أضـمـر الفـوت على دار «كاملة». بمجرد اقـترابى من غابة النخيل تذكرتهـا، فانقبض قلبى

وشعرت بالرجفة، وأسرعت خطواتى حتى لا أطاوع قلبى المجنون فى الذهاب إليـهـا. مع خطواتى حـاولت أن أنسـاها، وأنسى أننى كنت السـبب فى مـوت زوجـهـا يـاخـال. كـرهت أن أراها أرملة، وكرهت أن ترانى هى، فندمت على الفوت من هذا المكان..

ولكن هيهات، لقد رمى بها الله فى طريقى غصبًا عنى؛ بعد أن كنت قد جـاوزت النخيل كله وصـرت على مقـربة من دار «هليّل» مخى الصـعيدى لم يكن يعـرف أن «كاملة» موضـوعة فى طريقى وليس فى مكنتى أن أزيحها..

كانت قادمـة من بعيد حاملة زلعة المياه فـوق رأسها، وفى ذيل جلبابها يتعلق طفلان صغيران. تحـلف اليمين ياخال أننى عرفتها من خيالها يزحف على الأرض متميزا عن خيال النخيل، كظل نخلة آدمـية ممشـوقـة القد عـلى صدرها عـرجـون بلح يتـهدل يبـغى الوصــول إلى فم الآكلين. سـمعت قلبى يرتـعش وأوصالى كلهـا ترتجف، تحلف اليمين ياخال أننى ليلة اقتحـمتها فى عقر دارها ما كنت خائفا هكذا..

وا..ه ياخـال، كيف باللـه كانت هذه الغـزالة الوديعـة الحانيـة بظلها على الأرض تنام فى حضن سقاء محنى القامة طول عمره، قد رطبته مياه القـربة حتى بات ـ يقولون ـ يحيض كالنساء؟ حظ أعمـى بعيـدًا عنك. ولكن، لولا أن هذين الطفلين يشـبهـان أبيهـما السقـاء ما ظننت أنه اعـتلاها مرة واحـدة؛ إذ يقول جسدها ذلك ياخال، ويقول بكل طلة من عـينيها أنها لاتزال عذراء لم يخـترقها

أحد وإن كانت قد حملت وولدت مرتين. حقدت والله على أبيها ذلك الحمار التخين المخ، كيف رضى أن يزوج ابنته هذه من السقاء المضعضع، الذى لا وراءه ولا قدامه؟! أكان يرمى ابنته رميا؟! أكان كافرًا بنعمة الله هكذا فيتركها ليدوس فوقها الكافرون الشرهون وإن كنت منهم؟! واه ياخال؛ لقد مات عائلها وتشردت بسببى، دون أن أذوقها ولو بقبلة، بضمة واحدة، كل صياع البلد ركبوها فى أمان الله وأكلوا من العرجون حتى شبعوا فلم يشعر بهم أحد ولا غلت عليهم ظرف سخيف طارىء. أما أنا فلا، إننى أعرف حظى المهبب يابوى؛ ما أكاد أصل إلى قطوف الجنة حتى يطلق الله على كلبا يفزعنى أو ينهشنى فأرتد محرومًا أطلب السلامة مغنما. الكل يركبون وأنا أحزن وأتحمل الوزر، فلابد أن يكون للمولى الكريم حكمة فى ذلك ياخال؛ وكيف يكرمنى ولو بلحسة من هذا الطعام الجيد المستباح وأنا دائم الخناق معه ولا أفعل حتى الآن شيئًا يرضيه؟ إن الله ليس غافلا ياخال؛ وهو سبحانه أراد أن يكيد لى ليلة زرت «كاملة»؛ ولسوف يكيد لى على الدوام كلما أردت ارتشاف العسل قلبى يحدثنى الآن ياخال أن أعانده كما يعاندنى، أن أفعل مثلما فعل جدى البعيد آدم عليه اللعنة، أن آكل من هذه الشجرة المحرمة؛ وإلاركبنى الجنون ومشى عقلى إلى غير رجعة ـ طيب يارب، أنت سبحانك حرمتنى منها وفشختها لاصيع خلق الله وبعضهم أعرف أنه خنثى..

يه.. يه.. الآن فقط فهمت قصدك يارب. صدقنى أننى فاهمك وفاهم الاعيبك معى بالخصوص فى هذه الشغلة. أنت

سبحانك تلف على لكى تجمعنى عليها فى الحلال، على سنة الله ورسوله؛ أليس هذا ما تقصده بذمتك يارب؟! شف يارب، لف علىّ كما يحلو لك، ولكننى أعرف أن هذا ما تدبره لى؛ تظننى مادمت صعيديا يعنى مخى مقفول؛ تمشى وراء أولاد القحباء من أهل مصر القاهرة الذين يشيعون عنا سخيف النكت والإشاعات، طب والله والله، يمين أحاسب عليه فى نار جهنم أنك دبرت لى هذه الشغلة فى ضربة معلم مضبوطة لا تخر منها المياه جعلتنى أقابلها فى سوق بلدة (صدفة)، ونطس فى بعضنا من غير أن يسعى أحدنا إلى الآخر؛ وجعلتنى أدخل عليها بجراة فأكلمها فتواعدنى بكل بساطة مع أننى أسمع أنها تدوخ الرجال قبل أن تؤامن لهم وتواعدهم، وقد وضعت فى قلبى الشجاعة والمرجلية حتى قويتنى على نط جدار دارها والنزول إليها لأصير قاب قوسين أو أدنى من حضنها، لتفاجئنى بالفضيحة الكبرى وتوشك أن تقتلنى؛ لكنك برحمتك هزأتنى فحسب، ونجيتنى لحكمة تريدنى أن أعيها، وها أنذا الآن قد وعيتها ولن أنساها، ثم إنك سبحانك نفخت فى جسد السقاء فعاش رجلا لمدة عشر دقائق فى حياته كلها ومات بعدها. أنت سبحانك تريد أن تميته فى الأصل، لأدخل أنا وأحل محله نهائيا من أجل هذه الولية الغلبانة المحرومة من نسمة الدنيا سنين طويلة مع السقاء. جعلتنى سببا لموته، حملتنى الوزر؛ ووضعت محبة الولية فى قلبى فوالله والله والله لاتزوجنها، حتى يعجبك يارب.. نعم سأتزوجها، هل أحد شريكى؟ هذا ما نويته وعزمت عليه ولن يردنى عنه مخلوق. لقد فهمتك

يارب حق الفهم، وسوف أؤدى لك هذه الخدمة؛ فأنت وحدك الذى سيقدرها حق قدرها، هذا جميل أتعشم أن تذكره لى كلما رأيتنى واقعا فى ضيقة. أنا يارب سأتزوج هذه الولية الغلبانة لأمنعها من فعل الحرام، سأرويها أنا؛ دع هذه المهمة لى فأنا النهر الذى سيغرقها حتى لا تبص لأحد غيرى؛ سألمها من الشارع؛ وهذان الطفلان ساكون لهما أبا؛ فمن أجل الورد يسقى العليق..

مسحت على وجهى بيدى كأننى أوقع ببصمتى على هذا العقد الذى أبرمته لتوى مع الله، وشعرت فى الحال أنه سوف يسامحنى على كل ما ارتكبته فى حقه من لبط، تهيأت للوقوف فى طريق «كاملة» ومفاتحتها فى هذا الموضوع من غير لف ولا دوران، لكننى حين رفعت كفى عن وجهى لم أجدها يابوى، كأن الأرض انشقت وابتلعتها، تمخولت، صرت كالطفل الذى تاه من أمه؛ ودخل فى روعى أننى لن أراها ثانية. فبقيت فى مكانى ألف وأدور وأرسل البصر أكاد أجعر باكيا، خطوت مسرعا حيث كانت من دقيقة؛ أطلقت عيونى بين صفوف النخيل، فرأيتها تدخل دار المعلم «جرجس غطاس»؛ فعرفت أنها تعمل فى شغلة زوجها؛ وتقرفصت بين جذوع النخيل انتظرها، جعلت ألف سيجارة مخلوطة بالحشيش وجعل قلبى يستريح لما انتويته، وحين سرى دخان الحشيش فى مخى تيقنت أن الله قد أكرمنى بالسريقة الأخيرة ونجانى من خطرها إكراما لهذه الولية والمؤكد أنه سبحانه جر رجلى إلى البلدة لكى أكفّر عن ذنوبى وأفعل ما سأفعل.

إلاّ وهى قادمة، والبلاص ممدد فوق رأسها، وكان واضحًا أنها قد تخلصت من طفليها حتى تسرع فى جلب مزيد من المياه، ولابد أن الطفلين انشغلا بالحلوى الكثيرة فى دار المقدس «جرجس غطاس»، إذ إنه صاحب دكان بقالة كبير فى بلدة «صدفة»، وله دكان آخر فى قلب السوق على مقربة منّى توقفت كالمذهولة، فنهضت واقفا: «إزيك ياكاملة» فظهر عليها الفرح رغم الحزن الكبير فى عينيها وكانت النضارة فى وجهها تؤكد للأعمى أنها بدأت تأكل الوجبات الثلاث كل يوم، وثمة شىء لا أقدر على وصفه كان فى وجهها وهيكلها يوحى لى أنها قد نظفت من شغلة اللبط التى كانت ماشية فيها، وجاءنى يقين بأنها التحقت نهائيا بخدمة المقدس «جرجس غطاس» وأنه اشترط عليها حسن السمعة؛ وأنها رحبت بذلك لعلها تجد عريسا يعوضها ما فات وتتوب على يديه هزت يدى بحرارة وهى تقول: «إزيك ياحسن وازى مصر!» ثم غالبت الدموع فى عينيها ببسمة أجارك الله من لسع نورها، وقالت: «من يوم المرحوم ما حدّش شافك!» قلت وصوتى يرتعش وليس فى استطاعتى له: «أنا جئت اليوم من أجلك وحدك!» بدا كأنها توقعت منى شيئا يغضب الله حيث قالت: «كفاك ما حدث أنا الآن واحدة أخرى غير التى كنت تعرفها إسأل عنى لو أحببت! وحل عنى الله لا يسيئك! أنا باشتغل عند ناس طيبين لا يبخلون على بخيرهم! فإن كنت تخشى الله فلا تسبب لى فضيحة جديدة! أنا ما صدقت أن البلدة نسيت ما حصل» قلت وقد أوشكت على العياط: «حتى ولو كنت أطلبك على سنة الله ورسوله؟!» شهقت

الولية ياخال! ارتاع وجهها، فارتد البلاص للوراء وقالت كان بصة نار لسعتها: «إيه! أنت صاح لنفسك؟!» قلت بكل حرارة: «وحق من جمعنا على غير ميعاد أنني نويت أن أتزوجك على سنة الله ورسوله! عندي هنا دار مبنية بالبتن كدار العمدة! وأقدر أن آخذك معي إلى مصر وأستأجر لك دارا!»..

وا.. ا..ه يا خال! ما كل هذه الدموع التي انهمرت على وجه الولية؟ لقد وقفت مذهولة لاتنطلق واستعجلتها الرد قائلا: «قلت إيه يا بنت الناس؟ أنا أحبك وأريد أن أصلح غلطتي معك! وسوف أهنيك وأستتك؛ وشرطا سأنفذ كلامي في الحال!».

شوحت الولية بيديها في يأس قائلة: «هل يوافق أهلك؟ وأمك» قلت مشوحا: «أنا أزعق صوتي من دماغي! ليس لأحد كلمة علي! وإذا وافقت أنت فإنني من الليلة سأصحب الرجال إلى أبيك لأخطبك منه»..

فما نطقت بهذا إلا وانفجرت هي تبكي من كل عين حفان، فتذكرت سبب ألمها يا بوي. نعم، فإن «كاملة» لم يعد لها أب؛ فقد مات أبوها وهي طفلة، فربتها جدتها لأمها؛ ولما كان «سعداوي» السقاء يمت بصلة قربى لجدتها لأمها؛ فإنه تقدم للزواج منها فوافقت جدتها وبعد زفافها على السقاء بشهور قليلة توفيت جدتها، تذكرت هذا فبكيت أنا الآخر، أي والله يا خال بكيت أشد منها، وقلت لها: «أنا إذن أخطبك من نفسك!» قالت وهي غير واثقة: «إن كنت تريد تتزوجني حقا فإنك تقدر أن تخطبني من

المقدس جرجس! إنه الآن ولي أمري! قلت بكل حماسة: «وماله! هذا أجيء بالرجال وافعل!» قالت وهي تنصرف: «أفوتك بعافية!» ومضت..

بقيت في مكاني، وحتى لا يراني أحد أمشي، وراءها، تقرفصت حتى تختفي هي، لففت سيجارة أخرى محشوة بالحشيش، ما كدت أشعلها واستمخ من انفاسها حتى طلعت الشمس تمشي على قدمين، قادمة وسط النخيل، حاملة على رأسها حزمة حطب، ارتعت ياخال فانتفضت واقفا، وبلا حياء وضعت نفسي في طريقها، محاولا معرفة هذا القمر الذي لم أعرفه من قبل في بلدتنا..

شهقنا معا، بل صرخنا في نفس واحد: «أهو أنت؟!»كيف هذا يابوي؟ من يصدق هذا؟ «حنة» بنفسها؟ بعد كل هذه السنين وكل هذا العذاب في انتظارها، أفاجأ بها هكذا أمامي بكل هذه البساطة؟ لقد كنت مستعدًا أن أسافر إليها في الهند والسند لو قالوا لي إنها هناك، قلت: «كيف حالك ياحنة؟!» قالت: «بخير! الحمد لله» قلت: «أين أراضيك؟!» قالت: «أشتغل في دار المقدس ميخائيل إبراهيم» قلت: «تزوجت أم لا؟!» قالت: «مازلت أنتظر ابن الحلال! ربنا يسوقه!» قلت في الحال دون أن أدري «لقد ساقه بالفعل ياحنة!». تلفتت حواليها ضاحكة في خجل، قائلة: «أين هو؟!». قلت مشيرا بيدي إلى صدري: «ها هو واقف أمامك! هو أنا!». قالت غير مصدقة: «أنت!!» قلت: «ومن غيري؟ والله لن يقرب منك أحد

سواى!». قالت باسمة كأنها غير مصدقة: «ربنا يعمل ما فيه النصيب!». قلت: «والعمدة؟!» قالت متنهدة: «أولاده افتروا علىّ! لمّنى المقدس ميخائيل! أخدم نسوانه وداره! ويحوش لى الماهية كل شهر! ويطعمنى ويكسونى!» قلت: «هل أخطبك منه؟». قالت: «لا أحد غيره!». قلت «إذن! كلميه فى الأمر!». فهزت رأسها موافقة، ثم مضت وبعد خطوات أدارت رأسها نحوى ونظرت، فابتسمنا، وقلت لها: «لا تنسى ما قلته لك ياحنة!» هزت رأسها تحت حزمة الحطب، ومضت تتلعبط كالبلطية فتقرفصت من جديد أدخن السيجارة وقد ذاب مخى فى الفراغ بين النخيل؛ وصرت لا أعرف ماذا أفعل؛ لكننى نهضت متوجها إلى دار صديقى «هليل» وكنت أجر دماغى كأنه مربوط بسلاسل فى قدمى، غير أننى حين تملكت الطريق، لم أدر إلا وأنا متوجه إلى محطة «صدفة» لأركب القطار عائدًا إلى مصر القاهرة.

عجلة الحظ عشرة

الأولة ـ بركة دعاء الوالدين

ربنا سهل، وتم كل شئ على التمام كما رسمت له يا بوى؛ وعدت إلى هذه الملعونة ـ أقصد مصر ـ أقصد مصر القاهرة ـ من جديد، لا من شاف ولا من درى. عينى كانت قوية يا بوى؛ ويعلم الله إن كان ذلك من وحى مرآى البنت «حنة» بعد طول سهر والتياع، وللمرأة السيالة «كاملة»بعد طول تمن واشتياق.. أم أن الأمر راجع إلى قرة عينى من الأصل؟ الله أعلم، لكننى كنت فى حالة فرح واغتباط لا مثيل لهما فى حياتى؛ فغدا أو بعد غد أنام على سرير ذى جناحين، على يمينى «حنة»، وعلى يسارى «كاملة» ولقد حلفت برأس أبى لأجمعن بينهما فى سرير واحد. نعم يا خال، إذ لا مفر أمامى غير هذا الحل إنهاء لوجع الدماغ؛ وإلا فدبرنى يا خال؛ لو كنت مكانى على رأى ما يجئ فى الراديو، تقول إننى يجب أن أكبر مخى فأجعل لكل واحدة يوما معلوما أو جمعة معروفة، حتى يتجددنى الزمن ولا أقع تحت طائلة الملل؛ فبدلا من أن يكون لى بيت واحد يكون لى بيتان ، أزور هذا وأعَرج على ذاك عودا على بدء؛ وأحيط كل واحدة بخميلة.. الخ..

أنت ـ لابد ـ تقول لى فى نفسك هذا. هذا ـ لو صدقتنى ـ صغر مخ يا بوى عدم المؤاخذة، والناس إلى ذلك يقولون: من يتزوج اثنتين فهو إما قادر وإما فاجر، ومن يتزوج ثلاثة أو أكثر فهو قادر وفاجر معا، والأمر أبدا ليس هكذا يا بوى، فى نظرى على الأقل يا بوى، الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ غير أنه الغشم وتخانة المخ يجعلاننا نفتح بيتين، لنخلق لانفسنا جبهتين تتنازعاننا تنهشاننا حتى النخاع وفى النهاية تتعاركان حول عظامنا النخرة، كل واحدة تتوهم أن وراء العظام النخرة سرا دفنته الأخرى، تفتح بيتين يا بوى توزع نفسك بالعدل والقسطاس ولن تعجب مع ذلك هذه أو تلك؛ ستبقى الواحدة منهما طول عمرها تعتقد أنك تعطى الأخرى زيادة عنها فى الخفاء الذى لاتراه هى، وستبقى تبعا لذلك تضمر لك مؤامرة سرية غامضة تنوى بموجبها الاستيلاء على أكبر من بقاياك، مجنون أنا يا بوى كى أفعل هذا؟ ! إن المرأة كائن عظيم الشأن ما نقول فى ذلك شيئا، لكنه يحتاج لعلمنية فائقة الحد فى معاملته؛ إنه كالقط يألف الدفء يركن إليه يطلب المزيد وفوق ذلك يفرض حصارا على ركنه عشه؛ ويل لقط عابر يقتحم عشه ؛ أنظر إليه يا خال وهو ينتفض وينقض عليه صارخا، ذعرا ما تعرف أو فروسية ماتعرف، لكنه ربما مزق لحمة إربا ورماه من النافذة..

العبد الفقير ليس معلما ولادياولو؛ إنما أنا شقيان، ومع ذلك شرقان، روحى من الحرمان متشققة طافحة بالرغبة؛ وليس فى

مكنتى أن أفتح دارين فى البلدة، وفى نفس الوقت أقيم فى مصر القاهرة؛ كيف يا بوى؟ لسوف تنتقلان معى إلى مكان رزقى؛ وتبقى الدار فى البلدة نزورها كلما هفنا هواء الذكريات النقى، أى أننى مجبر على دار واحدة فى مصر؛ جبر بجبر فليكن للسرير الواحد جبران خاطر هو الآخر؛لأغرق أنا فى المعمعة كيفما اتفق؛ ليكن سباقا بينهما فى عدل مزاجى وتكييفى على الجنبين؛ ومن تستأثر بى منهما تكون جدارتها حافزا لإبداع الأخرى،، أو كاسرا لعينيها، تلكما اللتان لن تريا سوى حصحصة الحق الصراح..

أحلام يا بوى، ولكنها وقود تغذيت به، طرت على جناحيه حتى أننى من فرط السعادة نسيت عملتى المهببة، فاتجهت إلى سرادق الحاج السنى مباشرة. كنت ناسيا كل شئ كأنه لم يقع؛ وكانت شهقتى المفاجئة بعمق النسيان حين انقض على نافوخى ذكرُ الحادث فجأة. زلزلنى التذكر المفاجئ فكدت أولى الأدبار، لولا أن عين خفيره كانت قد وقعت فى قلب عينى مباشرة، فيما هو جالس بجوار الباب من الداخل يرقب الطريق بعينى الصقر الواقف لابد على شاربيه..

شئ إلهى قوّى عزمى فى الحال، وألقيت بنفسى فى حالة السرور التى كنت فيها، ووسعت من بسمتى كبرقية تحية أرسلها للخفير الذى سبق وكنت جدعا معه؛ ثم عبرت عن اشتياقى فجعلت آخذ سمتى نحوه، فلمحت على وجهه شيئا من الترحيب استشعرت على البعد صدقه ـ ما أنا إلا ولد زوانى أيضا يا بوى

كما تعرف ـ فخطوت نحوه بلهفة أشد؛ فما إن شمله ظلى حتى هب واقفا: «أهلا! أهلا! فينك يا بو العم!». وكانت الحرارة فى قبضة يده. فقلت له بهدوء شديد «فى الدنيا!» ثم عزمت عليه بسيجارة فأخذها وسارع فأشعل لكلينا اقعد يابو العم. هكذا قال؛ فجلست فى الحال يا بوى بكل كلاحة ودون أن أتردد. لكننى شعرت بخفقة قوية فى فؤادى إثر خاطر مفاجئ بأن الخفير يدبّر لى كمينا أنحبس فيه حتى يجئ سيده فيقبض علىّ بكل سهولة. تحلف اليمين يا خال أننى لاحظت الرجل فشعرت أنه قد تورط من استجابتى الفورية للقعود. فصار يتلفت حواليه مرتبكا؛ فلما لاحظ أننى لاحظت ربكته خشى من ثبوت تورطه. فاستدار نحو خصه صائحا: «اعملى شاى يا مرة! بس بسرعة واخلصى من اللى فى إيدك!» ثم استدار نحوى: «شرفت يا بو العم!»: «عال! عال كيف حال الحاج!». قال: «بخير!». وأضاف: «جاى منين ورايح فين؟». قلت: «كنت فى مشوار بسيط! وذاهب إلى بلدياتى المعلم شندويلى!» فأضاف: «فى مصر عتيقة؟». قلت : «نعم». ثم هممت بالنهوض خوف اللت والعجن فيما قد لاتحمد عقباه؛ فإذا هو يقبض على ذراعى بقوة فيعيدنى إلى قعدتى فوق صفيحة مقلوبة فوقها جوال مطوى. الرعب دوى فى مفصلى يابوى. فتشككت فى حلفان الخفير؛ والله ما تمشى قبل ما تشرب الشاى. ثم عزز حلفانه صائحا: «الشاى.. ياولية!». فجاء صوت الولية واهنا من الداخل: «هو على النار!». ويظهر ياخال أنه فهم من لهجتها هذه شيئا؛ فدلى أذنيه فى الأرض. وما كاد يرانى أنهض ثانية حتى

نهض هو الآخر قائلا: «طب مع السلامة! يظهر إن الولية ملخومة جوه!». فقلت باسما: «كان الله فى عونها!». وعزمت عليه بسيجارة أخرى؛ فتلقفها بين أصبعيه قائلا: «كتر خيرك يابو العم!»..

الدماء جرت فى عروقى ياخال. وصرت أكاد أتنطط فى مشيتى من السعادة والفوقان. صرت أضرب الخطوات كيفما اتفق؛ أو هكذا خيل إلىّ. لكننى وجدتنى بعد قليل أمضى داخلا مقهى المعلم «شندويلى». وكانت الأيام التى لا أذكر لها عددًا قد مرت دون أن ارى المعلم «شندويلى». وكنت أرانى بالفعل مشتاقا إليه والله يابوى؛ وصرت أؤنب نفسى على عدم السؤال عنه فى الزمن الفائت. المعلم «شندويلى» كان أكثر اشتياقا منى؛ طول عمره جدع يابوى. ما أن لمحنى من بعيد وهو خلف النصبة ماثلا لم يتغير ولم يتبدل، حتى خرج عن النصبة فاشخا حنكه المخرب فاردا ذراعيه المعروقين صائحا: «وشك ولاّ القمر يابو العم! فينك وفين أراضيك!». لحظتها كنت فى حضنه أقبّله فى قفاه ذات اليمين وذات اليسار؛ فلما انفلت قلت: «واحشنى قوى قوى يابو العم! والله ما تعرف معزتك عندى!». جلست على أقرب كرسى مجاور للنصبة؛ أما هو فتركنى وجاس بين النصبة، فصب واحد شاى على مياه بيضاء، وجاء فجلس بجوارى متجاهلا نداء جرسونه، قال وهو يقلب لى الشاى: «غيبة طويلة قوى يابو العم! إيش أحوالك!». قلت: «بخير والحمد لله! الأشيا معدن!». ثم أخرجت علبة سجائرى البلمونت العشرين ـ التى اشتريتها خصيصا من

اجل هذه الزيارة، وقدمتها له فأخذ واحدةوأشعلها من بقايا سيجارة كانت بين أصبعيه. قال وهو يشد النفس في اشتياق وحرقة: «تاخذ لك سنّة أفيون؟». هتفت: «أحب النبي!» من خلف أذنه جاءت أطراف أصابعه بورقة سلوفان صغيرة مطوية، فكها ونزع بظفر إبهامه حمصة بنية اللون، قربها من فمي فتلقفتها بطرف لساني وقد تغير مزاجي في الحال فصار أعلى مما كان درجات كثيرة. قال المعلم «شندويلي» وهو يلقي في فمه بملحقة جديدة من الأفيون ويتلمظ في تلذذ مرير: «بتشتغل فين دلوقت يابو العم؟». قلت: «على باب الله! لكنها مستورة والحمد لله! مانعوزه نلقاه!». قال:» فأين تسكن يابو العم؟» قلت: «مع صاحب لي! ولد عترة! يسكن في شقة صغيرة محندقة في كيمان مجرى العيون! هو يتركني أبيت معه بدون مقابل!» قال في جدية كبيرة بلهجة من لا يعجبه الحال الماثل: «كيف يابو خاله! دا كلام؟! إذا كانت مستورة معك كما تقول بعين قوية فلم لا تدور لنفسك على مطرح! الجدعنة ليست في الشغل ولا في المكسب يابو العم! الجدعنة أن يكون لك مطرح تبيت فيه! لا يتحكم فيه أحد غيرك! من ليس له مطرح في هذه المدينة يلقى الهوان! لا تغرنك كثرة المآذن ولا براح المساجد ولا فخامة القباب فليس تحتها من شيء سوى الرميم المسحوق! ينتهك عرض الشريد وهو نائم حتى ولو كانت على رأسه ريشة الذهب! شف لنفسك مطرحًا يابو العم! اطرد نفسك قبل أن يطردك الغير بنذالة! إن كنت تنوي الشغل هنا فالمطرح أهم من الشغل بكثير!»..

ثم قام فاتجه إلى النصبة، فاعد كمية من المشاريب المطلوبة؛ رصها على الصواني، ضغط على زر الجرس مناديا للجرسون؛ كل ذلك في ثوان قليلة، ثم عاد مقدما لي سيجارة مواصلا كلامه: «ميتك كام يابو العم؟! تقدر تدفع كم؟ أنا سوف أعاونك على حل هذه المشكلة! أحب أن أفعل الخير دائمًا مع بلدياتي بنوع خاص كما تعرف! إنهم عزوة لي في غربتي في هذه المدينة لولاهم ما فلحت بين أولاد القحباء من دود الأزقة ممن هم من سلالة الذين استعمرونا على الدوام!». الحقيقة أنت هكذا بالفعل يامعلم شندويلي، أشهد لك بذلك وأختم بالعشرة وأنت لست محتاجا للقول.. هكذا قلت في نفسي وأحسست ياخال كان الدنيا تنفتح أمامي على وسعها. صحيح قول المثل: العبد في التفكير والرب في التدبير؛ والمعلم «شندويلي» هذا فيه شيء لله يابوي وأنا لم يكن يخطر ببالي أن أساله عن مسكن رغم علمي أنه من النوع الذي يمكن أن تساله عن أي شيء فيقضيه لك في بساطة مذهلة. وإذا بي كنت قادمًا لآخذ نصيبي الذي جهزته لي المقادير وقادتني إليه بدون أن أدري. قلت: «والله يامعلم شندويلي ياخوي أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتني!». شوح لي كأنه يختصر الأمر قائلا: «معك الف جنيه؟! لو معك الف جنيه فقط يابو العم تصبح من غد واحدًا من البكوات!». قلت دهشا بعد أن فات أوان الشهقة من هول المبلغ المطلوب: «كيف يامعلم شندويلي؟!». قال: «تسكن في شقة على النيل مباشرة في الدور الزابع! أربع غرف كبيرة وصالة يجرى فيها الحصان ولها بلكونات من ثلاث واجهات تطل كلها على النيل

وكل بلكونة تتسع لقعدة عائلية كبيرة! عز يابو العم! آخر عز! لو يملكها لص من لصوص المدينة يبيعها بالشيء الفلاني! وإيجارها ستة جنيهات فقط!»..

مخي دار يابوى كالزنبلك! ظننت أن المعلم «شندويلي» يقول ذلك من باب الخيال؛ على أساس أن المبلغ المطلوب لا يقدر على دفعه سوى لص مقيم وراسخ القدم أو واحد من العائدين من بلاد المال ـ لكنني ـ من باب الخيال كذلك ـ قلت له: «وأين هذه الشقة يابوى؟!». قال ببساطة: «عندى أنا! فى عمارتى! ألم تعرف يابو العم أننى هويت بناء العمارات فى الزمن الأخير! وقد أصابنى الكار لحسن الحظ فاشتريت عمارة على النيل! أشهر وأحلى عمارة على النيل! لو قابلتنى قبل اليوم بفترة لكنت سعدت! كنت أشطب فى عمارتين على قد حالهما فى بولاق الدكرور وأرض اللواء! أجرتهما لبلدياتى بملاليم! كل ما هنالك أنهم شطبوها على نفقتهم! أصلهم كلهم من العائدين المعاودين! وعلى العموم فأنا قد أحببت اللعبة! أشترى الأرض فى كل مكان وأنساها! طول عمرى فىّ هذه الخصلة! وحينما أرى العمار قد بدأ يتحوط أرضى أسرع فى بنائها! الأرض كانت بالتقسيط المريح وأما البناء فبالمجان لم أدفع فيه مليما من جيبى! العمارة تسكن بجميع شققها قبل أن أخط فيها طوبة واحدة! من يكتب عقدًا يدفع خلوا أكبر من ثمنها لو بيعت له! البركة فى العائدين يابو العم! وأنا رجل بتاع ربنا لا أحب الخلوات! إننى أخصم ثمن تكاليف البناء والأرض فقط!

والباقى يسكن به! كل العمارات سهل ربنا بها وأنا واقف خلف هذه النصبة! فالمقاولون كثار! والأنفار أكثر! كل بلدياتى أنفار! والمونة متوفرة طالما القرش صالب حيله! القرش هو الرئيس الأعلى فى هذه المدينة! نعود إلى هذه العمارة التى لو كانت أمك داعية لك فى ليلة القدر لسكنت فيها! لقد اشتريتها من أجل شقة أحببت أن أسكنها! تلك هى التى سأمنحها لك هدية! لكن الرياح دائما تأتى بما لا يشتهى السفن يابو العم! الدور الذى فيه هذه الشقة، والذى تحته تسكنهما طائفة من المومسات والقوادين والمشتغلين فى شارع الهرم مع أن أشكالهم آخر بكوية وآخر أناقة! غير أنهم جميعا من البلطجية واللصوص! إننى أقول لك الصراحة يابو العم! اشتغلوا لى فى الأزرق وفى أمور البلطجة! خفت أن يفسدوا لى أخلاق العيال! وخلفتى كلها بنات ما عدا ديك واحد صغير أعطاه لى الله مؤخرًا! المهم يابو العم أننى أرحت نفسى واستأجرت شقة فى مصر الجديدة بين جيران على مستوى كبير! دفعت فيها مبلغا جامدًا! وأما هذه الشقة فقد حلفت لأجيئن لجيرانها الحوش هؤلاء بولد يكسر أنفهم! وأنا مرادى أن تشكم لى هؤلاء الجيران وتذلهم أشد الذل! أنا أستطيع أن أبيع هذه الشقة بآلاف! لكننى لن آخذ منك سوى الألف الواحد إكراما للعشرة القديمة وأملا فى أن ترينى هؤلاء الوحوش مكسورة نفوسهم!»..

قلت وأنا فى غاية النشوة: «عرفت تختار يامعلم شندويلى! ثلاثة بالله العظيم لأرينك مؤخراتهم عارية وأجعلك تبصق فيها

على كيفك! لسوف أجعلهم يرحلون فى عز الليل تاركين الشقق فى سبيل النجاة بحياتهم! اتكل على الله يامعلم شندويلى! هذه الشقة لن يسكنها سواى! اكتب عقد الآن وأنا أسدد لك المبلغ على ثلاثة مرات بالكثير أربعة! وإن شئت السرعة فإننا نكتب الآن جوابا لصاحبى هليّل فى البلدة وشريكى فى سبوبة تدر دخلا ويمكن أن يرسل لنا أى مبلغ نطلبه!»..

شوح صائحا: «أكتب ما تشاء! ولكن هاك مفتاح الشقة! اذهب ونم فيها وأقم كيف تشاء! وحين يجيئك المبلغ هاته وتعال نكتب العقد والذى منه! وعلى فكرة! فى الشقة عفش استغنينا عنه!! تستطيع أن تشتريه وتضيف ثمنه للمبلغ! هو يساوى ألفا ولكنى أبيعه لك بثلاثمائة لا غير! أنت ياما خدمتنى!»..

كدت والله أقبل يده وهى تقترب منى بالمفتاح. لكننى اكتفيت باحتضانها قائلا: «سأبقى طول عمرى خادمك يامعلم شندويلى!». ربت على كتفى بيده؛ وجعل يصف لى مكان العمارة وموقع الشقة منها؛ وجعلت أدعو له بالستر. وشعورى يقول إن ما حدث الآن هو بركة دعاء الوالدين، وشعور آخر يقول بل هو بركة البنت حنة التى ستنقذها من الوحلة، وبركة الولية كاملة التى ستقيها شر الترمل بين الوحوش الكاسرة. فأرحت نفسى وقلت: هى بركة الجميع، ومضيت أجرى إلى العمارة أقول: ياأرض اتهدى ما فوقك قدى.

والثانية: العتبة العالية

هذا هو الجنون بعينه يابوى. أنا حسن ولد أبى ضب الذى كان غاية ما يتمناه عشة يسكنها فى حارة، أو بالكثير شقة فى بيت مَرِم، أسكن فجاة فى هذا القصر المنيف؟ أنا أدخل هذه العمارة يابَوى كل يوم؟ ربما ارتاب سكانها فى أمرى، ربما منعنى البواب، وإن البوليس نفسه ـ لو استعان به البواب ـ لن يصدق أننى يمكن أن أسكن فى عمارة كهذه وأنا الكحيان الشقيان..

ما هذه الأبهة ياخال؟ بلكونات على الكورنيش؟ حلم أم علم هذا؟ وما هذا البراح يابوى؟ وهل هذه حيطان شقة أم حيطان مسجد أم حيطان من الجنة؟ كلها مدهونة بالرسوم الملونة بالمشجر والمزخرف؛ وفى الحمام «دش» يابوى، أخيرا سأستحم يابوى، سأفتح هذا الدش هكذا، لتدفع قذائف المطر الغزير هكذا. فلأجربن، خلعت ملابسى وزحفت تحت الدش، وتركت النشوة البالغة تنصب على رأسى من «الدش». ثم ما هذا ياخال؟ لابد أنه ما يسمونه بالبانيو؛ إنه حوض ينام فيه المستحم. فلأجربنه، ملأته بالماء ونمت فيه. كان فى الحمام بقايا صابون بريحة، وبقايا فوط قديمة، وبعض شباشب متهرئة النعل..

لبست ثيابى وخرجت على غاية من الفوقان. نظرت فى الغرفة المجاورة. هذا مطبخ له صندرة يتصاعد منها بقايا روائح ثوم وبصل وأصناف عطارة. فعلا فعلا ياخال. هذا مطبخ يليق بـ «كاملة»، وهذا حمام يليق بـ «حنة»؛ وهذه دار تليق بهما معا. يرعاك الله يامعلم شندويلى؛ ولكن، الخوف أن يكون الملعوب مرسوما على قد المهمة: أضايق له السكان وأنتقم منهم وفى النهاية يقول لى مع السلامة. قلبى راح يقول لى أن المعلم شندويلى لن يفعل، وأننى يجب أن أعتبر الشقة شقتى. وأنا الآخر ساورطه، سأذهب لأقيم فرحى فى البلد وأجىء بالعروسين قبل أن يرجع فى كلامه. وبعون الله ساضىء له أصابعى العشرة كالشموع حتى يرضى؛ ساقتل نفسى فى خدمته مقابل أن يترك لى هذه الشقة؛ والله لن أتركها إلا على جثتى يابوى..

تجولت فى الصالة البرحة؛جلست على كل كرسى واختبرته فتيقنت أن عَمْرَة بسيطة عند النجار، وأخرى عند المنجد، تصبح هذه الصالة بعدها كصالة البكوات الذين كنت أبيع لهم السمك فى المعادى. ثم دخلت على حجرة مجاورة؛ فإذا فيها سرير قديم، لا ينقصه سوى دهن وتنجيد فرش. بجواره دولاب مفصص وبعض ضلفه مخلوعة ومركونة بجواره، تتصاعد منه روائح العطور العتيقة والصابون والنفتالين. وهذه مرآة ذات كومدينو على اليمين وآخر على الشمال، ولها كرسى تجلس عليه المرأة لتتزين. كسبنا صلاة النبى، بشرة خير يابوى؛ ضمنا شوار العروسين،

فكل هذه الأثاثات يمكن علاجها وتجديدها بكل سهولة. دخلت الغرفة الثانية فوجدت بها ترابيزة وسط دائرية؛ حولها بعض الكراسى الجلدى.الترابيزة سليمة أما الكراسى فكلها عاهات، بعضها منفجر البطن وبعضها مهيض الساق وبعضها قعيد وبعضها هشيم؛ هى الأخرى يمكن علاجها بتراب الفلوس. عافاك الله يامعلم شندويلى؛ لو تطلب الأمر قتل واحد من خصومك فسافعل. دخلت الحجرة الثالثة، فإذا هى خالية تمامًا، إلا من بعض أوراق جرائد قديمة وهلاهيل لمسح الأرضية. دخلت الحجرة الرابعة، فإذا بعض الكراكيب والروبابيكيا. قلت: حلو. وإذا بالشبابيك المطلة على البلكونات تنادينى؛ فجعلت أنظر من كل شباك نظرة، وأطل فى كل بلكونة طلة؛وأتلكأ كلما رأيت جيرانا فى الشبابيك والبلكونات المقابلة ينظرون فىّ، فحينئذ أنتفخ كأنى أشعر بأننى البيك الجديد الذى سكن هذه الشقة..

رحت وجئت عشرات المرات ياخال، فتحت أبواب الغرف وأغلقتها عشرات المرات. عقلى يكاد يشت. فى المطبخ وجدت رفوفا رخامية مثبتة فى الحوائط، وسبرتاية نحاسية قديمة. ووجدت تحت الرف وابور جاز محترم؛ قلت: طبعا لقد تقدم المعلم شندويلى وأصبح يشتغل بالبوتاجاز..

خفت أن يصيبنى الجنون فى الشقة وحدى ياخال؛ فخرجت، وبكل لذة أغلقت بابها بالمفتاح، وصرت أتنحنح وأتلكأ فى مشيتى على السلم وأثير ضجيجا هائلا أتحدى به أى كلب من سكان

الدورين تسول له نفسه الاعتراض. لكن أحدا لم يعرني التفاتا. صادفني على السلم كثير من الخلق صاعدين وهابطين؛ فإذا هم أشد مني ضجيجاً وصخبا وجلبة.. رميت بنفسي في الشارع. وأول خاطر داعب أعطافي هو أن أخفي أمر هذه الدار عن كل من أعرفهم من الخلق بلا استثناء. ثم طغى على ذلك الخاطر خاطر أقوى؛ هو أنني لابد لي من الشروع فورًا بالبحث عن المبلغ المطلوب للمعلم شندويلي؛ بل لابد أن يتوفر بين يدي ثلاثة آلاف جنيه على الأقل حتى أستطيع دخول هذه العمارة بعين قويةوكان الشوق للولد «هندي» قد برح بي، فاتخذت طريقي إلى داره في كيمان مجرى العيون. وكان الليل داخلا على البلدة كأحلى ما يكون، ونور القمر يخسف نور الكهرباء ويسحقها حتى في الحواري الضيقة. سبحان الله يابوي؛ عمري ما أحببت هذه الحواري في الليل، فما بالي أحبها اليوم؟ مالي أحب البلدة كلها وتنتابني الخشية عليها كأنني قد صرت من بين المسئولين عنها..

وصلت إلى دار «هندي»؛ مددت أصبعي لألمس زر الجرس فإذا بالباب ينفتح قبل أن ألمس الزر؛ وإذا بـ «هندي» لابس خلقاته النظيفة كأفندي معتبر من علية القوم؛ مصفف شعره على سنجة عشرة، ورائحة العطر تفوح منه؛ فعرفت في الحال أنه ذاهب للشغل لا للفسحة ذلك أن «هندي» ولد مكار يابوي، حصيف وناصح؛ وهو صاحب النصيحة المشهورة التي زودني بها ذات يوم ولم أستفد منها بعد ولكنني فخور بمعرفتها. وسبب النصيحة

أن «هندي» انسطل ذات يوم وشعشع فلما أبديت إعجابي يومها بشعره قال «غزولي» بغمزة من عينيه إن هندي له فلسفة في تسريح الشعر تعتبر من اختراعه؛ وطلبت من هندي أن يشرحها لي. فامتثل هندي يومها وقال في جدية: «أعلمك وآكل من بيتنا! اعلم أن تنظيف الشعر وتسريحه وتلميعه كله فوائد! ولكنني لست أعتني به من أجل هذه الفوائد! مع أنه ينير الوجه! ويروق المزاج! ويمنع الحشرات! ويعجب الفتيات! إنما أنا أعتني بشعري في مشاوير الشغل! إذْ أنني بتسريح شعري أخطف الكاميرا من عين الحكومة والمباحث! فإنهم يعرفون المتشرد المشبوه من شكل شعره! وضابط المباحث ينظر أول ما ينظر في رأس البني آدم ليرى حال شعره! ربما يراه مشعثا أكرت فيتجاوز عنه لأن شعره مشعث نظيف أو أكرت مصفف! أما الشعر الذي يتراكم عليه التراب والوسخ حتى يتجلد منظره كلحية المجذوب الفاقد العقل فإن ضابط المباحث يقفشه! يعرف أنه لا ينام في مكان به ماء! فهو إذن أفاق! وليقفشه الضابط ليتحرى عنه! لن يخسر شيئًا! لكنه قد يكسب قضية لم تكن على البال! ومعظم اكتشاف المجرمين الأذكياء وقع بهذه الطريقة! أما أنت ياصعيدي ياقدف فإن كنت تريد أن تصرف عنك عين الشرطة فنظف لبدتك هذه على الدوام! أو البس عمامة بشال أبيض تجعله نظيفًا دائما حتى لو غسلته كل يوم!»..

دفعني «هندي» بصدره وهو يقفز إلى الشارع ثم تلقاني في حضنه وسلم علي وقبلني وقبلته، وسألني عن غيبتي فقلت إنني ذهبت لزيارة عم لي يرقد مريضا في مستشفى أسيوط وإنني

مكثت بجواره حتى طاب قليلا. ولم أعرف إن كان قد صدق كلامي أم لا، حيث إنه لم يعلق؛ وإنما قال لي «وراءك شيء الليلة؟»، قلت: «لا!»؛ فأشار بيده أمامه أن اتبعني؛ فحاذيته؛ ومضينا عبر الحواري والدروب.وكنت ألاحظ أنه يختال كالولد الشلبي؛ فأتعجب من كلاحة اللص في مصر القاهرة. لقد بت ياخال أعتقد أن الإنسان في مصر القاهرة يستمد فخاره وكبرياءه وشرفه من لصوصيته؛ فكلما كان ولدا حريفا في السرقة واللعب بالقانون وتضليل ذمم الموظفين الصغار وشراء ذمم الكبار كلما انتفخ في مشيته وأصبح له المقام الرفيع في البلاد. قلت لنفسي: وأنا مالي ياعم، ثم تبسمت، ثم تذكرت نفختي أنا الآخر ومشيتي بروح أقوى من روح المحارب المنتصر؛ فضحكت بعمق حتى تمايلت على هندي؛ فدفعني بكتفه قائلا: «اصطبحت مبكرا؟». قلت: «لم أذق حجرا واحدا بعد!». قال: «فلماذا فشتك عائمة؟». قلت: «من الخرم!». قال: «معك حجرين؟». قلت: «جيب السبع ما يخلو!». قال: «سأسقيك حشيشة كتكت التي هي أعلى من حشيشة صفصف؛ ينوي أن يبيع القرش منها بأربعين جنيها! هبرت منه هبرة كبيرة! كله بثمنه! نقلت له أقتين في حقيبة خضار من بلبيس إلى مصر القديمة! أخذت حقي طبعا! جئت من بلبيس راكبا الأتوبيس وسط الناس وشنطة الخضار فيها برتقال وأوطة وجرجير وبطاطس! ستذوقها الآن !»..

وكنا قد صرنا أمام قهوة «صفصف» والشلة كلها متجمعة: «غزولي»، و«بربش» و «بسبوسة» و «صفصف» هو الآخر جالس

بينهم.. سلام عليكم، عليكم السلام، فينك ياولد العم؟ ووصلت بوصة الجوزة إلى يدي فأعفيت نفسي من الرد ومضيت أشعل الحجر، فالكلام ملحوق عليه أما الحجر فيحترق. بعد حجرين آخرين نهض صفصف يجرر ساقيه متأوها، وصوت طقطقة ساقيه يتكسر خلف خطواته. لاحظت أن صفصف لم يكن على ما يرام، فمزاجه غير معتدل، مع أن الحشيش عال العال. قلت هذا بصوت خفيض، فهمس بربش قائلا إن البودرة التي يشمها صفصف قد تأخرت عليه، وإنه قد أرسل في استعجال طلبها مراسيل كثيرة. فقال بسبوسة وهو يتحسس ثدييه الكبيرين: «ماله حق يتعكن! لو قال لي من البارحة لأنقذته الليلة بعشرة جرامات بالأمس وقع تحت يدي ولد نيجيري معه بطرمان كامل يريد بيعه بسرعة جربت منه شدتين خفيفتين فتيقنت أنه كوكايين أصلي وارد بلده! تركت الولد النيجيري جالسا في مقهى المالية وخطفت رجلي لحد الحاج علي إبراهيم فأريته العينة وبعت له وقبضت ثم عدت للنيجيري فزعمت أن التجار كلهم لا يطلبون غير الهوريين والكودايين أما الكوكايين فليس له سعر عندنا! قل إنني ساومته على خمسمائة جنيه فرق سعر! وكنت أنوي أن أرسم عليه لعبة الحكومة لأهف منه البطرمان كله بلا شيء! لكنه ولد ملقط وابن جنية! المهم أنني فزت بنصيب الأسد! وعلى كل حال سأعمل الآن واجبًا مع صفصف! إنه أخونا مهما كان! معي حقي الناشف الذي اختلسته من البطرمان قبل تسليمه! مضافا إليه ما أخذته من صاحبنا حلاوة المشوار!»..

ووضع يده على جيبه، وهم بأن يشير بالأخرى مناديا صفصف، لكن يد غزولى كانت أسرع منه، إذ أمسكت بيد بسبوسة لتمنعه؛ وهو يقول بصوت أجش: «دعك منه! نحن أولى بشم هذه الصفقة! دماغنا محتاج لها! تروح تشتغل وحدك من ورائنا ولا ينوبنا من العسل لحسه؟!». فانتبه بربش وقال مشوحا فى وجه بسبوسة بعدوانية آمرة: «هات ما معك كله دون أن تفتح فمك!». وأيده هندى قائلا: «دعكم من الشم والبودرة! إنما نريد حقنا فيما قبضه من فلوس! نحن تعاهدنا أن نمضى فى الطريق سوية!». هنا قال بسبوسة وهو يلوح بكفيه نحو صدره: «أنا غلطان! أنا غلطان! كنت أمزح! لم يحدث شىء مما قلته لكم!». غير أن غزولى كان أسرع وأشرس مما ظننت؛ إذ هجم على بسبوسة فجأة، ودب يده فى جيبه كيفما اتفق. وبسبوسة يتلعبط بين يديه مصوصوا! إلى أن تمكنت يد غزولى من الجيب الذى فيه البودرة فامتثل بسبوسة: «سأخرجها!». وبالفعل أخرجها، فإذا هى ورقة كراسة ملفوفة؛ فتحها؛ فإذا فيها ورقة مفضضة من ورق علب السجائر، تحوى حفنة صغيرة من مسحوق الكوكايين. طواها بربش فى قبضته ونهض قائلا: «تعالوا ورائى!». قمنا وراءه. مشى حتى دخل على صفصف فرآه انتحى ركنا قصيا وسلم عينيه للفراغ كالغارق فى بحرالهموم حتى الذهول. جلس بربش إلى جواره، فجئنا بالكراسى القش وتحلقناهما. وأخرج بربش علبة سجائرة البلمونت العريضة، ونثر على سطحها أسطر الكوكايين متجاورة كزراريق الأرض، وضعها على الترابيزة وأتى ببريزة ورقية جديدة، فبرمها جيدًا، قدم كل ذلك نحو صفصف؛

الذى لمع الذهول فى عينيه حتى شله تماما عن الحركة. فلما تمعن فى الكمية وفدت على وجهه ملامح الطفولة الفرحانة فصاح باستهوال: «ياابن ديك الكا.. ل.. ب!» وخشى بسبوسة أن ينسب فضله لغيره فصاح: «فضلة خيرك يامعلم! إنت لو شورت لى البارحة كان بقى مزاجك فل! لكن كل شىء نصيب!»..

تناول صفصف البريزة المبرومة ووضعها فى منخره الأيمن وشفط سطرا كاملا فى جذبة واحدة لم يترك منه شعرة؛ ثم نقل البريزة المبرومة إلى منخره الآخر وجذب سطرا آخر، فدمعت عيناه ونظر فى عينى بسبوسة كأنه يعيد النظر فيه: «تعرف طريق حاجة يابسبوسة؟» قال فاشخا حنكه عن أسنان لولية بيضاء منظومة: «بظروفها والله! ما كان قصدى وما كنت أبغى! لكن لقمة العيش القسومة لك ترمى نفسها عليك حتى ولو كانت مع ولد نيجيرى يرطن بكلام غير مفهوم!». عند ذاك نظر إليه صفصف نظرة فيها الكثير من العتاب القاسى؛ وحوّل عينيه إلى العلبة فى يده؛ ثم جذب سطرين آخرين فدمعت عيناه أكثر واحمرت خدوده تقول تفاح يابوى؛ ووالله عادت إليه إنسانيته فجأة؛ وظهر يابوى كأنه أخيرا بدأ يجلس معنا، وقال لبسبوسة: «حاجة كهذه وقعت تحت يدك! هاتها وتعال! الأقرباء أولى بالمعروف! أتراك بعتها للحاج على إبراهيم! طبعا! قاعد هو للساقطة واللاقطة! على كل حال حصل خير! ثانى مرة لا تفعلها!» وصاح مناديا: «هات دخان ياابنى! دخان قص بتاع المعلم!»؛ ووزع علينا تمسية الأفيون كل واحد قطعة كبيرة؛ ورمى بربع أوقية حشيش أمام بربش وقال له: «رص!»..

مضينا نشرب يابوى كاننا نشرب فى آخر زادنا؛ وصورة صفصف وهو متهالك على الكنبة تحت قدمى زوجته كفار الجبل لا تفارق دماغى؛ فيدخلنى يقين بأن صفصف المسكين ليلتذاك لم يكن شاما، ولهذا كان مفكوك العصب ككومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع. لسانى الذى يستحق القطع تسلق على هذا الخاطر الخبيث وصاح فى بهجة: «لو كنت متزوجا بعد كل هذا الانبساط لذهبت إلى الدار من فورى!»، ثم انتظرت برهة وأكملت: «.. لكى أنام كالقتيل!»؛ فإذا بصفصف أول الضاحكين؛ وإذا به يعلق قائلا: «صدقت ياصعيدى! إن الانبساط يكون أحلى من كل شيء فى الدنيا!». فرأيتنى أنصت جيدا إلى قوله هذا ياخال؛ حيث قد عفقنى من جوانى كما يعفق عازف العود أوتاره؛ فإذا بى أصيح فى ألم: «أنا لن أصير كييفا لهذا الملعون أبدا! حد الله بينى وبينه هو والأفيون! إلا فى لحظات أنس كهذه كل حين وحين!». لكن صفصف أتى بأصبعه حركة بذيئة فى الهواء قائلا:«كذاب ياخيشة! بكره نشوف!»؛ فأقسمت بالله العظيم بينى وبين نفسى ألا يصبح حالى كحاله أبدا.. وبقيت شاردًا طوال بقية السهرة حتى نسيت أننا سنطلع الليلة فى مشوار ندعو الله أن نعود منه مجبورى الخاطر. فلما تذكرت ذلك فجأة ميِّلت على هندى وسألته: متى نتوكل على الله؟ فقال هامسا: «بمجرد ما يجيء الدليل!»؛ ثم غمزنى أن أسكت فسكت..

وكانت ساعة الراديو تدق منتصف الليل حين دخل علينا شاب فى حوالى الثلاثين من عمره، نحيل القوام مستطيل الوجه أسمر محروق، قاسى الملامح رغم أن عينيه فيهما الكثير من تودد

العسل. مساء الخير يارجاله؛ هكذا قال بعد أن وقف. أهلا أهلا زردية؛ هكذا قال بربش، ثم أضاف مشيرًا إلى كرسى على مقربة: «إقعد يازردية!». فجلس. فتبسم صفصف قائلا: «الأخ ميكانيكى!». فقال الشاب بسرعة: «أخوك سباك! اسمى فيصل وشهرتى زردية! أصل الشهرة أن أى صواميل قديمة لا تعصلج معى! أفكها بعون الله من أول هزة! تحت أمرك فى أى وقت يامعلم!». فقال صفصف وهو يرمقه من تحت إلى تحت بنظرة نفاذة شكاكة: «ربنا يكرمك ياأسطى! ربنا يكرمك!». غير أن لهجته كانت كأنها تقول: «ابعد عنى ربنا يكفينى شرك!». وقال له بربش كانه يعتذر عن معرفته لهذا الشاب: «عندنا عمرة فى مواسير البيت! قلت ما ينفع لها غير زردية! لكن لماذا تأخرت هكذا يازردية؟!» قال الشاب: «كل تأخيرة وفيها خيرة! فالشغل الدقى يلزمه الهدوء! والآن يمكن أن نقطع المياه على راحتنا والناس نيام!». قال بربش: «ماشى كلامك!» ثم راح ينظر فى طاقم الحجارة مختبرا عددها؛ ثم صاح فى طلب خشبة جديدة تحوى طاقما من عشرين حجرا؛ لزوم تحية الأسطى زردية. حينئذ نهض صفصف قائلا: «ليلتكم فل!»؛ ومضى نحو النصبة صائحا فيمن يقف خلفها: «أنا فى البيت الفوقانى ياولد!» ثم اختفى. وبعد لحظات سمعنا وابور عربته المرسيدس يزأر قبل انطلاقها به. دقائق أخرى مضت أجهزنا خلالها على طاقم الحجارة الجديد؛ فنظر بربش فى زردية وقال: «جاهز؟!» فقال الشاب: «جاهز!». نهض بربش قائلا: «بنا!» قلنا جميعا: «على الظالم!»؛ ومضينا خلفه نضرب فى حوارى مصر عتيقة.

والثالثة: صباحية مباركة

زردية إذن هو الدليل الذى كنا ننتظره. والصفقة كما حكاها لنا ثانية ونحن فى الطريق إليها؛ عبارة عن ڤيلا قائمة وحدها وسط المزارع والخضروات فى مدخل حى المعادى. صاحب هذه الڤيلا دكتور، لكنه دكتور فى الجامعة وليس ممن يداوون الناس. يعرفه زردية منذ سنوات طويلة، وقام بشغل السباكة فى هذه الفيلا مرات عديدة؛ حتى عرف كل شبر فيها، وكل مداخلها ومخارجها؛ وفى آخر مرة اشتغل فيها فى الفيلا كان يعرف أن لديه النية فى اقتحامها ذات يوم؛ فقام بإفساد نافذة المطبخ، وإفساد قفل باب المطبخ؛ أى أنه حين يتمكن من تسلق المواسير، سيدفع باب النافذة بدماغه، فينفتح بسهولة؛ فيدخل هو؛ يجلس أولا على حافة النافذة حتى يأخذ وضعه المستريح وبعدها يسقط فى قلب المطبخ؛ ومنه إلى الصالة ومن الصالة إلى قاعة النوم؛ حيث يعرف أن الدكتور يضع كل مدخراته فى دولاب الملابس، وقد رآها بعينيه كثيرا، فلوس بالبواكى مرصوصة كما خزينة البنك؛ ومجوهرات خاصة بزوجته الخوجاية المسافرة على الدوام. فإذا انتهى من جمع الفلوس والمجوهرات والملابس الفرو الثمينة استدار على

أجهزة التسجيل والتليفزيون وبعض السجاجيد الصغيرة التى يقال إن المتر منها يزيد ثمنه عن الألف جنيه؛ وعنده منها الكثير؛ ناهيك عن الفازات يابوى ـ والتماثيل والتحف والأنتيكات الموضوعة على الترابيزة والدواليب..

الدكتور ـ كما يقول زردية ـ مسافرمنذ ثلاثة أيام؛ راقبه زردية حتى تأكد من ركوبه الطائرة. ومنذ ليلتين وهو يمر على الفيلا فيجدها مطفأة تمامًا ولا تكاد تبين بين الأشجار والحشائش. وعندما اقتربنا منها أوصانا زردية بأن نجعل بالنا جيدا؛ وعيّن لنا أدوارنا على النحو التالى: هو سيدخل، ويفتح الباب من الداخل؛ لندخل نحن براحتنا، فإن لم يستطع فتح الباب فسيربط الأشياء الثقيلة بحبل ويدليها من أى شباك واسع؛ لنأخذها نحن، بحيث يكون بربش وغزولى فى كعبه مباشرة؛ أما هندى وبسبوسة فيتولان تستيف الأشياء ولفها وربطها. وأما العبد لله فمهمته الوقوف على الشارع العمومى فى مكان خفى لمراقبة الطريق وإعطاء إشارة التنبيه..

رضينا بهذا التقسيم يابوى، واتكلنا على الله. غطسنا فى غبشة الظلام المتكاثف حول الفيلا بفعل الأشجار والأعشاب التى تلفها. وشمر زردية عن ذراعية وبنطلونه، وبصق فى كفيه مسميا بسم الله الرحمن الرحيم؛ وقبض بيديه على الماسورة، وتخلص من حذائه مسلما إياه لغزولى، منبها عليه أن يضعه فى جيبه، حتى لا

تضطرهم العجلة إلى نسيان فردة منه تقود إليهم. وضع قدمه على الماسورة ودفع نفسه بدربة هائلة يابوى كأنه القطة؛ صار يرتفع ويرتفع حتى صار مواجها لنافذة المطبخ؛ فمد يديه ممسكًا بإطار الشباك ليتمكن من نطحه برأسه. لكن الفضاء انشق فجأة عن صرخة مهولة ياخال؛ كان حيوانا بريا قويا يجار. ثم إذا برعد الصرخة يتبعه هزة أرضية خطيرة. وكان جسد زردية قد اندفع وارتمى بعيدا فى مكان خفى..

ركبنا الرعب ياخال؛ فصرنا نجرى هنا وهناك كالحيارى فى المصيدة، حتى اصطدمنا فى الظلام بجثة زردية ملقاة عل الأرض بلا حراك. صرنا نتحسسها ونجس نبضها؛ فإذا بها فارقت الحياة يابوى. واتضح لنا أن الدكتور الخبيث قد كهر شباك المطبخ وجميع الأبواب والنوافذ القريبة من الأرض..

وقعنا فى المحظور يابوى؛ لكننا لم نُضِعْ وقتا. حملنا جث زردية وصرنا نجرى بها حتى غادرنا الفيلا؛ وصرنا على شاطىء ميناء أثر النبى فوضعنا الجثة وجلسنا فى مسطاح النهر نفكر فى الطلوع من هذه الورطة المهببة. كنا صامتين كالموتى لكن الرعشة فى أوصالنا تربطنا ببعضنا. أشعلنا السجائر التى راحت تنتفض بين أصابعنا. قال بسبوسة: «حنعمل إيه فى الليلة السوده دى؟». قال بربش وهو ينظر فى مياه النهر: «والله ما أنا بعارف!». قال غزولى: «نرميه فى النيل ونخلص!»؛ فقال هندى: «لا تنس أن صفصف شافه معنا الليلة! وبعض الزبائن كذلك! فنحن مسئولون

منه!». وهنا قال بربش فى حسم: «إذن فلنرجعه إلى مطرح ما وقع بالضبط! فى الصبح يعثرون عليه مرميا! ستحقق الشرطة فى أمره! وستعرف أنه كان يحاول سرقة الفيلا وأن الكهرباء صعقته!». قلنا جميعا: «والله فكرة!»؛ وحملناه من جديد، وأخذنا نجرى به، حتى وصلنا إلى حيث كان قد وقع؛ فمددناه فى مكانه وعدنا نجرى؛ حتى إذا ما وصلنا إلى شاطىء النيل صرنا نمشى فى تؤدة. ووالله لا ندرى كيف حط علينا كل هذا الضحك، الذى راح يغرقنا طول الطريق كأننا نتفرج على مسخة. وأغلب الظن يا خال أننا كنا نتخيل أننا نضحك، حتى لا نقع من طولنا، وحتى لا يتشكك فى أمرنا أحد.

الفجر كان بعيدا عنا بحوالى ساعتين؛ وقد صعب علينا أن نضيع الليلة هدرًا يابوى.. ألا نجيء حتى بمصاريف الشاى والمعسل الذى طفحناه اليوم؟ هكذا كان يبدو علينا جميعا ونحن ندخل مصر عتيقة من جديد. ولهذا رحنا نشمم كل خطوة لعلنا نعثر على بقايا خير منسى فى الشارع. رحنا ننظر فى كل شباك مفتوح على الشارع، مجرد نظرة ثم نمضى..

اقتربنا من شباك فى حارة ضيقة، بينه وبين الأرض بضعة أشبار. وكان مقسوما إلى نصفين بالطول؛ النصف الأسفل مغلق؛ أما الأعلى فمفتوح على مصراعيه. التصقت بالحائط وشببت على أطراف أصابعى، ونظرت فى الحجرة، وقع بصرى على سرير حديد بعمدان، وبجواره دولاب قديم مجدد، مفتوح على مصراعيه

هو والسرير مدهونان بالبوية حديثا ومنظر الملاءة والفرش يؤكد أننا أمام عريس جديد، هو على وجه التحديد ذلك الرجل الذى ينام وفى حضنه عروسه. الاثنان عاريان تماما ومستغرقان فى نوم عميق فخذ الرجل فوق بطن المرأة، وذراعها فوق رقبته..

جاء الصحاب فنظروا، فصرنا نضحك ضحكا مكتوما، دون أن يدرى بنا أحد، لدقائق طويلة، قلت: «أكل العيش مر، فلأجرب» ودفعت الباب المجاور للشباك فإذا به ينفتح، فتسللت داخلا إلى دهليز مستطيل مظلم. على اليمين كان باب الحجرة المطلة على الشارع، وكان مواربا دفعته ودخلت، والرجال من خلفى؛ بقيت واقفا لبرهة طويلة وتنحنحت؛ فلم يتحرك أحد، فتقرفصت جالسا أمام الدولاب. وبجوارى تقرفص غزولى؛ وفى الدهليز وقف هندى؛ وعلى باب الشارع وقف بربش، وفى أعماق الحارة جعل بسبوسة يروح ويجىء على ضوء اللمبة نمرة خمسة المعلقة على الحائط مددت يدى فى قعر الدولاب؛ سحبت محفظة كبيرة؛ سلمتها لغزولى؛ فدسها فى جيبه. ثم سحبت راديو بلاستيك أخضر اللون ماركة صوت العرب؛ وسحبت علبة صغيرة فيها فرع وقرط وأسورة من الذهب؛ سلمت كل ذلك لغزولى فدسه فى جيبه،ثم جعلت أسحب الملابس قطعة قطعة وأسلم لغزولى؛ فيسلمها بدوره لهندى؛ الذى يسلمها لبربش. وكان على الأرض نصف زجاجة خمر رديئة؛ صعب على أن أتركها فأخذتها فى يدى وأنا خارج؛ وصرت طول الطريق أعب منها...

قال هندى: «اطلعوا بنا على بيتى!» قلنا: «وجب!»؛ ومضينا بالفعل إلى بيته والفجر يقول: الله أكبر...!

* * *

فتحنا المحفظة فإذا فيها ثمانية جنيهات وبضع برايز وشلنات وقال بسبوسة أن الذهب يلزمه وأنه سوف يحاسبنا على ثمنه بالمليم. وأما الملابس فقد وزعناها وطلع الراديو من نصيب هندى. ما كاد النهار يطلع حتى استفتحنا الصائغ بعرقه المجزى فى مقابل أن يقدر لنا سعر الذهب؛ فقدره بثلاثمائة جنيه؛ دفعها بسبوسة محتجزا نصيبه منها، وعندما شرعنا فى الانصراف استبقانى بربش قائلا: «أعوزك فى موضوع!»؛ فاستأذنت من الصحاب ومشيت معه نحو شوارع فم الخليج..

استنظف مقهى حود عليه. جلسنا طلبنا الشاى بالحليب وعندما قاربنا الانتهاء من شرب الشاى مال بربش نحوى قائلا: «الطلب الذى أريدك فيه بسيط! ستأخذ عليه يوميتك جنيها كاملا يعنى أكثر من ماهية لوزير فى اليوم! لكن المهم ليس الأجرة على كل حال! المهم جدعنتك فى عمل ما سأطلبه منك على أحسن ما يمكن! أتعرف الرجل الذى يؤجر عربات اليد فى هذه الناحية؟!»، قلت: «أعرفه طبعا!». قال: «قم الآن واستأجر منه عربة ليوم واحد! وهاك ثلاثة جنيهات تشترى بها شروة بصل أو شروة أى شىء من السوق! تضعها فى العربة! وتسرح بها فى الحارة التى سرقنا منها ليلة البارحة! وكن بائعا بحق وحقيق!»..

الدهشة لعبكت وجهى كله؛ قلت «كيف يابو العم؟! ماذا يفيدنى لو فعلت هذا؟!» قال: «تدخل بالعربة حتى البيت الذى سرقناه! تقف عنده مناديا على بضاعتك! عندئذ ستستمع إلى الناس وهم يتكلمون عن السرقة! فتعرف بذلك الأخبار! وتجيء بها لى!» لمعت الفكرة فى دماغى ياخال، فقلت معجبًا: «يابن الجنية! ولكن ما فائدة كل ذلك يابو العم؟!» قال بربش: «من الذى أخرج المحفظة من الدولاب؟» قلت «أنا!» قال: «فتحتها قبل أن تسلمها لغزولى؟» قلت «لا» قال: «راقبته وهو يضعها فى جيبه؟» قلت: «لا!» قال: «راقبته وهو يضعها فى جيبه؟» قلت: «لم أجعل بالى!» قال: «أليس يحتمل أن غزولى خنصر الفلوس من المحفظة؟!» قلت فزعا: «أيفعل ذلك؟!» قال: «ربما إنه صنف لا يؤتمن!» قلت: «أى صنف هو ياترى؟!» قال مستدركا: «لا! لا! أقصد صنف الحرامية! كلنا يعنى»! ربك والحق أحسست أنه غير صادق يابوى، فلعب الفار فى عبّى من جهتهما معا، هو وغزولى؛ بل جاءنى هاتف يقول لى احترس ياواد من الاثنين وقلت لبربش: «ولكننى يابو العم منذ اشتغلت معكم والأمور تجرى بالبركة والصداقة! ولو دخلت الشكوك بيننا يابو العم ستتغير الصدور، فدعها لله!» وكان بربش يفتح ورقة سلوفان حمراء صغيرة ويمص أطرافها متلمظا، أزاح بظفر إبهامه سمسمة أفيون قربها من فمى قائلا: «ياصعيدى ياقحف! من قال لك إن الأمانة والصداقة والجدعنة معروفة بين الحرامية وبعضهم! إذا كانت هذه الأمور غير ماشية بين الناس العاديين! فكيف تكون ماشية بين الحرامية؟! تظنهم قرءوا القرآن

وأحاديث الرسول وتزينوا بمكارم الأخلاق؟! هذه أمور لا يعرفونها! ونحن لسنا إلا حرامية! ليكن جدك شيخا وعمك قطبا! ولاكن أنا متعلما فى المدارس! ليكن غيرى ابن ناس أتقياء! لكن مادمنا صرنا حرامية فنحن إذن حرامية وكفى! ليس هناك حرامى طيب وحرامى شرير! حرامى ابن حلال وحرامى ابن حرام!، الحرامى حرامى! لا يشفع له أهل ولا طيبة قلب! أنت مثلا سرقتك السكين ولهذا تستعجب الآن من كلامى! أنت تسرق وفى ذهنك الله والرسول وشبح عمك الفقيه! ولاتزال تتصور نفسك مميزًا عن فئة الحرامية! تفعل أفعالهم وتتبرأ منهم! ولكنك لست وحدك هكذا! فأهل هذه البلدة جميعهم من كبيرهم لصغيرهم يسرقون بشكل أو بآخر كلهم يتبرأون من الحرامية فى سبيل أن يكونوا من كبار كبار الحرامية! فالحرامى البسيط ياصعيدى ياقحف هو نحن! أنت وأنا وغزولى وهندى وبسبوسة! حرامى من يعرف أنه حرامى! ويسرق من وراء ستار حتى وإن كنا فى الليل! أما الحرامى المركب فأجارك الله منه لا يعرف أنه حرامى! لكن يعرف فقط كيف يتبرأ من الحرامية! كيف يرسم صورة الرجل الشريف! كيف يعلن على الناس حجه كلما فات على مكة تاجرا ناهبا! وكلما كثر عدد الشرفاء الذين هم من هذا النوع كلما كان ذلك دليلا على أن عدد الحرامية فى البر يتزايد والسرقات على ودنه! كل واحد فى هذه البلدة حرامى على طريقته الخاصة! وكل واحد يخدع الآخر ليسرقه على راحته! ولكن ميزة الحرامية البسطاء أمثالنا، هى الوضوح! لست أقصد وضوح كل منا فى نظر الباقين! إنما

اقصد بالوضوح أننا جميعا نعرف أننا حرامية ونتعامل مع بعضنا على هذا الأساس! والمشكلة أن الواحد منا ينسى أحيانا كثيرة أنه حرامي! ويتعامل مع الناس على أنه رجل شريف! حتى زملاؤه الحرامية يعاملهم هكذا أيضًا! ولأنهم ينسون مثله، فإن الأمور تمضى فلا أحد يحاسب أحدا! والإنسان يجب أن يتعلم ويتنور بالتجربة ليجيء يوم يصبح فيه لما مركبا يحترمه الناس ويسلمونه ذقونهم! وعلى كل حال ياصعيدى أنت لو قمت بالعملية التى رسمتها لك فإنك ستتعلم وستعرف أشياء تنفعك عند اللزوم! ستعرف إلى أين اتجهت أصابع الاتهام فتتعلم حكمة بالغة ستعرف المساحة التى ستتحرك فيها المباحث والحكومة فتعرف كيف تتقيها! وعموما أنت حر انس ما قلته لك كأنك لم تسمعه!»..

ثم إنه أشعل سيجارة ووقف مصفقا للجرسون، الذى جاء مهرولا نحو ورقة ربع الجنيه المعلقة بين أصبعى بربش، ثم أخذها وصار يعبث فى الفكة فى جيب المريلة؛ لكن بربش ـ مثل البيك الكبير ـ أشاح بذراعه نحوه علامة أن: خَلِ الباقى ثم سلم على ومشى؛ فاستدرت أنا عائدا فى اتجاه فم الخَليج، وليس فى نيتى العودة إلى بيت هندى أو إلى بيتى. قلت: فلأذهب للمعلم شندويلى فى المقهى أعطيه ما تجمع معى من فلوس قبل أن تمتد عليها يدى أو يد الزمان، وهكذا شرعت أقف لانتظر مسافة مناسبة بين سيارتين حتى أعبرها إلى الرصيف الآخر فى اتجاه مصر عتيقة لكن الخاطر تملكنى، ففوت على فرصا كثيرة للعبور؛ وبقيت

مسمرا فى مكانى وقتا طويلا وصوت الهاتف يهتف بى: والله إنها لفكرة! لماذا لا أجرب هذه الشغلة التى أشار بها بربش؟ إنها والله شىء طريف مثير للخيال..

وفجأة رأيتنى أستدير عائدا نحو ذلك الرجل الذى يؤجر عربات اليد فأجرت عربة دفعت له رهنها. وذهبت فاشتريت شروة بصل كما أشار بربش، كومتها فوق العربة، وعبرت بها من فم الخليج إلى مصر عتيقة؛ وجعلت أمشى مناديا بصوت خافت، ولا أستجيب للبيع إلا قليلا حتى لا ينفد البصل قبل وصولى إلى الحارة المقصودة، فلما وصلت إليها بدأت أنتبه إلى أن الجو راكد وعلى غير ما يرام. وقفت بجوار مقهى على ناصية الحارة حينما لفت نظرى أن الجالسين عليها ليسوا فى حالهم كالعادة بل إنهم متجمعون حول بعضهم يتكلمون فى حماسة وحمية وحدة، فيما يبدو عليهم الاهتمام الشديد؛ وقلت لنفسى: بس! لابد أنهم يتكلمون فى حادث السرقة.. فإذا بالناس كلهم على المقهى مندمجين فى قول العجب: يقولون إن المشير عبد الحكيم أبو عامر قد مات!! مات؟! المشير أبو عامر مات؟! كيف يابوى رجل فى كل هذه الأبهة والعز،ويموت؟!..

تركت العربة وبصلها، واندفعت أسأل الجالسين كأن المشير من بقية أهلى: كيف يابو العم؟!..

رد أحدهم مغمغما من مناخيره: «نعم!» قلت «كلام جد يابو العم؟!كيف يابو العم؟!» فلم يرد على أحد. جلست فطلبت شايا

من الولد الجرسون وسألته ثانية فلم يرد، فلحقته وعزمت عليه بسيجارة فأخذها وقال: «المشير هو الذى انتحر! ابتلع حبوبا مخدرة بقصد الانتحار فمات!» هتف على لساني صوت قوى «الأمر فيه إنّه»، وعدت إلى العربة فجعلت أدفعها داخل الحارة مناديا على البصل بصوت عال..

قرب دار العريس المسروق تلكأت ثم توقفت مواصلا النداء «كيف التفاح يابصل» خرجت من الدار المجاورة امرأة سوداء الوجه ضخمة كالمحمل، صارت تزحف نحوى ببطء قائلة: «بكام البصل ياعم؟!» مع أننى فى عمر أحفادها. قلت: بتلاتة تعريفة!» قالت: «الاثنان بخمسة تعريفة ينفع؟!» قلت: «ينفع»، فمضت تقلب فى البصل وتنقى طالبة كفة الميزان. قلت: «لا يهمك! زنى عند أى بائع وتعالى! أنا راض بذمتك!» بعد برهة فاتت امرأة بملاية لف وسألت عن السعر؛ فلما وجدته أقل من السوق توقفت وراحت تنتقى. ثم جاءت امرأة ثالثة من دار العريس نفسها ووقفت تنتقى وجاءت وقفتها بجوار المرأة السوداء فتكلمتا معا بصوت كالهمس لكنه مسموع؛ عن المصيبة التى حلت فجر اليوم بدار ابن أختها «زينهم»، حيث سرقه اللصوص فقششوه، ونشلوا المحفظة وفيها ثمانمائة جنيه كان قد لمها فى الصباحية وكان ينوى أن يدفعها لتاجر الموبيليا.. هكذا كتب العريس فى محضر الشرطة التى جاءت وعاينت منذ قليل!..

طب ما رأيك ياخال أننى صدقت أن المحفظة كان فيها ثمانمائة جنيه! الله وكيل يابوى. أنا الذى تلقفت المحفظة وكانت خفيفة جدا

يابوى، صدقت أن فيها هذا المبلغ الكبير، ولو كان غزولى أمامى فى تلك اللحظة لطبقت فى زمارة رقبته وأكلتها، مع يقينى أن الفرصة لم تسنح لغزولى أبدا فى أن يستخرج المبلغ من المحفظة خلسة قبل أن يدسها فى جيبه، إنما بنى آدم يابوى؛ طماع؛ شكاك. وحين رأيت الشك ممسكًا بتلابيبى أيقنت بصحة كلام بربش وآمنت بأننى صرت حراميا رسميا أشك حتى فى نفسى وكاد هذا الخاطر يعمينى عن سماع بقية كلام المرأة وهو مهم يابوى؛ إذ راحت تقول إن العريس تعرف على الحرامى وأبلغ عنه؛ إنه ولد صايع زميل للعريس فى شغله تبع مقاول للبناء..

وحينما شعرت أن البصل قد انتهى وأننى عرفت ما يهمنى معرفته، دفعت العربة عائدا بها لكى استرد الرهن فورا. وما كدت أصل إلى آخر الحارة من الناحية الأخرى حتى رأيت فلاحًا غلبانا يحمل على كتفيه قفصا صغيرا من العنب ويمشى مناديا فى طلب الأكيلة. كان منظر العنب مشرقا ياخال، حتى أسال لعابى؛ فتوسمت أننى أستطيع أن أنفع هذا الرجل الغلبان بقرش زيادة ليعطينى أحلى عنقود فى القفص، ولسوف أتسلى بقزقزته مع رغيفين وقطعة جبن أبيض. وهكذا اقتربت من الفلاح الغلبان: «أرنى عنبك ياعم!». فحط القفص عن كتفيه وانتقى عنقودا عظيما لا يقل وزنه عن كيلو ونصف قلت «بكم الكيلو؟ قال «بالبركة». قلت «كيف يابوى؟!» قال باسما: «هات الشلن!» قدرت فى نظرى أن العنقود يساوى سبعة قروش؛ فدفعت إليه بالشلن قائلا: «معك ورق لف؟» قال بخشونة خفية: «طبعا ياصعيدى ياقحف! أنا المعلم

وتفوتنى هفوة كهذه؟!» ثم انتزع من تحت إبطه فرخا من الورق لف فيه العنقود بحرص وعناية. وأعطاه لى قائلا: «اتكل على الله!»..

لحظتها كنت من الذهول أحاول انتقاء الكلمات المناسبة لكى أرد بها على هذا الفلاح القليل الأدب الذى يقول لى ـ من الباب للطاق ـ ياصعيدى ياقحف. وكان الشر يطلع من عينى حتى أننى بدلا من أن أمسك لفة العنب كورت قبضتى وشيعتها نحو وجه الفلاح بحنق شديد. لكن يده كانت أسرع منى يابوى؛ ابن مدينة مدرب على الخناق، أمسك رسغ يدى فلواه بقوة حتى كسرنى على ظهرى، فصرت أصرخ وهو يهزنى قائلا فى ابتسام مشفق ودود: «ما تعرف من أنا ياصعيدى ياقحف؟!» عرفته فى الحال من بسمته يابوى. من عوجة شفتيه، فهتفت: «بربش! ياابن ديك الكلب! غلبتنى ياابن المدينة!» وتركته ومضيت أدفع العربة بيد، وأوحوح من وجع فى الأخرى.

الرابعة: المفاجأة

قال المعلم شندويلى وهو يطوى الجنيهات فى قبضته بإهمال شديد لا يليق بالعرق الذى سفحته فى لمها قرشا قرشا: «باقى عليك خمسمائة جنيه يابو العم! وخل بالك يابو العم ـ ابتسم فاشخا حنكه على الآخر ـ لن أكتب لك عقدا إلا بعد أن ترينى يوما فى السكان أولاد القحباء! مضى عليك حول وحول وأنا أمهلك فى الدفع وأضعك على كفوف الراحة وحتى الآن لم أسمع خناقة واحدة! أخشى أن تكون قد استحليت المرعى مع المومسات المجاورات لك فى نفس الدور! إنهن يبلفن أتخن شنب! أنت لا تحتمل منهن ضربة رمش! بعده تخر صريعا يابو العم! أنا نفسى كدت أقع! هل أكذب عليك يابو العم؟! النكدالذى عيشنى فيه أولادى من أجل البحث عن مطرح جديد لنا! إنما كان سببه خوفهم من أن أخر صريعا تحت شباشب القحباوات اللائى يشاركننا فى سكنى العلالى! ولو وقعت تكون قد طبلت! يصبح عليه العوض ومنه العوض فى مالى وصحتى وعيالى! ربنا والحمد لله نجانى يابو العم! حتى الإيجار يجىء به البواب لحد عندى غير أننى اتركه على سبيل الصدقة حتى لا أتلوث به وفى مقابل أن يجعل

البواب باله منى فى غيبتى ولا يجىء فى صفهن على طول الخط! إن كنت قد وقعت فى حبائلهن يابو العم وهذا منتظر فسامحنى إن قلت لك دع لى شقتى وخذ نقودك! أنت لست نبيا يابو العم ولابد أنك قد لحست من طبق الحلواء لحسة أنستك أهلك! إاالنى أنا! أنا المقروص باللحسة من قبل أن يخلصنى الله من الوصول إلى لحس القدم بدلا من لثم الشفاه والخدود وعنب النهود! وما أوفرها وأيسرها على السلم أو على السرير لا فرق لا مشكلة فكلاهما ميسور والمسافة بين السلم والسرير بمقدار طرفة عين! قشطة مهلبية بالعسل الأبيض بالهبل الأسود هى ملعونة والـ الله خلصت منها وبقى أن أخلع جذورها من أملاكى مهما كلف ذلك من صبر! ثم إن لى معهن ثأرا لابد من تصفيته! لقد أ. زوجى وبناتى بالردح مرة وبالتلسين مرات! وبسوء سلوكهم على طول الخط! فلك أن تتصور حالى وشعورى حين أرى بنفسى فاجرا من زبائنهن قادما لهن يتمخطر على السلم كطاووس علق ولا يكفيه ذلك تفويرا لدمى بل يصطدم بابنتى على السلم فيماجنها ويتجرأ عليها بالقول والفعل! صحيح أنه لحس تراب الارض ونقلته الإسعاف جثة مرخية من الضرب الذى أكله! لكن ما حدث حدث ولا أستطيع أو يستطيع غيرى مسح الجرح عن نفس ابنتى. إياك تظن أننى أسخرك للأخذ بثأر من ناس لم أقدر عليهم! إنما أنا يابن الحلال أتكلم لمصلحتك! نعم بالطبع ستتزوج وستنقل زوجك إلى هذه الشقة يابن الفقهاء الأئمة! كيف وهؤلاء جيرانك؟! إنك لابد أن تشكمهم يابلدينا قبل أن يذوقوا لحمك! فلو

ذاقوه فإنهم كلاب مسعورة ستنهش فيك وفى عرضك حتى تمرمش عظامك! ها أنا قد نبهتك يابو العم وذنبك على جنبك!»..

قال هذا وشوح بذراعه فى فروغ بال، ثم أشعل سيجارة كأنه يضع خطا ثقيلا تحت كلامه. فجعلت أتأمل كلامه يابوى. فوجدت أنه عين العقل، ووالله لقد أفلح المعلم شندويلى فى أن يشعل النار فىّ بهذه العبارة الأخيرة يابوى؛ وتصورت زوجتى الغلبانتين وهما ذليلتان تحت شباشب المومسات؛ وقلت فى عقل بالى: هذه الشغلة شغلتك ياولد لا يهنا لك بال حتى تتمها وإن ضاع عمرك فيها. فشفطت آخر شفطة فى كوب الشاى ونهضت قائلا: «يساويها ربنا يامعلم شندويلى!». ومضيت أضرب فى الشوارع على غير هدى؛ إلى أن قادتنى قدماى - دون أن أدرى - إلى قهوة صفصف. كنا فى ساعة أم كلثوم يابوى، ساعة شمس الأصيل دهبت خوص النخيل يانيل. وكان الجو رماديا فى لون النيل المخضر المتمدد ورائى على بعد أمتار معدودة؛ وثمة أشجار الزيتون متراصة على الجانبين من كل الشوارع يلمع خيالها فى صفحة الأسفلت؛ الذى انحرفت عنه قليلا بين السرايات والعمائر الفخيمة، لأدخل بعدها مباشرة، فى الحوارى ذات البيوت المتراكمة فوق بعضها كالهديم، عبرت الهديم إلى قهوة صفصف، التى احتلت حارة سد مستطيلة عريضة ترتص على جانبيها أشجار الزيتون الفاردة فروعها بأوراق الثمرة الحمراء كمناديل بأوية معروضة للبيع فوق الشجر تلعلط بالأحمر والوردى

والبرتقالى على أديم أخضر، الكراسى القش تحت الشجر مرتصة، بعدها كراسى خيزران، تفصل بينها الطقاطيق النحاسية اللامعة؛ والأرض مرشوشة بالماء حتى الغرق، ما أحلاه من منظر يابوى؛ منظر يشرح القلب والله ياخال..

غير أن الجو كان ساكنا سكونا مريبا، على غير العادة فى مثل هذا الوقت، فساعة شمس الأصيل هذه فى قهوة صفصف بالسهرة كلها فى مقاة أخرى، فليس فى الدنيا مكان ساحر كهذا فى هذه اللحظة يابوى، صدقنى أن هناك أماكن تشفى العليل وهذه الحارة من هذه الأماكن؛ والدليل على ذلك أن الخلق يجيئون من آخر الدنيا للقعود فيها ساعات بالشىء الفلانى، فما بالها اليوم ساكتة ساكنة كأن ميتا مدفونا لتوه فيها؟! أتكون الحكومة فاتت عليها وعملت اللازم حتى تركتها جثة هامدة؟! ولكن منظر الكراسى والأرض المرشوشة بعناية لا يدل على أن الحكومة مرت من هنا. قلت ياخبر بفلوس فلأجلس لأعرفه بالمجان..

جلست يابوى، ووضعت ساقا على ساق، وصفقت فجاءنى الولد كمبر الصنايعى فى أدب مصطنع، ووقف أمامى فى هيئة إنصات، فجعلت أنظر فيه لعله يفهم طلبى كالعادة، فطلبى معروف دون أن أتكلم لكن الولد بقى منصتا صامتا؛ فصحت فيه قائلا: «ماتجيب يابو العم» فتساءل متجاهلا دهشتى: «أجيب إيه؟!» قلت فى استنكار: «هات حاجة ساقعة وهات دخان!» فقال فى كلاحة: «حاجة ساقعة آه! دخان لأ!» قلت «فى الأمر شىء؟!»

قال: «الجو ملبش» ثم تركنى ومضى وبعد برهة قصيرة أفقت على صوت الفتاحة يطرقع رافعا غطاء زجاجة الاسباتس الخضراء المغبشة بالثلج؛ وضعها على الطقطوقة جوارى وانصرف..

حمدت الله أن جيوبى نظيفة من الحشيش؛ فمكثت جالسا أرتشف الاسباتس على مهل، والهواء يتساقط فوقى من غرابيل الشجر، وليس فى دماغى سوى شغلة المواسس الذين سينغصون على عيشتى. فجأة لمحت عربة البوكس فورد الزرقاء تعبر الشارع العمومى فى بطء وتمهل؛ ثم غابت عن ناظرى، فانشغلت فى إشعال سيجارة، ولما رفعت رأسى رأيت ثلاثة أفندية شبان متجهمى الوجوه يقبلون نحو المقهى فى خطوات ذات وقع حاد، وكان غزولى يمشى وراءهم هو وشخص آخر لم أكن رأيته من قبل، فما كان منى إلا أن وقفت صائحا فى فرح وابتهاج: «غزولى! ياه؛ لكن غزولى تجاهلنى يابوى، ومضى وراء الأفندية إلى داخل المقهى، فصحت ثانية بغيظ مادا ذراعى أكاد أجذبه: «إنت ياغزولى الكلب! ماسمعتش ولاّ إيه؟!» فإذا بغزولى يرتد نحوى فجأة والشرر يتطاير من عينيه الخبيثتين اللئيمتين؛ وبكل قوته يلسعنى براحة يده على وجهى شاخطا: «اقعد مطرحك»..

فجلست مطرحى والذهول يكاد يعمينى عن كل شىء ياخال. رأيت كبير الأفندية يتقدم داخل المقهى، فيفتش فى أركانها، ويعبث بالأوانى وبالكراسى، ويتلصص خلف النصبة. فأيقنت أنها الحكومة يابوى، وأنها لابد قابضة ولكن ما بال غزولى يتبرأ منى

هكذا؟! إن أصابع يده صارت ترن على صدغي. إلا وأفندي منهم جعل يقبل نحوي مكشرا عن أنيابه، وغزولي يقف وراءه..

«بتشتغل إيه ياولد؟» هكذا سألني الأفندي، فوقفت متلجلجا ياخال، وحرت في النطق باسم شغلتي؛ وصرت من فرط الرعب والرعشة أنظر في غزولي؛ الذي رأيته - وياللعجب - يقف معتدلا منفوخ الصدر كأنه بني آدم بحق وحقيق، كأنه هذا الأفندي الذي يسألني الآن ويرعبني، ثم إذا به - لا تتعجب ياخال - يقف بيني وبين الأفندي قائلا في استعطاف: «هذا ولد غلبان ياسعادة البيه! على الله! نفر من بتوع الفاعل!» قال الأفندي - وأعجب هنا ياخال غاية العجب: «فتشه ياغزولي!» فانبرى غزولي يتحسس جيوبي وتحت إبطي، ويرفع اللبدة عن دماغي، وأخيرا قال: «ما معه شيء ياسعادة البيه!» وكان الأفندي الذي وضح أنه كبيرهم قد جاء ووقف جوارنا، فقال فيمن حوله: «فين صاحب القهوة دي؟!» فقال الولد الصنايعي كالماكينة الدائرة: «مسافر ياسعادة البيه!» ونظر إلى غزولي؛ فقال غزولي للأفندي: «أصله اليومين دول بيسافر كتير يدور على شغل في الدول العربية! الحالة يظهر تعبانة معاه شوية!» فهز الأفندي رأسه وزام عدة مرات ثم استدار ومضى فمضوا جميعا خلفه وبقي الظلم في عيني يابوي، وأصابع يد غزولي ترن فوق صدغي بألم شديد، وصوت واثق من نفسه يرن في دماغي فوق رنين الوجع قائلا: إن غزولي ينصب نصبة جديدة محكمة الصنع، وإنه لابد أن يكون ولدا واعرا جدا يابوي،

حتى أنه يستطيع أن يؤلف بوليسا يهاجم به الناس والأماكن طمعا في صفقة كبيرة إنني إذن بجواره مجرد ولد ينضرب على وجهه بالقلم. هنا صعبت على نفسي يابوي؛ فانهمرت الدموع من عيني كاللهب الكاوي، حتى اغتسلت عيني ونظرت الحارة قد خلت من جميع البشر، والريح تعبث بورقة جرنان زفرة فترمي بها هنا وهناك وتعلقها في الفراغ، وثمة كلب مقع على الأرض يتابعها في انبهار ويتثاءب في ملل.

جاء الولد كمبر الصنايعي وجلس بجواري واضعا فنجان قهوة على الطقطوقة؛ ثم نزع من فوق حلمة أذنه تحت شعره ورقة سلوفان فيها قطعة أفيون في حجم زرار البالطو، اقتطع ربعها وقدمها لي باسما: «روق! روق! ولا يهمك!» تناولت قطعة الأفيون وقد أحببت الولد ياخال. ولم يكن يخطر ببالي أن الولد كمبر فيه كل هذه الجدعنة رغم أنني منذ رأيته لم أهضم منظره، صحيح ياخال: الواحد لا يأخذ الناس بمناظرهم طوحت بالقطعة في فمي ومسحت دموعي قائلا: «تشكر ياكمبر» قال «اشرب هذه القهوة على حسابي» قلت: «ما كل هذا الكرم ياكمبر؟» قال: «كله من خيرك!» فجعلت أرشف القهوة وأمصمص الأفيونة متمنيا أن تذاب بسرعة. وقال كمبر: «ما تأخذ على خاطرك من غزولي! إنه أخوك!» قلت: «عمره ما فعلها! لا أعرف لماذا عاملني هذه المعاملة؟! وعلى كل حال! حسابه معي طويل» ابتسم الولد كمبر قائلا: «خذ الأمر ببساطة! غزولي ضربك ونجاك! فلولا هو لكان الضابط قد أخذك. للتحري عنك ولا تنس أنك غلطان - وضحك - أنت عدم

المؤاخذة صعيدى مدب! كنت ستودى بالرجل فى داهية! هل عميت ياحسن؟! أنت تراه داخلا فى صحبة الحكومة تناديه؟! إنه فى حالة عمل وراسم نفسه أمام رؤسائه وحضرتك تقول له ياغزولى الكلب؟! لو كنت مفتحا لتجاهلته كأنك لا تعرفه! إنك اليوم ستجعلهم يشكون فى صدق عمله!»..

الأرض مادت بى ياخال، تحلف اليمين أننى رحت أثبت نفسى فى الكرسى خوف الوقوع؛ ودماغى كلها فى دوامة كالكرة تضربها قدم لتتلقفها أخرى: غزولى هو الذى نجانى؟! التحرى؟! عمله؟؟! رؤساؤه؟! ما كل هذا يابوى؟ لابد أننى من غير هذه البلدة من غير هؤلاء القوم ياخال. أيعقل أن أصاحب رجلا وأشتغل معه سنوات طويلة، ويتضح لى فى برهة سريعة أننى لست أعرفه حق المعرفة بل لست أعرفه أصلا..

قلت للولد كمبر: «ما كل هذا الذى قلته ياكمبر؟! إنك تقول العجب! أتقول الجد أم لعلك تهزل! ما دخل غزولى بالحكومة وعمل الحكومة؟!» وكدت أتسرع فأضيف قائلا: إنه حرامى رسمى ومعروف للدنيا كلها جربوعا حقيرًا بلا مبدأ، لكن الحمد لله يابوى أننى لم أقلها؛ لأن الولد كمبر كان أسرع منى قائلا فى استنكار: «ما خوف إلا أن تكون لا تعرف صاحبك!-أنت عبيط ياحسن أم أنك تستعبطنى؟! ألست تعرف شغلة غزولى الحقيقية ياحسن؟! غزولى شغلته مخبر سرى فى الحكومة! تبع مكتب مكافحة المخدرات!!».

نط قلبى، قافزا على لسانى: صائحا «ماذا قلت ياكمبر؟!» ياجدع لا تقل هذا!». ثم خشيت أن يستعبطنى الولد ياخال؛ فتصنعت أننى أعرف هذا وأننى أنفيه حرصا على سمعة الرجل وعمله وأخذت أغالى فى نفى الخبر، والإيحاء للولد بأن غزولى دماغه ملعلعة حبتين ومخه نظيف يستطيع أن يفعل كل هذا، غير أن الولد كمبر زغدنى فى جنبى بلطف وود، وأفهمنى كل شىء، قائلا: إن غزولى ينفعهم كثيرا، فلولاه لأغلقت المقهى من زمن مضى؛ وذلك لأن غزولى يعرف مواعيد الحملات التى سيقوم بها مكتب مكافحة المخدرات بالساعة والدقيقة واليوم؛ فيلف على كل أحبابه من تجار المخدرات وأصحاب الغرز، فيبلغهم بمواعيد الحملة حتى يستعدوا لها؛فتجىء الحملة فى النهاية تأخذ ما تأخذه الريح من البلاط. والمكتب لابد أن يطلع غزولى على مواعيد حملاته، لأنه لا حملة بدون غزولى، إنه هو الذى يعرف الحوارى والأوكار والمخابىء، وهو الذى يجمع التحريات عن المجرمين والهاربين من الأحكام؛ وهو الذى يقود الضباط إلى المواقع؛ ولو كان المجرم الهارب واقفا بلحمه أمام الضابط وقال غزولى إنه ليس هو أطلق الضابط سراحه فى الحال: «اصح ياحسن ياخوى! وافهم» غزولى هو الآخر يغطى نفسه جيدا! يجمع مرتبات تصل إلى آلاف كل شهر! والمعلم وغيره يساعدونه على تغطية موقفه! يجلبون له بعض القضايا فى حضور الضابط! يسلمونه بعض الزبائن يدا بيد زبائن دعت عليهم أمهاتهم فقادهم سوء بختهم!».

تحلف اليمين ياخال أننى لن أعد قادرا على الرغم بأننى ما كنت أعرف أى شىء من هذا. على أن الضربة القاتلة عاجلتنى بعد برهة وجيزة ياخال، حين استطرد الولد كمبر قائلا فى ثقة هذه المرة: «أظنك لا تعرف أن بسبوسة هو الآخر مخبر سرى! انتفضت واقفا فى الحال ياخال، كمن يقف على سلك كهربى، وأخذت أصيح: «بسبوسة هو الآخر مخبر سرى؟! كيف يابوى؟!» دفعنى الولد كمبر برفق. فجلست؛ فصار يبحث فى جيبه عن سجائر؛ فأسرعت بمد علبتى نحوه. فنزع واحدة بللها بشفتيه، ونزع عنها الشريحة المبلولة، ثم نزع ورقة بافرة من دفتر فى جيبه؛ ونزع قطعة حشيش من خلف حلمة أذنه، فركها على السيجارة وبرمها بسرعة، ثم أشعلها وجذب منها عدة أنفاس متلاحقة، وقدمها لى قائلا وهو يكتم الدخان فى منخريه: «بسبوسة مخبر سرى تبع بوليس الآداب! وهذه الشغلة تنغنغه! لو اقتصر عليها وحدها يأكل الشهد يلبس الحرير فى حرير! وهو بالفعل هكذا! هناك عمائر بكاملها وسرايات فى مناطق نخاف نحن من المشى فيها! لبسبوسة مرتبات ثابتة فيها! العمارة أحيانا تكون كلها شقق دعارة من أولها لآخرها! فكلها مؤجرة مفروشة! وإيجار المفروش هو الاسم الرسمى للدعارة! نعم! وهناك سرايات أصحابها كانوا بشوات ذات يوم وباتوا يتاجرون فى اللحم واللبن! الحكومة لا تعرف عنهم جميعا أى شىء إلا عن طريق بسبوسة! وهو كثيرا ما يضبط فى هذه الشقق بعض رؤسائه ولكن فى زيارات ودية يقوم بها لقبض المعلوم ولتبليغ خبر حملة! وكان يجىء بعدها

فيحكى لنا وللمعلم صفصف! بسبوسة هذا كان زمانه الآن مليونيرا كبيرا لولا مسماره! هو الذى يدوخه ويعذبه فى الدنيا! لا يشبع ولا يكتفى! يقول إن السبب ليس فى أنه ثور طلوقة وإنما لكثرة الجميلات السائبات اللأئى يقعن تحت يديه مقهورات! منهن من تكون امرأة رجل كبير ذى مركز كبير أو بنت ناس طيبين ولكنها ضبطت متلبسة! ومادام قد صار لها ملف فى الآداب فإن مسمارًا يرقعه بسبوسة فيها خير لها من المبيت كل يوم فى قسم الشرطة! الواحدة منهن تنام فى حضن زوجها متخشبة ولكنها فى حضن بسبوسة كالزنبرك! هكذا يقول لنا! ياما جاء هاهنا عقب خروجه من عند إحداهن سكرانا طينة! فيكشف عنه ويريه لنا متسلخا! وفى لحظات يختبىء فى زقر مظلم فى الحارة ويفعل العادة السرية ويعود قائلا إنه ظل يرقع طول الليل دون أن ينزل منه شىء وقد أنزل الآن فاستراح! إنه ملعون فى الدارين بسبوسة هذا لكنه جدع! أجدع واحد فى شلتكم كلها! خصوصا لمن يقصده فى خير! هن يحببنه - يقول - لأنه يفعل معهن ما لا يفعله أزواجهن تحرجا أو غشومية! بعضهن حلفن له عند حدوث الشىء أنهن قبل الآن لم يكن يعرفن شيئا عن هذا الشىء رغم أنهن متزوجات ومنجبات من سنين طويلة! كذلك يفعل معهن حركات الجدعنة! إنه محظوظ ابن كلب هذا البسبوسة! أتخن شنب فى البلد وأحلى شاب فيها لو نظر لواحدة منهن تنقلع عينه قبل أن يطول منها نظرة لما هو معروف عنهن من العفة والهيبة وكثرة المال! أما عند بسبوسة المعفن هذا فإنها تخلع اللباس فى الحال وهى تقول

سبحان الله والحمد لله! وعلى فكرة! كل نسوان الكورنيش عفيفات شرفاء حتى يراهن بسبوسة! تنهار الواحدة منهن فى الحال وتنكسر عينها! أما عمارة الكورنيش فى مصر عتيقة! أكبر عمارة هناك! فإن بسبوسة يشتغل عليها آخر شغل! فيها خمس مومسات مقيمات لكل منهن ثلاث أو أربع صديقات! كل واحدة منهن تجيء بزبائنها الخصوصيين! وهم زبائن من أصحاب الرتب العالية والرأسمال الكبير! والجميع يقيمون السهرات الحمراء! ولعب القمار شغال طول الليل! الواحد منهم يشترى البنت ويلاعبك عليها شف الفُجر والعهر! شف المزاج العجيب الغريب! ديك أم هذا المزاج المهيب! إن غلبته أنت فى اللعب تقوم فى الحال أو عندما يطيب لك فتعتلى البنت فى الحجرة المجاورة حتى الصباح! يقول إن عنينا مرخيا يكسب باستمرار فى هذه اللعبة فيحتجز أحلى البنات على اسمه طول الليل والمغلوبون يتحرقون شوقا من حوله ويتعذبون فلا يرحمهم! أما إن غلبته أنت فإنه يدفع لك تكاليف أى بنت تختارها! إذ أنهن جميعا أمامك بقمصان النوم شاربات منتشيات بهن يحمى اللعب فيجعلك تذهب لتجيء بكل ما فى بيتك من مال تدفعه لهن! شف العهر بتاع البلد ياسى حسن! وتقول لى نكسة؟! إنها بلد يلزمها الحرق يابوعلى!»..

وكف عن الكلام كأن الحشيش المتكلم فى دماغه قد نفد فجأة كما تنفد البطارية؛ فبقى شاردا يحدق فى الفراغ وقتا طويلا يدخن سيجارة عادية فى صمت كفيلسوف متهور؛ وموجات صوته

لاتزال موجودة فى المكان. أما أنا لا تسل عنى ياخال؛ تحلف اليمين أن يدا غليظة غسلتنى وعصرتنى. الأرض كروية يابوى، صدق من قالها، وبحر الأفكار واحد والخلق جميعهم يسبحون فيه، والواحد منا مهما شرق أو غرب فهو ماض تحت نفس الأمواج المتلاطمة؛ وها هوذا الولد كمبر يكلمنى فيما كان يشغلنى من أمر دون أن أسأله أو أعرض عليه الأمر.. فياله من أمر يابوى!..

فجأة نطق الولد كمبر من جديد، فلم أدر إن كان قد استأنف بعد توقف أم أنه لم يتوقف أصلا؛ لكننى أفقت على صوته يتجسد فى أذنى بحدة وحقد شديدين: «المشير أصله ضرب مخ الجميع بمرض الفنانات! وآخر المتمة جاء ينتحر لى! فتك البلدة وانتحر! الله يكرمه عنده دم وانتحر! أما الآخر فقد نال أمنا وجاء يعتذر ويتنحى! بلد مسمومة ياجدع! الثورة تاكل عظمنا وباشوات زمان طفشوا بفلوسهم! والضباط صاروا باشوات أوسخ من الباشوات! وإسرائيل لابدة لنا فى حقول الذرة العالية! وحقول الذرة هذه هى أمريكا إن كنت لا تفهم! وخل بالك أننى عجوز أكبر من شكلى!»..

ثم عاد إلى صمته؛ وقام بعد برهة فاتجه إلى النصبة وراح يقلب ويعكرش تحت خشب أرضيتها وجاء بربع قرش ملفوف فى ورقة سلوفان حمراء، وجلس فانبرى يلف سيجارة.

* * *

أولاد القحباء - إذن - يعيشون فى حماية بسبوسة. لقد تضحت الأمور تماما ياخال، وباتت غير محتاجة لأى تفكير. فما

الذى ترانى سأفعله مع بسبوسة ياخال؟! هل يعقل أن بسبوسة يبيعهم ويشترينى؟ هل يبيع مصدر رزقة فى سبيلى؟ لا أظن ذلك أبدا ياخال. وبهذا تكون المسألة قد تعقدت، ولن أفلح فى محاربة أولئك الموامس طالما أن مندوب الحكومة يحميهم. إن الموظف الصغير فى بلادنا هو الحاكم الأصلى كما علمنى ونبهنى أهلى، وكل الرؤساء الكبار لا يعرفون شيئا غير أنهم رؤساء وكبار والسلام؛ خاصة هؤلاء الذين جاءوا مع الثورة وهدفهم المريسة فحسب. على كل حال ياخال، هكذا قلت لنفسى يابو العم ـ فإن الولد كمبر يقول إن بسبوسة جدع، خصوصا لمن يقصده فى خير؛ وأظن ياخال أن مقصدى من تاديب الموامس خير. الأمر يلزمه تفكير عميق يابوى؛ فأنا الآن فقط صرت أتاكد من أننى بالنسبة لهؤلاء والولدان قشة فى بحر قراره عميق..

ورأيتنى أقول للولد كمبر: «خدمتى عندك ياكمبر أن يظل ما دار بيننا اليوم من كلام كأنه طوبة وقعت فى بئر مظلم!». فزغدنى كمبر بسيجارة ملفوفة وغمزنى بعينيه:« كم من السنين تعطينى عمرا ياحسن؟». قلت: «شىء وعشرون على الأكثر!» فابتسم وأخرج ولاعة البوتاجاز البلاستيك وارد غزة، والتى من المفروض أن يرمى بها فور نفاد البوتاجاز منها لولا أن المصريين اخترعوا لها طريقة لإعادة ملئها بالبوتاجاز. جعل يقرب شعلتها المستطيلة نحوى؛ فاشعلت السيجارة وجذبت نفسا عميقا، تبعته بأنفاس متلاحقة، وهو ينبهنى فى حرج: «الرحمة!». فناولته السيجارة.

فَبإبهامه نفض عنها الزهرة المحترقة وكانت أعماقها متصلبة دليلا على جودة نوع الحشيش الذى بدا كأنه العامود المسلح وسط الهديم المحترق. أبقى السيجارة بين أصبعيه حتى تلتقط أنفاسها، ثم قال: «شىء وعشرون تقول؟! ربنا يجبر بخاطرك!»؛ وجذب نفسا عميقا كتمه فى منخريه عينيه بالأحمر المرمد؛ جعل يقول وبقايا الدخان فى حلقه تبعثر حبال صوته وتغلظه: «فى رمضان القادم باكمل الأربعين من العمر!»؛ وجذب نفسا أعمق من سابقه يابوى، نفسا يليق بسن الأربعين وسط غرزة فيها الخير غير مقطوع ولا ممنوع. قلت: «ما شاء الله! ما شاء الله! لا يبين عليك والله ياعكروت!». سلمنى السيجارة قائلا بصوت متكتم: «عندى عرائس مزّوجات! ولى ابن مجند فى الجيش الآن! وآخر مات بالنكسة! جاءته نكسة قلبية فى سيناء فمات ولم أر جثمانه حتى الآن ولم أعرف إن كان قد دفن فى مقابر الشهداء حقا أم أكلته الغربان والذئاب فى سيناء! أنا الآخر كنت ساصاب بالنكسة وأنا هنا! لكننى رأيت أمه على وشك الوقوع صريعة مشنوقة بالطرحة السوداء والكفن الأسود! فقلت ما يصح أن تسقطا معا! فأجلت وقوعى حتى أقوى على سند أمه المسكينة! إنها أهم منى بكثير ياجدع! لو ماتت ألوص أنا بقبيلة من الأولاد لا نجد من يمسح خراءنا! لو مت أنا فالله يرزقهم عنى! أما هى فإن الله ـ عدم المؤاخذة ـ لم يرزق أما ثانية للبنى آدم أبدًا! عمرها ما حصلت ياجدع! عمرك شفت شخصاً ماتت أمه وعوضه الله بأم غيرها على الحقيقة؟! إن قلت إنك شفت تبقى كذابا! حتى أم الأم نفسها

رغم كثـرة حنانها لا تكون هى الأم نفسـها أبدا! إسألنى أنا فـقد اكتويت ياجدع!»..

وتناول السيـجارة منى ونظر فى عـقبهـا محددًا عـمق النفس الذى عليه أن يجذبه. فلما رآه لا يسـتأهل، رمى بالعقب فى بالوعة الماء تحت النصبـة؛ ومضى يبرم سـيجارة أخرى وقـد تندت عينه بالدمع؛ وترطب «إننى لابن قحباء! صحيح!»؛ وضحك بصوت عال فى مرح حقيقى: «الذى مات مات! فى كـسحة! المشير نفسه مات! والبطل واللوطى كلاهـما يموت فى النهـاية ويتساويان فى القـبر والكفن! ومصر كلها ماتت من ضرب فيـها وكأن شيئا لم يحصل! الراديو يذيع شنبه فى المصيدة عشية النكسة يعزينا بها فى موت عيـالنا! شنبه من! كلنا فى المصـيدة وتجىء تسوق التـريقة علينا؟ مـعك حق طبعـا! البلد فـرحانـه والكباريهـات سـهرانة والشـقق المفروشـة عمرانـة! والغرز نارها والعة والحـشيـش للركب! ما يشرب الحـسرة إلا نحن يامن فـقدنا عيـالنا! لكن لا داعى للنكد! معلهش ياحـسن! أنا تصيبنى حالة النكد هذه كلمـا رأيت أحدا من الحكومـة!»؛ ثم بلـل الورقـة البـافـرة ولصـقـهـا حـول الدخـان وكوربوزها وسـوى عقبهـا ثم أشعلها وتركـها موهوجـة ملعلعة بأنفاسه المتلاحقة؛ أخيـرا سلمها لى قائلا: «قصدى من الكلام كله أننى فى غيـر حاجة لنصائحـك! أنا ولد يعجبك! أصادق الصـغار والكبار مـعا! ينخـدعون فى شكلى يتـصورننى من سنهم! فـأجد نفسى كبيرا عليهم! والكبار يتـصورننى صغير السن فأجد نفسى مساويا لرءوسهـم! هل رأيت المعلم صفصف يهننى فى أى يوم أو

يقل أدبه على كـما يفـعل مع الصنايعيـه؟! هكذا أنا مع كل الناس! احترمهم فـأكيفهم فيحترمـوننى ويطلعونى على أسرارهم! وأنا ـ على فكرة ـ أستطـيع أن أميز السـر الحقيقى مـن السر المصطنع! أعلمك وآكل من دارنا! السـر الذى يقـال لك ليس بسرحـتى ولو وصفه قـائله لك بأنه سر! إنما السر هو الذى لم يكن صـاحبه يود لك أن تراه أنت أو غـيـرك! تـشـرب شـاى؟!». قلت: «مـا أحـلاك ياولد!». فحود علـى النصبة وصب كوبين من الشـاى الثقيل ذى الرائحـة النفاذة؛ فـأخذنا نشرب فـى صمت عمـيق ياخال؛ كـأننا تعبنا من الكلام.! ارتكـن هو بمرفقيه على رخـامة النصبـة شاردا، وكـوعت أنا على الكرسى، وقـد شعـرت أن السـيجـارة الأخيـرة لطشتنى فى مـقتل ياخال، فصـار دماغى يتبخـر فى الهواء. ومنذ صمـتنا انبعث صـوت تكتكة صـار يقوى مع الريح المقـتحـمة من فذتين مـتواجهتـين وكانت صورة جمـال عبد الناصـر المعلقة فى برواز مذهب على الحائط قد صارت نهبـا للريح مشبوكة فى فتلة دوبارة دائبة؛ فأخذت تصـدر هذا النقرزان العنيف، فقلت فى عقل بالى: لعله دبور زن على خـراب عشه.. فـاقشـعر بدنى حيـنئذ ثم انفـرد مرة واحـدة فى رعـدة شديدة قلـت على أثرها: حى! على الفلاح! واستسلمت لصمت عميق مخيف.

الخامسة ـ طلوع الشعرة من العجين

كنت أوقن أن كل شيء مصيره ينكشف، فطالما أنت زمار وأنا طبال فلابد أن الليل يجمعنا. إلا أن مخى الصعيدى الناشف أمرنى أن أختفى عن هؤلاء الأولاد؛ وأبعد عن الشر وأغنى له. ولقد مَنَّ الله على برجل طيب كان يعرفنى من قهوة المعلم. هو من بلدة الصف اسمها «الودى»؛ وكان معروفا للجميع؛ اسمه الحاج وهدان؛ شغلته فى الأصل تاجر خضار وفاكهة: يوسق المراكب من بلدته ويجيء ليعتقها فى مصر عتيقة بدلا من روض الفرج، الذى تكثر فى سوقه المعلمين ويضيع مكسب البضاعة بينهم. غير أننى عمرى ما رأيته فى حالة شغل أبدا؛ فدائما هو قاعد على المقهى يشرب الشاى مع الشيشة، ويستقبل الوفود الذى لا ينقطع هلولها طول النهار. كلهم أشكالهم غريبة يابوى؛ ومثله يرتدون الجلباب الكبير والعمامة الصعيدية والعباءة الجوخ على أكتافهم؛ وكلهم عيونهم لائذة، لا تكف عن التلفت فى حذر وحيطة وخفة. رآنى ذات عصرية رقيقة النسمات أجلس على رصيف المقهى وحدى. فمَيَّل نحوى ونادانى بإشارة من يده؛ فقربت كرسى منه مائلا بأذنى نحوه وضع كفه الكبيرة فوق كتفى قائلا فى ود

جميل: «بتشتغل فين يابو العم؟». قلت: «صراحة لا أشتغل هذه الأيام!». قال: «ما شغلتك الأصلية؟». قلت ـ ولا أدرى لم؟: «بياع متجول!». لوح بالخواتم الذهبية فى يديه وقال: «أظنك تقرب للمعلم شندويلى!». قلت: بلديات! وأسكن عنده!» صاح رغما عنه: «حلو!»؛ ثم عزم علَّى بسيجارة بلمونت؛ فقبلتها: «كتر خيرك»؛ فقال وهو يشعل لى بولاعة بوتاجاز ثمينة: «عندى طلب بسيط! لو نفذته لك عشرة جنيهات!». قلت: «رقبتى سدادة!». قال: «ساعطيك شيئا توصله إلى مكان قريب!». ففهمت فى الحال، وقلت بحرفنه: «عشرة جنيهات على الاقة تقصد؟» فتبسم فى حذر وخبث، ثم قال: «على النقلة كلها!». قلت: «يفتح الله! إذا كان على الاقة الواحدة أهلا وسهلا!». فشخ حنكه وقال دون مواربة: «شف يابو العم! ست جنيهات فقط على الاقة! موافق؟!». قلت: «موتفق!». قال: «قم معى!». فقمت معه؛ فإذا هو يركب المرسيدس الراكنة بجوار المقهى، ويفتح الباب لأقعد بجانبه. ثم إذا بالسيارة تنطلق بنا كالعروس المجلوة ما صدقت أن تملكت الطريق السريع حتى نفخت جناحيها وطارت، صرنا فى بلدته بعد دقائق. فى الطريق اختبرنى، وزودنى بكثير من النصائح الثمينة، نبهنى إلى ركوب القطار بعين قوية حتى لا أثير الشبهة حول نفسى.. فإذا هو ياخال يكتشف أننى من أصيع خلق الله، أصيع منه ومن الضباط والمخبرين والكمسارية.

* * *

كانت أيامه فُلاَّ أبوى أنقل كل يوم نقلة وزنها خمس أقات بعشرين كيسا مبططا؛ أشترى لها جعبة من ورق الأسمنت وأغطى البضاعة بهلاهيل قديمة؛ وفى القطار أسندها على رف وأقف بعيد عنها بمقدار طول العربة، يكون بينى وبينها باب، وأصب عينى عليها خلسة كلما وقف القطار على محطة، حتى إذا جاءت محطة السيدة زينب تلقفت الجعبة بسرعة وقفزت هابطا، لأذوب فى سيل النازلين منسلتا إلى الحوارى الجانبية فى لمح البصر كفص ملح ذاب. الرجل المقصود دائما فى انتظارى على ناصية أو مقهى أو فى دكان صغير للبقالة للعطارة للخياطة لأى شىء. قبض العرق يتم قبل الحمل، يدفعه الممول على داير مليم لكى يكسف شيطان الهرب الوسواس؛ ولكن متلقى البضاعة ينشكح لحظة وصولها بسلام وإن توترت أعصابه وتغير منظره، فيغمزنى بما فيه النصيب، وأحيانا: فوت بالليل اشرب قهوة؛ فافوت، وأشرب فوق القهوة ما يتْول الحيل من حشيشة المعلم المخصوصة واقفل راجعا إلى الدار بوهبة من فلوس وحشيش وأفيون وبرشام.

الحالة تمنجهت وباتت آخر نظاكة؛ وأصبحت أرمى باكوام الفلوس عشرات عشرات فوق بعضها فى أى مكان بجوار السرير، وصرت أدفع للمعلم شندويلى فوق الإيجار إيجارات وفوق القسط اقساط؛ حتى فاض الحساب عن دفاتر ذاكرتى فصار شيئا كبيرا كبيرا، يصيبنى الدوار حين أشرع فى حسبه فى جمعه. فوق ذلك صرت أبعث لهليل بالحوالات تلو الحوالات، ولأمى كذلك، والفلوس

مع ذلك لا تبتعد ولا تختفى أكوامها من فوق ذلك المسمى بالكومدينو المجاور لرأسى. ولم يكن الشغل يستغرق منى سوى أربع أو خمس ساعات؛ وبقية النهار مفتوحة، والليل كله تحت الركاب. ولقد تعلمت أكل الكباب والكفتة مثل الأكابر، والجمبرى والكابوريا مثل أولاد الناس. كما تعلمت النوم فى القيالة للسهر طول الليل فى بارات وسط البلد وحى العتبة وغرز الدرب الأحمر والسيدة زينب.

وكنت جالسا على مقهى الكلوب المصرى مرتديا الجلباب الكشمير والمركوب الأصفر، وأتلفع بلاسة حريرية سمينة اللون، أضع رجلا على رجل، وأمامى فنجان القهوة كالناس الأكابر لا ينقصنى سوى الجرنان والعصا أم عوجاته والمنشة.. حين جلس بجوارى رجل يرتدى جلبابا فوقه بالطو قديم كالح، وله شوارب متدلية. عرفت فى الحال أنه مخبر سرى فى الشرطة، فرجف قلبى. صرت أتفرس فى وجهه علنى أعرف سر هذا العشم الكبير الذى جعله يجلس بجوارى أنا بالذات من غير سلام أو كلام. كان هو الآخر يتفرس فى عينى ويقاوحنى؛ فاغتظت منه؛ مع ذلك قلت له باسما: «أهلا وسهلا!». قال: «حسن ولد أبو ضب؟!». قلت متحسبا: «خدامك ومحسوبك! تشرب إيه؟»؛ وصفقت فى الحال مناديا الجرسون، الذى جاء يهرول؛ فقلت له: «هات قهوة هنا!». قلتها كما يقولها الحاج وهدان بالضبط؛ لأنه هو الآخر يقولها كما البكوات الكبار. وهنا ضحك الرجل، فضحكت أنا الآخر، وأسرعت

فقلت: «أهلا وسهلا يابو العم! عدم المؤاخذة! العتب على النظر!»؛ وقربت علبة سجائرى البلمونت منه! انتزع منها واحدة بحركة سريعة، وعينه تبصبص للعلبة ولحركة يدى أينما اتجهت. وحين أشعلت له السيجارة بالكبريت كان الجرسون يضع أمامه فنجان القهوة؛ فانتظر هو حتى أعطانا الجرسون قفاه ومضى؛ ثم جذب من السيجارة نفسا يلمع من ورائه خبث شديد فى عينيه؛ وبعثر الدخان نحوى قائلا: «عدم المؤاخذة يابو علي! عندى لك نصيحة!». قلت فى نفسى: «يافتاح ياعليم»؛ وأردف هو: «هما كلمتان: كفاك هذا!!». دبت الرعشة فى ساقى: «ما قصدك يابو العم؟ ومن تكون حضرتك؟!». أخرج من جيب صديره كارنيها قديما كالحا، قربه نحوى فى حركة مدربة وهو يقول: «سيد الشفتورى! مخبر سرى!». فأشحت عن الكارنيه وعنه؛ فأعاد الكارنيه إلى جيبه وهو يقول فى لهجة انتصار: «أنت تشتغل مع الحاج وهدان بتاع مركز الصف! وأنا عارف كل حاجة! تركتك تأكل عيشا وليس بقلاوة! واليوم رأيتك فرأيت أن أقدم لك واجبا لوجه الله! الجو هذه الأيام مقلوب! ومصيرك الوقوع فى الفخ!».

نشف ريقى ياخال؛ صرت أبلل شفتى بلسانى كى أقدر على الكلام. قلت: «أنت تشكر على كل حال يامعلم سيد يارجل ياأمير! ولكن أنا مالى أى دعوة بالشغل! ربما تكون رأيتنى معه أو عنده! والحقيقة أننى أعرفه من مقهى المعلم شندويلى! أما أنا فتاجر فاكهة! سمسار! ولست أعرف للحاج وهدان شغلة غير هذه أيضا!

فإن كنت تقصد أنه يخالف القانون فى البيع والتسعيرة فأنا لا ذنب لى!». وكانت عينه الشبيهة بعين الثعبان قد انغرست فى عينى وصارت تشرخ فيهما بمبارد من حديد مشتعل؛ فما كدت أنهى كلامى حتى شفط آخر شفطة من الفنجان ثم وقف خابطا يديه فى ركبتيه علامة اليأس منى؛ ومضى قفاه يبتعد حتى اختفى.

بينى وبينك لعب الفأر فى عبى. وكنت أتمنى لو أننى غمزته فى جنبه بجنيه أخضر؛ إذن لا نحنى لى شكرا وتركنى فى حالى مثلما يفعل زملاؤه الذين أراهم يسلمون على الحاج وهدان كالخدم الأذلاء. لكننى خفت أن أفعل مثله حتى لا أثبت التهمة على نفسى. انقبض قلبى وحط عليّ نكد ثقيل؛ فحاسبت القهوجى ومضيت إلى الدار وقد خيل لى أن الحياة بدأت تقلب لى وجهها من جديد؛ وأننى يجب أن أتوقع أيام نحوس جديدة لست أقدر على دفعها إلا بالابتعاد عن خط الصف كله؛ ولكن كيف يابوى؟.. فلأعد للولاد ثانية لنشتغل فى التشبيح ليلا كيفما نهوى. هكذا قالت نفسى لنفسى. وفى السرير تمدد الشيطان بجوارى يقنعنى أن «سيد الشفتورى» يسعى لورقة الجنيه وأن أمره بسيط ويمكن أن أتحدث بشأنه مع الحاج وهدان ليصرفه عنى. وهكذا استطعت أن أغمض عينى قرب الفجر.

فى الصباح طسست وجهى بحفنة ماء ونزلت من فورى متوجها إلى بلدة «الودى» لمقابلة الحاج وهدان. وجدته يجلس فى

حوش داره بين مجموعة من أولاد عمه وصحابه. داره منفصلة عن البلدة، تختفى وسط جنينة كبيرة وارفة الأشجار. ولما نبحتنى الكلاب طلع من يهشها ويدخلنى. ولحظة دخولى كان الحاج وهدان يفرجهم على بضاعة جديدة؛ يحاول فتح صفيحة كبيرة كصفائح السمن. فلما نجح السنبك والشاكوش فى فك شمعها رفع غطاءها الكبير، فاندفعت رائحة الحشيش زاعقة مكتسحة مبهجة. ومد يده فاغترف بكفه حفنة صغيرة من بودرة صفراء؛ عرضها على الأعين المشرئبة، ثم أطبق كفه عليها. فانعجنت؛ وفك عنها قبضته. فإذا هى كرة من الصلصال كالبيضة. سحب سيجارة من علبة أمامه، غطسها فى الصفيحة ثم أخرجها وأشعلها وجذب منها نفسا عميقا. مررها علينا. ثم تابعها بواحدة ثانية، فثالثة، فرابعة، فخامسة. فإذا نحن جميعا قد احمرت عيوننا واحلوت الدنيا فى أنظارنا، وصرنا نضحك على الفاضية والمليانة.

صفق الحاج وهدان فجاءت أمه الحاجة «أبهة» لتأخذ الصفيحة. فى دخلتها جاءت عينى فى عينها مباشرة. فإذا هى تغمز ابنها قائلة فى تحذير بلهجة خطيرة وهى تشير إلىّ: «الولد ده ما يشيل بضاعة اليوم!»، وحملت الصفيحة ومضت كفتاة صغيرة. كل النظرات راحت تنصب على فى تشكك باسم، فصرت أحلف ستمائة يمين أننى طبيعى ما انسطلت بعد، كما أننى لست بالذى ينقلب من سيجارة واحدة حتى لو كانت محشوة بالبارود. ونظر لى الحاج وهدان نظرة تحذير أخيرة وقال: إنت حر على كل حال!

ذنبك على جنبك!». فضربت صدرى بقبضتى قائلا: «أنا تمام يامعلم! ما يهمك شىء!» فأشاح عنى كأنه استشف عدم قدرتى اليوم بالفعل؛ وقال مستدركا: «على كل حال يكفيك اليوم أقة واحدة! إن ضاعت فأمرها سهل!». قلت فى شىء من الانكسار: «اللى تشوفه يامعلم!». وبعد أن تغديت فطيرا مشلتتا مغمسا بالعسل النحل والجبن القديم وشربت شايا، ونفحنى الحاج وهدان عدساية أفيون؛ وكنت بالفعل أشعر أن الدنيا ليست هى الدنيا، إذ كل شىء قد زهزه فى عينى فجأة واكتسى لونا جميلا وصارت كل ملامح الناس باعثة على خواطر الضحك.. تحلف اليمين يابوى كاننى مخلوق لتوى. غير أن رأسى يتثاقل على ويخادعنى، يكاد يوقعنى، حتى لقد صارت أمنيتى الوحيدة فى الحياة أن أرقد على ظهرى وأنسلخ عن الوجود وأعيش وحدى هذه اللذة الكبيرة. إلا أن الأفيونة بنت الكلب سرها باتع يابوى. ما كدت أطوحها فى فمى بشفطة شاى ثقيل حتى انعدلت دماغى فى الحال، وصار بإمكانى أن أنهض فى طلب البضاعة والاتكال على الله..

ويظهر والله أعلم أن الحاج وهدان قد لمح الزعل فى عينى على نقص رزقى اليوم بتخفيض المشال إلى أقة واحدة. فإذا به بعد أن سلمنى الأقة يخرج من سيالته أربعة أكياس يضيفها لى قائلا: «هاك أقة أخرى! خل بالك من نفسك!». فحشرت الأكياس فى دكة اللباس وكسرت عليها الحزام ومضيت وأنا أقول: ياسابل الستر. لكن الخوف تصدر بين قدمى وبعث طائره السريع إلى دماغى

فذكرني بسيد الشفتوري وما حصل منه على مقهى الكلوب المصري. انتحيت بالحاج جانبا وهمست له بما حصل بالأمس. فوجئت يابوي بانه لم يطرف له جفن، بل أطبق على سمانة ذراعي قائلا في بساطة: «لا يهمك منه! إنه كلب لا هنا ولا هناك! لو كلمك ثانية استغنى عن علبة سجائر تسد بها حلقه! وعلى كل حال أنت محمي هنا! في حدود مركز الصف! إذا لا قدر الله قلّت الحكومة عقلها وهاجمتك فإنك ستخرج من باب قسم الشرطة بعد ساعة واحدة! وتخرج البضاعة من الباب الآخر بعد ساعتين! أما خارج حدود المركز فاجعل عينيك في وسط رأسك إذ أنت مسئول عن نفسك!» فقلت: «تشكر ياحاج!»، واتكلت على الله ثابت الوطء.

قرب محطة حلوان سمعت صوتا مألوفا ينادني. تلفت مذعورا أبحث عنه؛ فإذا هو عم زعتر بائع الشباشب الزنوبة والأحذية المصنوعة من البلاستيك. كان سارحا في شوارع حلوان يبيع ويتسوق معا. وكان يحمل على ظهره جوالا ملآنا بالشباشب والأحذية. أهلا عم زعتر! ومشينا معا حتى المحطة، فقلت له: «عنك! دعني أشيل بدلا منك!». أنزل الجوال قائلا: «لا! بس ممكن تخلي بالك منه لحد ما اشترى طلب من الأجزاخانة!». قلت: «أشترى لك أنا!». قال: «لا! أريد أن أفك فلوسا كبيرة!»، ثم مضى..

وقفت بجوار الجوال أتلفت حوالي، والخاطر الوافد يكبر في دماغي ياخال. قلت فلأجرب. فانحنيت على الجوال، ونزعت الأكياس وسربتها إلى الجوال في قلب الأحذية. عم زعتر نظره

ضعيف، ويمكن أن أستغفله عند النزول. ساعدته في حمل الجوال على ظهره، وتركته يمضي قائلا إنني ساشتري سجائر وأحصله، فقال إنه سيقطع لي تذكرة. جعلت أتلكأ حول أكشاك السجائر على باب المحطة مصطنعا أنني مشغول بشيء سأشتريه؛ وحقيقة الأمر أنني كنت شاعرا بالحرية بعد أن تخلصت من السجن في جوال عم زعتر. أيقظني صفير القطار من سرحتي فيممت نحو دكان اشتريت منه بضع قطع من الصابون صررتها في منديل محلاوي ووليت إلى باب المحطة. وياللهول ما رأيت ياخال: سيد الشفتوري المخبر السري واقف على باب الرصيف وحوله رهط من أهل مهنته، وثلاثة أفندية محترمون سمحو الوجوه. قلت: بس! رحت في داهية! وصرت ألملم ركبي تحت الجلباب. من حسن الحظ أن أعطيتهم قفاي بسرعة قبل أن يروني، وصرت أتحكك في طابور التذاكر ممسكا بورقة الشلن حتى وصلت إلى عم زعتر قرب الشباك؛ فملت عليه وهمست في أذنه بسرعة أن لا يكلمني ولا يعرفني الآن لان المباحث واقفة بباب الرصيف تنتظرني. عم زعتر سلمني التذكرة ومضى بعيدا؛ فظللت واقفا لبرهة حتى رأيته قد عبر البوابة ودخل إلى الرصيف؛ ثم انضمت إلى آخر الطابور. ما كدت أصل إلى الحاجز الحديدي حتى تهلل وجه الضابط وانفرجت أساريره وصاح قائلا: «أهلا! أهلا! أهلا! أهلا! إزيك ياحسن! معاك حاجة ياحسن؟ طلع اللي معاك طلع!». فوجمت. قلت: «ما معي أي شيء ياسعادة البيه! لا أفهم أي شيء تقصد؟». فنظر الضابط إلى سيد الشفتوري، فانبرى يفتشني تفتيشا قاسيا

ومهينا للكرامة ياخال. وفى الآخر شوح للضابط فى مرارة وخيبة أمل قائلا: «ما معه شىء ياسعادة البيه» فاشاح الضابط وشوح علامة أن يفضه منى فيتركنى. وفعلا تركنى ياخال، فمضيت أجرر ساقى نحو القطار المترو، ورميت بنفسى على سلم أول عربة، متشبثا بحديدة الباب. صعدت، جعلت أمضى من عربة إلى أخرى بحثا عن عم زعتر، الذى وجدته فى العربة الثالثة واقفا بجوار الباب مسندا الجوال فيما بين ساقيه وصدغ الباب لم يرني بالطبع، فجاوزته إلى آخر العربة عند بابها الآخر. بعد برهة قصيرة رأيتهم مقبلين ياخال: سيد وحكومته فقلت: لابد أنهم يتتبعوننى ويصرون على الإمساك بى متلبسا، فسابت ركبى، وجعلت أدفن نفسى فى ركن الباب وظهر الكرسى ولكن عينى تتلصص عليهم.

المصيبة ياخال أنهم ركبوا وسط الزحام وبقوا واقفين فى أماكنهم حول عم زعتر. فجاءنى صوت يشبه صوت أبى يقول: إنزل فى المحطة القادمة! إنزل فى المحطة القادمة! إنزل فى المحطة القادمة!.. ومحطات كثيرة جاءت ومضت وأنا لا أفيق من شرودى إلا والقطار يهزنى لحظة أستئنافه السير. وحقيقة الأمر يابوى أن البضاعة التى دفنتها فى جوال عم زعتر صعبانة على ولابد لى من استردادها بأى شكل. وعندما جاءت محطة الملك الصالح كنت فى فتحة الباب واقفا فى اطمئنان فى آخر عربة، وهكذا قفزت على آخر الرصيف مداريا نفسى فى زحام السائرين، وجعلت أتسقط عم زعتر فلما راق الزحام رأيته واقفا على الرصيف، وسيد

الشفتورى يساعده على حمل جواله، فيما صارت أبواب القطار تنغلق ببطء والعربات تزحف فوق الرصيف، أعطيتها ظهرى، ووليت نحو السلم، ثم أخذت أهرول شيئا فشيئا حتى لحقت بعم زعتر، فقلت له: عنك! وحملت الجوال ومضيت بجواره مفكرا فى طريقة استرد بها بضاعتى دون أن يلحظ هو أننى كنت أضع له السجن فى جواله. إنه لحسن الحظ يعرف أننى شريب للحشيش، قابلنى عشرات المرات فى غرز مصر عتيقة والفسطاط وأثر النبى؛ فهو الآخر حشاش بريمو. ولو فتشته فى أى لحظة فلابد أن تجد معه حشيشا لشربه، ومن أعلى نوع. أنا نفسى كثيرا ما أرضى بشرب حشيش كالجلة تمشيا مع الظروف والأحوال، أما هو فإن لم يتوفر له الزيت أو الهبو ذو الثمن المرتفع فإنه يبطل الشرب حتى تتيسر الأحوال، لكنه دائما أبدا يشيل فى لفائف عمامته المصراوية أكثر من قطعة جاءته من باب الله فركنها إلى أن يهديها لصاحب نصيبها.

وجدتنى أقول له: «معك حجران ياعم زعتر؟!». قال بشهامة: «معى لكن لن يعجبك!» قلت فى منتهى السعادة: «أما أنا فمعى أعلى حشيش بريمو! عمرك ما شربته!» وكان قد توقف وراح ينظر لى فى اندهاش رافعا حاجبيه، فأردفت: «إذهب فاشتر لنا ورقتين معسل قص! وسوف أعشيك لحما وفراخا مشوية! فأنا تفاءلت بك اليوم!» تردد عم زعتر قليلا: «ولكن! بدّى أستريح شيئا بعد مشوار اليوم!» دفعته بيدى قائلا بإغراء: «استرح عندى أو شئت!» الرجل لم يكذب خبرا، تركنى وانطلق يهرول نحو دكان

على الرصيف المقابل. أما أنا فانزويت بجوار سور حديقة المستشفى وأنزلت الجوال وانتزعت منه بضاعتى فحشرتها فى ثيابى كما كانت، ووقفت أنتظر عم زعتر. وفيما كان مقبلا من بعيد يتطوح مع الريح ممسكا بباكو الدخان المعسل، تذكرت أن ورائى موعدا ضروريا مع زعتر آخر هو زعتر أبو كرش تاجر الحشيش فى حى فاطمة النبوية، وقلت: ما من المشوار من بد! فالبضاعة لابد أن تبيت فى بيت صاحبها.

الله وكيل يابوى، وهو معى على الدوام! إلا وعربة الأجرة قادمة تقف أمامى لتنزل منها راكبة عجوز، فهتفت بالسائق قائلا: «النبوية ياسطى؟» قال فى تأفف: «اركب!» وكان عم زعتر قد اقترب، فصحت به وأنا أفتح الباب: «اركب ياعم زعتر!»، ثم قذفت بالجوال. قال زعتر فى دهشة كبيرة: «على فين ياجدع؟!» قلت «اركب بس!»، ودفعته برفق، فركب كالأهبل فى الزفة.

نزلنا على باب الحارة بالضبط، فأنزلت الجوال وحاسبت السائق واندفعت أهرول فى الحارة نحو ضريح النبوية، حيث كان التاجر الكبير ـ وهو بعد فى ريعان الشباب ـ ينتظرنى أمام عمارتيه الكبيرتين المجاورتين للضريح مباشرة.

ما إن رآنى حتى تهلل وجهه الأحمر المستدير المورد، وفرد صدره متنفسا تحت القميص الأبيض المستورد المتسق على جسمه، سلم على فى حذر، وعيناه تمسحان المكان من كل ناحية، ثم إنه تقدمنى داخل الجاراج فى بدروم بحجم العمارتين، حيث

توجد حجرة مخفية فى الداخل، فتحها وأشار لى أن أفرغ البضاعة، فأفرغتها على كرسى، ولما اطمأن إلى عددها أمسك بعض الأكياس وفتقها وغرز أسنانه فى الحشيش ثم انتزع بظفره قطعة وداس بمشط قدمه على بلاطة تحت مكتب إيديال فى ركن الحجرة، فإذا ببلاطة بحجم أربع بلاطات ترتفع عن الأرض ليظهر من تحتها فراغ مظلم عميق، دلق الأكياس فيها وترك البلاطة تهوى إلى وضعها من جديد، وأزاح المكتب فوقها. وحين استدار وفوجىء بى انزعج وكاد يفتح كرشى بسكين، لكنه افتعل ابتسامة وخبط جبهته بكفه فى مرح، وتقدمنى حتى باب الجاراج المطل على الشارع. صفق بيديه، فجاء البواب يجرى، أمره أن يجىء بالكراسى ويشعل النار ويغير ماء الجوزة، ففعل البواب كل ذلك فيما لا يزيد عن خمس دقائق، كل ذلك وعم زعتر واقف ينتظر على باب ضريح النبوية، وجاء زعتر أبو كرش وهمس فى أذنى قائلا: «الراجل اللى هناك ده معاك؟!» قلت: «نعم! إنه صديقى وقد نفعنى وجوده! وهو لا يعرف أى شىء عن أى شىء!» فهز رأسه وبعث البواب يناديه فلما جاء قال له زعتر أبو كرش إننى بلدياته وقادم له برسالة من البلد ولابد أن يكرمنى.

جلس البواب أمامنا على الأرض يرص الحجارة، وزعتر أبو كرش يوقعها بالحشيش البريمو، فات ولد نظيف المظهر، فناداه زعتر وأمره أن يسوى لنا ثلاثة كيلو كباب صافى. كانت عصرية لا تنسى ياخال، جديرة بأن تكون احتفالا بآخر نقلة أحملها فى حياتى.

السادسة ـ الفخ الجهنمى

شهورا طويلة يابوى أمضيتها بدون عمل، لكن العين والحمد لله ملآنة بالخير، فما تبقى معى من مال يكفينى لشهور أخرى مقبلة، وهليل موجود فى الصعيد لو أرسلت إليه لن يتأخر فى الرد. غير أننى صممت على أن أترك هليل فى حاله كان ليس لى عنده شىء. تركتها على جناب الله يفعل بى ما شاء.

كنت قد صرت رجلا محترما يتقمش بالقماش الثمين كأكبر المعلمين. لبدتى تحولت إلى عمامة بشال حريرى حول طاقية رقيقة غالية الثمن. ومن سيدنا الحسين اشتريت عصا بعوجاية عليها القيمة. بات شكلى يليق بدخول هذه العمارة وصعود سلمها مع سكانها من البكوات الموسسات وأهل الرتب والنياشين.

صدقنى ياخال أن السكن المريح وما يتوفر فيه من وسائل الراحة كفيل بتغيير الإنسان إلى الزين. ما أحلى الاستحمام تحت الدش راقدا فى الحوض الرخامى تسبح فى رغاوى الصابون الزكى الرائحة، وأن تقوم فترتدى الكشمير والجوخ واللاسات الحرير والحذاء الاستك، وتنزل رائقا متكلا على الله.. لابد أن

يفتحها الله فى وجهك ياخال. لقد أعطانى ـ سبحانه ـ مرآة فى الدولاب أنظر فيها فأرى شخصا آخر يكاد ينافس هليّل فى النظاكة والوجاهة، وقد حلفت برأس أبى لأبقين على هذه الهيئة ما حييت، ولم أخلعها أبدا مهما كانت الظروف والأحوال. إن خلع الأبهة صعب ياخال على من ارتداها ولو بالصدفة، فى سبيل استمرارها سأشقى ولتنهد الدنيا بعد ذلك مثلما يعيش كل المعلمين سأعيش بهذه الهيئة والله لن يكسفنى.

وذات ليلة كنت نازلا على السلم مرتديا أبهتى على سنجة عشرة، فإذا برقبة بسبوسة تظهر من أسفل الدرج فى حنية السلم، ثم اتسعت رقبته بقفاه. ثم ما لبث أن واجهنى بكامله صاعدا، مرتديا جلبابا من السكروتة السمنى يهفهف حول جسده المرغد، الذى بدا مجلوا كأنه صنفره بالصنفرة، والعطر يتضوع منه، حتى لقد حسدته وبيت النية فى السؤال عن اسم هذا العطر وشرائه. الملعون لم يعرفنى من أول نظرة، لكن الشك المروع أوقفه على البسطة فى مواجهتى، يحيطنى بنظراته من فوق لتحت ومن كل ناحية يكاد يفتشنى، لولا أننى لكزته فى كتفه صائحا: «شغل أم بطالة؟!» فارتد بكتفه مقوسا ظهره كالأنثى اللعوب، ثم رمى بنفسه فى حضنى صائحا بصوته المسرسع: «إنت فين ياد يالوطى؟!» احتويته كأننى أحتوى حوتا مدكوكا باللحم العضلى، صرت أربت على ظهره قائلا «يابو العم! البعد عنكم غنيمة!» سحبنى من يدى قائلا: «تعال! أنت مقبوض عليك!»..

انصعت وراءه بدافع خفى دون مقاومة، لكنه توقف ناظرا فى عينى بإمعان كأنه يتعرف على شخص جديدعمره ما رآه من قبل. فلكزته ثانيا ليفيق، فإذا هو يرسم على وجهه تعبير من لا مفر أمامه من الاعتراف بشخصيتى الجديدة، ويقول: «مبروك ياعم! شقة سقع!!» قلت والبسمة ترتعش على شفتى، من التشاؤم أم من الراحة لأنه عرف لا أدرى: «إيش عرفك يابو العم؟!» فتراجع بعنقه وفى عينيه نظرة خبيثة ماكرة وزام: «إى.. ى.. ى!!» ورنت فى أذنى أصداء عبارة: «علىّ أنا الكلام ده؟!» ثم إنه سحبنى من جديد قائلا: «تعال فرجنى» انصعت وراءه قائلا لنفسى: لعلها فرصة للكلام فى الموضوع وسبقته لأفتح الباب.

بسم الله الرحمن الرحيم.. هكذا بسمل وهو يدلف داخلا، مشمرا ذراعيه كأنه سيذبح خروفا، تقدم نحو الكراسى التى تم تنجيدها وفرشها ودهنها تقول أنا طالعة بشوكى من عند البياع. صاح بلهجة ممطوطة ذات معنى خبيث: «ما شاء الله! ما شاء الله!»، ثم جلس وفى عينيه بريق يكاد ينطق قائلا: «عاوزين حقاتنا! حلاوة هذه الصيدة السقع!» لكنه لم يقل هذا، بل قال: «يابن الكا..ا..ا لب!» ثم أردف قائلا: كأنه يعرف كل شىء عن الموضوع: «دفعت فيهاكم؟!» قلت: «بالبركة! صاحبها أصله قريبى! وقد تساهل معى!» ظهر عليه أنه غير مصدق يابوى، قال: «المعلم شندويلى يبيع أباه لقاء قرش تعريفه! فبكم باعها لك؟!» قلت: «بالصلاة على النبى! هو يبيع أباه أى نعم! لكنه لا يبيعنى! أنا

واثق» هز رأسه ويديه فى حيرة: «لا تمكر على! فما قصدت سوى مصلحتك! صدقنى! لا تغتر فى البلدات والكلام الصعيدى الفاضى بتاعكم! المعلم الشندويلى هنا شخص آخر!»..

أحسست أنه يتكلم بثقة شديدة، لكننى مع ذلك بقيت متحوطا يابوى. إنه ولد عفريت يابوى، ومثلى لا يروح ولا يجىء معه، قلت: بلهجة عائمة: «يجوز! يجوز!» ظهر ياخال كأنه انشغل فى موضوع عميق، وظهر عليه الهم والكدر مال نحوى فانفلتت منه نظرة إشفاق أحسست بصدقها ياخال. لبرهة خاطفة يابوى برقت عين بسبوسة وطلع منها الملاك الطاهر مجسدا على ملامح وجهه، ثم قال كأب يستبصر ابنه فى هدوء وروية، وبصوت خافت كمن يخشى أن تسمعه أذن الجيران: «كتب لك عقدا؟!» ترددت برهة قصيرة ووجدتنى أقول: «الكدب خيبة! بصراحة لم يكتب لى عقدا!» شوح بيديه كالنسوان مولولا: «تأخذ منه إيصالا بالإيجار كل شهر؟!» قلت: «ماحصل!» فإذا به يسحب شخرة رنانة فاجرة أرعبنى صوتها والله يابوى، ثم جعل يأتى بحركة قبيحةفى الهواء المتاخم لأنفى قائلا فى حقد «خد دى! تعمل نفسك مفتحا وبرمجيا وأنت أغلب من الغلب!»، ثم إنه أشعل سيجارة ورمى بعلبته نحوى واعتدل نافثا الدخان فى لذة فائقة وقال:

ـ «شف يابقف! هذه العمارة لها قصة! إنها فى الأصل موضوعة تحت الحراسة! صاحبها رجل سيىء الحظ لعلك سمعت به وبأمره! الحاج إينال زلبطة! أشهر ورش ومحلات الأحذية فى

العتبة الخضراء ووسط البلد ومصر الجديدة وفروع الأقاليم مثل باتا! عمك إينال زلبطة كان متمعشقا فى الفن وأهله! فاشترى قطعة أرض فى الدراسة وابتنى فوقها دار سينما تعرض أفلام الدرجة الأولى!! وعشق راقصة فاتنة كالقمر كالرغيف البلدى الصابح! وابتنى هذه العمارة التى نحن فيها الآن على نيل مصر عتيقة ليعطى الراقصة شقة فيها بالمجان! تكون جرسونيرة خاصة به!! يكفيك الله شر النحس إذا احتال على رجل سعيد الحظ من الأساس!! أوسخ نحس فى الدنيا هو الذى يجىء لرجل سعيد الحظ من يومه! صاحبنا هجر أولاده القدامى وأقام نهائيا فى شقة الراقصة!! أولاده ثاروا ضده لكنهم كتموا فى نفوسهم! الراقصة فرحت به لكنها ـ به ـ ضاقت! إذ هى تريد أن تعيش على حريتها! من سوء حظه وربما حظها أيضا عشقها ضابط كبير! وظل يفتعل السفر له ولها ليلتقى بها منفردين فى أماكن بعيدة من الكرة الأرضية فى غابات أفريقيا وجبال سويسرا ولبنان! وفى النهاية جاء وأقام فى شقتها!! فى ليلة جاء صاحبنا ومد المفتاح فى ثقب الباب فطلع له من جوف الظلام أشباح عفية كتفته وكممته وألبسته قميص الأكتاف!! سيق إلى مستشفى المجانين لا من شاف ولا من درى!! انذهل أولاده وما أفاقوا من بعدها حتى اليوم ومعظم الظن أنهم لن يفيقوا!!، فكلما هدأت الدوخة جاءتهم صدمة أخرى من حيث لا يتوقعون تفقدهم عقلهم! فوجىء المساكين ـ ويللعجب ـ أن المستشفى تدخر لهم أوراقا بإمضائهم تجار بالشكوى من جنون أبيهم!! ملف كبير من الأوراق تحكى قصته

وقصتهم معا من طقطق لسلامو عليكم! كل ورقة أنقح من أختها! هب! فوجئوا أن أموال أبيهم موضوعة كلها تحت الحراسة! وقد تعين هذا الضابط نفسه حارسا عليها!! الحاج زلبطة رحمه الله فمات فى المستشفى! وحل محله ـ فى نفس الحجرة فى المستشفى ـ ابنه الأكبر الذى كان زينة الرجال!! ومنذ سنين طويلة وهو مقيم فيها لا أمل فى شفائه! وأما الابن الثانى فقد شم رائحة الاعتقال فى البلاد فصفى كل علاقاته واتكل على الله هاربا إلى بلاد بره! وكان للرجل ابن ثالث غاية فى الصلاح قبضوا عليه ضمن الإخوان المسلمين فسجنوه وعذبوه حتى مات! وقال طبيب السجن إنه كان مريضا بالقلب!!..

«لم يبق من ذرية الرجل سوى بنتين متزوجتين من تاجرين كبيرين كانا من صبيان أبيهما فى الورشة! لا تفتح فمك هكذا كالعبيط فمسلسل الذهول لم يخلص بعد! لقد أبرزت الراقصة عقد زواج شرعى مسجل وعليه شهود موثوق منهم! ثم أبرزت عقدا آخر عليه شهود.

كذلك ينص على أن الحاج إينال زلبطة قد باعها هذه العمارة فى تاريخ معاصر لعقد الزواج!! وظل محاميها يرمح شمالا ويمينا حتى فك العمارة وحدها من الحراسة وجاء لها السمسار بالمعلم شندويلى الذى لم يستغرق من عيونها الساحرة سوى نظرتين ومن جسمها الملهب سوى هزتين وحكتين عفويتين! فاندب كالرطل واشترى العمارة بمبلغ كبير دفعه على داير مليم! وكان

الضابط قد غضبت عليه الثورة وطردته من حمايتها وحرمته من نعيمها فأخذ الراقصة وسافر إلى بلاد بره!! وبعدها بشهور طويلة عثروا عليه مقتولا في شقة في بيروت مذبوحا ذبح النعاج وبجوار جثته مليونا جنيه إسترليني!! وأما الراقصة فقد اختفت من الوجود تماما!! وقيل إنها بيعت كجارية لمليونير سعودي له علاقات واسعة النطاق بجهات دولية عليا وكلها علاقات مشبوهة!! لحد هنا زين؟!..

«يرجع مرجوعنا للمعلم شندويلي! لقد ذهب يسجل عقد بيع العمارة في الشهر العقاري ففوجيء بأن العمارة لم ترفع عنها الحراسة تماما! كل ما هنالك أن المحكمة صرحت للمدعية بتحصيل إيجارات شقق العمارة كمصدر ترتزق منه! من تاريخ رفع الدعوى إلى أن يبت في مسألة رفع الحراسة كلية عن أملاك المرحوم!! الراقصة إياها - ربنا يعطيها الصحة - باعت شقتها للماشطة التي كانت تشتغل عندها! وهي الأخرى راقصة قديمة ولكن في شارع الهرم! وهي الأخرى - أيضا - رفيقة ضابط آخر لكنه أصغر بكثير جدا - في كل شيء - من سابقه!. ليس فيه للنساء! إنما يحب الوظاويظ الصغيرة يلهو بها حتى يستريح لدقائق ويصبح آخر فل!! وهي تعرف هذا وتملأ الشقة منهن! وعلى حسه تقيم في الشقة أردغانة! لا أنت ولا أنا ولا أجعص جعيص هنا يقدر على فتح فمه بكلمة! إن الخوف كل الخوف دائما يأتي من صغار الضباط!! عمك المعلم شندويلي بسلامته أراد أن

يأخذ بحقه حلفا! فكر أن ينوبه - على الأقل - من اليغمة لحسة! بصراحة طمع في هذه الأرتيست الساكنة قصاده! ظن أن الشقة مفتوحة على البحري لكل من هب ودب! وربما كان يستطيع أن يلهط القشطة كلها باعتباره صاحب العمارة لكنه أخطأ في الدخلة الخشنة الغلسة! جاءها من باب التهديد! فنال جزاءه! انضرب علقة ساخنة لحس فيها تراب هذا السلم درجة درجة! وكان سينضرب في كل يوم علقة مثلما لو لم يأخذها من قصيره ويرحل تاركا العمارة بمن فيها! لكنه قبل أن يرحل بعث بتهديدات في السر خائبة! من قبيل أنه سيخرب بيتهم جميعا وسيقصف عمر كل من اعتدى عليه! وها هوذا يريد أن يوحلك في هذه الوحلة ياصعيدي ياقحف!! اسمع كلامي ياصاحبي لو كنت جئت إلى هذه الشقة قاصدا كذا أو كذا فإن نقبك على شونة! ولن تخسر إلا نفسك! ويكون المعلم شندويلي قد نهب مالك وحياتك! ما بك دفعت أموالك التي شقيت بها في النار! وما بك خسرت الجلد والسقط وطلعت من العملية كلها بلمروطي!! صدقني لولا العيش والملح الذي بيننا ما صرحت لك بشيء من هذا الكلام!!»..

الدنيا لفت بي يابوي، تحلف اليمين لو أنني رأيت المعلم شندويلي لحظتها لمزقت لحمه ورميته للكلاب. المعلم شندويلي يفعل بي هكذا؟! كيف يابوي؟! إنني أشعر الآن بصدق بسبوسة. فليس من المعقول أن المعلم شندويلي يتنازل لي عن شقة كهذه بهذه السهولة.

خدعنى إذن يابوى، صور لى الحكاية على أنها مجرد مضايقة لبضعة نسوان وضربهم علقة أو علقتين. أما أن تكون المسالة كما أوضح لى بسبوسة فإننى لا أستطيع الدخول فى حرب مع الدولة يابوى.

ويظهر أن بسبوسة رأى الغضب مضرما فى وجهى وعروقى، فجعل يهدىء من روعى قائلا:

- «اهدأ ياصاحبى! فالأمر محتاج لبعض الحكمة!! فأولا! احذر أن يعرف المعلم شندويلى أنك عرفت أى شىء مما قلته لك الآن!! كن عبيطا كما أنت وعلى نياتك!»..

قلت فى غضب: «وماذا يفيد الهدوء؟!». قال فى بسمة ساخرة: «ألم يعطك المعلم شندويلى أى ورقة؟!». قلت: «لا». قال: «إذن فهذه هى مهمتنا! علينا أن نأخذ منه ولو إيصال بإيجار آخر شهر!». قلت: «إنه لن يكتب لى أى ورقة! بكل صراحة يابسبوسة! إلا إذا عملت له شغبا فى العمارة وعاركت ناسا وعورتهم!». لمعت فى عينيه براكين مخيفة، سرعان ما انفجرت فى ضحكة عالية لا أعرف إن كانت سخرية أم عطفا على محسوبك، ثم قال: «ألم أقل لك؟! عيب ياجدع! أنا بسبوسة والأجر على الله!»، ثم رمى لى بسيجارة وأشعل لنفسه واحدة: «سأساعدك وآكل من بيتنا! حتى لا تستندل معى بعد الآن!! وعلى كل حال الذى عندك أحسن من الذى عند شندويلى! على الأقل أنت يمكن أن نقصدك أو نقصد شقتك فى طلب نطلبه!»..

ثم انتظر برهة معلقا عينيه فى عينى كأنه ينتظر موافقتى على هذه الإشارة الأخيرة، لكنه أردف:

- «سوف أذهب من ورائك إلى المعلم شندويلى وأخبره أنك عملت مصيبة سوداء فى الشقة وأنك عورت وبطحت وذهبت إلى قسم الشرطة مقبوضا عليك! وبعدها بأيام تذهب أنت إليه مبهدلا مخربشا وتكلمه فى أمر الورقة!!»..

قلت: «والله رجل يابسبوسة! ولكن هل الورقة التى تقول عليهاتكفى؟!»..

قال ضاحكا: «ستثبت أنه أجر لك الشقة! وأنت بحكم وضع اليد تظل مالكا للشقة لحين البت فيها! وسواء آلت ملكيتها لشندويلى أو عادت لوريثها المقيم الآن فى بلاد بره فإن أحدا لن يستطيع طردك منها! وعلى فكرة! جيرانك هؤلاء هم الأبقى لك! ولما تعيش معهم وتعاشرهم ستحبهم ويحبوك! مصيرك تعرف!»..

ثم غمزنى بسيجارة غمزة فهمت منها أنها محشوة بالحشيش وأردف ضاحكا فى مرح كبير: «لكن قل لى! أكنت تتصور أنك فعلا تستطيع الانتقام له ممن يسميهن بالمومس؟!»..

ضحكت رغما عنى، تحلف اليمين يابوى أننى سمعت فى ضحكتى صوت ضآلتى، وقلت: «أنا ضحكت عليه طبعا حتى آخذ الشقة!». فقال برنة لم أسترح لها: «ياك من رجل طيب!». ثم جذب نفسا عميقا من السيجارة، واختفى بريق عينيه لبرهة طويلة

فى سحب من ضباب الدخان الأزرق المتدفق من منخريه، وقال: «تدفع كم لو أنا خلصت لك هذه الشقة تخليصا نهائيا؟! لو جئت لك بعقد إيجار وإيصال بآخر شهر! ولنصرف النظر عن المبلغ الذى دفعته له من قبل! ويكون العقد من أول وجديد من تاريخ كتابته؟!»..

فتحت فمى مذهولا: «تقدر يابسبوسة؟!». قال بكل بساطة: «هذه لعبتى! تدفع كم قلت لك؟! أنا شخصيا من مصلحتى أن تكون أنت بالذات ساكن هذه الشقة!». فكرت لبرهة طويلة فلم أهتد إلى تقدير المبلغ الذى ينفع، فقلت له: «رقبتى لك يابسبوسة! تريد كم؟!». قال: «يكفينى خمسمائة فقط! فى مقابلها أسلمك عقد إيجار قانونى سليم لا تخر منه المياه! وإيصال بآخر شهر!». قلت فى الحال: «والله ما أنزل عن كلامك يابسبوسة! حلال عليك!». قال وهو يناولنى سيجارة أخرى محشوة ثم يشعلها لى: «عليك إذن أن تختفى عن هذه الناحية لمدة عشرين يوما على الأقل! تعود بعدها مبهدلا فتجدنى قد جعلت لك الأمور السطة!». قلت وأنا أعيد له السيجارة: «من غد أغلق شقتى وأختفى شهرا شهرين لو أحببت!». سلمنى السيجارة وهو ينهض قائلا: «اتفقنا! والآن سأخلص منك رغما عنى! فوراشى سهرة عند صحاب لى هنا! سوف أعرفك عليهم فى وقت قريب!». ولكزنى فى كتفى واتجه إلى الباب. فاتجهت وراءه وخرجنا. فنزلت أنا واستدار هو نحو الشقة المقابلة لشقتى، والتى لم أكن حتى الآن قد احتككت بأحد من زوارها.

السابعة: مغامرة عرب الحصار

لما فكرت طويلا يابوى، تراءى لى أن مكانا وحيدا هو الذى يمكن أن يخفينى عن الأنظار، وفى نفس الوقت يمكن أن أرزق منه. ذلك هو منطقة عرب الحصار. وقلت لنفسى إن الحاج وهدان فيه البركة، وأنا خدمته بكل أمانة، ولم يحصل من جهتى أى شىء يجلب الشك فىّ. قل إنى أخذت بعضى واتكلت على الله على بلدة الودى ومنها إلى نجع صغير قائم فى قلب الصحراء.

مجموعة من الدور تجمعها دار واحدة على مساحة كبيرة تساوى عشرة أفدنة أو أكثر يابوى. دار يلف حولها المرء راكبا جوادًا. لها باب واحد كبير ببوابة حديدية مثبتة فى حجرة كبيرة مربعة فيها مصاطب وكنب بلدى منجد. ولقد يظل المرء جالسا فى هذه الحجرة زمنا طويلا وهو يظن أن هذه هى الدار، لكنه حين يألفها سيبين له باب جانبى فى نهاية الجدار. إن دخله وجد نفسه فى حجرة أخرى لها باب مخفى على هيئة ممر بين جدارين متظاهرين يبدو من بعيد كأنه انكسار فى الجدار. لو مشى فى هذا الممر فبعد مشى طويل يبدأ الزهق يعتريه خوفا من ضيق القبر الذى ينتظرنا فى النهاية. ولو أن أحدا واجهك مقبلا فى هذا الممر

فـلابد أن يستـدير أحدكـما عـائدا ليواصل الآخـر سيـره. ولربما حاولت الاستدارة فيمنعك عرض أكتافك. طوّل بالك وامض، فإنك فى النهاية آيب إلى فضاء من الضوء، وسرعان ما يقبل عليك فناء شاسع جدا كأنه الجرن وهو كـذلك، تطل عليه فراندات وشرفات بأعمدة: غرف وقـاعات تشبه القصور الزاهرة التى يقـولون عليها فى الكتب. يسكنهـا ولد الحـاج وهدان وولد إخوته وأخـواته. وإن مخـك لابد أن يطق ياخال إذا تذكـرت وأنت بين هذه القـصور أن منظرها من الخارج نجع مـبنى بالطين المخلوط بالتبن، إذ إن خلف هذه القـصـور والسـرايات غـرف مبنيـة بالطـين المخلوط بالتبن، يسكنها الخفراء والحـراس وعيالهم ودوابهم. وهم لابد أن يكونوا عبيـدا لهذه العائلة منذ أزمنة بعيدة حـتى يأمن لهم القوم مع إنهم مع ذلك لا يأمنون أحـدا مهمـا أظهروا الثقـة فيـه. ولولا أن الحاج وهدان عرفـنى وعرف حدودى جـيدا مـا تركنى أجىء إلى النجع أبدا، ولاكـتـفـى بمقـابلتى فى دواره فى البـلدة وهو الآخـر دوار معـزول مأمـون الجوانب. من يرى الدوار يظن أن الحـياة قـائمة هاهنا ليل نهـار، فى حـين أن العـائلة تعـيش حيـاتهـا فى النجع ومصـارينها كـلها فى النجع، أمـا الدوار فلاسـتقـبال الضـيوف والزبائن والحكومة فحسب.

كان الله قد أكرمنى فلحقت بالحاج وهدان فى الدوار فى البلدة. أهلا يابو على.. أهلا يـاحاج.. فـينك ياولد. حكيت له ما كـان قـد حـدث لى فى محطـة حلوان. فضـحك حـتى احمـر وجـهه مـثل القوطاية، ومـسح شواربه الكبيرة قـائلا: «لا والله تصرفت زين!

براوه عليك!»، ثم ميل رأسه نحـو باب جانبى وصاح: «الغدا ياولد بسـرعة!»، وعـدل رأسـه نحـوى قائلا: «أنا فى الخـدمـة على كل حـال!». قلت «تشكر ياحـاج أنا الذى فى الخـدمـة! ومن أجل ذلك جئت!». شوح بكفـه الثمينة المليئـة بالشعر وقال: «نتـغدى ويحلها الحلال!»..

استـدارت الطبلية الكبـيرة أمامنا، واسـتقرت فـوقها الصـينية النحاسية العريضة، عليها طبـق من الصينى على هيئة قارب كبير، مملوء لتمه بالأرز المعـمـر بالضأن، لرائحـتـه مهـرجان صـاخب فاضح، وطـبق آخر أكبـر منه عليـه الديك الرومى المكتف تحف به أفـراخ الحمـام المقلية فى السـمن، ناهيك عن سلطانيـة الشـوربة المفعمة بالتقلية، وأطباق السـلاطة الخضراء ترتص فوقها أنصاف الليمون البنزهير المعتبر..

كُل يابو العم، هكذا أوحى لى الحـاج وهدان وهو يشمـر كمـيه وينقض على اللحوم تفسيخـا ورميا فى اتجاه ملعقتى، التى راحت تنتهك جـبال الأرز وهضاب اللحم، حتى تسـمرت فى مطرحى من التخـمة. ثم رفع ذلك وجىء بالبـرتقال والبلح الحـيانى والجـوافة البلدى، وكله من جنائن الحـاج التى تحف بالدوار إلى مالا نـهاية. ثم. ثم جىء ببراد الشـاى الثقيـل صارت معجـنة يابوى. بعد ذلك دخّنا السجائر المكن، ونظر الحـاج وهدان فى ساعة جيبـه الذهبية ذات الكتـينة المربوطة فى عـروة الصديرى ثم نهض واقـفا وأقـام الصلاة فعرفـت أنه يصلى العصر، وأنه يستبطىء ويستـخير الله ويستفتى قلبه فيما إذا كان وراء قدومى المفاجىء من أسرار خفية

يدعو الله أن يكشفها له أو ينير بصيرته فى الخلاص منها. صلى على مهل شديد وفى تؤدة كأنه يقرأ القرآن كله فى ركعتين اثنتين وبعد التسليم أمضى وقتا طويلا فى تسبيح وتهجد، أخيرا صاح مناديا: «ياولد!»، ومسح على وجهه بكفيه كان كلمة ياولد كانت من كلمات الختام.

دخل عبد صبى لونه كالفخار المحروق وليس له ملامح على الإطلاق سوى عينين ككرتين من الضوء تدوران فى كل اتجاه بسرعة مذهلة. وقف أمام سيده خاشعا ، أخرج الحاج وهدان ساعته ونظر فيها مرة أخرى وقال للعبد مشيرا نحوى بيده: «خذ هذا الرجل ودّيه النجع». ونظر نحوى رافعا كفه يستحثنى. فقمت واقفا فى الحال دون أن أسأل عما سأفعله أو سيفعل بى فى النجع. سلمت على الحاج وهدان وشكرته، ثم تبعت العبد كعبد له. فمضى بى فى دهليز طويل حتى وصلنا إلى الزريبة الكبيرة، فوجدنا على بابها عبدا آخر فى حوالى الخمسين من عمره لكن لوجهه ملامح وتجاعيد. قال له العبد الشاب: «هيك الرجل يروح النجع! عميقول سيدك!».

وجه العبد الكبير سمح يابوى، وباسم العينين، والطيبة تتدفق منهما وتسيل على خديه غير أنها طيبة شقية زاعقة الشقاوة. نظر فى وجهى قائلا: «تعرف تركب الخيل؟!» قلت: «نص! نص!»، مع أننى لم أكن من ركاب الخيل يابوى. قال بنفس الطيبة الشقية: «تتعلم غصبا عنك! حتى لو لم تكن ركبت ستركب! على كل حال سأعطيك مهرا هادىء الطبع! هاك هو!»، وأشار داخل الزريبة إلى

مهر مهيب أبلق جميل الشكل، يقف بين عشرات من الجياد العربية الأصيلة منظرها مرعب ياخال. أول ما وقع بصرى عليها رأيت الحروب الصليبية فى فيلم صلاح الدين الذى رأيته مرة فى سينما الكواكب بصحبة هندى وبربش، وخيل لى أن الفرسان الذى احتلونا قد هجعوا الآن فى مكان ما، يستريحون بعدما ضمنوا الأمان. ولما عدلت وقفتى رأيت صف الجياد المربوطة أمام المذاود يمتد على مشارف البصر، ليبدأ صف طويل من الحمير والأبقار والجاموس فى مقابلها حظيرة موازية عرفت من منظرها ومن رائحتها أنها مراح للأغنام التى ترعى قطعانها الآن فى الحقول.

قال العبد المسن الذى عرفت أن اسمه سعدون «ادخل وحل المهُر! واحذر أن يرفسك وإلا كنت أبغل منه! تعلم من الآن أن تفعل بنفسك ما تريده وما يطلب منك! كل إنسان هنا على ركبة جمله! يعنى أنت مسئول عن نفسك! وعلى كل حال تعال ورائى وانظر كيف أفك الجواد من مربطه! وكيف أسوسه حتى يستكن ويدخل فى طوعى!». وكنا قد صرنا بجوار البغل، فجعل هو يفك الجواد بصنعة وحرفنة، ويطبطب على ظهره كما يفعل المحب العاشق لمحبوبه. ثم إنه سحبه ومضى. فجعلت أفعل مثلما فعل، وأغدق على البغل من الحنان ما كنت فى حاجة إليه من غيرى. ولم أكن أعرف أن البغل غير الجواد لا تفت فى عضده مثل هذه العواطف الكاذبة الجيشان. إلا أنه مضى ورائى فى طواعية مدهشة.

تبعت العبد وجواده حتى خرجنا من الباب الخلفى للدوار، فإذا بنا على الطريق المتاخم للصحراء. وحينئذ توقف العبد برهة، ثم

قفز معتليا ظهر الجواد. وكان لابد أن أفعل مثله.. طب ما رأيك ياخال أنى فعلت مثله بالضبط كانى من ركاب الخيل الأصلاء؟!..

كان جواد العبد يمضى متبخرًا فى سيره، وكنت بالبغل أدبُ خلفه. ولم يكن فى الكون كله سوى الرمال على الجانبين، والشمس فى السماء، ووقع الحوافر. وقد طال بنا المسير ياخال، حتى احمر وجه الشمس واحترق واسود الأفق شيئا فشيئا، صرنا نحن والرمال بقايا زغب تحت صخرة هائلة من الفحم لا نهاية لمسيرنا فوقها وعند طلوع الفجر لاح النجع فى البعيد كوشم على ظاهر الأفق. ثم صار يتسع ويتسع حتى صرنا قطرة صغيرة فى بحره. كنا نقبل على جدران صماء، لا شبابيك فيها ولا أبواب. لكنا حين توقفنا عند جدار معين تبين لى فراغ غير مرئى على البعد، بين جدارين متظاهرين يبدوان على البعد متلاصقين. حودنا فى الفراغ بين الجدارين وسرنا مسافة أمتار، لنجد بابا خشبيا كبيرا مغلقا. ما اقترب وقع حوافر الجواد منه حتى وورب من تلقاء نفسه وأطل منه وجه عبد كالبطيخة النمس، وقال: «خيرا يأسعدون؟» فقال العبد: «خذ هذا الرجل ضمه إلى الجمال!»، وأشار لى مشوحا كانه يدفعنى للدخول. فلما فتح الباب تماما ترجلت ساحبا البغل إلى الداخل، ومن ورائى العبد بجواده..

فناء الدار واسع تطل عليه بعض الغرف، وحيطان السرايات الملونة تبدو من خلفها متخفية تحت فروع الأشجار وأحمال القش والحطب. جاء صاحب الدار فاقتاد البغل والجواد إلى زريبة

صغيرة قال العبد سعدون: «ضع لهما طعاما يامهران!». قال صاحب الدار: «خير ربنا كثيرا»، وأغلق عليهما باب الزريبة، واختفى قليلا من الوقت، فيما جلسنا على مصطبة فى الفناء. عاد مهران فجلس معنا مرحبا، وسرعان ما تصاعد الدخان من فرن الدار. بعدها بقليل امتدت الطبلية أمامنا وجىء بالفطير الذرة سايح ونايح، والقشدة الساخنة تطشطش فوق خدوده الوردية. ما كل هذا العز يابوى؟! كُل يابو العم واغمس الفطير المدهون بالقشدة الساخنة بقشدة صابحة وعسل نحل وجبن قريش. وبعد شرب الشاى نهض سعدون واقفا فطلب الجواد والبغل. سحبهما وخرج،. فامتطى الجواد واحتفظ بمقود البغل فى يسراه وأمسك مقود الجواد بيمناه. ومضى ساحبا البغل خلفه. فلما اختفى منظره فى البعد مال مهران نحوى قائلا: «جئت فى وقتك! اتبعنى!».

فتبعته. فمضى مسافة كبيرة حول النجع، ثم دخل فى فراغ آخر كالذى دخلنا منه قبلا. دخلت وراءه ياخال، فإذا بنا فى مواجهة باب كبير مفتوح عن آخره، وقد وقف أمامه ودخله عشرات من الرجال الأشداء الصلاب، على رءوسهم العمامة الجيزاوية المنعكشة خفيفة الدم. إن هى إلا برهة قصيرة صار الرجال بعدها يخرجون راكبين الجمال. غاب مهران فى الداخل قليلا، وعاد ساحبا جملا، عالجه حتى برك على الأرض. قال: اركب. ركبت وأنهضت الجمل فنهض، ومهران يتأملنى جيدا ليرى ماذا سيحدث لى حين ينهض الجمل رافعا خلفيته. فلما اطمأن إلى أنى ركيب جمال، طبطب على الجمل قائلا: بالسلامة. فتبعت الرجال.

صرنا كفلول ضالة فى قلب الصحراء، لا فرق بين لوننا جميعا ولون الصحراء المترامية بغير حدود يابوى. ما أوسع ملك الله حقا ياخال. يتقدمنا دليلان محترمان يركبان بغلين فارهين، وما على الجمال إلا أن تتسرب خلفهما خطوة بخطوة وإلا غاصت أقدامها فى الرمال. كانت الشمس كالبيضة المفقوسة يسيل صفارها من قرص عسلى متجمد فى جانب من السماء. أخذ الصفار يبيض ويبيض، والقرص يصير فى لون الرغيف الطالع من الفرن، يواجهنا تارة ويجانبنا تارة أخرى ويقف فوق رءوسنا تارة ثالثة ثم يسقط خلف ظهورنا، والعرق يتصبب منا غزيرا على أكتاف الجمال. إلى أن لاح لنا فى الأفق البعيد كتل من الظل الرمادى كصخور ثابتة فى قلب الأرض. جعلنا نقترب منها، فإذا هى جمال باركة وحولها رجال باركون وواقفون وممددون. كان بينهم من يغنى يابوى، أى والله، يضرب بالموال الحزاينى الفرايحى معا، فأينما تواجد الصعيدى، وجب الغناء، وحيثما غنى تجمهر الحزن والفرح معا.

إلى جوارهم توقف ركبنا، بركت جمالنا فنزلنا وجلسنا مع الجالسين. وأنا كالأهبل فى الزفة لاعلم لى بما سيجرى بعد ذلك، هى سيجارة واحدة دخنتها يابوى، وفعلت مثلما يفعل الناس فى خلاء بعيد، إلا وأزيز يقترب فى السماء ويقترب ثم يزداد اقترابا، ومع اقترابه رأيت الجمع ينهضون واقفين وتحدث بينهم حركة استعداد وتأهب. نظرت فى السماء فإذا بطائرة

«هالوكوبتر» زعراء كسمكة موسى ذات بطن ضخمة هائلة وزعانف مشرعة وذيل دقيق، أخذت تهبط شيئا فشيئا حتى استقرت على الأرض، أى والله يابوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب. فلما استقرت على الأرض الرملية الصلبة التى بان لى أنها معدة لها من زمن مضى، انفتح بابها ونزل منها أفندى هضيم الوجه غليظ الشفتين متهدل الشعر على الجبين العريض الشاهق البياض، مع حواجب ثقيلة وعينين سوداوين فى وجه مستطيل يبدو مع ذلك جميلا. كان يبدو كالأجانب الخواجات لكن الصياعة الكبيرة تطل من عينيه وشفتيه، مالبث أن صاح بلهجة شامية فيها بلطجة مصرية كبيرة يابوى: «سا الخير ياجدعان!» فردوا جميعا كأنهم فى الصلاة وراء الإمام: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته!».

برهة ونزل من الطائرة أفندى آخر أصغر منه لكنه أجمل بكثير ويبدو أنه ابن ناس. نظر فى جمعنا نظرة متفحصة فيها كثير من الود وقليل من الشك والخوف والتشاؤم. وقف برهة فأشار له الأفندى الهضيم الوجه برأسه، فعاد الشاب إلى داخل الطائرة ثم ظهر ساحبا جوالا. وضعه على العتبة وغاب فى الداخل. قرأ عليه الأفندى الهضيم الوجه كلاما ثم صاح: «المعلم دياب مذكور!» وكرر الاسم بصوت أعلى. فانشق الزحام عن رجل جاء يهرول صائحا «أيوه». فلما صار أمام الطائرة تسلم الجوال، وسلم للأفندى مظروفا منتفخا بالأموال فتحه الأفندى وعد أوراقه

بسرعة ثم دسه فى عبه، ووضع يده على جوال آخر وصاح مناديا: «المعلم فادى الحمادى!».

توالت نداءاته بين كل جوالين أو جوالين وربما ثلاثة، وهو يسلم ويقبض، والرجال تحمل على الجمال وتربط إلى أن جاء دور الحاج وهدان، فتقدم الاثنان اللذان كانا على الجوادين، وتسلمنا - لدهشتى - أربعين جوالا!! ولقد عجبت والله ياخال كيف اتسعت هذه الطائرة لكل هذه الجوالات، كما عجبت بغير حدود من الطائرة نفسها يابوى: من أين جاءت ومن هو صاحبها ولحساب من تعمل؟ ومن أى جنس أو ملة؟غير أنى - تحلف اليمين ياخال - لم أعرف حتى الآن. وقد زعم آخر أنها لبنانية، وثالث أنها تبع الاستنزاف، ورابع أنها قادمة من السماء نفسها شخصيا. فضحكنا فى عبنا ومضينا إلى النجع، حيث سلمنا الجمال بحمولاتها لراكبى الجوادين ودخلنا دار مهران. ولم نعرف أين ذهب راكبا الجوادين بالجمال المحملة بعشرات الجوالات بصنوف من الماركات الغريبة، مثل ماركة: أنت عمرى وماركة: هذه ليلتى، وماركة المشير وماركة الأطلال، وأشياء يطير لها المخ يابوى. تحلف اليمين يابوى أن قد أصابنى خبل، فلقد لمحت وجهى راكبى الجوادين، فراعنى أنهما نسخة طبق الأصل من وجه رجل رأيته كثيرا فى قعدات الحاج السنى، كأنهما هو،ولو لم يكونا اثنين لألقيت بنفسى فى حضنه متأكدا أنه هو. ولما كنت متأكدا أن الإنسان لا يمكن أن يشطر نفسه نسختين فإنى قد تمحولت فى

الأمر بل فى صحة عقلى، وألقيت بثقلى على كتفى المثل القائل: يخلق من الشبه أربعين.. مع ثقتى التامة فى أن شبها من الأربعين شبه لا يمكن أن يكون مطابقا إلى هذا الحد يابوى.

قل إنى طرمخت على الأمر كله. فأبى رحمه الله كان دائم القول لنفسه وللناس: طرمخ تعش. قول لم أفهم معناه على الحقيقة إلا بعد أن أعيتنى الحيل يابوى، وأيأستنى التجارب، حتى تأكد لى أن لسان المرء هو قائده، فإذا لم يجد فى الأعماق حلوا يغترفه للسامعين فليبقه معلقا فى سقف حلقه. هذا افضل شىء له ولك، وإلا فلسانك سوف يغترف من جوفك مصائب يرمى بها فوق رأسك أينما ذهبت فاحذر لسانك ياخال، إنه حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك.

وهذا ما فعلته يابوى. قضيت فى النجع بدلا من الشهر شهورا لا أذكر عددها، بل قل دهورا، فيها الفلوس كانت تجرى بين يدى كريق العسل لا تخلص أصابعى من آثاره بسهولة، حتى أنى والله ياخال كنت أدخرها فى بلاليص من الفخار مما يعد لتخزين السمن، مدهون جوفها بصفار البيض فكأنه الموزايكو الذى يقولون عليه فى المدينة. زلعة لخمسات الجنيهات وأخرى للعشرات وثالثة للخمسينات ورابعة للمئات، هكذا رأيتهم جميعا يفعلون فى النجع. والواحد منهم يفعل هذا أمامك وأمام الآخرين.

كنت نازلا فى خن صغير، كان معدا للدجاج والأرانب فى حنية مخفية فى مؤخرة النجع المطلة على الصحراء التى بلا نهاية، آثار

خراء الدجاج والأرنب لاتزال باقية على طزاجتها كان سكانه السابقين سيعودون بعد قليل لمشاركتي المبيت فيه. أخشى ما كنت أخشاه أن يلبد ثعبان من ثعابين الصحراء في جنة هذه الرائحة الشهية. فرشت مسحوق الشيح في كل بقعة فيه، ونظفته آخر نظافة. ولكني لاحظت أن الجدار الذي تستند عليه هذه العشة الكبيرة جدار من الأسمنت المسلح.. ففهمت يابوي أني لصق قصر من القصور مباشرة لاحظت كذلك يابوي وجود باب متين موجود في الحائط الأيسر للداخل، وآخر مثله في الحائط الأيمن. معنى الكلام أني محاط بجدار من الأسمنت وبابين لا يتناسب منظرهما مع عشة الدجاج والأرانب، إنما هي إلى أبواب حجرات القصور أقرب، إذ هي من خشب زان متقن الصنع حابك ومغلق من الداخل. الذي جاء في بالي أنهما يفضيان إلى مخازن لألبان الأبقار وسمنها وأجبانها، إذ أن رائحة كل ذلك كانت تتصاعد من تخوم هذين البابين بشكل حارق ومتواصل، مما يؤكد أن ثمة أبوابا أخرى في الداخل يدخلون منها لتزويد الخزين.

في مبتدأ نزولي في هذا النزل رمى لي مهران بحصيرة قديمة وبطانية نصف قديمة ومخدة محشوة بقش الكراسي أظنها شلتة مقعد سيارة قديمة. استقضيت فوق ذلك قلة ماء وزيرا أملؤه من فناطيس المياه التي تجيء بها السيارات إلى النجع كل يوم إضافة إلى القرب والبلاليص التي تحملها البغال والحمير كل لحظة من أماكن مجهولة، وأغلب الظن أن هذه السيارات والفناطيس وهذه القرب تقوم بغرض آخر غير المياه لأن العاملين عليها يرغدون في

العيش، عرفت هذا من منظر قربة يحملها أحدهم والمفروض أنها أفرغت من المياه وكان واضحا مع ذلك أنها ثقيلة والرجل ينعوج تحت ثقلها.

كنت ممَدَّبًا حين حددت لنفسي مهلة شهر ياخال. كان يجب أن أعمل حساب هذه الورطة التي نزلتها بقدمي، وبات الخروج منها كخلع الضرس. فلو أردت الرحيل عن هنا فلابد أن أقابل الحاج وهدان شخصياواستسمحه في الرحيل. غير أني منذ جئت إلى هنا لم أر الحاج وهدان ولم يرني، إذ إن كل شيء هاهنا يتم وحده، والريس مهران يسلمني أربع أو خمس أقات من الحشيش أوصلها لناس في نجوع بعيدة وأجيء بثمنها مربوطا في حزام حول وسطي، أو لناس في بلدان مجاورة كميت رهينة والبدرشين وغيرها. أذهب على هيئة بائع سريح يحمل «جنبة» سمك أوقفص مانجو تحته قفص آخر مليء بالورق علامة أني بعت محتوياته، في حين يقع الحشيش في قعره.

كل بضع جُمَع نقوم بنفس الرحلة إلى حيث تهبط الطائرة لنعود بكميات من التموين تنتهي صلتنا بها بمجرد وصول القافلة إلى حدود النجع، ليتولى الرجلان الشبيهان دفنها في مخازن لا يعرفها غيرهما. وكل مشوار له ثمنه، خلاف الكيف والمزاج، الذي يأتينا بغير حساب. فكل واحد فينا يطلب من أخيه حجرين يعطيه ربع أوقية. أما الأكل فقد يتم جماعة في نزل مهران أو غيره، وقد يجيء الأكل لمن لم يحضر ولمن يطلبه في نزله. خرفان تذبح

وعجول وطيور تربيها نسوان الخفراء وتبيعها لمن يطلبها منا بتراب الفلوس. وكنت أخشى أن ألح فى طلب الحاج وهدان حتى لا يضيق أو يضيقوا بى ياخال. ولم أكن أجرؤ على الذهاب إليه فى الدوار حتى لا يغضب منى أو يشك فى. وكانت الظروف قد خدمتنى مرتين ثلاثة فى مشاوير إلى الدوار. وفى المرات الثلاث لم أجد الحاج وهدان هناك. فلما نكش القلق فى دماغى حول موضوع الشقة والمعلم شندويلى دبرت للزيارة. فبعد أن أوصلت طلبا قريبا من بر الجيزة قلت ما من بد، وركبت الأوتوبيس النهرى، فصرت بعد دقائق فى قهوة المعلم شندويلى فى مصر عتيقة.

* * *

كان المعلم شندويلى منحنيا على النصبة يصب الشاى فى الأكواب، حين زحف على الأكواب ظل أزعر خشن. فرفع رأسه فرأى أمامه شخصا شقيا بينه وبين المتسولين درجة قصيرة: القشف على قفاه كالصدأ كصبغة الدخان على واجهات أفران الحمامات، يلبس جلبابا من الصوف المتهرىء أكل عليه الدهر وشرب، ويبدو كان أحدا أحسن به عليه، حافى القدمين وذلك الشقى لم يكن سواى.

وضع المعلم شندويلى كفه على عينيه كالتندة. وأمعن النظر فى شخصى جيدا، وهو لا يصدق أنى ظهرت أخيرا على هذا المنظر، كان منظرى فعلا كالخارج لتوه من السجن. ثم إن المعلم شندويلى

تذكرنى، فبان عليه الأسف الشديد وصاح فى جدعنة: «حسن أبو ضب؟!ما معقول!!» وطلع عن حدود النصبة وأخذنى بالحضن وصار يطبطب على ظهرى قائلا: «قلبى عندك يابو على! إيش أحوالك؟!». قلت: «كما ترى! لقد طلعت رجلا بحق كما طلبت منى! ولو قلت لى إرم نفسك فى البحر لفعلت!». تبسم فى فرح وهو يجلسنى: «أعرف يابو على! أعرف! وعشمى فيك كبير!». قلت: «كسبنا صلاة النبى!». وضع كفه على ركبتى قائلا فى نبرة اعتذار:

ـ «لا تؤاخذنى يابو العم! لم أعرف أين كنت وإلا جئت لزيارتك! سألت عنك فى الحجز فقيل لى إنك رحلت إلى المديرية! وأخيرا بلغنى أنك فى سجن القلعة! هذا الخبر وصلنى يادوبك من يومين اثنين! جاءنى به واحد أعرفه! له يد كبيرة فى الحكومة! وكنت أدبر لزيارتك قبل دخولك الآن ببرهة قصيرة! ياه! القلوب عند بعضها حقا! إيش أحوالك؟!».

نهض واقفا متجها إلى النصبة، فصب لى (واحد شاى) على بوستة ثقيل، ونزع من خلف أذنه ورقة أفيون تساوى عشرة جنيهات، رمى بها فى حجرى قائلا: «روق مزاجك!». ثم مد يده تحت النصبة فسحب شيشة مخصوصة لها رنة عالية سالكة. قربها نحوى. سحب خشبة مرصوص عليها عشرون حجرا مملوءة بالمعسل. نزع قطعة حشيش هبو كان يلصقها فى حرف الرخامة من أسفل. جعل يوقع منها فوق الحجارة. وضع الخشبة

كلها تحت النصبة. سحب من الوجاق قطعة نار صاحية، فقشها على الرخامة وعبأها في المصفاة. ويازين صلي. مني له، صد رد، والروقان يزحف على بالي. لكن كلاكيع القلق واقفة خلف دماغي تريد أن تذوب وتنحل قبل أن أشوف مزاجي جيدا. ثم إني لست الآن ملك نفسي، ولابد من رجوعي للنجع قبل حلول الظلام، بواسطة بغل سينتظرني به سعدون عند نهاية الطريق الخارج من البلدة إلى مشارف الصحراء. هي خدمة يبلعها بمزاجه، إذ أن وظيفته توصيلي وتوصيل أي واحد كان في مشوار ببضاعة خارج حدود البلدة. وهو يعرف أن حامل البضاعة ربما يقع في ظروف غير مواتية تؤخره قليلا أو كثيرا، لكنه يعرف كذلك أن الواحد منا لابد أن ينتهز الفرصة ويتلكع في الطريق يشبع من الناس ويشترى ما يشاء من أشياء. إني واثق أنه سوف ينتظروني، ولكن الظلام إذا دخل قبل وصولي إليه ستحدث المصيبة، سيبلغ سيده في الحال بعدم وصول القوات إلى قواعدها سالمة، أو قد يتهور فيبلغه أن العدو قد أصابنا في المال والعتاد. إن عدت أنا بعد وصول خبر من ذلك إلى الحاج وهدان فإن الشك لابد أن يعصف بهدوئه وأنا لا قدرة لي على مناطحة السحاب ياخال.

لكن المعلم شندويلي صهلل، وغير الخشبة بخشبات وكان في استمتاع كبير قد راح يحكي لي كيف بلغه خبر الشكلة التي تشاكلتها مع غرمائه المواميس في العمارة:

بدا أنه يعرف رجلا متصلا بالحكومة من سكان هذه المنطقة له افضال كثيرة على أهل الحتة، يفرج عن مساجينهم ويثبت أقدام أبنائهم في محاضر الشرطة. وهو - بيني وبينه - يحب هذا الرجل، لكنه - الرجل - لا يجلس في المقهى. إلا أن هذا الرجل مر عليه في المقهى على غير انتظار، مما جعل المعلم شندويلي يتوجس ويلعب الفأر في عبه. قابله بترحاب وقام معه بالواجب، فإذا به يهمس له: «هناك خبر لن يسرك!» ثم قال: «هناك ولد شمحطي! صعيدي بلطجي! دخل عمارتك واحتك بسيدتين من سكانها وانهال عليهما ضربا وتشليتا وتمزيقا حتى أحدث بهما عاهات مستديمة ونقلتهما عربة الإسعاف إلى المستشفى بين الحياة والموت! إذ إن الولد ضربهما بمطواة قرن غزال! واحدة في بطنها والأخرى في ثديها! وأما الولد فقد قبضوا عليه وسيق إلى قسم الشرطة فقال في المحضر إنه ضربهما انتقاما لرجولته المهانة حيث شتمته إحداهن قائلة له: ياخول! وشتمته الأخرى قائلة له: ياعلق!ولما ذهبت الشرطة للسيدتين في المستشفى ذكرتا في المحضر أن هذا الولد من طرفك! وأنك حرضته عليهما واكتريته لقتلهما لخلاف قديم بينك وبينهما! وعند الرجوع للولد وسؤاله ما الذي أدخله العمارةمن الأصل؟! أدلى في أقواله أنه يسكن في العمارة وليس يمت إليك بصلة قربي! الحقيقة أنه ذكر في كلامه كلاما كثيرا في صفك يبعد عنك الشبهة! وأنا بالصدفة أعرف هذا الولد معرفة سطحية! ولكني لما رأيت اسمك واردا في المحضر -

وأنت رجل يعز علىّ ـ قرأت المحضر وفليته حتى أطمئن على موقفك! فهل الولد يسكن عندك حقا؟!»..

وهنا غمزه شندويلى بالورقة أم عشرة جنيهات قائلا: «دبرنى أنت فى هذه المصيبة! أنا لم أحرض أحدا!» فقال له الرجل ـ الذى هو بسبوسة كما أعرف:

ـ «نصيحتى أن تختفى بضعة أسابيع عن الأنظار، لأن النيابة تطلبك للتحقيق! سيجىء المخبرون لاستدراجك لسراى النيابة! فإن كنت تحب أن أتفاهم لك معهم فإنى أمنعهم من المجىء إليك! وأما عن أمر هذا الولد فإن كان ساكنا عندك حقا فإنك يجب أن تكافئه على شهامته! وأما إن كان يكذب فى مسألة السكن عندك هذه فإن موقفه وموقفك سيكونان فى منتهى الصعوبة! ستعامله النيابة على أنه ولد بلطجى مأجور مدفوع للاحتكاك بالسكان! لو ظهر كذبه يصعب موقفك! ولو اتضح أنه يقيم فى الشقة فقط مجرد إقامة فهو إذن من طرفك وهذا يجعل النيابة تصدق أنك حرضته!!»..

فقال شندويلى على الفور:

ـ «الحقيقة أن هذا الولد ساكن عندى بالفعل وليس لى أى فضل عليه حتى يجاملنى! بالعكس لقد أخذت منه خلو رجل أضعاف ما كان سيدفعه غيره!».

فقال الرجل: «ولكن النيابة طالبته بتقديم عقد إيجار أو آخر إيصال فلم يجد معه أى ورقة تثبت شخصيته سوى بصمته!

فأعطوه أربعين يوما استمرار حبس لأن تلك المضروبة فى بطنها على وشك الموت!»..

فعض المعلم شندويلى على شفتيه: «الحقيقة أنى لم أكن كتبت له عقدا! ولم أعطه وصلا! فالثقة بيننا متبادلة! لأنه من أسرة طيبة أعرفها!»..

سارع الرجل قائلا: «عليك إذن أن تنجيه من وحلته! على الأقل لتخفيف الحكم عنه! اكتب له العقد وإيصال الإيجار وأرسله له! وإن كنت تستطيع مساعدته فى السر يكون لك الأجر والثواب! وأنا فى خدمتك إن أردت أن توصل له شيئا فى سجن الاستئناف»..

قال المعلم شندويلى: «غدا تشرفنى بشرب فنجان قهوة معى فى الصباح أو فى العصارى فأعطيك عقد الإيجار وإيصال آخر شهر! وسيكون العقد بتاريخ استلامه الشقة! ولو فيها رزالة سأعطيك بعض المأكولات والمشروبات توصلها له! إنه ولد فى النهاية محتاج للعطف! وبخصوص المخبرين فهاك ثلاثون جنيها وزعها عليهم ولا تدع أحدهم يرينى وجهه أبدا لأن منظرهم عدم المؤاخذة شؤم ولست أحب الفضيحة! ضرب ما ضربت وانتقام ما انتقمت ولا ينوبنى سوى الفضيحة والبهدلة؟ هؤلاء سكان مع بعضهم لا شأن لى بعراكهم! فليحرقوا بعضهم بعضا!!».

قال الرجل مشيرا إلى عينيه: «من ذى! ومن ذى!»..

وفى عصر اليوم التالى مر عليه الرجل بالفعل، وأخذ منه عقد الإيجار والإيصال، وخرطوشتين من السجائر، وباكو شاى وخمسة كيلو سكر وثلاثة كيلو كباب ونصف أوقية حشيش.

وأنهى المعلم شندويلى حديثه قائلا: لعلك تكون مبسوطا ياعم! وتكون هذه الأشياء قد وصلتك!».

قلت مفتعلا التذكر والأسف: «آ..ه! هذا إذن هو الرجل الذى سأل عنى فى سجن الاستئناف! لقد أخبرنى زملائى المساجين! أصل الحكاية أنى قمت بأعمال شغب كثيرة فنقلونى إلى طرة! ومن طرة إلى بنى سويف! وفى بنى سويف تعرفت على حارس من الحراس يقرب لوالدتى! يحبنى ويثق فىّ! وطول الليل يبكى من أجلى ويوصى بى زملاءه فى الورديات! وقد علم أنى مساق إلى الجلسة غدا صباحا! فدبر خطة لتسريبى من السجن متنكرا! وجاء بى إلى هنا لكى أقابلك لآخذ العقد والوصل لأعرضهما على القاضى غدا!! والعسكرى يقف الآن بعيدا بلباسه المدنى حتى لا يلفت النظر! فى انتظار أن أعود إليه لنقفل عائدين إلى السجن قبل ساعة التتميم!»..

قال المعلم شندويلى والدموع تترقرق فى عينيه: ادعه يشرب القهوة ونعطيه حسنة!» قلت وأنا أنهض واقفا: «لا: لابد من الانصراف الآن! ولكن ماذا سأفعل فى هذه الورطة وأنا لا أعرف أين مكان هذا الرجل؟!»..

ويبدو ياخال أنى أتقنت الدور، إذا بى أنفجر باكيا بحرقة، وإذا بالمعلم شندويلى يتأثر جدا، ويشرد مفكرا لبرهة قصيرة ثم يصيح مبتهجا: «هو إذن لم يصلك ولم توقع عليه! تاهت

ولقيناها!»، وصاح «ياولد ياعوف! اشتر لنا عقد إيجار ودفتر وصولات!»..

راح قلبى يرقص من الفرح والطرب حين جاء الولد بالعقد مطبوعا من الدكان. وراح شندويلى بالقلم الجاف يملأ البيانات، وأضاف إليه شاهدين من صبيانه، وحرره بتاريخ استلامى للشقة، وحرر إيصالا بآخر شهر، ووقع بإمضائه العاجز وبصم. فعلت مثله، وطويت الورق فى جيبى وحضنت المعلم شندويلى وبكيت مرة أخرى فبكى هو الآخر. ثم إنى تركته واندفعت نحو الخلاء مهرولا، ومنه إلى محطة الأتوبيس النهرى. ووقفت برهة نظرت فيها إلى العمارة كأنى أطمئن على شقتى فيها. وكانت صورة بسبوسة فى دماغى تنظر لى فى شقاوة جهنمية. وكنت ابتسم فى جذل حقيقى وأقول لصورته: والله يابسبوسة إنك لتستحق ألفا من الجنيهات، أنت رجل بحق ويجب أن أحبك، لتكن ما تكون فأنت اليوم أصدق أصدقائى وأجدعهم، رح إلهى ربنا يفتحها فى وجهك أيها الولد.

وقفزت إلى بر الجيزة لأدرك سعدون بعربة التاكسى والشمس النازل بعد حمراء الخدود من فرط الخجل قبل أن تحتويها نهائيا عباءة الفجر الرمادية.

* * *

نشوتى كانت فوق الوصف يابوى، تحلف اليمين تقول إنى شارب عشر زجاجات من ذلك المسمى بالويسكى، رغم أنى لم

أشربه طول عمرى يابوى. من فرط الشعور بالنشوة والفرح عرفت أن النوم سيخاصمنى. فالنوم لا يخاصمنا يابوى إلا عند الفرح أو قلق الحزن استقضيت جوزة هند برفاص، وعشرة حجارة، وباكو معسل قص. وبعد أن رقعت العشوة المعتبرة مع رجال النجع أتينا فيها على خروفين مشويين مسروقين من راع ضال، أمسيتهم بالخير واتكلت على الله إلى حجرتى ـ عشتى. فاغلقتها على نفسى وتربعت في ضوء اللمبة نمرة خمسة. جعلت أشعل النار وأرص الحجارة، وصهد الأفيونة يسوى دماغى على نار هادئة. حجر فالثانى فالثالث شعللت ركية النار فى دماغى وتحت كوز الشاى، فانبعثت موسيقى الغليان تسكرنى.

فيما أنظف الحجارة للمرة الثالثة مع كوب الشاى بدأت عينى ترى الحجرة وتتجول بين جدرانها. كنت مرتكنا للحائط المسلح ووجهى فى اتجاه باب العشة المطل على الصحراء. تلكات عينى على الباب المجاور لى على اليمين وقد تصاعدت منه روائح اللبن الحليب الطازج والقشدة والسمن المقدوح بشكل زاعق. وكان ثمة حركة وكركبة تجىء من وراء الباب، الذى أذهلنى أنه كان شبه موارب، وخط من الضوء واقف بين خشب الباب وحائطه.. فانذعر قلبى يابوى. خفت. بقيت أرتعش فى قعدتى، وقد تشبث بصرى بالباب مركزا على خط الضوء. راعنى أن خيالا من الظل كان يحجبه لبرهة مصحوبة بحركة خلف الباب مباشرة، مع صوت اندلاق اللبن من طاجن إلى طاجن،وصوت أوان تتقارع. فإذا بى ـ

رغما عنى والله ياخال ـ أتنحنح. ففى الحال اتسعت وربة الباب وأطل منه وجه جنية تبارك الخلاق فيما خلق. عينان واسعتان ساحرتان، تنفرجان وسط جدائل شعر أسود منطرح. من فتحتى العينين ينزل خدان كحبتى المشمش الطايب يسيل عنهما خيالان على هيئة صدغين ينتهيان بذقن صغير عليه طابع الحسن، فكأن وجهها رسم فى الهواء. وكانت عليه ابتسامة كأنها اعتذار، وفى عينيها نظرة تستهين بكل شىء، شالتنى وحطتنى فى قعدتى عدة مرات. أما أنا فظللت مسمرا فى مكانى ياخال. جعلت أقرأ الفاتحة فى سرى لعلها تصرف عنى هذه الجنية المخيفة أو تقوينى عليها. قلت لنفسى: لعلها تهيؤات السطل والأفيون وكبسة الضأن المسروق، لكن الجنية أبت إلا أن ترينى الفرق بين الحقيقة والخيال. إذا بيدها البضة العارية تخرج من الفتحة عن ذراع مملوء لمنتصفه بالأساور الذهبية على المعصم. وإذا بهذه اليد تشير لى أن تعال، إشارة آمرة، تعال يعنى تعال. لكن من ذا الذى يجىء؟ عرص من يتحرك من مكانه يابوى. من أين لى بقوة تحركنى يابوى؟ وإذا بصوتها يطلع رنانا كشخللة الذهب: «قم! تعال لا تخف!». فقمت فى الحال منتفضا، أعض على شفتى وأقرص نفسى لأتأكد من صحوى. خطوة ونصف خطوة صرت واقفا أمامها خاشعًا أنتفض. قلبتنى بنظرة باسمة: «ياعينى على الرجال!» ضحكت. نظرت فى فتحة الباب من ورائها. رأيت حاصلا لجمع الألبان يمتد إلى بعيد جدا، ويمتلىء بالطواجن والأناجر والبرنيات والبلاليص. قالت فيما يشبه الاحتقار: «إنت! بتعمل إيه

هنا؟!». قلت: «الريس مهران أسكنني هنا!». هزت رأسها وزامت، ثم دفعتني أمامها وخرجت ساحبة الباب خلفها..

الغزال الأعظم يقف الآن أمامي في قلب حجرتي، ترتدي قميصا من النايلون رهيفا لا يستر أي شيء في جسمها الوردي، معلقا بحمالتين كالحبلين في كتفيها، ومن فوق قميص مفتوح كالعباءة من نفس اللون. تحرك الفخذ السمهري قليلا حتى الحصيرة. هوت عليها متربعة رفعت بصرها الساحر نحوي آمرة: «اقعد!». فقعدت متربعا قبالتها. قالت: «رص لنا حجرين!!». قلت «حاضر!». وجعلت بكل حماس أصحي النار وأرص الحجارة. قدمت لها البوصة فشدت النفس فشر أجدع حشاش في البر كله. سحب الدخان تندفع من منخريها. قلت: «ماشاء الله! واحد آخر!» ولحقتها بآخر، وثالث، ورابع، حتى شربت وحدها عشرة حجارة، وبشهية فائقة، وأنا أمخمخ لها الحجر بالماشة، وأضع زنبة إضافية فوق النار، وهي تشرب، حتى اتسعت عيونها أكثر، ونشعت الحمرة في بحيرة العينين، وقالت وهي تزيح البوصة: «إحك لي حكايتك!»..

فبصوت هامس حكيت لها حكايتي. فحكت لي حكايتها هي الأخرى:

هي بنت أخت الحاج وهدان شخصيا، وزوجة ابن أخته أيضا ـ أي ابن خالتها. كانت عروسا طازجة لم يمض على زفافها سبعة أيام حين هاجم البوليس زوجها يقود مركبا قادما من أسوان، موسقة بالمخدرات وقطع الآثار النادرة. كان يزامله في المركب كل

من أبيها وأخيها، آخر من تبقى لها في الحياة بعد موت أمها وإخوتها الذين لم يكونوا معمرين. سيق زوجها وأبوها وأخوها إلى محكمة الجنايات، التي طسّت كل واحد منهم بالمؤبد في عين العدو. كان ذلك منذ عام مضى، ومنذ ذلك اليوم وهي حبيسة السرايا الصغيرة التي ابتناها خالها. كان زوجها هو ذراعه اليمين وقد حزن عليه حزنا يفوق الوصف. وحزن عليه النجع كله. وكلما اشتد حزنهم عليه نقموا عليها كأنها المسئولة عن ضياعه، ووجهها الشؤم قد بات يلغي من العيون كلها جمالها. فكانت تهرب منهم إلى العمل في شغل الدار، ونسوان النجع كلهن عملنها حلوانة في سلوانة فتركن لها كل شغل الدار المحتاج لمشقة وسهر. ومن جانبها كانت تعمل بلا كلل لعلها تنسى. ولقد فكرت في الهرب، ولكنها موقنة أن خالها سيجيء بها من تحت الأرض. لكنها رغم ذلك لم تستطع نسيان أنها عروس، وأن عفشها وسريرها لاتزال فيه رائحة الفرح زاعقة باتت تتخيل كل ليلة ـ وهي وحدها في السرير ـ أن الباب سينفتح لتراه داخلا عليها يكمل واجب العرس يكمل تسليك الطريق الذي خرم فيه ثقبا، فباتت كل يوم بعد آذان المغرب تستحم وتلبس أحسن ما عندها من القمصان الشفتشي لعلها تفاجأ به داخلا.

ثم وضعت يدها على معصمي قائلة وهي تنهض:

ـ «ألست تحب أن ترى سرير الفرح؟! تعال أريه لك!! سوف تراه جديدا وورق المحل ملفوف عليه! أما المراتب والألحفة فمن الحرير الساتان! قم لأريك العفش الذي جئنا به من دمياط!!»..

لكنى تسمرت في مكاني يابوى، بل تجرأت وشددتها بقليل من القوة فأقعدتها كما كانت. ونظرت في عينيها فوجدت تصميما أكيدا على طلبها، ممزوجا بدهشة واستغراب، وغيظ دفين. وفي الحال تفطنت، أيقنت أنها مجنونة أو على طريق الجنون. وقلت لنفسي: لابد من العقل والحكمة في صرفها بصنعة لطافة وقلت لها وأنا أسرع برص حجرين:

ـ «ما تؤاخذيني ياأختاه! مجنون أنا حتى أدخل سرير معلمي الغائب في السجن؟ أألقى بنفسي في النار!»..

زحفت نحوى ضارعة: «من أجلي! لا تخف! لا تظنني مجنونة! ولست أنصب لك فخا لأختبرك! جميع رجال الدار ونسوانها ذهبوا لحفلة فرح في صحارى سيتي! قالوا لي تعالى معنا! قالوها من مناخيرهم! وأنا لم أرض! عملت نفسي مريضة وتعبانة! وحمدت الله أن تركوني وحدي!! البيوت كلها الآن خالية! حتى الخفر والحرس تسللوا إلى البلد ليقضوا مصالحهم! تعال وشف بنفسك!!»..

وقربت وجهها مني. فرأيتني أترك ما في يدى وأطوق رقبتها وأسحب رأسها نحوى، وأنقض على شفتيها لثما ومصمصة وعضا. صارت هي كالسمكة تنتفض في شبكة الصياد. ثم لم أدر بنفسي بعد ذلك يابوى. ركبني الجنون فلم أفق إلا وضوء الصبح يدخل من تحت عقب الباب، فإذا أنا عار تماما، وعلى الأرض حطام

امرأة عارية متفسخة كل عضو منها في ناحية، وقمصانها ملقاة هنا وهناك، وبطنها يعلو ويهبط، وهي غائبة في ملكوت بعيد..

أول شيء فعلته أن لبست ثيابي، وصرت أربت على وجه القتيلة وأدلكها في كل ناحية حتى أفاقت، ونهضت جالسة فألبستها القمصان ومخي مشتعل يكاد يغريني على إعادة الكرة من جديد. كانت شيئا لا يوصف ياخال. وكنت أستخسر أن أدعها تمضي، لكنني دفعتها دفعا للقيام. فقالت وهي تفتح باب الحاصل وتدلف داخله: «انتظرني غدا!» قلت: «حاضر!». وساعدتها في جذب الباب، ولما استدرت رأيت كل جدران العشة مخترقة بمواسير البنادق المصوبة على صدري. كدت أصرخ. جعلت أدعك في عيني، ثم فتحت باب العشة، لأفاجأ بالصحراء تنطرح أمامي بلا نهاية، وليس ثمة من أحد. ووجدتني ألم فلوسي وأحشرها في حزامي، وأتجه نحو الريس مهران مدعيا المرض والإعياء، طالبا منه أن يستسمح لي الحاج وهدان في إجازة أقضيها تحت رعاية أمي وأهلي. وكان عليّ أن أنتظر حتى الضحى لأرجع مع أحد البغال العائدة لجلب المياه. وحين وضعت قدمي على أول طريق القاهرة أيقنت أن الله قد نجاني من جنة في قلبها نار الجحيم، لكنى كنت أنتفض وأنتفض من شدة الأسى كلما تخيلتها إذ تفتح باب الحاصل فلا تجدني.

الثامنة ـ مفاجأة غرزة المطار

ليس فى هذه الدنيا خيال يا خال، لا ولا فيها ما يسمى بالمستحيل. مستحيل ماذا يا بوى؟ البنى آدم منا فرعون ولاتقف أمامه سباع الدنيا ولا أسودها. أنا مثلا يا بوى، هل كنت تصدق أننى يمكن أن أتعلم القراءة مثل أولاد المدارس؟! بعدما شاب راح الكتّاب. المسألة كما اتضح لى كانت أهيف مما تصورت، أصل الحكاية أننى كنت تعلمت الهجاية من وكيل النيابة الذى رافقنى فى الزنزانة.ذات يوم بعيد وكتب الله لى النجاة على يديه إلهى ربنا يعافيه بالعافية إن كان لا يزال حيا ويطرح البركة فى خلفه فقد كنت واثقا من أنه مظلوم فلابد أن الله فك ضيقته من زمان. تعرف يا خال، لو كان به مس من النصب أو الاحتيال أو الزيف ما انعطف على حالتى ونسى حالته، علمنى حروف الهجاية ونطقها بعد تشكيلها وتسلى بمنظرى وأنا أنطقها شهورا طويلة؛ نقش أصوات الحروف فى قلب دماغى فباتت مسموعة على الدوام فى صدرى. ولما صرت الآن ولدا شلبيا ارتدى الكشمير والصوف والجوخ فى قفاطين وعباءات ومن تحتها الحرير والسكروتة، فضلا عن العمامة الكبيرة حول رأسى والمركوب النظيف فى

قدمى؛ رأيت نفسى لا شغلة لى ولا مشغلة سوى القعود على المقاهى ليل نهار. من حسن الحظ أنها لم تكن مقاهى كالتى يعرفها الناس وإلا انجرفت فيها إلى لعب الكتشينة؛ إنما هى غرز لتدخين الحشيش قد ولفت على واحدة منها فى حى فاطمة النبوية وراء جامع النبوية خبط لزق. مكان خفى غريب الشأن يا خال، لاسبيل إليه إلا بحيل متعرجة، لو أراد غريب أن يزورها أو يهجم عليها لاستحال عليه ذلك. دلنى عليها المعلم أبو كريشة حين اصطحبنى لشرب حجرين فى السر والكتمان؛ فدخلنا من باب بيت مفتوح ترتفع فى مدخله الواسع أدخنة الكوانين وترتع أسراب البط والأوز والدجاج، وأطفال صغار يزحفون فى الخراء يهرشون يجارون بالصراخ، وطشوت غسيل متناثرة على الأرض فيها مياه غسل الهدوم مسودة ومزرقة، ونساء يجلسن أمام وابورات جاز مشتعلة تحت حلل الطبيخ. خرمت وراء المعلم أبو كريشة فى حرج شديد وسط هذا المدخل الواسع الذى تطل عليه غرف كثيرة؛ ثم حودنا شمالا حيث بدأت السماء تظهر؛ فإذا بنا بعد خطوتين فى حوش واسع، سرعان ما تبين لنا أنه بيت تهدم من سنين طويلة وما تزال بقاياه أنقاضا مرصوصة ومجنبة: عروق خشب كالح مسوس وشبابيك متقصصة وطوب وهديم، وحبال ممدودة منشور عليها هدوم مغسولة. ظننت أننا سنقعد فى هذا الحوش؛ لكن أبو كريشة ظل ماشيا نحو جدار مواجه هو جدار البيت الخلفى المجاور، وهو بيت من دور واحد؛ تحت الجدار أكوام من الهديم والقمامة المتجمدة؛ تسلقناها حتى صرنا فوق

سطح هذا البيت ومشينا على حافة الجدار يمينا؛ ثم هبطنا منحدرا من هديم آخر لبيت آخر، ثم صعدنا على تل من هديم لنجد أنفسنا بعد قليل قد صرنا فوق ربوة عالية وأمامنا الأرض صحراء مترامية فى السفح لكنها مسورة بالأسلاك الشائكة وقد تناثرت فوقها جرارات ولوريات على مسافات متباعدة بدت لنا كغربان باركة على الأرض؛ قيل لى إن هذه القطعة من الأرض من بين الأراضى الكثيرة التى يحتلها المقاول المشهور عثمان أحمد عثمان. مشينا فوق الربوة التى كانت عبارة عن أتربة تغطى مقلب قمامة اندكت فى بعضها وتصلبت. كانت تواجهنا، وتقترب منا، شرفة عظيمة مبنية بالحجارة على طريقة الهرم الأكبر؛ فلما اقتربنا منها وجدناها غرفة عالية جدا ومستديرة وذات عواميد وشرفات. دخلناها يا بوى، فكأننا دخلنا شرفة قصر من قصور الفراعين أو الخلفاء القدامى: على مقاعد من الخيزران النظيف جلسنا؛ أمامنا طقاطيق نحاسية لامعة، ومناضد من الفورمايكا. وعلى بعد كبير من الشرفة الجوانية عشة صغيرة مبنية حديثا لتكملة الفائدة، وضعت فيها نصبة الشاى والبوتاجاز، وبرميلا من الصاج ممتلئا بالتبغ المقصوص بحرفنة والمتخمر بطريقة مخصوصة ذات عطانة عطرية غريبة لكنها جاذبة، وبرميلا آخر مملوءا بالحجارة الفخارية المحترقة، وزيرا كبيرا ينضح بالماء الرطب وعددا من القلل النظيفة فوق صينية..

بمجرد قعودنا جاءنا براد الشاى مع الأكواب على صينية تفوح بعطر الشاى النفاذ، يحملها شاب سمهرى القوام حلو التقاطيع

أحمر الوجه كابن ناس، خجول مؤدب؛ وضع الصينية بعد أن نظف الترابيزة بذيل قميصه الخارج من حزام البنطلون الكاكى، قال: «مساء الخير يا معلم»، ورفع وجهه؛ ففى الحال تيقنت أننى رأيته فى السجن من قبل وبقى أن أتذكر اسمه؛ قلت له: «استنى يا جدع!»، وأمسكت رسغه؛ فوقف يحدق فى وجهى باسما كأنه هو الآخر تذكر وجهى. قلت له: «إنت اسمك ايه؟». قال: «خدامك بلال!»؛ صحت جذلا: «بس!» وقبلت قبضة يدى ثم فردتها وصفقت بها فوق كفه فى حرارة: «إزيك يا بلبل! إنت طلعت امتى؟» فأعاد النظر فى وجهى بتدقيق وتركيز، قال: «العنبرة!»؛ قلت أنا حسن بتاع السلاح!»؛ فارتمى فى حضنى؛ والمعلم أبو كريشة يرقبنا باسما كأنه قد وفق رأسين فى الحلال يالها من مصرية هنيئة يا بوى؛ تحلف اليمين يا خال ما حششت فى حياتى بكل هذه الحلاوة والصهللة. انجعصت كأننى السلطان برقوق، أرى الخلق يمشون على مسافات بعيدة جدا كأنهم الفئران، والسيارات تتدفق رائحة غادية، فخيّل لى فى عز الصهللة أننى أعيش فى جنة عرضها عرض السماوات والأرض فى مدينة لم أعرفها من قبل يا بوى؛ وعجبت كيف أن فى هذه البلدة ناسا لايجدون لقمة خبز يتبلغون بها وتحت بصرهم وسمعهم ناس يرغدون فى النعيم بلا حساب دون أن ترتفع السيوف والخناجر لتطير الرقاب وتبقر بطون اللصوص الذين سرقوا خبزهم. خفت برهة وجيزة لكننى تذكرت أننى فى مصر أم العجايب التى تحمى كبار اللصوص بل تقدسهم وترفع مقامهم بقدر كراهيتها للجوعى

والمساكين وأبناء السبيل الذين هم فى العادة أغنياء عاجزون قليلو الحيلة قلم الإسلام أظافرهم وعشمهم بالحياة الآخرة. تحلف اليمين يا بوى انذهلت حين نبهنى المعلم أبو كريشة إلى أن هذا الطريق الذى نراه من بعيد هو طريق صلاح سالم، وأن هذه البناية المجاورة لنا على بعد قليل هى القلعة التى بناها صلاح الدين الأيوبى؛ ذلك أن المكان الذى نجلس فيه هو برج الظفر، أحد أبراج سور القاهرة القديمة الذى انهدم ولم يبق منه سليما سوى هذا البرج ، ليخرج من السجن فيحتله ويحيله إلى غرزة تدر الذهب ليل نهار. ووالله لقد حسدته يا بوى، لكنى حمدت له شجاعته وذكاءه فى الانتباه لهذا الموطن المجانى. قال أبو كريشة إن بلالا فعل ذلك بالاتفاق مع البوليس، ماذا وإلا عاد إلى نشاطه الإجرامى إذ أن قلبه ميت كما تعرف والقتل عنده كعمل واحد شاى؛ إنه باجس، يفوت فى النار والحديد، ليس يخشى على عمره أبدا؛ ما أبسط أن يطبق فى خناق أى ضابط، فكل الضباط تخشى على حياتها منه، يمكن أن يكسر رقبة الواحد منهم كالخيارة؛ مع ذلك فهو لطيف جدا معهم، ومؤدب، وخدوم، وشهم، ولذلك فهم يحبونه وفى نفس الوقت يتقون بطشه، يفوتون له بمزاجهم ثم إن أحدا منهم لايستطيع الوصول إلى هنا بسهولة، وحتى يصل يكون كل شئ قد صار على التمام فلا يجد الضابط شيئا يضبطه؛ والضابط فى النهاية محتاج لصداقة بلال، لأنه يدله على ألاعيب اللصوص وخفايا المجرمين لكن جدعنته أنه لايساعده فى القبض

عليهم ولايمكنهم من ذلك بل إنه حريف فى تعطيل الحكومة حتى يهرب صديقه اللص.. ولد جدع بحق وحقيق.

فى تلك العصرية الهنية رجع أبو كريشة إلى داره بعد صلاة العشاء وبقيت وحدى مع بلال؛ فلما جن الليل فوجئنا بطوائف من الأفندية المحترمين والمعلمين الكبار يهلون علينا بفاخر الحشيش والأفيون والكباب المشوى الساخن وعلب الكوكاكولا والبيرة. وحتى شروق الشمس كانت الطوائف متزال تنصرف. ولقد عرفت أن البيت الذى اخترقناه لنصل إلى هنا هو بيت بلال، تسكنه عائلته، يعنى لاحرج علينا إن دخلنا وخرجنا فى أى وقت. فى عتبة هذا البيت عجوز ضامرة لم نرها عند دخولنا، تتكور خلف الباب تفرز بفطرتها السليمة كل داخل فتعرف إن كان باحثا عن مزاجه أم يقصد شرا بابن ابنها بلال؛ هى بارعة فى إثارة الذعر إن تشككت فى الوافد الجديد، فبعد برهة قصيرة يكون بلال قد نط على صوتها فصار فى قلب البيت ليرى بنفسه جلية الأمر.

بلال مغرم بقراءة الصحف والمجلات والاستماع إلى الراديو إذ أنه من حملة الشهادة الإبتدائية، ومغرم بقراءة الروايات البوليسية التى كان يدخرها فى السجن ويحدثنا عن المدعو أرسين لوبين والمدعو جيمس بوند. فى أصل المبتدأ كان يقرأ الجرائد بحثا عن الوظائف الخالية ثم بات يقرؤها ليقف على أخبار الحوادث واللصوص وكيف خططوا ودبروا وهربوا من ثبوت التهمة؛ أما الروايات فكانت غرامه الأكبر، يتعلم منها فنون الإجرام المتقن..

أصبحت أذهب إليه فى باكورة الصباح فلا أنصرف إلا إن كان ورائى مشوار مهم. عز شغله فى الليل؛ وفى النهار يذهب لشراء المونة؛ ويكون نسوان الدار قد نشطن فى تنظيف براميل الحجارة وتحصيتها وتعسيلها، فى مقابل أجر معلوم. وقت العصارى ووقت الليالى الخاملة نقضيه كله فى القراءة حيث قطع على نفسه عهدا بأن يعلمنى القراءة كما أنزلت؛ وقد فعلها يا بوى؛ أيقظ فى صدرى أصوات الحروف وذكريات الفتحة والضمة والكسرة والسكون؛ وأضاف لى قواعد النحو والإعراب؛ وهذه الأخيرة لم أفهمها جيدا لكننى فى النهاية أصبحت أمسك بالجرنان وأقرأ فاعرف كل ما فيه، وأقرأ الرواية فأفهم كل شئ فيها. كل ذلك بفضل بلال فى وقت لايزيد عن عام. كنت من جانبى أساعده فى الشغل وأحشش وأنبسط آخر انبساط بل وأقبض بقشيشا ثمينا من الزبائن المتريشين.. طب ما قولك يا بوى أننى ولفت على بلال وبرج الظفر حتى صرت لا أرى شقتى إلا عند النوم؛ وكان عشمى أن يكون بلال سندا لى وعونا على إرهاب المومسات اللائى سكنت بجوارهم. وطوال هذه المدة الطويلة لم أر البوليس فى الغرزة أبدا، لكننى رأيت بسبوسة مرتين، مرة حين طرق الباب ذات ليلة ليبارك لى الشقة ويطلب حلاوتها، ومرة فى الشارع وهو ذاهب لمشوار. قال لى وهو يسرع فى المشى: «شلة النحس تسأل عنك ! حاول أن ترانا!». غير أننى كنت ميالا لنسيان الشلة ووجع قلبها، لكننى لم أكن أعرف أنى محاصر بها يا خال. ففى ذات عصرية رقيقة النسمات، وفيما كنت وبلال نتبادل القراءة فى

رواية اسمها الكابتن مورجان، إذا بهَمّ الموت يهبط علينا، أى والله يا بوى؛ بربش وغزولى وهندى، هكذا دفعة واحدة؛ فجأة رأينا خيالهم يقترب منا. كيف دخلوا؟ كيف صعدوا ربوات الهديم؟ كيف لم نشعر بهم؟ هذا ما لم نعرفه يا بوى. إنما أنا أول من رآهم، فتسمرت فى قعدتى مبهوتا لا أقوى على النطق بل إن قلبى سقط فى بئر سحيق؛ ظننتهم جاءوا للبحث عنى يا بوى؛ سرح خيالى بعيدا، تخيلت الحاج السنى وقد اكتشف ضياع الآثار من مقبرته فحقق وتحرى لهم: هاتوا لى حسن من تحت طقاطيق الأرض. أذهلنى أن الولد بلال ما إن رآهم حتى انتفض قائما فرمى بالكتاب وهات بالأحضان يا سلامات وتعالى يا قبلات وروحى وجيئى يا شتائم بذيئة يقشعر منها البدن، فيما بينهم وبينه. عجايب، أنتم تعرفون بلال؟ هكذا قلت وأنا أسلم عليهم . فنظروا لى ساخرين وعيونهم تقول: أتعرفه أنت؟..

تكفل بلال بالجواب: «كنا زملاء فى المدرسة يا أبا على؛ بربش هذا زاملنى فى قضية شيكات بدون رصيد وشركة وهمية لتشغيل المصريين فى الدول العربية؛ غزولى كان مكلفا بالقبض على فى قضية سرقة بالإكراه واعتداء على الشرطة؛ وكان غزولى يقابلنى كل يوم فيقتسم الغلة معى ويتركنى أنام فى بيتى! هذا المفترى كثيرا مادلنى على الضحايا التى يجب أن نرزق سويا من ورائها!! أما هندى فقد زاملنى سنتين فى قضية ترويج عملة مزيفة؛ إنها عشرة عمر يا أبا على!» عيش وملح السجن أقوى من

العيش وملح آخر وأنت أدرى طبعا!».. ثم استدار نحوهم"": «وكيف حال بسبوسة ياشلة النحس والخربشة؟!». أشار بربش نحوى بلهجة ذات معنى: «اسأل أبا على! إنهما الآن خبايب سمن على عسل! يخدمان بعضهما خدمات كبيرة من وراء ظهورنا! هنيئا لهما على كل حال! نحن لانكره! ولكن كنا نتعشم أن تكون نا الحلاوة ولو بسهرة صغيرة على القد! لكن هذه حال الدنيا! من علو يعلو وعلى الباقى السلام!». قلت مبتسما فى زهو: «ملحوق عليها بربش! أنا يا دوب سافيق من وجع الدماغ! وعلى كل حال ها نحن التقينا وجاءت القعدة وحدها! أنتم الليلة ضيوفى!». كان الزهو يليق بى لحظتها، ليس لاننى تميزت عنهم بشقة ثمينة يحلم بها وكلاء الوزارات، بل لأننى صرت أعرف القراءة وإن كنت غير قادر على الكتابة إلا أننى أصبحت أفهم ماذا تقول الجرانين. قال غزولى: «العب غيرها يا حسن! الليلة نحن معزومون عند بلال منذ شهر مضى! لاتاكل بعقلنا حلاوة! وعزومتك لابد أن تكون كبيرة! لا أقل من خروف يذبح وزجاجة ويسكى تفتح وأوقية حشيش تحرق فى شقتك ومعنا بلال!». خفق قلبى يا بوى: «أنا تحت أمركم فى اليوم الذى يعجبكم ورقبتى بدلا من الخروف!». قال بربش: «نحن معزمون وأنت معنا يوم الجمعة القادمة عند الحاج أحمد نور الدين السنى بمناسبة عيد ميلاد ابنته! تصور أنه زعق لنا من أجلك؟ ظن أننا أسأنا معاملتك فابتعدت عنا وقال إنك أجدع واحد فينا فى نظره! قطيعة أنت وهوفى يوم واحد!».

ضحكت بغير اطمئنان؛ لكن صوتا فى رأسى قال: رح معهم ولا يهمك وضع أصبعك فى عين التخين ما دام حاميها حراميها..

فى تلك الليلة سهرنا حتى شروق الشمس. ظهر لى بلال اجدع وأرجل مما توقعت؛ ذبح جديا صغيرا، واشترى زجاجتين من الكونياك، ونصف أوقية حشيش. جهز كل ذلك دون أن أعرف وجاء به فى وقته؛ فكانت ليلة ولا كل الليالى.

التاسعة ـ الولاعة المنسية

صــرت أشــترى الجـرنان كل يوم؛ طبـعـا يا بوى، بل صــرت أحــرص على شــرائه وقــراءته من الأفـندية الذين يـتـأبـطونه ولايقرءون فـيه سوى اللافـتات الكبـيرة. أما أنا فـأقليه صفـحة صفـحة ركنا ركنا، سواء فـهمت أو لم أفهم؛ فلعـبة فك الخط نفسها لذيذة غاية اللذة يا بوى. ومن قال إنى لم أفهم؟ لقد عرفت أشياء يكاد رأسى ينوء بحملها، وأسمـاء ما كان لى أن أعرفها فى عمـاء الأمية رغم أنهـا الكل فى الكل فى حياتنا وأمـورنا، عرفت من يكون الوزير ومن يكون الخفير، وما الوزير ومـا الخفير؛ حتى الانتخابات التى كثيرا مادوشوا بها دماغنا فى البلدة وتقاتل القوم بسبـبها عرفت حـقيقة أمـرها وعرفت الدار التى يجتـمعون فيـها ويتكلمـون فى أمور الخلق ومشـاكل البلاد لكى يحلوا فى الـنهاية مشـاكلهم هم. عـرفت ما مـعنى أمريكا وروسـيا ومـجلس الأمن والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. عرفت أننا والعرب أخوة فى الدم والعرق والأرض واللسان كمـا أننا نصلى لإله واحد ويهددنا عدو واحد قصير القامة لـكننا لانرى سوى ظله الشبحى مستطيلا إلى مالا نهاية. فلما عرفت ذلك اندهشت يا بوى: كيف يكون إخوة

بكل هذا العدد ودار بكل هذا الاتســاع ويهددنا عدو جربـان اسمه إسرائيل؟! تحلف اليمين يا خال أنـنى ما كنت سمعت عن إسرائيل هذه من قبـل، أصلهم ما أدخلونا مـدارس منهم لله؛ ووالله العظيم ثلاثا يا بوى غيـر حانث ولا آثم إننى انقـبض قلبى لما عرفت الآن أن خمســة من ولد أعمامى ماتـوا فى حروب معها هـذه المدعوقة بجاز دون أن يعـرفوا من هو العدو أو لماذا هذه الحـرب!.. ما كنت أعرف شـيئا من هذا يا خال، فـمحمدين مـات فى السويس وهذه بلدة نعرفها ولنا فيهـا أقارب؛ وعريبى مات فى سينا وهذه منطقة عربان مـا كنت أعرف أنها تبعنـا لأنى كنت أسمع الفقيـه يقول إن الله كلم مـوسى فـوق جبل الطور فى سـينا وأن مـوسى هو نبى اليهـود؛ وحسان مات فى الإسـماعيلية التى كنت أعـرف أنها بلدة البطيخ وعوضين مات فى العـريش ولم أكن أعرف أنها من ضمن سينا، وصـابر مات فى بورسعيـد. ماكان أحـد يقول لنا إن التى قتلت ولد أعمامى هى إسـرائيل، حتى أيام كنت أبيع المشاريب فى المعسكر لم أكن أعرف شـيئا من هذا، كل ما عرفـته أننا فى حرب، وأى حرب لنا لابد أن تكون مع الإنجليز، طول عـمرنا لانعرف لنا عـدوا غيـر الإنجليـز؛ الدور والباقى على هـذه التى طلعت لنا فى البـخت واسمـها إسـرائيل. سألت وأيـن يكون مكانها؟ قـالوا فى فلسطين فى القدس الشريفة شخـصيا. شوكة هى إذن وانغرست فى قلبنا. أول ما عرفت ذلك قلت من طيبتى: وايه يعنى! ننزعها ونرميـها؛ الآن رجع لى عقلى فأيقـنت أن نزعها يفرتك مطرحـها.. لما العمل إذن يا بوى وأنا مـرادى الآن أن آخذ بثار ولد أعمامى؟

هذا ما يؤرقنى الآن يا بوى لكننى قلت لنفسى: هذا موضوع كبير عليك يا ولد أبى ضب فدعك منه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا..

— «بنا يا رجال؟»

— «على الظالم!»

ثم وقفنا. لحظتها انتبهت إلى أن الحشيش البريمو قد سرح بدماغى ونحن فى جلوس فى قهوة صفصف نصطبح عصرا ونهيئ؛ أدمغتنا قبل ذهابنا إلى حفلة عيد ميلاد ابنة الحاج أحمد نور الدين السنى. طويت الجرنان ووضعته فى سيالتى، ومضينا.. فى الشارع العمومى لقيت ولدا ينادى على جريدة المساء فاشتريت واحدة وجعلت أتطلع فى لافتاتها ونحن ماشون، وشلة النحس تتغامز علىّ وتضحك ملء الأشداق وأنا غير حافل بهم ولا بالسيارات المارقة من حوالى..

دهش الحاج أحمد نور الدين السنى حين رآنى، تحلف اليمين كأنه مشتاق وبه لوعة، بالحضن يا ولد، فارتميت فى حضنه شاعرا بالطمأنينة من ناحية خلقاتى النظيفة مثله وأكثر. صار العكروت يبعدنى عن صدره بيديه ويحدق فى وجهى وعينى بنظرات خبيثة ماكرة: «جبت الوجاهه دى كلها منين يا ولد؟ ما شاء الله! ما شاء الله! ربنا فتح عليك! أنت على كل حال تستاهل كل خير يا مقصوف الرقبة!». كان واقفا على باب الشادر ليستقبل ضيوفه؛ وثمة من يصطحب القادمين إلى الداخل. وكان

الشّارع قد امتلأ بالسيارات المجنحة ذات المناظر الفاخرة اللامعة، بعضها بلوحات نمر زرقاء وخضراء وبعضها ترفرف على مقدمته الأعلام، ومنها ما يبدو أنه طالع لتوه من الفابريقة. وكان واضحا أن الحاج أحمد نور الدين السنى مشغول بمقدم ناس مهمين؛ إذ كلما هدأت سيارة تقدم ناظرا فى داخلها مستعدا للترحيب. طالت وقفتنا والحاج مبسوط بوقوفنا معه إذ نشكل وفدا بأس به فى استقبال الوافدين. ثم إن سيارة مجنحة مهيبة رست على الضفة المقابلة للشارع انفتح بابها ونزل منه سائق يرتدى بذلة سوداء، تقدم نحو كشك للسجائر وتكلم مع صاحب الكشك ولاحظنا أن صاحب الكشك يشير له نحو الشادر؛ فركب السائق ولف بالسيارة حتى حاذانا. السيارة بنمر قليلة العدد ومكتوب عليها: ملاكى أسيوط. هب الحاج للاستقبال صائحا: «يا مرحبا يا مرحبا!» فنزل السائق مسرعا وفتح الباب الثانى فنزلت منه سيدة ترتدى أفخر الثياب، وفرو الثعلب على كتفيها، رأسها ملفوف بطرحة بيضاء من الحرير الشفاف يشى بوجه كالقمر، سمهرية القوام ممشوقة القد منضبطة الهندام والخطو كضابط أنيق مهيب. مدت يدها للحاج السنى، فسلم عليها بحرارة شديدة، وانحنى فقبل يدها. كانت عيناها تخترقان قماش الطرحة وهى تحط علينا واحدا بعد الآخر مع ابتسامة تحية، لكن عينيها عندما وقعتا على وجهى تلكأتا قليلا ثم بان فى نورها ما يشبه الدهشة أو المفاجأة، حتى أن العينين بعد أن تحولتا عن وجهى عادتا فنظرتا فيه من جديد بشىء من التأكد والاشتياق، ثم انصرفتا عنى نهائيا..

قلبى أكلنى يا بوى؛ فهذه الساحرة المتنكرة فى ثياب الأبهة تخفى وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر منى ومن عشرين من أمثال بربش وغزولى وبلال. يبدو يا بوى أن وحدة الصياعة والخربشة المطلة من عينيها هى التى جعلتنى أحن لها كأنها ممن يهمنى أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهى تختبر خربشتى أم هى تصطادنى؟! أم أن مثل هذه النظرة هى نظرة الولد المخربش تقع على مخربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هى مزاج من الخوف وإرسال التحية. على أن الذى استقر فى قعر دماغى يا خال هو أن هذه الحسناء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادنى. طبعا يا بوى، فما الذى يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصى إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها، ولابد أنها فى حوزة عنين مكسور العينين مهيض الجناح. أيًّا ما كان أمرها يا بوى فقد وجدتنى أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفى، والحاج السنى يحاذينى ويمسك خلسة بأطراف أصابعى هامسا فى تحذير شقى: «بالراحة! بالراحة!»، فهدأت من خطوى، ولاح لى أن الحاج كان ينتظرها هى فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشى فى حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا فى انبهار: «من الأميرة هذه يا حاج؟». فمال على أذنى هامسا فى جدية شديدة: «ذى هى الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة فى كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها فى مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفى من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!!». وغمزنى لأسكت، فقلت فى لجاجة: «لكن ما شغلتها يا بوى؟ أسألك عن شغلتها!». غمزنى مرة أخرى، قال فى حدة: «عرافة! لامثيل لها فى العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكم!»، ثم لكزنى وتقدم إلى البوابة الكبيرة ففتحها كى لاتنحنى الشيخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال، بحر من الأضواء الملونة تسبح فى أعماقه ممرات وأبهاء ودرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة. ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات والجوارى يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد المنبسطة على الأرض والجدران ودرجات السلم العريضة التى تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف فى أى طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكننى أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السنى ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كفرس النبى، ومن خلفى شلة النحس التى صارت تتكاتف وتترادف، ويقرصنى همسهم بأن الله قد نفخ فى صورتى؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر فى بالى أننى لابد أن أكون محترما فى حضرة الشيخة سعادة بأى شكل؛ لا أدرى يا بوى كيف جاءنى الوحى بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحى قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتحود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

قلبي أكلني يا بوي؛ فهذه الساحرة المتنكرة في ثياب الأبهة تخفي وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر مني ومن عشرين من أمثال بربش وغزولي وبلال. يبدو يا بوي أن وحدة الصياعة والخربشة المطلة من عينيها هي التي جعلتني أحن لها كأنها ممن يهمني أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهي تختبر خربشتي أم هي تصطادني؟! أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد المخربش تقع على مخربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مزاج من الخوف وإرسال التحية. على أن الذي استقر في قعر دماغي يا خال هو أن هذه الحسناء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادني. طبعا يا بوي، فما الذي يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصي إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها، ولابد أنها في حوزة عنين مكسور العينين مهيض الجناح. أيًّا ما كان أمرها يا بوي فقد وجدتني أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفي، والحاج السني يحاذيني ويمسك خلسة بأطراف أصابعي هامسا في تحذير شقي: «بالراحة! بالراحة!»، فهدأت من خطوي، ولاح لي أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشي في حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا في انبهار: «من الأميرة هذه يا حاج؟». فمال على أذني هامسا في جدية شديدة: «ذي هي الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها في مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفي من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!!». وغمزني لأسكت، فقلت في لجاجة: «لكن ما شغلتها يا بوي؟ أسألك عن شغلتها!». غمزني مرة أخرى، قال في حدة: «عرافة! لامثيل لها في العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكم!». ثم لكزني وتقدم إلى البوابة الكبيرة ففتحها كي لاتنحني الشيخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال، بحر من الأضواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء ودرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة. ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات والجواري يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد المنبسطة على الأرض والجدران ودرجات السلم العريضة التي تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف في أي طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكنني أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السني ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كفرس النبي، ومن خلفي شلة النحس التي صارت تتكاتف وتترادف، ويقرصني همسهم بأن الله قد نفخ في صورتي؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر في بالي أنني لابد أن أكون محترما في حضرة الشيخة سعادة بأي شكل؛ لا أدري يا بوي كيف جاءني الوحي بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحي قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتحود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

بنظرة مشرقة ينجاب فى ضوئها عن وجهها قماش الطرحة البيضاء الحريرية فأرى على وجهها سعادة فائقة؛ حقا صدق من أسماها الشيخة سعادة..

صرنا فى مواجهة بهو كبير ممتد كسرادق عظيم فخم، يحتشد بالأضواء الملونة الخافتة ينبعث منها الهدوء والدفء كأنها شموع خفية؛ يحتشد كذلك بطنين خافت لكنه عميق تسمع فى أعماقه دوزنة آلات موسيقية حبيبة ودندنة أصوات سرحانة بنفسها. و.. ماكل هذا البشر يا خال؟! تحلف اليمين أنه قاعة السينما أو مسرح الريحانى؛ كلهم ينجعصون يتقلدون البكوية والبشوية؛ وثمة خدم يلبسون الطراطير والجبب المزركشة بالقصب يمرون بين الجلوس حاملين الصوانى الملآنة بالكئوس المترعة بجميع أنواع الخمر، ينعطفون نحو الجالسين فى حلقات حلقات جماعات جماعات أسر أسر؛ فإذا بكل واحد من الجالسين يأخذ من فوق الصينية صنفا معينا من المشروب الذى تحفل الصوانى بجميع أنواعه ألوانه ماركاته، نساء كجمار النخيل يا خال، ورجال كنوار القطن تنعكس عليهم الأضواء بألوان خلابة؛ والجميع فى شرب ولغو هامس وضحك رنان؛ ضحك النساء هو الأوضح كنقرات الإيقاع كشخللة الدفوف فى معزوفة همجية بهيجة، تنبعث من كل خميلة شقشقة عصفور أو عصفورين. من الواضح يا خال أن محلا كبيرا من محلات الخمور والأطعمة والحلواء قد تكفل بإحياء هذا الحفل الكبير أما المقاعد والسجاجيد فكلها ملك الدار وهى راسخة فى

مكانها مفصلة على أماكنها؛ فهذه خميلة من الكنب البلدى الفاخر؛ وأخرى من الكنب العباسى المطعم بالأصداف على شكل المشربيات؛ وثالثة من صالونات القصور المذهبة بمساند على شكل التاج الملكى؛ ورابعة من أسرّة وأرائك فرعونية كالتى نراها فى صور توت عنخ أمون ولد بلدى؛ وخامسة من الشلت والبفات الجلدية والحمير الخشبية المنجدة كالتى نراها فى معروضات خان الخليلى؛ وسادسة وسابعة وعاشرة على امتداد بهو طويل عريض تتخلله حواجز رمزية من ستر وعمدان وقوائم خشبية مشغولة كالمشربيات متحركة..

جعلنا نمشى كالبلهاء نتصادم فى الخدم والنوادل، والحاج ماض أمامنا بنفس مشيته التى يمشيها وهو ذاهب إلى المسجد، محنى القامة قليلا مبرزا من بين كتفيه ما يشبه القتب الخفيف، واضعا يديه خلف ظهره فوق مؤخرته تماما، والمسبحة تتدلى بينهما، وشفتاه تبسبسان كالعادة بكل ما غمض من التسابيح والأوراد، ظلال لحيته الطويلة ترتفع وتنخفض صاعدة هابطة فوق الأجساد والكئوس والأعمدة. واجهنا مربع محدد بسور من الخشب يرتفع عن الأرض بأرض خشبية ارتفاعا مقداره ثلاث درجات سلم، يجلس فوقه فريق من الآلاتية والفنانين. وفى المنطقة المجاورة لهذا المربع تجلس وجوه كثيرة مشهورة كلها ممن تنشر الصحف صورهم. وكنت أعرف أن وراء هذا المربع المسرحى غرفا صغيرة كغرف الحرملك، ومحلات أدب، ووراءها فراغ السقف كشرفات بتندات وأفاريز عالية مخروطية.

اقتادنا الحاج إلى أكبر شرفة، وهى خلف مربع المسرح مباشرة ويستطيع الجالس فى نهايتها قرب الخلاء أن يرى كل ما يدور على المسرح وفى بقية القاعة، عبر ممر فى عرض المسرح؛ فى حين أن الجالس فى القاعة قد لايتمكن من رؤية الجالس فى هذه الشرفة. أما الشرفة فمفروشة بمقاعد وأسرّة لا مثيل لها، لا أحد يعرف إن كانت من الخشب أم من الذهب، منجدة بالقطن أم بريش النعام. ثمة ناس كثار يجلسون متربعين كالعمد ومشايخ العرب، أمامهم الكراسى العباسية فوقها الصوانى الفضية تعج بالكئوس والزجاجات من كل الأشكال والألوان. ما إن رأوا الشيخة سعادة مقبلة عليهم حتى انتفضوا جميعا واقفين عابثين دخل عليهم أبوهم المرعب. توقفت الشيخة سعادة لبرهة طويلة؛ ثم تقدمت لتسلم على أقرب واحد؛ وصار الحاج من جوارها يبلغها اسم كل من تسلم عليه ووظيفته؛ وعند الوظيفة العظمى يمسك عن ذكرها ويكتفى بتنغيم الاسم وتفخيمه. فلما جاء عند الرجل الشبيه بأنور السادات الخالق الناطق أشار إليه برعشة خجل مصطنع كهين، قائلا: «محمد بك أبو شناف! طبعا تعرفينه!»؛ فهزت الشيخة سعادة راسها وكررت السلام بحرارة: «أهلا! أهلا وهل يخفى القمر؟!»؛ فاستدرك الحاج: «.. ولما علم أنك ستشرفيننا الليلة كاد يرقص من الفرح! وقد شرفنا بالحضور وأمله أن تفتحى له الكتاب!». قالت الشيخة سعادة «ربنا يوفقنا فى خدمته! إن كتابه مفتوح وليس يحتاج إلا لمن يحسن قراءته!». ابتسم محمد بك أبو شناف عن حنك واسع وقال: «هذه إذن هى مهمتك!». وبدا

فى نبرة صوته كانه يصدر أمرا بذلك؛ وكانت زبيبة الصلاة على جبينه المزرق تبدو كالمرسومة بهباب الفرن أو كحبة توت مشبوكة فى لحم جبهته المتثنية؛ أخذت تعلو وتهبط علامة المرح وهو يستدرك: «ولكن عفوا ست الشيخة! إن كتاب حياتى حافل وصعب ومكتوب بكل اللغات!». فقهقه الحاج السنى وبعض الحاشية، مما أغرى محمد بك أبو شناف بالقهقهة معهم كأنه قال دررًا نادرة. قالت الشيخة سعادة: «كتاب المرء مقروء إلا لعينيه هو نفسه! وندر من يستطيع قراءة نفسه!». الغمزة ثقبت الزبيبة فى جبهة محمد بك أبو شناف فأخذت تنتفض؛ فيما استدركت الشيخة سعادة بسرعة: «إنى على كل حال لست راجمة بالغيب! ولست عالمة به أو بأى شىء من أمره! إنما أملك مرآة ورثتها عن أجداد أجداد أجدادى! وقد وهبنى الله حاسة أرهف! ونظرة أعمق وأنفذ! وعقلا أقدر على ربط الأمور والأشياء ببعضها! قد أصيب وقد أخطئ! لكن الصواب والخطأ إنما يكونان على قدر ما فى نفس صاحب الكتاب المقروء من صفاء أو كدر! من روقان أو عبوس! من شفافية أو إعتام ! وفقنا الله ووفقكم إلى فهم أنفسنا على خير ما يمكن!»..

قالت هذا وهى مطرقة برأسها فى قليل من الحياء وكثير من الأدب؛ فيما كانت الزبيبة على جبين محمد بك أبو شناف قد تجمدت تماما فى مكانها، وصار فكه الأسفل يتدلى فيما لانعرف إن كان يبتسم أم يتلمظ؛ لكنه قال بشئ من الشهامة مشيرا إلى

مقعد بجواره «تفضلى بالجلوس!»، فاستوت الشيخة سعادة جالسة؛ وكانت قد خطفت قلبى بكلامها. ثم إننى تأهبت للانطلاق إلى الحفل، لكننى ما كدت أستدير فى الممر النازل إلى قاعة الاحتفالات حتى رفعت الشيخة سعادة ذراعها مشيرة لى: «تعال ياولدى! ما اسمك؟!». انتفضت من الفرح: «خدامك حسن أبو ضب!». هزت رأسها كأنها تقول: «أعرف!» وأحسست أنها تعتقل ابتسامة شقية بين شفتيها الدقيقتين؛ وتبسم الحاج السنى قائلا فى شقاوة صبيانية مرحة: «تعرفينه يا ست؟ أنتما بلديات على كل حال!». قالت: «أبغى مساعدا لى فى مهمتى الليلة! وقد توسمت فيه الطهر والعفة!». الصياعة كلها لمعت فى عينى الحاج السنى، فاندفع صائحا بلهجة حادة ذات معنى وهو يهزأ فى وجهى: «هذا ؟ آه من هذا !!». ألقيت إليه نظرة استرحام، لكن الشيخه سعادة ردت مسرعة: «أعرف! إنه ربما ارتكب بعض المعاصى تحت ضغط قاهر! لكن من المؤكد لى أن قلبه سليم! ودمه نقى! وصدره خال من الشوائب والأحقاد! وضميره مهيأ للصحو فى كل لحظة! لولا أن الحاجة أحيانا تكون أقوى منه! كفانا الله جميعا شر الحاجة والعوز! إن الله سبحانه وتعالى يغفر للمحتاج!». الولية تعرفنى إذًا يا خال، تحلف اليمين كأنها نشأت معى، لكنها يا خال تبدو كما لو كانت تقول كلاما حفظته من قبل ودربت على نطقه. قال الحاج بنفس الشقاوة: «هات كرسيا يا ولد واجلس بجوار الشيخة لاتبرحها! أو تعال فاجلس هاهنا مكانى!»، وتخلى عن حمار خشبى منجد كان يجلس عليه بالعرض، أما أنا فاستويت عليه

راكبا بعد أن عدلته لاتمكن من رؤية الفرقة كلها؛ لكننى بعد أن جلست داخلنى الكثير من الكدر والضيق والندم؛ فمنذ هذه اللحظة قد حرمت على كل هذه الخيرات المبثوثة هاهنا بغير حساب، وقد كنت أمنى النفس ببضع كئوس أرطب بها جوفى الصادى، فكيف أشرب الآن يا بوى بعد أن شهدت لى الشيخة سعادة بهذه الأوصاف؟! الحق لله أن حالة من الرضاء عن النفس رطبت جوفى يا بوى. أهكذا أنا إذن وأنا لا أدرى؟ كيف يا خال؟ لعن الله الشرب بعد الآن، ولكن لا، فلتكن هذه الليلة هى آخر الليالى التى أعصى فيها عصيانا بسيطا..

ثم ظهر الحاج السنى مقبلا من شرفة جانبية خلفه سنيورة كبنت من بنات الحور اللاتى تحكى عنهن الحواديت: فرع من الزان السرح، له بروزات شيقة دقيقة من الخلف والصدر، وعنق من المرمر، ورأس مدبب الذقن كرأس نفرتيتى، أى والله يا خال أميرة فرعونية من سلالة لم تنقرض بذرتها. تحلف اليمين يا بوى إن الحاج السنى لابد أن يكون قد عثر عليها حية فى حفرية فاقتناها وألبسها فوق لباس العصر حليها القديمة. قلت لنفسى: لايمكن أن تكون هذه هى ابنته صاحبة هذا الحفل المهيب البهيج؛ فى نفس الوقت لايمكن أن تكون من بين الفنانات المشتركات فى الحفل؛ فمثل هذا الجلف الصدئ لاتخرج من صلبه هذه القشدة الطازجة؛ والفنانات عندنا ليس يعرف عنهن هذا الوقار الجميل وهذا الكبرياء الشامخ الذى لاشك ورثته كأميرة من ظهر أمير.

يا.. لهو بالى عليها، وهى تتقدم مقبلة، ورائحة عطرها القروستوقراطى يغطى على كافة العطور المندلعة فى القاعة. اقترب الحاج السنى من الشيخة سعادة وانحنى مشيرا إلى السنيورة الفارعة: «قوت القلوب! ابنتى!». فنهضت الشيخة سعادة وعانقتها وقبلتها فى وجنتيها، والحاج السنى يواصل الكلام فى نبرة راعشة شجية ما عندى فى الدنيا سواها! لا ولد ولا زوجة ولا أحد! منذ أن افتكر الله والدتها حرمت على نفسى الزواج ووهبت كل وقتى وحبى لقوت القلوب! مناى كله أن يأخذ الله بيدها ويفتح لها أبواب السعادة على مصاريعها! تعالى ياقوت القلوب وسلمى على عمك محمد بك أبو شناف!». فلمعت الأسنان المعدنية المحدودبة فى حنك محمد بك أبو شناف وتراقصت الزبيبة على جبينه وهو ينتفض واقفا، ولولا الحياء من الشيخة سعادة لالتهم البنت فى أحضانه ومصمصها بشفتيه هاتين الغليظتين الشهوانيتين يظهر يا خال أن البنت شعرت بالرعب لما واجهته، فتسمرت فى مكانها برهة ثم تقدمت خطوة واحدة على حذر، وانحنت قليلا لتختصر المسافة بينهما، مادة أطراف أصابعها وهى تضحك فى خفر؛ ثم اضطرت للسلام على بعض القريبين منه لأنهم تهيأوا للسلام عليها. قال الحاج السنى: «تستأذن منك قوت القلوب ياستنا الشيخة لتحتفل بصاحباتها وفى آخر الليل تجئ لك لتنفردين بها على رواقة!». هزت الشيخة سعادة رأسها فى أريحية: «ليلة سعيدة يا قوت القلوب! إن شاء الله نحضر فى الليلة الأكبر! وإنها لقريبة بعون الله وفضله!»؛ فضحكت البنت فى

خجل وتفاؤل، ثم هزت رأسها مستأذنه ومضت. تابعت مؤخرتها الساجية حتى اختفت فى ممر الشرفة الجانبية. أما الحاج فقد راح يتحكك فى الضيوف كالذيب العلق، ثم ما لبث حتى أختفى. إن هى إلا برهة حتى دعيت الشيخة للعشاء؛ فنهضت ومضت خلف الداعى فى ممر الشرفة الجانبية، فانتهزت أنا الفرصة وقمت أشوف حالى أبحث عن شلة النحس. مضيت فى نفس الممر، مررت بأكثر من شرفة، هبطت سلما إلى الدور الأسفل، فإذا أنا بقاعة تمتلئ بالموائد الحافلة، كلها مستديرة وكل مائدة يلتف حولها عشرة أشخاص، تقوم عليهم مجموعة خدم يرفعون الأطباق ويضعون غيرها حتى يجئ حلو الختام إيذانا لهم بمغادرة المائدة ليتم تنظيفها فى الحال ليحتلها عشرة آخرون. كانت شلة النحس منهمكة فى غسل أيديها؛ إلا بسبوسة، فقد كان قادما لتوه صاعدا من أسفل. احتضنته، ثم جلسنا معا على مائدة واحدة. جئ بسلطانيات الشوربة، ثم أطباق الخضار باللحم، ثم أطباق المحشى على مختلف ألوانه، ثم الشعرية بالفراخ، ثم أطباق الأرز بالضلع، ثم أطباق الفاكهة من برتقال وموز وتفاح وتين وبلح وهلم جرا، ثم أطباق خبز حلو اسمه الجلاش، ثم المهلبية والأرز باللبن.. مسك الختام فانهض يا بوى. فى طريقى إلى دورة المياه لغسل يدى لمحت غزولى فى نهاية القاعة قرب السلم، فغمز لى بشفتيه وعينيه فى اتجاه الصعود؛ ولما رآنى تعثرت فى الفهم شوح بذراعه نحو غرفة البرج الفوقانية. هززت رأسى بالفهم والموافقة ومضيت فغسلت يدى بسرعة ثم اتجهت إلى السلم. لاحظت يا

بوى أن الرجل المديوب قد رفع كل التماثيل والتحف والانتيكات التى كانت متناثرة فى كل مكان، لم يبق إلا على المحمية داخل دواليب زجاجية مغلقة باقفال خفية. رجل كهين يا بوى وليس سهلا أبدا أبدا..

ظننت أن شلة النحس تريد أن تقيم لنفسها قعدة جانبية فى غرفة البرج تشوف مزاجها يا بوى، حقها. صعدت السلم يا بوى، مررت فى صعودى بضجة الفرح صاعدة من بئر السلم وقد بلغت الصهللة مداها يا بوى، وثمة مغنية من مغنيات الراديو تغنى: إيوه أه، وعشرات من الأكف البلهاء تصفق لها على الواحدة، وزغاريد. على السطح فوجئت بحفل آخر، نفس الأضواء، نفس التجهيزات ولكن بحصائر ملونة فوقها شلت، والجوز شغالة تبرق باللهب بين مجاميع متعددة؛ وكل من غزولى وبربش وهندى ممسكا بجوزة ومصفاة نار متوليا سقيا جماعة. كان بسبوسة قد لحق بى على البسطة الأخيرة للسلم وهمس فى أذنى قائلا فيما نتباطأ فى الصعود:

ـ «مثلنا لايجلس مع العظم الثقيل يا حسن! إنما مبرر وجودنا معهم أن نكون خدما لهم! خدم خدم المهم أن نذوق طعم الحلاوة! الحشيش البريمو العالى! الشمبانيا والويسكى والكرفوازية! هؤلاء الذين تراهم أمامك الآن بين برق الحجارة ولهب الكيف هم صفوة من يملكون الامر والنهى فى البلاد!! ليسوا أصحاب مناصب ولا يحزنون! الصحف لاتعرف صورهم

ولا أسماءهم! كما أنهم لايدخلون معارك انتخابية ولا دياولو! يتركون غيرهم يقوم نيابة عنهم بتدبير المكائد ودس الدسائس ولبس الخوازيق النهائية وهم ـ هؤلاء ـ جالسون يحششون يسكرون يرضعون فى أثداء الراقصات فى أحلك الليالى فى أشد الأزمات التى تمر بها البلاد! يقولون إن الثورة أممت الأراضى والشركات والمصانع وصادرت الباشوات والإقطاعيين! أما هؤلاء الذين يجلسون أمامك الآن فإنهم أمموا الثورة نفسها!! إنهم فتوات التنظيم ! ترى أبناءهم وأولاديشهم يكتبون افتتاحيات الجرائد ويتكلمون بالإرهاب فى الإذاعة ويخطبون بالحماس فى سرادقات المحافل ويعيشون نفس الحياة التى كان يحلم بها الباشوات فى عز ثرائهم! يلحقون أولادهم بالمدارس الأجنبية يستعيرون لهجة الميوعة والخشونة تقليدا لأبناء الباشوات! إنهم يملكون الأموال والنفوذ ويمولون كافة المعارك بجميع أنواعها ابتداء من معركة فى حارة درب عجور بين اثنين من متسلقى الاتحاد الاشتراكى إلى معركة بين عبدالناصر وعبدالحكيم! ومنهم من يلبس ثياب الثورة وهو من ألد أعدائها! وقد سمعت الحاج السنى ذات مرة يقول إنه لا يستبعد أن يكون هؤلاء لهم دخل فى المعارك بين أمريكا وروسيا! وبين روسيا والصين! وهم وراء الموارنة والشيعة فى لبنان! والأكراد فى العراق! والبربر فى المغرب! والجنوب فى السودان! والإخوان المسلمين والمسيحيين فى مصر! هكذا قال الرجل الكهين بعضمة لسانه عن هؤلاء!! رأيى يا حسن أن نبعد عن هذه المجموعة! فلو عرفوا أسماءنا

وشخصياتنا فلن نفر منهم إلى الأبد! سنبقى مدى الحياة خدما لهم! يغروننا بالفتات الدسم لكن أحذيتهم فوق رءوسنا!! دعنا نكون أذكى منهم فنلتقط الفتات من بعيد لبعيد من وراء ظهورهم! إنهم لابد لهم من إلقاء الفتات فى صفائح القمامة مالم يكن هناك من يلتقطه من تحت أقدامهم مباشرة!! غزولى وبريش وهندى أرباب سوابق فاقدين جعلوا من أنفسهم صفائح زبالة تلقى فيها كل الفضلات النتنة!! تعرف؟ وسمعت الليلة أنك ابن نسل طاهر طيب! وأنا أبشرك! من الليلة ستكون صاحب الحظوة عند الحاج السنى وكل أتباعه ومعارفه! هنيئا لك ياعم! فأنا إذن يحلو لى أن أنصحك نصيحة أخ غالية: ابعد عن شلتنا هذه نهائيا!! شلة النحس ما أقصد! أنت لست مثلى عدم المؤاخذة! أنا أعرف كيف أسلك معهم دون أن أتلوث بخرائهم!! ولكن تعال.. ففى غرفة البرج ناس أحلى من هؤلاء الذين يملئون السطح وأهم بالنسبة لنا ولاباس أن نكون خدما لهم! إن الخدمة عندهم شرف لنا يعطينا هيبة وأبهة ومهابة! محمد بك أبو شناف الشهير بستدرل نظرا لإفراطه فى الأناقة ولبس الشباب رغم أنه عجوز كركوب! ويحب الفتيات الصغيرات! رجل متصل بالرياسة شخصيا! لاأحد يدرى ما شغلته فى البلاد بالضبط لكنه وارد فى كل مناسبة واسمه مدرج فى كل مصيبة! يقال إنه المضحك الخصوصى للرئيس وأن الرئيس يعتمد عليه فى كثير من المهمات والمشاوير كما أنه سفير للرئيس فى كل مكان يتحرج الرئيس من ارتياده! هو رجل هزأة خل بالك! لكنه خفيف الدم مسخة! غير أن احترامه من احترام

الرئيس مع الأسف! وهو وزوجه دائران على حل شعرهما فى كل مكان لا تقف أمامهما حواجز أو سدود! كل واحد من ناحية! ولهما صداقات عالية المستوى فى جميع أنحاء الكرة الأرضية مقبال أملتك! تعال نقتحم مجلسهم لترى بنفسك!!»..

كان الكلام قد سرح بنا إلى حافة سور بعيد وقفنا مستندين عليه، ومصر عتيقة من تحتنا سديم هديم ذو قباب ومآذن تسبح فى برك القمامة ومياه الصرف والكآبة؛ وعلى البعد تبدو القاهرة مثل جلابية أمى السوداء تبرقشها نقوش بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء. لحظتها جاءنى خاطر يقول لى: خير لك يا ولد أبى ضب أن تنسلخ عن هذه المدارات كلها وتبحث لك عن فلك جديد تربط نفسك فى مداره. وجاءنى خاطر آخر يقول: وهل تقدر على ذلك يا ولد أبى ضب؟ هاأنت ترى أن جميع المدارات تؤدى كلها إلى فلك واحد كما أن جميع الافلاك والمدارات زفت وقطران. شعرت يا بوى بهذا الخاطر يقبض على ذراعى يكاد يقرصه بوجعه؛ فإذا هى قبضة بسبوبسة ممسكة بذراعى تسحبنى إلى غرفة البرج..

رأينا محمد بك أبو شناف جالسا فى الصدارة متربعا وسط مجموعة من أتباعه كالعمدة يرتدى جلبابا واسعا من الصوف بأكمام واسعة ومن تحته الصديرى الشاهى المعتبر، وفوق رأسه طاقية من الصوف، كالزعبوط، وعصاه الأبنوس أم عوجاية مركونة خلف ظهره. أما بقية الأتباع فيرتدون فاخر البذلات

وربطات العنق المفكوكة قليلا كما أن أزرار الياقات الحريرية مفتوحة وفوقها الصديرات؛ أما السترات فمعلقة على مشاجب أنيقة مزروعة فى الحوائط. أمامهم الصوانى الفضية عليها الكئوس مترعة بجميع أنواع المشروبات. وثمة أفندى أنيق غاية الأناقة من الواضح أنه غرزجى أصيل رغم الوجاهة والأبهة قد راح يقوم بالواجب خير قيام، تحلف اليمين لا أنا ولا أجدع منى ينشط هكذا. وثمة أفندى آخر لايقل عنه شياكة ولا أبهة راح يوالى توليع النار وتكسيرها وتحضيرها فى المصفاة ليغترف منها بالملعقة ويضع على الحجر بحيث لاتتوقف الجوزة فى دورتها لحظة..

بدا أنه لا مكان لنا بسبوسه وأنا؛ شعرت أن وقفتنا على الباب سوف تبوخ، لكن بسبوسة بوجهه المكشوف دفعنى نحو الباب قائلا: سلام عليكم. فإذا بهم يردون السلام ويتبعونه بكلمة: تفضلوا.. فما أن دخلنا حتى تقدم بسبوسة دون إحم أو دستور نحو صينية النار، فتقرفص بجوار الأفندى ساحبا الصينية نحوه، ثم التقط الماشة مع المصفاة وورقة التهوية، ثم اندمج فى مباشرة العمل. فانزاح عنه الأفندى قائلا: «كنت فين من الصبح!». وكان علىّ أن أفعل مثل بسبوس، فحاذيت الأفندى المسك بالجوزة ومددت يدى فوضعتها على الجوزة قائلا: بعد إذن سعادتك؛ فتركها لى فى الحال، فنزعت عنها الحجر المحترق ونفخت دخانها وسيَّختها بسرعة ثم أفرغتها فى جردل معد لذلك وملأتها

من جردل آخر به ماء مثلج نظيف. كان الدور على محمد بك أبو شناف، فمددت له البوصة قائلا: مساء الخير؛ وأقعيت أمامه حتى يشرب براحته. فالتقط البوصة بأطراف أصابعه الطويلة السرحة، ووضعها بين شفتيه الغليظتين، وطقطق ثم شد نفسا واحدا كاد يتقلقل منه الحجر؛ فعرفت أن أبخرة الويسكى وريق الأفيون يلتحمان الشهية لدخان حامى الوطيس. أما الأفنديان اللذان كانا يتوليان أمر النار والجوزة فقد توليا أمر الزجاجات والكئوس نيابة عن آخرين كانا يقومان بنفس العمل من نفس المجلس. الأفندى القريب منى تكفل بى، والأفندى القريب من بسبوسة تكفل به. كأس وراء كأس وحجر يتلوه حجر صرت كأننى مجرد سحابة من هذا الدخان.. آخر تمام يا بوى.ورنت الساعة فى معصم أحدهم فنظر فيها قائلا: «ألن نرى الفرح؟!». قالوا جميعا: «وجب!» وتأهبوا للنهوض..

كان علينا أن نبقى، بسبوسة وأنا، كى ننظف المطرح ونلم العدة. إننا يجب أن نعمل باكلنا على الأقل يابوى. وهكذا نظفنا البرج ثم رتبنا حشاياه؛ وقد راعنى أن وجدت بين ثنيات المساند كنزا ثمينا، ولاعة ذهبية فى حجم علبة ثقاب ثقيلة، عليها رسوم ونقوش ملونة، مهيبة كان رأس ملك الزمان شخصيا تطل من بينها، ومعها قطعة حشيش فى وزنها، مبرومة، بنية اللون كالصمغ اللين. قلت: أما هذه فمن نصيبى وأما الولاعة فلتعد لصاحبها. وضح لى فى الحال أنها تخص محمد بك أبو شناف

ولابد أنه خبطها من أحد الملوك العرب، وهى لن تفيدنى، إذ أنها ستفضحنى لو استعملتها أو فكرت فى بيعها يا خال؛ المرء لابد أن يحسبها جيدا يا خال؛ وإن فرحة صاحبها بعودتها ألذ عندى من فرحتى بها يا بوى؛ لأن فرحته هذه ستعلن فى الحفل تأكيدا جديدا على طهارة عنصرى الذى أعلنته عليهم الليلة الشيخة سعادة. وهكذا اندفعت لاهثا أجرى كى أحظى بشرف التبليغ قبل أن يبعث هو من يسأل عنها ويركب على أكتافى. قال بسبوسة فى فضول: «ما وجدت يا أبا على؟!». قلت: «تعال!»..

هبطت السلم جريا إلى قاعة الاحتفالات فى الطابق الثالث من الدار. كان الفرح حابكا، والجميع غائب عن الوعى، وراقصة لعلها سهير زكى، مدملجة مزلطة الجسد كالرخام الشفاف تتلوى على المسرح كعامود من الضوء يتصاعد من حلة موسيقية تغلى بالإيقاعات الحادة الحراقة فى نشوة بالغة، فالجميع ثمل حتى سحب الدخان المتصاعدة من السجائر والغلايين. جنة هذه أم جنون يا خال؟ وصلت إلى قرب المسرح أتخبط كالدهل الأعمى من فرط السكر والسطل والهياج. صارت عينى تقع على وجوه الجالسين فلا تعرفهم إلا بعد تدقيق وفحص طويلين. تجاوزت المسرح إلى الشرفة الخلفية فما وجدت أحدا؛ فقفلت عائدا أبحلق فى وجوه الصفوف القريبة من معمعة الرقص. ميزت عينى عباءة تجلس فى الصدارة بيدين تستندان على مقبض العصا، وبرأس من غير زعبوط . خرمت عليه مباشرة، فلما ازددت قربا

منه لاحظت وجود الشيخة سعادة بجواره. عجبت لأننى مررت عليهم من قبل وتوقفت أمامهم فلم أتعرفهم. تقدمت من محمد بك أبو شناف، شجعنى بابتسامة استهلال حذرة تشى بخوف غامض خفى من احتكاك أمثالى بمثل هؤلاء الأسياد خاصة إن كانوا أسيادا صياعا فى الأصل كمحمد بك أبو شناف؛ ولقد شممت رائحة خوفه تفوح من جوفه حين فوجئ بى أميل على أذنه ، التى ـ مع ذلك ـ سلمها لى فى طواعية، فهمست فيها بكثير من الحرج: «سعادتك نسيت شيئا فوق؟!». نظر فى وجهى بارتياب شديد؛ طاشت من عينيه طلقات كثيرة متوالية ترمينى بالشك والاتهام. فأصابنى الرعب يا خال، وكنت منحنيا تجاهه فخفت أن تصطك ركبتاى ببعضهما فشددتهما وشددت لسانى ليتجرك فى حلقى؛ قلت على الفور وأنا أبرز الولاعة الذهبية أمام عينيه: «قد وجدت هذه بين المساند!». فزوى ما بين حاجبيه متمعنا فيها دون أن يلمسها أو يحفل بها، ولوى شفتيه قائلا: «لا! لا شأن لى بها!»؛ فوضعتها فى جيبى. وكانت الحاشية كلها قد لاحظت كل شئ؛ مع ذلك تلكأت فى مشيتى فى انتظار أن يستوقفنى أحدهم قائلا إن الأمانة تخصه؛ لكن شيئا من ذلك لم يحدث يا بوى، فانسللت خارجا من إطار المجلس، أتعثر فى الأضواء والموسيقى المجنونة. و.. .. يا بوى واه؛ لقد حانت منى التفاتة عابرة نحو الشيخة سعادة، فتلامست نظرتى بنظرتها عبر الطرحة الحريرية البيضاء فأصابنى منها لسع حارق يا خال، تحلف اليمين يا بوى أنها بعينها نظرة أمى ولسعة البرق هذه لم أعرفها إلا في عيني

أمي لحظة تضيق بأخلاقي وتيأس من صلاحي. أرعبتني يا بو وكدت أقع من طولي؛ وقد داهمني شعور بالرهبة من أنني آتي أمرا أغضب الشيخة سعادة. نعم يا بوي، لقد خيبت ظنها بها العمايل التي عملتها في روحي يا بوي، شعرت أن الطريق مسدود وأن لا أمل في عفو الشيخة سعادة إلا بعد لأي شديد. شعرت كذلك أن أيام نحوس قادمة سوف تعترضني لا محالة وحطت على كآبة ثقيلة يا خال، وباخ الحفل في عيني، وتحولت الراقصة إلى حية رقطاء تتلوى تبخ السم حيثما ترنحت. لله در الخلق من نفوسهم الأمارة بالسوء. وهكذا يا خال رأيتني أجلس في الشرفة الخلفية وحدي على يميني القاهرة وعلى شمالي الفسطاط وتحت قدمي مصر عتيقة وأمامي منيل الروضة والجيزة، قرط من الأضواء الملونة تتشابك أقواسه وتتنافر وتتناثر، معلق في صدر معتمة، تلك العتمة التي تبرك على كيمان من القمامة والأسرار المنتنة.. فما لي ضائق بذنبي البسيط يا بوي؟!..

إلا وخطوات تدب من حوالي تنتزعني من وحدتي، كانت الشيخة سعادة مقبلة تعدل هندامها؛ ومن خلفها موكب جعلت أتبين فيه الحاج السني ومحمد بك أبو شناف وبقية الحاشية. كان الحاج السني قد شرع يعدل الوسائد ويهيئ للشيخة مجلسا. أما هي فقد بدا أنها تتأهب للانصراف؛ فها هي ذي تتأبط حقيبتها الثمينة المحندقة، وتلفتت طالبة عم زهدي السائق، الذي

كان أطوع لها من لفتتها. وقف الحاج السني محتجا بشدة: «ما ينفع هذا يا ستنا الشيخة! نحن لم نجلس مع بعضنا بعد!» قالت الشيخة: «ورائي سفر طويل كما تعرف! وعما قريب يكون لي الشرف بزيارة أخرى!». قال محمد بك أبو شناف: «وأنا ما مصيري يا ست الشيخة؟ على الأقل خمس دقائق معي! إقرئي لي حتى العناوين الكبيرة من كتابي!». قالت الشيخة بكبرياء ولباقة: «كل العناوين تؤكد أنك الليلة غير مؤهل لقراءة أي شئ فلست وحدي التي ستقرأ كتابك! بل إنك الذي سيقرأ ولست إلا معاونة لك أنا والورق! لكنني أعدك يا سيدي الفاضل أنك لو قابلتني في حالة أصح وقلب أخلص ونزعة أطهر فإنني أعدك بأنك تفهم كتاب حياتك سطرا سطرا! وتستوعبه معنى معنى! خذ رقم تليفوني من الحاج واتصل بي وقتما تشغر فنحدد لقاءً ها هنا!» ثم إنها شفعت بابتسامة مهذبة، ثم استدارت إلى كأنها في غير حاجة لرد محمد بك أبو شناف وسلطت على نظرتها قائلة: «أما أنت أيها الشقي التعس فلي حساب معك في وقت يحين عما قريب!!»..

شعرت والله يا خال كأن الأرض تميد بي، لكنني شعرت مع ذلك أن في أعماق صوت الشيخة نبرة عطف وأنها سوف تحنو على مادامت وصفتني بأنني التعس، لابد أنها ستشفق لتعاستي، قالت ذلك ثم سلمت على الحاج وعلى محمد بك أبو شناف ثم الحاشية. وتوقعت أن تسلم على أنا الآخر ، وصدق توقعي يا بوي؛ فانتثرت على الأرض بدءا صرت أقبل يديها في طلب

العفو والسماح؛ فربتت بيدها الأخرى على ظهرى فى حنان حقيقى قائلة بصدق حقيقى استشعرته: «ربنا يهديك ويطرح البركة فيك! آمين يارب العالمين!». فإذا بالجميع يرددون خلفها مثل بطانة المغنى: «آمين يارب العالمين!»، فشعرت والله يا خال أنه سوف يستجيب لابد لهذه الصيحة الجماعية. وقد أصر الجميع على توديع الشيخة سعادة حتى باب السيارة، حيث راح الحاج السنى وأبو شناف يوصونها بتبليغ سلامهما إلى السيد المحافظ وشكرهما العميق؛ وكان عم زهدى السائق يهز رأسه كأنه المعنى بالشكر. كلمة من هنا وكلمة من هنا فهمت أن السيارة هى سيارة المحافظ، محافظ أسيوط والله يا خال، وأنه مجاملة منه للحاج ولأبى شناف تطوع باستدعاء الشيخة سعادة وتوصيلها إليهما بسيارته الخاصة.. حاجة تهوس يا بوى وحق الله. بعد أن تحركت السيارة شرعوا ينصرفون. وقبل أن أنصرف شدنى الحاج من كم جلبابى قائلا فى عشم ومودة: «خليك تحت عينى باستمرار يا ولد يا عكروت! لقد أوصتنى الشيخة بك كأنك منها بموضع الأخ الشقيق! فلا تجعلنى أسأل عنك بعد الآن!». قلت فى غبطة: «حاضر يا حاج!»، ومضيت أترنح لا أدرى كيف الوصول إلى أى شئ فى أى مكان.

العاشرة ـ طيف الخيال

العيال المفتحة ليست بالساهل يا بوى. ولد مثل بسبوسة هذا ملقط ابن ملقطة! يجمع المعرفة والمعلومات بكل سهولة ودون أن يبذل أى مجهود. ولقد يسعى الواحد منا لمعرفة أشياء بعينها أو معلومة عن شيء معين فيقضى فى ذلك شهورا وربما سنوات، وقد لا تجيء هذه المعلومة صحيحة بعد التعب. أما بسبوسة، عينى عليه باردة، يجيء لك بالخبر اليقين من أيما مكان تريد، هو ولد ناعم، جذاب يا بوى، يدخل فى الزوارق دون أن يسبب أى وجع لأحد، وينصت لكل شيء ويجعل باله من كل شيء. ولد واع بحق! مولود ليكون مخبرا، وعلى وجه الخصوص عن بيوت الدعارة، غير أنه يوسع دائرة عمله فيشمل بيوت الدعارة بجميع أنواعها؛ يجمع الأخبار لا ليبلغها للحكومة بل لينتفع بها عند اللزوم، هو خير من ينتفع بها؛ هو خبير بأمر إعلانها لا يكشف عنها إلا عند اللزوم، حيث يكون لإعلانها ثمن كبير، هو مع ذلك لا ينسى المعلومة حتى تتعفن وتصبح معروفة؛ فقبل أن تزمع الحكومة مهاجمة الجرسونيرة يكون هو أسرع ولو بدقائق تكفى لقبض المعلوم وتفويت الفرصة على الحكومة..

واه يا بوى؛ الكفت تعلمته من ولد الأبالسة هؤلاء، ليس المرء يكون ابن ليل لمجرد أنه يعاشر أولاد الليل أو يفعل أفاعيلهم. الشاهد يا بوى؛ قل إن الولد بسبوسة دخل على شقتى مبتسما ابتسامة ملونة يا بوى، قلت سترك يا رب، سحبته ورائى إلى المطبخ قائلا: «تعال أعمل لنفسك شايا»، وقف بجوارى يغسل الأكواب على رخامة الحوض وجسده كله يهتز ويترجرج من فوق لتحت ومن تحت لفوق؛ وإذا به يضحك ضحكا مكتوما معلنا فى نفس الوقت. قلت معطيا إياه ظهرى فيما أشعل عين البوتاجاز وأضع البراد فوقها: «مالشفتك عائمة يا ولد الفرطوس؟!». فكأننى أعطيته الإذن الشرعى بالانفجار فى الضحك يا خال، فصار يترنح ويتمايل من فرط الانبساط والسخسخة، وكان يتكلم خلال ذلك، لكن تحلف اليمين ما فهمت منه كلمة واحدة توحد ربها؛ إنما هو مندمج فى الهلفطة والفأفأة والبغبغة، كل ما فهمته من كلامه يا بوى أسماء الحاج السنى ومحمد بك أبو شناف والملك فاروق ورجال الثورة والعائلة الخديوية والدنيا والدين وزيطة وزنبليطة. واه يا بوى، ما الذى لمّ الشامى على المغربى؟ وما الحكاية بالضبط ولد الفرطوس..

وكنت أظنها نكتة جاءنى الولد بسبوسة بها لنقضى على حسها عصرية ممتعة؛ فإذا به جاءنى ببلوى كبيرة يا خال، صرت أجمع نفسى على كوبة الشاى وأنا جالس معه فى الصالة لعلنى أفهم جلية الأمر، فلما كف عن الضحك مسح دموعه وبدأ يلخص الأمر

كأنه اضطر للكلام المباشر يأسا من غباثى: «يعنى بالمفتشر! الكنز الذى عثرت عليه أنت ليلة ميلاد ابنة الحاج طلع على فاشوش! طلع لي اصحاب! قل إنه بصريح العبارة لم يكن كنزا بل هو بلوى سوداء مسيّحة!»، قلبى راح يرفرف كطير مذعور فى قفص من الجريد الخرع، من ريق ناشق كالعصا قلت: «كنز ماذا يا ولد الفرطوس؟! تظننى لقيت كنزا؟!» لكزنى صائحا: «لا تستعبط على نفسك! إننى ما قصدت إلا مصلحتك يا صعيدى، يا صعيدى يا لحف! أنت تتلاءم علىَّ؟! أما أنا فما قدرنى الله على قوله فى حقك فلله وأجرى على الله!!».وكنت أفهم ما قد بدأ يرمى إليه الحديث، لكننى والحق يقال تمسكت بالاستهبال لعلنى أفهم أكثر دون أن أتورط فى اعترافات تضع يدى فى الحديد، ولد الفرطوس هؤلاء علمونى أن أكون حويطا معهم؛ بسبوسة نفسه حذرني منهم، خفق قلبى حين تذكرت نصيحة بسبوسة المخلصة لى، زريت بنفسى على التلاؤم عليه، لمتها، لكن صوتا فى نفسى رن قائلا إن تحذير بسبوسة لى من رفاقه لا يمنع من أن أستفيد به فى التعامل معه أيضا؛ فهو فى النهاية واحد منهم، ضوأ فى خاطرى إلهام بأننى مادمت قد فهمت ما يرمى إليه فخير لى أن تظهر صورتى بريئة كما قد أردتها فى ليلة قوت القلوب، رن الصوت فى صدرى: لقد أظهرت براءتك أربعة وعشرين قيراطا؛ نزلت ومعك الولاعة وقطعة الحشيش وعرضتهما على الجالسين فلم يتعرف عليهما أحد، بل تجاهلوا الأمر من أساسه كأنه لا يخصهم، فلا عليك إذن. وعاد الصوت نفسه ليرن فى صدرى ثانية، ولكن

الولد بسبوسة ورطك الآن ولا يصح أن تظهر أمامه فى صورة من يريد أن يضرب العوافى على اللقية التى التقيتها..

وضع الولد بسبوسة ساقا على ساق، عوج رقبته نحوى قائلا فى لهجة ذات معنى: «هات نلف سيجارتين من الحلويات التى معك! أم تراك تلهطها وحدك؟! إياك تقول إنها نفدت! تكون أكبر مفترى لو قلت ذلك!». وركز بصره فى عينى بشكل جعلنى كالقرد المقيد بالسلاسل. حاولت الفلفصة فلم أقدر يا بوى، ثم إنه أسرع فأخرج علبة سجائره ودفتر البافرة وشرع يفرط السجائر وينقيها من العيدان الخشنة ويشرشر ورق البافرة؛ فيما أتابعه أنا فى لامبالاة، فلما أنتهى من ذاك أبقى الدخان مكوما على ورقة البافرة ثم فرك أصابعه فى الهواء أمام عينى كأنما يقول: هات ما سنفركه، فلما أن تلكأت قليلا شخط فى مشوحا بذراع مبرومة لا شعر فيها كذراع الأنثى، قائلا: «ما تجيب يا لوطى!!» فبكل هدوء وبساطة قمت ذهبتُ إلى حجرة النوم فسحبت الحشيشة من بين الكراكيب فوق دولاب الثياب واقتطعت منها قضمة لا بأس بها، ولففت بقيتها فرميت بها مطرح ما كانت؛ وعدت إلى بسبوسة، رميت بالقطعة أمامه على الطقطوقة؛ فانقضت عيناه انقضاض النسر على فريسة، ثم أمسكها بأطراف أصابعه قائلا فى غبطة شديدة: « يا بن الكا...ا لب!! ذى حشيشة طيبة ما أنزل الله من مثلها فى الأرض!! شف أولاد الكلب والحشيش الذى يشربونه من دوننا!! أى عدالة فى هذه الأرض بحق الله؟! عدالة الشيطان

وحدها هى التى تجعل هؤلاء القوم وحدهم يشربون أجود حشيش فى الدنيا ويضاجعون أحلى نساء البلاد ويفترشون ريش النعام ويأكلون الدندى والجمبرى والكابوريا!! ونحن بعد ذلك نحملهم حتى لا تتلوث أقدامهم بالأرض!! ليتنا نحملهم إلى القبر! آه لو كنت أستطيع أن أصبح لصا محترفا! إذن لعرفت كيف أحكم هذا البلد!!».

وصار يتحسس التعميرة ويفرك منها حبات سمسم ينثرها فوق الدخان، ويلف السيجارة بحذق ومهارة وأعصاب رائقة، كأنه يتعبد فى جامع الكيف، وإذ انتهى من لف السيجارة التى صارت تشبه القرطاس وضعها بين شفتيه بعناية ونظر لى محركا إبهامه فوق زناد وهمى! ففهمت أنه يطلب الإشعال. سحبت علبة كبريت من جيبى وجعلت أفتحها؛ فصدنى بيده قائلا من بين شفتيه المضمومتين على السيجارة، «لا يا حدق! أشعل بالولاعة الذهب! خلها شبرقة فى شبرقة بالمرة! إن هذه التعميرة لا يليق بها الكبريت! مقامها الولاعة الذهب!»..

يا ولد الصايعة؟! هكذا قلت فى نفسى، ثم شوحت له قائلا: «ليس معى ولاعات!». شوح قائلا كأنه يعلن انسحابه من القضية كلها: «بلاش! الكبريت أحسن!»، واختطف العلبة ففتحها وطش عودا صار يلوح بشعلته فى مقدم السيجارة ويشرب بلذة فائقة، والسيجارة تنساب فى فيه منكمشة على نفسها شيئا فشيئا، فلما شعر أنه قضى وطره منها سلمها إلىّ كاتما دخانها فى منخريه

وشـرع يبرم واحـدة أخـرى، وقد بدا أنه صـهلل من نفس واحـد صهللة كبيرة، قال وهو يشعل الثانية: «سأحكى لك حكاية بسيطة لكنها مـضحكة ومسلية وفـيها موعـظة!»، قلت بغيظ: «كلمنى أولا فـيمـا جئت تكلمنى فـيـه!»، قال: «لن أكلمك فى شـىء إلا بعـد أن احكى لك هذه الحكاية البـسيطة المضحكة!»، قـلت بضيق: «احك!»، فاعـتدل فى قعدتـه قائلا: «لما قامت ثورتنا المبـاركة وطردت الملك فاروق ووضـعت يدها على العـرش! وضعت يدها أيضـا على كل مجوهرات العائلة المالكة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «وكـلفت لجنة بجرد هذه المجـوهرات أعضـاؤها كلهم من الضباط الأحرار ومن مجلس قيادة الثورة! حلو؟!»

قلت: «حلو».

قال: «مـجوهرات العائلة المالـكة هذه ليست لعبـة! ففيـها تحف وحلى وتماثيل وأشياء لـلاستعمال كـالملاعق والأطباق والصوانى والسـاعات والولاعـات كلهـا من الذهب والفضـة بعـضهـا مطعم بالأحـجار الكريمـة كالدر واليـاقـوت والماس! وكل هذه المقتنيـات تخص العائلة المالكة من عهد محمد على حتى الملك فاروق! منها ما صنع خـصيـصا بتكليف ومنـها مـا أهدى إلى أحد ملوك العـائلة ومعظمها نادر لا مثيل له فى الدنيـا! كلها أشياء لا تقدر بمال، كلها أشياء سلطانية خطيرة: حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «يقول المقولون فى البلاد فى الغرف المغلقة والمنشورات السـرية أن اللجنـة التى جـردت ووضـعت اليـد على المجـوهرات نقلتها إلى مكان يحفظ عليها فيـه حتى يحين الحين لوضعها فى المتاحف! هذه اللجنـة قد تبجحت فـى الجرد حبتـين! كلهم بالطبع أبناء ناس فقراء فى الأصل! بعضـهم طمع فى قرط ذهبـى ثمين فسربه إلى جيبه لزوجه!! ومنهم من تحـفظ على فرع من الألماظ بعدة أدوار فواراه فى حقـيبـة يده! ومنهم من طمع فى خـواتم وساعات! ومنهم من لمْ يتمكن لخيبـته أو حسن أخلاقـه من هبر شىء فاسترضاه الآخرون بهـدية تملأ العين! جملتهم أرادوا شراء ذمم بعضهم بعضا وذمم بعض كـبار القـوم ممن بأيديهم الحل والربط فـأرسلوا لهم بعض الهـدايا النادرة ذات التـاريخ لكى يسكتوا عنهم إذا بدر بادر! ويقال إن بعض أبناء عـلية القوم ضبط فى أوربا يبيع مـاسة أهدتهـا ملكة إيران ذات يوم لـملكة مصـر! حلو؟!»..

قلت: حلو.

قال: «محمد بك أبو شناف من بيـن أعضاء اللجنة! وقد اختلس لنفسه وكبار وجوه عائلتـه بعض التحف الثمينة ومن بينها ولاعة من الذهب الإبريز الخـالص المطعـمة بالدر واليـاقوت! وكـان الملك فاروق قـد تلقى هذه الولاعة من شاه إيران! وقـيل إن الذى تلقاها أبوه الملك فؤاد! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».

قال: « الطريف يا جدع أن محمد بك أبو شناف هو الذى يتكلم اليوم كثيرا عن مجوهرات العائلة المالكة! وعن الذين نهبوها! يفرح غاية الفرح عندما تظهر إشاعة عن أحد اكتشفوا عنده شيئا من مجوهرات العائلة المالكة! وبعض الناس الاكابر الذين كانوا جالسين على السطح ليلة قوت القلوب وقد حدثتك عنهم ليلتها يقولون إن شيوع الإشاعات حول بعض الناس يبعد الشبهات والأنظار عن محمد بك أبو شناف وإنه لهذا يقف وراء بعض هذه الشائعات! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».

قال: «محمد بك أبو شناف ينسى نفسه دائما ويضع هذه الولاعة فى جيبه ليتباهى بها أمام بعض الناس الذين يحب أن يثبت لهم أن له صلات وثيقة بالملوك والرؤساء وكل الناس الأبهة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».قال: «ومن شدة هبل محمد بك أبو شناف ومن شدة سطله على الدوام جاء بالولاعة معه إلى حفل عيد ميلاد قوت القلوب ولصق بها أوقية حشيش ليصنع بهما مصيبة فى قلب الحفل! شف وساخة الرجل! على فكرة! كل الوسخين دمهم خفيف ولا أعرف السبب فى هذا! البنت قوت القلوب مسكينة وقلبها أبيض ومحرومة من حنان الأم ولهذا ربنا ستر ليلتها فلم يشعر أحد بشئ سوى نفر قليل! الحاج السنى وأنا! أصلى على

علاقة طيبة بالحاج دون شلة النحس كلها! أنا الذى عرفتهم به! إنه يحبنى جدا ولا يقدر يستغنى عنى! يحبنى أكثر من المرحومة زوجته! بصراحة إنه يتعشقنى!! ههأو أو! يظننى على جوه! خير وبركة! أنا أيضا أتركه يتحسس أثدائى على سبيل المزاج! يطبطب على إليتى من باب العشم! يكلمنى بصوت متهدج! لكن على من؟ إنه يبوح لى بأخطر الأسرار! لو طلبت عينه لنزعها فى الحال وسلمها لى! لكنه إذا كان ولدا صايعا فأنا أصيع منه! إنه لم يجر هاريا وراء عربات الرش ولم يبت فى الخرابات مثلى ولم يتشعبط فى سلالم الترامواى بحثا عن قوته! ولهذا فأنا أعرف كيف أستفيد منه! إنه سهل وصعب فى نفس الوقت! إنه كالمال العام يسيل بين يديك لكنك تدخل السجن إن ضاعت منك قطرة واحدة منه! وأنا ألصق بالحاج السنى لكنى لا أتركه يدخلنى! فلو دخلنى أو دخلته ضاعت حياتى! فى كل يوم أرى فيه موعظة! هل تتخيل أنه كان على علم بالمصيبة التى يدبرها محمد بك أبو شناف فى منزله فى حفل ابنته؟! أخشى أن لا تصدقنى إذا قلت لك أن الحماس لإقامة الحفل لم يكن عيد ميلاد البنت فحسب، بل من أجل إتمام المصيبة! تصور يا ولد يا أبا على أن الشيخة سعادة هى التى شعرت بأن فى الحفل جوا غير طبيعى! الواضح أنها شقية من قطاع الطرق! أقطع ذراعى إن ما كانت من مطاريد الجبل! عندها خبرة وموهبة فى معرفة رجال الشرطة السريين تشم رائحتهم عن بعد فلما شعرت بذلك انصرفت قبل أن تقرأ بخت البنت وبخت محمد بك أبو شناف! إنها موهوبة ولديها كتاب عتيق عجيب ملئ بالصور

الغريبة الملونة كأوراق اللعب لكن كل واحد من بنى آدم يجد نفسه بكل مشاكلها وأوجاعه ملخصا فى صورة من صوره التى تقرأها الشيخة سعادة كالبلبل! ظهرت حديثا وقد سمع بها محمد بك أبو شناف والحاج عن طريق ناس من أعيان أسيوط فطلباها عن طريق المحافظ الذى تحرى عن مكانها فبعث فى طلبها وأرسلها مع سائقه الخصوصى!! المهم يا أبا على أن مصيبة محمد بك أبو شناف حين فشلت ولا بد أن تكون الشيخة سعادة قد قرأت تعزيمة أفشلتها ـ عاد محمد بك أبو شناف إلى منزله وطلب الحاج السنى بالتليفون ليقول له إنه نسى ولاعته فى غرفة البرج! شف العهر يا جدع!!»..

قلت فى غيظ: «اسمع يا بسبوسة: أنا أخرق عين التخين؛ فأنا الذى عثرت على هذه الأمانة وذهبت من فورى إلى حيث يقعد محمد بك أبو شناف وحاشيته والاديشه! وعرضت عليهم الولاعة! بل قلت له بصريح العبارة. يا سعادة البيه هذه الولاعة ضاعت منك؟ أتعرف ماذا فعل يا بسبوسة؟ وطربة أبى نظر لى كأننى لص هجم عليه يسرقه؛ فكيف تجىء أنت الآن وتقول إنه كلم الحاج فى التليفون؟ حاجة من اثنين يا بسبوسة: إما أنك تختلق هذا الكلام بعد أن علمت بالخبر ممن رأونى أعرض الأمانة على البيك؛ وإما أن البيك أبو شناف واسع الذمة وقد طمع فى الولاعة مدعيا أنها ولاعته!!»..

انفرط بسبوسة من شدة الضحك يا بوى حتى لم يعد قادرا على أن يلم نفسه من جديد، فخيل لى أن رأسه فى مكان ويداه فى

مكان وكل جزء من أجزاء جسمه فى مكان حتى صوته كان مبددا هو الآخر فى ضحك تتخلله حركات بذيئة وشخر وغنج، وكنت أوشك أن أتبدد مثله؛ لكننى صحت فيه بغيظ: «أما تثبت يا ولد الفرطوس؟!» فمسح دموعه بكم جلبابه وصار يعتقل الضحك بقوة قائلا: «أنت أصلك صعيدى قحف! ياله من منظر! ألم تفهم معنى الورطة التى أوقعت فيها محمد بك أبو شناف؟!» نورت لمبة كبيرة فى دماغى يا بوى فى ضوئها رأيت الورطة التى أوقعت فيها الرجل، لوحت بأصبعى تجاه موطن عقلى كأننى أحييه على نزوله إلى منطقة الضوء؛ قلت ضاحكا: «نعم نعم يا بو العم؛ أنا فعلا أحرجت الرجل يا بو العم إهئ هئ! صاحبنا وقعت منه سريقة مشهورة؛ فجئت أنا بسلامة مخى التخين لأردها له وسط جمع غفير فى حفل كبير! لم يكن! ينقصنى سوى أن أقول له بالفم المليان: خذ يا سعادة البيه الولاعة التى كنت سرقتها سيادتك من مجوهرات العائلة المالكة! هئ! كلانا مثل الصعيدى الذى سرق الكلوب المشتعل بالضوء وراح يختبئ به فى مكان مظلم!!»..

وصرت أخبط بكفى على ركبتى فى اتعاظ واستحسان كأننى فهمت شيئا كبيرا يا بوى، تحلف اليمين يا بوى أننى فرحت فرحا غامضا، على أن الولد بسبوسة الملعون عاد يستأنف الضحك من جديد أقوى مما كان، وأنا أشاركه الضحك حينا وأكتفى بالنظر إليه حينا آخر فإذا هو خلال اندماجه فى الضحك يبعبص لى بأصابعه فى الهواء؛ ثم اعتدل فى قعدته فلمّ جسده واتخذ مظهرا

جديا. وانحنى فوق الترابيزة وراح يفرك السجائر على ما تبقى من قطعة الحشيش، فيما يقول بلهجة حميمة: «أنت غشيم يا حسن وعلى نياتك!»: ثم أشعل السيجارة واستطرد:

ـ تظن أنك فهمت حقيقة المنظر! ولو عرفت الحقيقة لضربت رأسك في الحائط من الدهشة والعجب! محمد بك أبو شناف طماع ولص كما تقول هذه ليست محتاجة لتفتيح مخ! هو يا حدق ليس يغتاظ إن جئت أنت بسلامة نية ورددت له الولاعة! إن وجهه والحمد لله مكشوف على الدوام لفحة هواء العهر والتبجح حتى انحرقت دماؤه وتكلست عضلاته مثل القدم الحافية إذا مشت على الأرض بغير حذاء مدة طويلة صنعت لنفسها حذاء بكعب صلب لو خرطته بسكين يلتوى السكين ولا ينفذ فيه! هكذا وجه محمد بك أبو شناف! إننى أخدمه فى قعدات كثيرة من سنوات بعيدة عند الحاج السنى وغيره! كما قدر لى أن أعرفه منذ طفولتى قبل قيام الثورة حيث كان أبو شناف هذا يعمل فى مهن كثيرة! فمرة كان ضابطا فى الجيش المصرى ورفدوه! وقالوا إنه جاسوس ألمانى فاضطهدوه! أول ما تعرفت عليه كنت أسقيه الحشيش فى دورة فى مدينة السويس! كنت طفلا صغيرا وكان هو سواق عربة نقل كاميون مع شلة من السواقين زبائن المطرح! إننى من السويس كما تعرف ولم أستوطن هنا إلا أثناء الهجرة! الحكومة عينتنى فى الحكومة نظرا للظروف المؤلمة التى عشناها فى السويس! حيث فقدنا بيوتنا وإخوتنا وآباءنا وأمهاتنا وعقارنا وذكرياتنا وكل شئ

وانزرعنا فى أماكن أخرى! ثانى مرة تعرفت فيها على محمد بك أبو شناف اتضح لى أنه فى الأصل عتال شغلته تحميل عربات النقل بالبضائع والمنقولات ثالث مرة كنت أسقيه الحشيش فى فيلا فى مصر الجديدة يملكها رجل كان أعلى رتبة فى الحرس الملكى حيث كانت أمى تعمل دادة ومربية فى بيته فكنا أنا وإخوتى ننتهز الفرصة لنجد لأنفسنا أعمالا فى البيت وسط العز والنغنغة! اتضح لى فى هذه المرة الثالثة أنه ضابط فى الجيش حيث قد عاد إليه بعد رفده. ثم بعد ذلك صرت ألتقيه فى أماكن كثيرة فعن طريق صاحب الفيلا وخدمتى لأصدقائه وزواره تعرفت على أجواء كثيرة مدهشة وانفتحت لى بوابات لو دخلتها أنت لتهت فيها! من حسن حظى أننى رأيت ناسا كثيرين قيل لى همسا إنهم من الضباط الأحرار لكن العجيب أننى كنت أرى الواحد منهم واحدين: أحدهما ضابط وهذا ما لا أراه أبدا والآخر مقاول أو تاجر تحف نادرة أو صاحب محلات وإقطاعيات وعزب! تعودت ألا اندهش من أى شئ! تعودت كذلك ألا أصدق القانون إلا إن كان فى مصلحتى! لم أعد أخدم الحكومة وإن كنت أقبض منها ماهية! فاخرة خدمة الغز علقة! أنا أخدم نفسى أولا ثم أعطى ما فاض منى للحكومة!! إذا كانت الحكومة كلها غارقة لأذنيها فى الفسق والعشق والعهر فبأى وجه أروح لأقبض على بغى تعيسة الحظ ليس وراءها أو قدامها معين ولا سند؟ يا بخت من نفع واستنفع! أنا بصراحة أجىء فى صف الناس فأحذرهم من الحكومة وهم فى المقابل يكافئونى بالحب والإغداق!!»..

وشد السيجارة من شفتيه وقدمها لى وقد احمرت عينه وانزرد وجهه، وبدا أن الحشيشة اللعينة قد سرحت بمخه فشردته وبعثرته فى كل مكان فصار يلقى ببقع من الضوء المشع فى مناطق متعددة من الأمور والنواحى، ولما شفطت النفيسات المتبقية فى السيجارة حتى الذبالة وتعشش الدخان فى جبهتى تذكرت أن أمر محمد بك أبو شناف لم ينته بعد، وأن الولد بسبوسة قد سرح بى وبعثر مخى أنا الآخر فى مكان ألقى عليه لمعة ضوء هذا ولد ساحر يا بوى. هذا سويسى عريق كان يجب أن أعرف سويسيته قبل أن ينطقها يا بوى لكنى كنت مبسوطا ومشعشعا إلى حد بهيج يا خال؛ حتى فكرت فى التنازل عن قطعة حشيش أخرى تشعلل بها هذه الحالة التى صرناها؛ لولا أننى نظرت فالتقيت التعميرة قائمة ما تزال على الترابيزة بين بقايا ورق البافرة ونثارات الدخان مثل بلية كبيرة مزلطة لامعة كالمدهونة بالزيت. لافانى العكروت سيجارة ملفوفة، سحبت عدة أنفاس متلاحقة كتمت دخانها فى منخرى تاركا القليل منه يتسرب كأننى أجلو مخى من الداخل بالليفة الخشنة وقلت وأنا أرد له السيجارة متوهجة:

ـ « فتحت لى موال محمد بك أبو شناف فلم تتمه؛ أنت حين شرعت تتكلم أوهمتنى أنك ستقول شيئا عن محمد بك أبو شناف يبعد عن مداركى ومفهوميتى؛ ثم نسيت موضوع محمد بك أبو شناف وحكيت لى قصة حياتك!! أعرف أن التعميرة جيدة تسرح بالدماغ لكننى متفطن ما أزال!»..

فلمع الذكاء الحاد فى عينيه كبرق الشمس، فعاجلته قبل أن يسرح ثانية: «وقلت لى إن محمد بك أبو شناف دبر مصيبة فى الحفل ولم تقل لى ما هى هذه المصيبة والعياذ بالله!!» فخبا بريق الشمس تحت جفنيه وهو يغلقهما فى نشوة جذب الأنفاس؛ ثم قدم لى بقية السيجارة وقد ميل رأسه على كفيه تاركا سحب الدخان تهدر على صدره؛ ورفع رأسه قائلا من خلال أنف مزدحمة بالمخاط:

«الأمر باختصار أن الورطة التى وقع فيها محمد بك أبو شناف كانت معقدة؛ لا أنت ولا غيرك لو كان جنا مصورا يستطيع أن يفهمها؛ محمد بك أبو شناف كان يريد أن يدس الولاعة مع قطعة الحشيش على واحد من الأفنديين اللذين كانا يتوليان السقيا قبل حضورنا؛ الأفندى الذى كان ممسكا بالجوزة؛ إنه ضابط مخابرات ويقال إنه ذو منصب مهم فى تنظيم لم نسمع به من قبل اسمه التنظيم الطليعى من داخل الاتحاد الاشتراكى كما أفهمنى الحاج السنى؛ يكرهه محمد بك أبو شناف لاعتقاده أنه مدسوس عليه لكتابة التقارير عنه والتسجيل له إن أمكن؛ ومحمد بك أبو شناف يقربه منه ليمص سمومه ويتمكن فى نفس الوقت من قطع رقبته!! تشاء الصدفة أننى حين نزلت بعدك من غرفة البرج العلوى اصطدمت فى زحام الحفل بهذين الأفنديين جالسين بين جمع من الفنيات المهلبية يسكرون ويدخنون السجائر الملفوفة والدنيا زئيط وكل واحد فى حاله؛ الأفنديان كانا يضحكان بعمق

ويشخران! توقفت خلفهما لعلنى أستلقط من حديثهما بعض الأخبار عن البنات اللائى يجلسن معهما خاصة أن شكلهن ممن يقمن بأعمال لصالح المخابرات! وكنت أرسم على نفسى هيئة من يقف رهن الإشارة لأداء الخدمات باعتبارى من أهل الحفل! فإذا بى أفهم موضوع حديثهم وسخريتهم! حكى الأفندى الذى كان ممسكا بالجوزة أنه ضبط محمد بك أبو شناف يسرب يده فى الخفاء ويسقط فى جيبه الولاعة وقطعة الحشيش! فأحس بالذعر والرعشة خاصة أنه كان علم من طرف خفى أن شيئًا يدبر له فى الخفاء! أيقن أن البوليس واقف يترصده على عتبة الباب لكنه مع ذلك لم يجرؤ على صنع فضيحة مزعجة فى الحفل! ولو أنه صاح ولفت الأنظار فسوف يزعم محمد أبو شناف بكل بساطة أنه لا يعرف شيئا عن الموضوع! ما صدق صاحبنا أن نحيناه عن الجوزة حتى جلس متربعا على الشلتة وبصنعة لطافة أخرج المصيبة من جيبه وصار يحركها بيده خلسة حتى حشرها بين السند والشلتة خلف ظهر محمد بك أبو شناف مباشرة!!»..

تحلف اليمين يا خال أننى شعرت كأن تركيبة الدنيا كلها قد تفككت ولم يعد فيها ضلع يمسك بالآخر، والهواء يصفر بين الشروخ صفيرا مرعدا مزلزلا، أفى الحياة نحن يا بوى أم فى جهنم حمراء اللون كالدم؟ لابد يا خال أن محمد بك أبو شناف هو أحد الزبانية، أو لعله إبليس نفسه، ويبدو أن منظرى كان متجمدا على الذهول كأننى انسخطت حجرا بملامح مقفولة.. فها هو ذا

الولد بسبوسة يغرق فى ضحك ماجن لبرهة طويلة فيما يشوح الهوى بيده فى غمز انعقد دماغى لبرهة أطول فشعرت كأنه يستجمع كل إدارته ومندوبيه ومراكزه ليعقد اجتماعا طارئا يدلى فيها كل بدلوه فى هذه الكارثة الكونية المسماة بمحمد بك أبو شناف إنه آفة من آفات الزمن وأسخم من الحاج السنى بطوفين، دماغى يا خال صار مزدحما بالخلق وبالأخذ والرد والغاغة والضجيج، ولحظة أن أوشك كيس دماغى يتفرتك ويضيع كل ما فيه سدى، طقت الفكرة فى رأسى. فوجدتنى أصيح فى بسبوسة واضعا ساقا على ساق: «لكن من الذى أخبرك يا حلو أن محمد بك أبو شناف كلم الحاج السنى فى التليفون ليخبره بأمر الولاعة؟!» نظر إلىّ الولد فى استهانة شديدة وشوح بجوار رأسه علامة على ضياع مخى، وقال: «تقولوا طور يقول احلبوه!». ثم انفجر ضاحكا وراح يمسح دموعه:

على كل حال الحاج السنى قلب عليك الدنيا! وأنت من يوم الحفل لم تره وجهك رغم أنه أوصاك بالمجىء! هو على فكرة مقتنع ببراءتك ومقتنع أيضا أن الولاعة فى جيبه لأنه واثق أنك لن تستطيع التصرف فيها بأى شكل!»..

وكان قد برم آخر سيجارة وقدمها لى لأفتتح اشعالها قائلا فى جدية كبيرة: «نشرب هذه السيجارة ونتكل على الله إلى عمك الحاج قلت فيما أجذب الأنفاس مغمض العينين: «وماله!» ثم سلمته السيجارة فعلقها بين أصبعيه حتى تسترد انفاسها قائلا:

«لا تنس أن تجئ بالولاعة معك!». ولم استرح للهجته فى قول هذه الكلمة يا بوى. شئ فيها نخسنى كالدبابيس الدقيقة وقال صوت فى دماغى: إياك أن تذهب معه الآن يا حسن فانت لو ذهبت معه الآن على هذه الصورة فسيظهر للحاج السنى أن بسبوسة هو الذى قبض عليك وجاء بك، ولربما تبجح بسبوسة وغمز للحاج بأنه لولا همته ما رأى الحاج وجهك، وجدتنى ارد على هذا الصوت: باه! أهطل أنا يا بوى؟ ولاد المدينة القحباء يستغفلون الصعايدة؟! كيف يا بوى؟!.. ثم قلت لبسبوسة بلهجة خشنة: «اسمع يا بسبوسة يا صاحبى! أنا اثبت نيتى وأمانتى! والأمانة فى الحفظ والصون! ولكن إذا تصورت أننى يمكن أن أذهب معك الآن يكون تصورك كعشم أبليس فى الجنة! أنا كنت ساذهب إلى الحاج تلقاء نفسى يا بو العم! لست منتظرا أن ياخذنى أحد من يدى ليسلمنى إلى الحاج! أم أنك تريد أن تصغرنى أمام الناس يا بسبوسة يا خوى؟ شف يا بو العم! إذا ما كان الحاج قد استغيبنى فوالله ثلاثة ما فضيت أهرش! اذهب أنت وساكون فى عقبيك بعد نصف ساعة!».

رأيت الزعل الحقيقى ظاهرا فى عينيه؛ فصعب على والله يا خال فطيبت خاطره بأن أريته الولاعة. طارت عينه كالنسر وانقضت على الولاعة بركت فوقها جاحظة منبهرة منذهلة: «يا ابن الكا.. ل.. ب! جوهرة ثمينه لا تقدر بثمن!» وقبض عليها فى الحال بيديه فانضغط قلبى. صار يقلبها بتمعن يرسل اللعن

والاستحسان لدقائق طويلة كانت على شكل علبة مستطيلة مبططة ثمينة تحوطها اللآلئ من جميع الأنحاء على أرض من الذهب البندقى الأحمر اللمع وكنت قد عالجت فتحها برفق حتى عرفت كيف يقدح زنادها، وإنه لعجيبة من العجائب يا خال فكل ما عليك أن ترفع غطاءها، ولكن عليك الأول أن تعرف أين غطاؤها، إذ أنه مندمج فيها سائح عليها وليس من خط فاصل يشير إلى الغطاء، فالصبر مع الشد والجذب فى كل أضلاعها إذا بالغطاء شريحة رقيقة فى تخن قطعة الشكلاطة، لا بس فى بدن الولاعة باوصال خفية؛ ما إن تجذبه إلى أعلى حتى ترى الشعلة واقفة مزنهرة كأنها كانت قاعدة تحت الغطاء صاحية فإذ ينجاب عنها الغطاء تهب واقفة كجن الخاتم السحرى قائلة: لبيك ولقد ظلت ليلتذاك بطولها يا خال أفرج عن الشعلة ثم أغطيها حتى أحرقت خرطوشة سجائر. فلماكشفت سر اللعبة لبسبوسة ظل هو الآخر يفعلها بغير دوان كانه اكتشف سلوى جديدة رائعة صحت فيه: «احذر أن تفسدها يا بو العم أو ينفد ما لابد فى جوفها من غاز وحجارة! خير لنا أن نسلمها سليمة من كل عيب يا بسبوسة يا خوى!». واستطعت ذلك، بصنعة لطافة، بأن دحلبت يدى فقبضت على الولاعة وتاويتها فى جيبى، ثم ما لبثت حتى قمت إلى حجرة النوم فواريتها فى مكانها الخفى وعدت إلى بسبوسة، لأراه شاردا ساهما فى ملكوت الله ياخال..

جلست قبالته واضعا يدى على ركبتى كأننى أستحثه على النهوض لمغادرتى لكنه أشعل سيجارة وقال:

– « هذه بالفعل هدية ثمينة! ثمنها يعدينا جميعا من الفقر شرط أن تباع خارج البلاد!! على فكرة! أنا أعرف عددا كبيرا من تجار الآثار والعاديات بعضهم ذوو أسماء كبيرة فى شغل الصحافة ممن يسافرون كل يوم إلى بلد! جيوبهم عمرانة بالورق الثقيل! هم رجال بمعنى الكلمة! وخبراء يعرفون كيف يتصرفون فى مثل هذه الهدايا الأثرية الثمينة ! ولا يجيء من ورائهم لبط! إذا إنهم يعرفون طرق الأشياء!! يعرفون من الذى تنقصه هذه الهدية أو تلك فيذهبون بها إليه فى خطة مدروسة يبتزون بها ما يشاءون من قواه المادية! والأشياء تتسرب إلى من تليق بهم ويليقون بها! بصرف النظر عن مصدرها! فلن يسألك أحد من اين جئت بها! ولا يعنيه هذا! كل ما فى الأمر أن شخصية البائع هى التى تحدد قيمة الشيء ومستواه! فلو ذهبت أنت مثلا أيها الصعيدى القفل لبيعها فلربما طلبوا لك البوليس! غيرك ربما أعطوه فيها بضعة جنيهات وصرفوه! وهناك من يعجز نهائيا عن بيعها مهما كان مفتحا! وهناك من يستطيع بيعها فى غيبتها بالسعر الذى يشاء! المهم الشخصية! والشخصية تكشف الشخصية! يعنى لا أنت ولا أنا نستطيع الادعاء بأننا شخصيات مهمة! فالحوائط التى سننطح فيها ستضحك من صراخنا بعد أول نطحة!!»..

طب ما قولك يا خال أن ولد الفرطوس قد أثر على؟ تحلف اليمين إنه إبليس ونجح فى الدخول فى نخاشيشى! لكننى انتفضت فجأة ثم صحت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!»

فضحك ولد الفرطوس، وأخرج من جيبه قطعة حشيش! اتضح لى فى الحال أنه كان قد خنصرها خلسة من حشيشتى وسربها إلى جيبه، ثم شرع يفركها على دخان السيجارة قائلا: «دع المشيخة الآن بحق النبى!» صحت فيه مازحا: «تريد وضعنا فى تأبيدة يا بسبوسة؟!» وشوح قائلا: «على فكرة أنا استطيع تخليصك كخروج الشعرة من العجين! أنت أصلا فى السليم! ألم تذهب بها إلى محمد بك أبو شناف وتعرضها عليه؟! إذن فقد أصبح معروفا للجميع أنك كنت تبحث عن صاحب ولاعة ضائعة!». ثم استطرد: «سيسألك الحاج السنى: أين الولاعة التى عثرت عليها فى غرفة البرج يا حسن؟ تقول له بكل بساطة دون أى خوف: أخذها صاحبها يا حاج! صاحبها؟ صاحبها من يا ولد؟ هكذا سيقول لك! فتقول له: بينما كنت أعرضها قائلا يا من ضاع منه شئ ظهر لى أفندى فقال أنها ولاعته فأعطيتها له! سيجيئون لك بالأفندية يعرضونهم عليك! وأنت تستهبل! تزعم أن الأفندى ليس بينهم! فيعرفوا أنك وقعت ضحية نصاب! وأنا الذى سأتولى توزيع الأمانة فى السر ولا من شاف ولا من درى! فماذا قلت؟!»..

ولد الفرطوس لم يكن يمزح يا خال. تحلف اليمين أننى سمرت عينى فى عينيه بحثا عن ظل المزاح فلم أجد، ووجدت يا خال أن ما يشفى غليلى فيه أن أقوم فأضربه حتى يتخرشم ولا يعود يحادثنى فى مثل هذا الأمر ثانية: لكننى اكتفيت بأن قلت له: كلها مسائل عفنانة يا بسبوسة يا خوى!»، فبعبص الهواء قائلا فى استخفاف وزراية:

ـ « خذ!! إن ثمنها كما قلت لك يعيدنا من الفقر فى خبطة واحدة! إن ثمنها ليس ثمن ما فيها من ذهب حر! ولا ثمن الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت وماس! ولا ثمن الآلة الدقيقة الموجودة فى داخلها كل ذلك له ثمن أى نعم! ولكن لا تنس أنها منسَّبة! ولها تاريخ وأصل وفصل! وهذا له ثمن كبير! إننا يمكن أن نخبط فيها فوق العشرين ألفا! والتاجر يمكن أن يخبط فيها مائة ألف بالراحة! أنا أعرف رجلا من زبائن الحاج يدفع لنا فيها مثل هذاالمبلغ وأضمن أنه لا يأتى بسيرتنا فى أى حديث! إنه دائما يوصينى إن وقعت فى يدى مثل هذه التحف أن أخش بها عليه مباشرة!!»..

قلت وقد بدأت أرتعش خوف الوقوع فى الموافقة:» ربنا يغنيها بالحلال ياولد الفرطوس! حل عنى يا شيطان المدينة يا غليظ القلب! ما كنت أظنك واعرا هكذا!!» فقال بحماس شديد: «يا صعيدى يا وجه النحس! إن رجال الثورة الذين توزعوا فى كل مكان نهبوا البلاد وباعوا ما قدروا على نهبه! الآثار يبيعونها! مجوهرات العائلة المالكة يتصرفون فيها على راحتهم وكل يوم تظهر قطعة منها فى مكان ما من العالم!! ولا أحد يحقق مع أحد! هذه فرصتنا الكبرى! ومحمد بك أبو شناف لن يستطيع أن يفعل معك أى شئ! والبوليس إن تابعك فسيعرف أنك لا شأن لك إذ أنا المسئول فما خوفك؟!»..

سلطت عليه نظرة ثاقبة ذات معنى وقلت له: «بسبوسة! أتتكلم الجد أم تمزح؟! أم لعلك تريد الإيقاع بى فى شر أعمالى؟!».

قال بسبوسة: «أتكلم الجد طبعا! ولابد أن تطاوعنى الآن! فمن يدريك أن الحاج السنى أو محمد بك أبو شناف لم يبلغ الشرطة؟! وقد أخرج من هنا فيطب عليك البوليس من هنا ليأخذك بها متلبسا؟!» آلمتنى هذه الغمزة يا بوى، شعرت أنه يلوح مهددا بشئ كالذى قاله! فتضايقت منه يا خال، وأسرعت قائلا: «قبل مجىء البوليس تكون هذه الأمانة فى جيب صاحبها! وأحسن شئ تفعله الآن أن تتفضل من غير مطرود! فإن ورائى مشوارا مهما سأفعله قبل ذهابى إلى الحاج، ونهضت، فنهض على مضض شديد، ومضيت أمامه نحو الباب، فمضى فى تثاقل يكاد الغيظ يفريه: «مع السلامة يا بسبوسة! أشوفك عند الحاج بعد ساعة واحدة» ومددت يدى أسلم عليه، فمد يدا باردة متراخية؛ ظل ينظر لى برهة طويلة، ثم لوى شفتيه مشمئزا وانصرف. أغلقت الباب خلفه ونظرت من العين السحرية فرأيته يطرق باب الجيران فانتظرت حتى انفتح الباب وزرق هو إلى الداخل، فخرجت متسللا على أطراف أصابعى كى أسبقه إلى دار الحاج السنى ؛ فإذا بى أصطدم بسنيورة تبارك الخلاق فيما خلق، تفوح منها العطور الفاضحة وينكسب الجمال على كعبيها وردفيها وخصرها وعنقها ووجهها وجدائل شعرها الأسود الفاحم، المصيبة العظيمة أنها قالت لى: «أتصبح بالخير يا حسن!»، فكأن الدنيا بذاتها نطقت باسمى على نغم القيثار، وإذا أنا كطفل غرير أندفع صائحا: «يا ست صباح النور! أهلا ثم نزلت السلم أكاد أتعثر فى خجلى وحيرتى فيما هى تلوح لى بيدها مودعة.

يا مثبت العقل فى الدماغ يا رب! فالحاج السنى قد زعزع كل أبراج عقلى يا بوى - أقصد يا رب - وقد طيرها برجا وراء الآخر، إنه متخصص فى سرقة كله من كل أبراجى أنا الآخر، أقصد كل الأفكار فلا تعود إلى ثانية إذ تكون قد ولفت على أبراجه الشامخة التى تجتذب حمام البلاد كلها فإذا هى تولف عليها فلا تعود إلى أصحابها، حتى الحمام النادر الذى يبيعه للغاوين إليه ثانية. الحمام ليس عبيطا يا بوى! كيف يكون عبيطا وهو يرجع إلى مسكنه الأصلى فى وطنه مهما طالت به الأميال أو احتجزته الصحارى والوديان بأسرع مما يتخيل البشر؟ البنى آدم منا قد يتوه عن داره إذا شرب حجرين زيادة أو جرع قرعة بوظة، أما الحمام فلا يغترب أبدا، لابد أن يعود إلى بنانيه فى المساء كما يعود الفلاح بمواشيه إلى داره، تخيل يا بوى أن هذا الحمام يفهم مثلنا فى أمور الحياة، فمثلنا يكره الفقر يهفو إلى العز والنغنغة والعش اللين الطرى، طبعا يا خال، كل الطيور تصنع عشها بنفسها وتتفنن فى صنعه ولا أجدع مهندس، إلا الحمام فإنه من فرط الدلال والكبرياء الخارق يترك أمر عشه لمن يقع فى هواه لمن يغواه، متقنزح آخر قنزحة على قدر الهوى تكون الغية، والغية فى خيال الحمام قصر بلا حدود، وطيرك الذى يولف على غيرك منشؤه الحمام، والحمام سيد من يولف، إنه يموت فى الجماعة يا خال، كلما تزايد فى تجمع مهيب سعى كل فرد للانضمام إليه والالتحام به فى فخامة وشرف ليذهب به الركب الحافل المهيب إلى حيث تشاء طلائعه المتقدمة فى اختراق وشموخ وثقة إلى

هدف لاشك معلوم، إلى مسكن وديع أمين أليف بكثرة الجماعة يملاه بالهديل والغزل حتى يتكاثر ويتكاثر يصير نقوشاً ملائكية فى خيمة السماء. ما حيلة الأبراج الخربة إذا كان الحمام يهفو إلى العز وعزه فى التكاثر والتكاثر دينه وديدنه؟! لابد أن الحاج السنى فيه شئ لله لمس به أبراجه العالية هذه حتى أغرى حمام البر كله بالسكن فيها؟!

اقتادنى خادم إلى بناية بعيدة خلف الدار الكبيرة كأنها ضريح الحسين مضروباً فى عشرين ضعفاً. قل يا بوى إنه مجمع أضرحة فخيمة المنظر ترتفع قبابها وتضيق شيئًا فشيئًا حتى تصير كالمئذنة تشق السحاب، تطل على حوش واسع دائرى، والأبراج والأضرحة ملتحمة كلها ببعضها وإن استقل كل واحد منها مجسداً بكل أضلاعه، فلما صرت فى قلب هذا الحوش خيل لى أننى فى قلب برج هائل خرافى وإذ رفعت رأسى إلى أعلى شعرت بدوخة عظيمة وخيل لى أننى غاطس فى قلب الأرض إلى أعماق بعيدة. عدلت نفسى متطوحاً أتساند على الهواء فرأيتنى وحدى وقد اختفى الخادم شعرت بخوف مفاجئ يا خال، داهمنى شعور كالذى يعترى من يجد نفسه فجأة فى قلب مقبرة. كانت الأبراج السبعة الملتحمة ببعضها فى دائرة محكمة حول نفسها قد دورت لنفسها سقفاً من السماء على قدها، تلقى على فراغ الحوش آلافاً من العيون المفتحة فى صفوف دائرية من الأرض إلى السقف لا تتناهى، ورمادية، تفصل بينها وبين بعضها شرائح من

الجدران البيضاء كأنها الجفون التى توشك أن تنسدل. ما إن يسود الهدوء الساكن برهة إلا وتشرخه انطلاقة فرخ من إحدى العيون كرصاصة مدفع، فى الحال يتبعه فرخ آخر، سرعان ما تستجيب لندائهما أفراخ أخرى كثيرة تندفع من العيون السامقة، ليلتئم شمل الجماعة على ناصية الهواء المتاخم. ولقد يؤدى رقصة سريعة خاطفة، تتقارب الرءوس تتشاور لتنسلك فى رحلة بعيدة، فيعم الهدوء لبرهة تبدو من عمقها دهراً.

ـ « أنت يا.. هوه! ماذا تفعل عندك؟ ما وقوفك كاللوح؟!».. كان الخادم واقفا فى باب صغير قمىء. صحت فيه:

ـ « أين أنت يا جدع؟ لقد اختفيت من أمامى!»..

أشار خلفه إلى عمق الباب:

ـ « قلت إنك تريد لقاء الحاج! ها هو ذا الحاج ينتظرك فادخل» هرولت نحوه، فإذا بالباب الذى كان يبدو من بعيد كباب الخن قد استطال، وإذا هو باب أحد الابراج، وإذا هو من الداخل دائرة كبيرة تطل على حوش مثل الذى كنت واقفا فيه؛ وإذا جدران دائرية كلها عيون لا حصر لها من الأرض صعدا إلى عنان السماء، وقضبان حديدية تنتظم بعضها البعض فى صفوف متجاورة متقابلة متعاكسة معا تتصل بقضبان عمودية غاطسة فى الأرض تتفرع منها دوائر حديدية بشباك نحو العلو الشاهق بحيث يستطيع أى إنسان أن يصعد بكل راحة وسلام وأمان لتتمكن يده من الدخول فى العين للحصيد، حصيد الفراخ أو زبل الحمام الذى

هو أغلى من الفراخ نفسها عند من يسمدون به أراضى البطيخ، هذه مملكة أخرى يا بوى ولسوف أنقلها عن الحاج أحمد نور الدين السنى..

كان مندمجا بنفسه فى تنظيف الأعين، وملاعبة الحمام وإغرائه بالمجىء إليه ناثرا أمامه بعض حبوب الدنيبة، إذ هو يعرف أن الحمام يتكفل بكسب قوته بعرق جبينه حيث يسعى إليه زرافات زرافات ولو فى أقاصى الأرض البعيدة قال حين رأنى تسمرت فى مكانى كالأبله منذهلا بإمبراطورية الحمام هذه:

ـ « أين كنت يا ولد يا عكروت؟! لم نرك من زمن!»..

ـ « مشاغل والله يا حاج!».

ـ « آمر! أى خدمة؟!».

ـ « آمر أنت يا حاج! ألست تسأل عنى؟!»

ـ « أسأل عنك فى كل وقت! ولكن ما الذى فكرك بى الآن؟!»

ـ « فرغت من انشغالى فجئت!».

قال كأنه يطردنى بصنعة لطافة:

ـ « شرفت وانست! لكنى الآن مشغول كما ترى! على كل حال سأفرغ من هذه المشغولية بعد غد فى مدخل الليل! فحاول أن تجىء! لك الآن أن تشرب الشاى فى استراحة البوابة الكبيرة أو تتغدى إن أحببت! اطلب من الولد ما تشاء فى سبيل أن تعذرنى على انشغالى عنك الآن!»..

ـ « تشكرا تشكرا لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكلك كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكنى قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بعثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تمتإلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق